الأسماء الحسنى

تجلّيات وأدعِية

بقلم : عبد السّلام محمّد بدوى



دار المعارف

الأسماء الحسنى

تجلّيات وأدعية

عبد السّلام محمّد بدوي

الأسماء الحسنى

تجلّيات وأدعية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا »

قرآن كريم

إهداء

إلى المتمسكين بعروة الله الوثقى وحبله المتين...

إلى الذين لم تفتنهم الدنيا بزخرفها وزينتها...

إلى الذين باعوا الله أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

أقدم حديثا رواه الإمام الترمذى وابن ماجه.. عن أبي هريرة. رضى الله عنه - قال - قال رسول الله ﷺ «إن لله عز وجل تسعة وتسعين اسما - مائة إلاّ واحد إنه وتر يحب الوتر - من أحصاها دخل الجنة».

وقال ﷺ «ما أصاب أحدًا هم ولا حزن ... فقال: اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك.. ماضٍ فىّ حكمك.. عدلٌ فىّ قضاؤك.. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك.. أو أنزلته فى كتابك.. أوعلمته أحدًا من خلقك.. أواستأثرت به فى علم الغيب عندك.... أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى.. ونور بصرى... وجلاء حزنى... وذهاب همى آمين.. إلاّ أذهب الله عز وجل همّه وحزنه.. وأبدل مكانه فرجًا».

كما أقدم إليهم أمرا صادرا من صاحب العرش الأعلى.. إلى نبّيه وحبيبه وصفوته المبعوث رحمة للعالمين: هو والذين معه على صراط الهدى والنور: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادْعوه بها﴾[1] فخير الدعاء كامن فى الأسماء.. وأسماء الله تعالى.. أشبه بمستودع ضخم فيه كل أنواع العلاج الروحي والمادى - ولله المثل الأعلى - ولكن اختيار نوع العلاج يحتاج إلى خبرة فنية.. ودراية حكيمة. وإلاّ كانت نتيجة العلاج عكسية الأثر... حيث لا يجوز استعمال «صبغة اليود» «قطرة» لعلاج أمراض العيون.

ومن أجل هذا أقدم هذا البحث فى الصفات والأسماء الحسنى، وكل اسم منها أشبه بماسة كبيرة متعددة الزوايا والأضلاع.. تعطى كل زاوية شعاعا من أشعة الطيف.. فإذا نظرت إليها جميعا بهرت بصرك بسناها الأخّاذ فلا تدرى من أيها تأخذ.

وقدمت بين يدى الأسماء بحثا مبسطا حول الصفات، لأن معرفة صفات الله تعالى: أول خطوة من خطوات الإيمان.

وبين يدى الصفات والأسماء.. أقدم روحي وقلبى.. قطرات من الدمع الهتون متمثلا كامل الخوف والخشوع.. وقمة الرهبة والخضوع.. كى يتقبلها ربى.. خالصة من قلبى.. لا أبتغى من ورائها إلاّ متعة النظر إلى وجهه الكريم..

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾[2]

عبد السلام محمد بدوى

ميت عساس / غربية

غرة رمضان ١٤٠٤

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ١٨٠.

(٢) سورة الشعراء الآية ٨٨ والآية ٨٩.

تقديم

الحمد لله الذى بدئ منه الحمد.. وإليه المرجع والمآب.. ونصلى ونسلم على رسول الأولين والآخرين.. إمام النبيين وسيد الأحباب.. المبعوث رحمة للعالمين.. وعلى آله وأصحابه أجمعين – وبعد.

فإن حكمة الله تعالى – واضحة فى قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه﴾[1] فقد علم سبحانه – أن لكل نفس منهاجًا إليه وأن عِلَلًا تطرأ على هذه النفس تختلف فى مظاهرها وظواهرها وأعراضها فجعل لكل منها ما يناسبه من الأسماء.

فإذا حلّ العبد بمرحلة من مراحل الحياة أو حَلَّتْ به.. تخير من الأسماء ما يلائم تلك المرحلة ويناسبها.. فدعا الله تعالى بالاسم أو الأسماء المناسبة الموائمة للموقف الذى هو به.. أو الأمر الذى هو بسبيله.

وهذا يلاحظ بوضوح فى التسبيح المجرد. المقترن بالتوحيد المجرد.. عندما نادى يونس – عليه السلام – وهو فى الظلمات: ظلمة بطن الحوت. وظلمة البحر.. وظلمة الليل.. وظلمات النفس الخاطئة أشد.. فقال: ﴿لا إلـه إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾[2] حيث رأى أن يبدأ بكلمة التوحيد.. ليدخل بها أوّلًا فى سجلّ المؤمنين.. ثم بعد ذلك قرر أنه كان ظالما عندما كان فى المغاضبة: ﴿وذا النون إذ ذهبَ مغاضبا﴾[3] وجعل هذا الاعتراف بالذنب تقريرًا للتسبيح المطلق.. الذى بدأ به بعد إعلان كلمة التوحيد ﴿لا إله إلّا أنت﴾.. لأن معنى ﴿سبحانك﴾ تنزيه الله تعالى بهذا المصدر من الوقوع فى الأخطاء والمظالم التى هى من شأن بنى الإنسان.. والله تعالى هو الذىَ يقول: ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾[4] فاعتذر بضعفه عن خطئه.. مُسبّحًا اسم الذى تنزّه عن الخطأ.

وما كان خطأ يونس – عليه السلام – إلّا عن ضعف اعترى صفة الصبر فيه فحدَّد على قومه موعدا لنزول العقاب بهم.. وأنذرهم بنزول نار تأكل الأخضر واليابس.. وكان هذا منه – عليه السلام – تجاوزا لحد الرسالة.. مع حسن الظن والنية.. وسلامة السريرة والطوية.. وإنما قلنا عن حسن ظنه طباقا لقوله تعالى ﴿فظنّ أن لن نقدر عليه﴾[5] أى أنه ظن أن الله تعالى – برأفته ورحمته.. وخفىّ لُطفه لن يضيق عليه.. مهما ظهر من عدم صبره وتبرُّمه بقومه ومغاضبته لهم.. أو مغاضبته لنفسه.. لعدم صبرها.

ومن هنا نَشْرُف على قوة صَبر النبى ﷺ وملاحظته الأسماء.. فى مختلف الأحوال. فقد سمعناه – ﷺ – فى مقاومة الكرب يقول: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى تدبير نفسى

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٧.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٨٧.
(٤) سورة النساء الآية ٢٨.
(٥) سورة الأنبياء الآية ٨٧.

طرفة عين.. أصلح لى شأنى كله.. «لا إلـه إلّا أنت» حيث بدأ يطلب الرحمة رجاءً.. ثم قرر عدم صلاحية النفس للتدبير فطلب ألّا يكله إليها طرفة عين.

ثم رأى أنها بشئونها المختلفة معرضة للخطأ.. فقال: «وأصلح لى شأنى كله».

ثم ختم بإعلان التوحيد.. حيث قال ما بدأ به يونس عليه السلام: «لا إلـه إلا أنت».

ولقد زاد ﷺ.. فى الطائف بذكر ضعفه.. مع قلة حيلته.. وهوانه على الناس.

ثم يلوذ بأرحم الراحمين لمناسبة الرحمة لموقفه تماما.. فيقول ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس.. يا أرحم الراحمين».

ثم يردف بذكر الاستضعاف والمستضعفين. مستجيرا بالربوبية القادرة.. فيعاتب ربه بقوله ﷺ: «أنت رب المستضعفين وأنت ربى.. إلى من تكلُنى..».

ثم يشير إلى أعدائه وأعداء دعوته بقوله: «إلى بعيد يتجهمنى» ويعبس فى وجهى.. كأهل الطائف «أم إلى عدو ملّكته أمرى» يعنى بهذا أبا جهل.. رئيس ندوة قريش.

ثم يبدو فدائيا باسلا.. عندما قال ﷺ: «إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى».

ثم يطمع فى الحياة والقوة والعافية.. لإبلاغ الرسالة فيستدرك: «ولكن عافيتك أوسع لى».

ثم يلجأ فى فزع إلى الاسم – النور – لمقاومة الظلمات بقوله ﷺ: «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات.. وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.. أن يحلّ بى غضبك.. أو ينزل علىّ سخطك» ثم يعلن الرضا المطلق.. مختتما هذا الدعاء الجامع.. بقوله «لك العتبى حتى ترضى».. ثم يتجرد فيقول: «ولا حول ولا قوة إلا بك».

ومهما يكن للمرء جهد وحيلة ... فمرجعه لله – وهو قديرُ
إذا لم يكن بالمستعان مؤيَّدًا ... فأى مُمِدٍّ بعد ذاك يصيرُ
فلا غرو نادى مرجعَ الأمرِ كله ... ومن هو للمستضعفين نصيرُ
فأنزلَ جبريلَ الأمينَ مبشرا ... لمن هو بالذكر الحكيم بشيرُ
ليعرض أمر الخسف إن شاءه لهم ... وكيف يشاء الخسفَ وهو صبورُ
فيارحماء الكون إن محمدا ... عليم بأطواء النفوس خبيرُ
وإن شياطين الضلالة للهدى ... قعُود.. وعمر الشرك فيه قصير
فكان هُدًى أن يسأل الله عفوه ... عن الناس.. والفتح المبين ظهير
ألم يَكُ هذا رحمة الله للورى ... وإن جدَّ طاغ أو ألحَّ كفور
ويطمع فى التوحيد وهو مؤمل ... وكم جدَّ من بعد الأمور أمور

* * *

وجدير بالملاحظة أن نجعل من دعوات النبى – ﷺ – درسا فى اختيار الأسماء الإلهية.. ليختار كل منا من الأسماء ما يناسب حاله.. ويحقق آماله.. ويزيل أوحاله.. ويقيم أحواله.

ومن أجل ذلك شرحنا مضامين الأسماء الإيجابية والسلبية والذاتية..

ونحن مأمورون بالنص أن ندعو الله بها.. مبتدئين باسم الذات: - الله - ثم الاسم المتعلق بالعرش. الذى له الحكم وحق التوجيه.. وهو اسم - الرحمن -: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾(٦).

* * *

وسوف نرى أن الأسماء: المنتقم.. والجبار.. والقهار.. هى وأمثالها.. تعتبر من الأسماء الحسنى لأنه متى كان الانتقام والجبروت والقهر فى ظلال اسمى: العدل والحكيم.. فهو فعل حسن.. لأنه تأييدٌ للرحمة.. ووقفٌ لتيار اللعنة.. ومن ثم يكون قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ شاملا لجميع الأسماء التسعة والتسعين.. التى جاء بها الإذن من المشرِّع نفسه - صلوات الله وتسليماته عليه - على أنها أسماء الإحصاء.. وليست هى كل الأسماء.. وإلاَّ فالأسماء الإلهية فوق الألفين.. كما ورد ذلك فى كثير من الروايات .

فعلى العبد المظلوم.. أن يدعو باسم: الله.. العدل..
وعلى المقهور.. أن يدعو باسم: القهار.. أو القاهر..
وعلى المريض.. أن يدعو باسم: الرحيم.. والرءوف..
وعلى الفقير المحتاج.. أن يدعو باسم: الرزاق والفتاح والكريم والوهاب.

وهكذا على اختلاف الأحوال.. مطابقة مع اختلاف الأسماء. وهذا هو سر الاختلاف الأسمائى.. لاختلاف أحوال الداعين.. ومقاماتهم عند الله رب العالمين.

فالإنسان فى دنياه هذه.. عابر سبيل.. يقوم برحلته فيها إلى البرزخ الموصل إلى المستقرِ الدائم.. الذى لابدّ منه.. محكوما فى هذه الدنيا بالنواميس الكونية.. فى كل خطوآته وأحواله.. وفراسخُه الأيام والليالى.. تختلف عليه تجليات الأسماء.. مثل: القابض والباسط.. والفرق بينهما واضح.

فهذا العبد الواقع فى تجلّيات الاسم - القابض - مأمور أن يلجأ إلى الاسم - الباسط - وهذا الالتجاء إنما جاء نتيجة لما وقع عليه من الاسم - القابض - من عسر وألم.

فالعسر والألم يدفعانه إلى التضرع والالتجاء إلى الاسم المضاد وهو - الباسط - كما يلجأ صاحب الحريق إلى الماء الذى يطفئ هذا الحريق.. فهو تحت تأثير الحرارة النارية.. مدفوع تلقائيا إلى ما يضاد النار ويطفئ ثورتها.

فكذلك على الإنسان أن يلاحظ مكانه من التجليات الأسمائية ليتوجه إلى ما يلائم ذلك المكان من عسر أو يسر.. أو قبض أو بسط.. أو مرض أو شفاء.. فهو عند العسر يطلب المعونة والكفاية.. وللكفاية أسماؤها.. وعند الغواية والانحراف يطلب الهداية.. وللهداية أسماؤها كذلك.

والعارف يؤتيه الله الحكمة.. والحكمة فى الغالب دقّة الملاحظة لطبائع الأشياء.. واختلاف الأحوال.. واليقين من وحدة المتجلِّى - سبحانه - مع اختلاف التجليات.

وبهذا اليقين.. يستفيد العارف انتفاء الرجفة.. وثبات السكينة عند حلول الخطوب ﴿ألا بذكر الله

---

(٦) سورة الإسراء الآية ١١٠.

تطمئن القلوب﴾[7]. راضيا بالقضاء والقدر.. يلزم نفسه معتذرا إلى مولاه فيما يتورط فيه.. مما ينكره ضميره ويأباه.. مستمسكا بعروة الحمد الوثقى.. على كل ما يمرّ به من مختلف الشئون والشجون.

وهذا هو مقام الصدِّيقين.. الذى لا يبلغه إلاّ من صحّت نيّته.. وطهرت فى سبيل الله سريرته.. ونفذت خلال الأيام والأحوال والبدايات والنهايات بصيرته.. وهنا تتجلى للبصائر بصورة باسمة.. لسعيها راضية.. صورة أبى بكر الصدّيق. فقد كانت حوله الأحداث تزلزل الجبال.. وتعصف بعزائم الرجال.. وكان هو السبّاق بالروح والمال:

ولو لم يكن فى كفِّه غير نفسه لجاد بها.. فليتّق الله سائلُه
ولو لم تكن تبدو أواخر أمره فقد صدقت - فيما تجلى - أوائله

فقد كان - رضى الله عنه - مجلى صافيا.. ومرآة مصقولة.. تجلّت فيها مزايا محمد - ﷺ - إمام الصابرين.. ورسول الأولين والآخرين.. حينما كانت الأهوال.. والليالى الطوال.. تمزُّق بمكمن الرحمة.. ومنزل النعمة.. فى دار الأرقم بن أبى الأرقم.. ينهاهم نادى قريش عن الصلاة.. ويمنعهم من الاقتراب من بيت الله.. وكأنما التوحيد جريمة.. ودعوة الحق سخيمة.. تغلى بها قدور.. وتفور بها صدور.. ولكنها صدور لم يعمرها الإيمان.. فهم صمٌّ وبكم وعميان.

فقدِّرْ بربك المأساة.. وكلمة المواساة.. حول هؤلاء الأبرار.. المصطفين الأخيار.. وهم كما يقول شاعر أهل البيت.. الكميت بن زيد:

يصول علىَّ الجاهلون فأعتلى ويعجم فىَّ القائلون فأعرب
يرون احتبالى غصّةً.. ويزيدهم لواعجَ ضِغْنٍ.. أننى لست أغضب

لقد كان الحلمُ شعارَهم.. والوقارُ إزارَهم.. والصبرُ حليتَهم.. والعفوُ شيمتَهم.. وما كان ذلك إلاّ لأنهم استمسكوا دائما بعروة الحمد.. وسرعة المآب إلى الله فى الخطأ والعَمْد.. لاستغراقهم فى شهود آياته.. على طلائع بيناته.. والعذاب من أجلها عندهم عَذْب.

أقاموا على التوحيد صرحا ممرَّدًا من الروح فى نور المعانى الخوالد
ولاذوا به فى كل خطْب ومحنة برضوان محمود.. وإيمان حامد
فلا أى حرف يعبدون لأجله ولا عزِّ مولود.. وعزة والد
ولا شهوات النفس فى مترف الغنَى وعابد مال عارض.. ثم بائد
ولكن لوجه الله.. والله حَسْبُهم معينا لهم.. ما بين قلب وساعد
فليس سوى الرحمن - جل جلاله - تَعِلَّةَ قلب الناسك المتعبد
لهم من تجلى الحسن قرة أعين كما شهدت مجلى السَّنا أمُّ مَعْبد

هذا هو المقام الذى يتوق إليه أصحاب الهمم العالية.. والمقاصد السامية.. والأهداف النبيلة..

والصدّيقون أنفسهم.. تتفاوت مراتبهم بتفاوت بلائهم فى سبيل الحق.. فأساهم أحسنهم بلاءً.. وأصدقهم ولاءً.. وهكذا: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[8] فلا يتساوى

---

(7) سورة الرعد الآية ٢٨.

(8) سورة المجادلة الآية ١١.

مقام شهيد جاهل ومقام شهيد عالم.. لقوله تعالى: ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[٩].

ولكن هؤلاء الذين لا يعلمون فى الدنيا.. فازوا بالعلم فى دار الشهداء.. والعلماء من الشهداء.. ازدادوا على علومهم علوما.. وعلى سموهم سموًّا: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[١٠]، ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسنًا﴾[١١].

هذا هو الحق الذى لا يتسع لجدل أو مراء.. وكفى بنا ياأخى أن نرشدك إلى منهج المناسبة بين حال الداعى وتجليات الأسماء المختلفة.. ليتخذ الداعى مولاه عنه وكيلا.. فى كل اتجاه.. وفى كل حال.. فإن ملاحظة وكالة الله تعالى وولايته فى كل أمر هى أحكم منهاج.. لا نزيدك عنه دليلا.. أكثر من قوله تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا﴾[١٢].

فجعل – سبحانه – المحصل الكلى من التوراه.. هو توثيق عروة الولاية العامة لذاته – تعالى – واتخاذه وكيلا.

كما كانت الوكالة مفتاح النصر يوم بدر.. عندما كان الكفار يحاولون إرعاد فرائص المؤمنين.. بقولهم لهم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾[١٣].. فماذا حصل؟ ﴿فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[١٣].

نعم يا أخى المؤمن.. هذا خير دليل: ﴿والله يقول الحق وهو يهدى السبيل﴾[١٤].

* * *

---

(٩) سورة الزمر الآية ٩.
(١٠) سورة مريم الآية ٧٦.
(١١) سورة الشورى الآية ٢٣.
(١٢) سورة الإسراء الآية ٢.
(١٣) سورة آل عمران الآية ١٧٣.
(١٤) سورة الأحزاب الآية ٤.

مقدمة حول صفات الله تعالى

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين.. وجعله إماما للنبيين وخاتما للمرسلين.. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعـد

فقد سألت أستاذى عن أول درجات الإيمان.. فقال:

إن أركان الإيمان ستة.. هى:

الإيمان بالله.. وملائكته.. وكتبه.. ورسله.. واليوم الآخر. والإيمان بالقدر. وليس كل مسلم مؤمنا.. لقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾[1].

ونحن بوصف كوننا عبادًا لله.. فمن صالحنا أن تكون العلاقة بيننا وبين ربنا وبارئنا علاقة قائمة على الإيمان به – سبحانه – والإيمان به هو أول ركن من أركان الإيمان.

على أنه ليس من الممكن أن تكون ذاته – سبحانه – موضوعا للعلم فإن هذه الذات لا تعرَّف بالماهية.. ولا الحدّ العقلى.. لأنها ذات مطلقة.. حتى إذا قلنا مطلقة.. فإنها أيضا مطلقة حتى عن قيد الإطلاق.. لأنه لايمكن للعبد أن يصدر حكما ما على ذات الله – سبحانه وتعالى – لعجز العقل عن الوصول إلى تعريفٍ ﴿سبحان ربك رب العزة عمّا يَصِفُونَ﴾[2].

فإذا قلنا إنه يجب أن تكون العلاقة بيننا وبين ربنا علاقة قائمة على المعرفة بما يليق به تعالى من الصفات.. وما يستحيل عليه منها فما ذلك إلا لتكون عبادتنا مبنية على أساس تلك المعرفة.. إذ لا معنى لعبادة تقوم على غير علم ومن هنا يقول الله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[3].

والعلم الذى بيّنه سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[4] هذا العلم يتجه إلى صفاته – جل شأنه – الواجبة له وجوبًا ذاتيا.. ومعرفة أضدادها التى تستحيل عليه – سبحانه.

قلت: وما هى تلك الصفات التى يجب العلم بها؟..

قال: هذه الصفات انتهى العلماء إلى أنها عشرون صفة.. والسبع الأخيرة منها تسمى بالصفات الكونية[5].. أى الصفات التى لها اتصال بالكون والكائنات.. وهذه الصفات العشرون هى:

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٢) سورة الصافات الآية ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨.

(٤) سورة محمد الآية ١٩.

(٥) الصفات ذاتية وكونية.

١ - الوجود	وضدها	العدم
٢ - القِدم	وضدها	الحدوث
٣ - البقاء	وضدها	الفناء
٤ - مخالفته تعالى للحوادث	وضدها	المماثلة للحوادث
٥ - قيامه تعالى بنفسه	وضدها	الاحتياج إلى محلٍّ أو مخصص
٦ - الوحدانية	وضدها	التعدد
٧ - القدرة	وضدها	العجز
٨ - الإرادة	وضدها	الإكراه
٩ - العلم	وضدها	الجهل
١٠ - الحياة	وضدها	الموت
١١ - السمع	وضدها	الصمم
١٢ - البصر	وضدها	العمى
١٣ - الكلام	وضدها	البكم

وتليها الصفات الكونية السبع.. وهى تتعلق بالكون والمكونات.. تعلقا بغير انقطاع ولا تعطيل.. وإنما هى أبدا سرمدا.. وبلا نهاية وهى:

١٤ - كونه تعالى قادرًا	ويستحيل أن يكون عاجزًا
١٥ - كونه تعالى مريدًا	ويستحيل أن يكون مكرهًا
١٦ - كونه تعالى عالمًا	ويستحيل أن يكون جاهلًا
١٧ - كونه تعالى حيًّا	ويستحيل أن يكون ميتًا
١٨ - كونه تعالى سميعًا	ويستحيل أن يكون أصمًّا
١٩ - كونه تعالى بصيرًا	ويستحيل أن يكون أعمى
٢٠ - كونه تعالى متكلمًا	ويستحيل أن يكون أبكمًا

ومعنى البكم هنا عدم القدرة على الخلق والإبداع والتكوين وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا.

قلت: هل من الممكن أن نُلمّ إلمامة خفيفة بكل صفة من هذه الصفات؟

قال: نعم إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.
(٢) سورة آل عمران الآية ٢.
(٣) سورة الأنعام الآية ٦٠.
(٤) سورة الزمر الآية ٤٢.

صفاتُ اللهِ تعالیٰ

١ - الوجود

الوجود صفة قديمة.. قائمة بذاته تعالى.. وهى أولى الصفات الذاتية.. بل يقول المتكلمون إنها أوحد الصفات الذاتية.

وصفة الوجود إلهية.. لا شريك له فيها.. فإذا نظرنا إلى المبادئ العقلية نجد أن صفة الوجود.. واجبة له تعالى.. أما صفة الوجود بالنسبة للإنسان أو الأشياء.. فهى جائزة لا واجبة.. لأن ما يمكن تصور وجوده وعدمه على السواء لن يكون واجبا للوجود أصلا.

فواجب الوجود هو مانح الوجود لمن شاء بما شاء.. وهو وحده مالك الوجود وما ظهر من مظاهر قدرته.. يكون هو سبحانه - القائم به.. ومن ثم نفهم معنى قوله تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[١] وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾[٢] والقيوم صفة مبالغة من قائم.

فالله سبحانه.. هو واجب الوجود.. وكل ما سواه ممكن الوجود.. لنفى الاشتراك فى الصفة الذاتية.. ومن هنا يقول الشاعر:

من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده - لولاه - عينُ محال

ولنضرب لذلك مثلا:

يقول تعالى: ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه﴾[٣]، ويقول أيضًا: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[٤].

ومعنى هذا أن الإنسان لا يملك وجود نفسه.. بل هو ممكن سلبه إياه.. دون الرجوع إلى رأيه.. وانتظار مشيئته.. فإن المرء ينام مرغما.. والنوم أخ الموت.. وهو وفاة بنص الآيتين السابقتين.

وبذلك يتضح تماما.. من هو صاحب صفة الوجود الواجبة سبحانه وتعالى فهو إذن واجب الوجود.. وكل ما سواه ممكن الوجود.. لنفى الاشتراك فى الصفة الذاتية.

والوجود الواجب.. ليس مسبوقا بعدم.. وكل وجود مسبوق بعدم.. هو وجود ممكن لا واجب.. وفى هذا قال الشاعر.. على صورة إشكال:

إن قلتَ بأنك موجود ... فوجودك مسبوق بعدم

أو قلتَ بأنك معدوم ... فعجيب «عدم» يتكلمْ

وحاصل هذا التعيين المسبوق بعدم.. يكون قد طرأ عليه الوجود من الخارج لا من ذاته.. وهذا الذى أوجده بعد عدمه.. هو الله تعالى واجب الوجود فلا وجود بحق سواه.. ولا معبود بصدق غيره.

قلت: هذا عن صفة الوجود.. فماذا عن صفة القدم؟

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الأنعام الآية ٦٠.

(٤) سورة الزمر الآية ٤٢.

٢ - القــدم

قال: هى أنه تعالى قديم لا سابق له.. والقِدم نوعان:
قدم مطلق أزلى .. وقدم نسبى حادث.
فالأول: هو قدم الله تعالى.. إذ لا أوّل للأول.. ولا آخر للآخر.
والقدم الثانى: كقدم ثوبك القديم على ثوبك الجديد.

وترتبط صفة القدم بالأولية.. كما ترتبط الصفة التالية.. وهى البقاء. بالآخرية.. فهو تعالى قديم أزلى.. باق أبدى سرمدى.

والقدم معناه الأزلية.. يعنى عدم الأولية.. وهى صفة لله تعالى وحده.

أما القدم النسبى.. فهو للكائنات التى يجرى عليها حكم الزمانية والجسمية. وللجسمية المكان.. ويقال فيه: أين؟.. والزمان ويقال فيه: متى؟ والقديم - سبحانه - منزه عن كل من الزمان والمكان.. لتنزهه عن الجسمية.. وبالتالى لا يسأل عنه بكيف؟ لعدم الكيفية.. ولا بالانفعال.. لأنه سبحانه لاينفعل لمخالفته تعالى للحوادث.

وصفة القدم يقابلها صفة البقاء.. فالقديم الأزلى باق أبدى.. وحيث أنه فوق الزمان والمكان.. فالأزلية والأبدية.. والأولية والآخرية.. اعتباريان نسبيان.. وهو تعالى منزه عن النسب والاعتبارات.. فالأول هو الآخر.. والباطن هو الظاهر.. فلزمت الوحدانية المطلقة حتى عن قيد الإطلاق.

وقد قال بعضهم عَوْدًا إلى تقرير الوجود.

هـذا الوجـود وإن تعدد ظـاهرًا ... وحَـيَـاتِكم مـا فيـه إلاّ أنـتمُ
أنتم حقيقـة كـل مـوجـود بـدا ... ووجـود تلك الكـائنـات تـوهُّمُ

ولكن هذا الشاعر أغرق.. وشطحت به نشوته.. لأن وجود تلك الكائنات لا يكون توهمًا.. فإن قيام واجب الوجود - سبحانه - بالموجودات الممكنة.. إنما يعتبر تجليًا من صاحب صفة الوجود.. والصفة ليست عينًا للموصوف.. ولا غيرًا له.. وهذا هو شأن التجلى.

قلت: هل أطمع فى ضرب مثل يقرّب هذا المعنى؟

قال: المصباح (أ). والشعاع (ب). والسطح الذى يقع عليه الشعاع (جـ). إن انبساط الشعاع ب - الصادر من المصباح أ - على السطح جـ - يؤكد لنا أن هذا الشعاع المنبسط على سطح المجلى.. ليس هو عين المصباح.. ولا هو غيرًا له.. إذ لو كان الشعاع هو عين المصباح.. لتأثر المصباح بضربنا للشعاع.. ولو كان غيرًا له لبقى الشعاع على السطح بعد زوال المصباح.. وهو محال.. فلزم أن نقول إن الشعاع ب - ليس عينًا للمصباح أ - ولا غيرًا له بل إن الشعاع هو تجلى المصباح.

والكون كله من تجليات الحق المبين.. وهو لا عينٌ له.. ولا غيرٌ له.

قلت: هذا عن صفة القدم.. فماذا عن صفة البقاء؟

* * *

٣ - البقاء

قال: يقابل صفة القدم.. ماتقتضيه صفة البقاء اقتضاء ذاتيا.

ومعنى صفة البقاء.. أن القديم الأزلى.. هو الباقى الأبدى.. وهى صفة تنفى النهاية.. فلا نهاية له.. كما تنفى صفة القدم البداية.. فلا بداية له.. وعليه يتبين قوله تعالى فى سورة الحديد: ﴿هو الأول والآخر﴾. كما أشرنا من قبل.. عندما بينّا أن الأولية والآخرية.. أو الأزلية والأبدية.. اعتبارات تقديرية.

قلت: هذا عن صفة البقاء. فماذا عن الصفة الرابعة: مخالفته تعالى للحوادث؟

٤ - مخالفته تعالى للحوادث

قال: المقصود بالمخالفة: عدم المماثلة.. والمقصود بالحوادث: الكائنات.. لأنها لا تتصف بصفة القدم.. فالحدوث ضد القدم.. فكل كائن حادث.. لأنه لم يكن موجودًا من قبل حدوثه.. وعليه فكل صفة من صفات الحادث.. يتعالى عنها القديم - سبحانه وتعالى - مشابهةً أو مماثلةً.. وكل صفة من صفات البارئ عز وجل - لا شبيه له فيها ولا مثيل.

قلت: هل يوجد مَثَل عن هذا المعنى؟

قال: علم الإنسان طارئ عليه.. مزيل لجهله.. ولكن علم الله تعالى ليس كذلك.

وكتابة الإنسان إنما هى رسم حروف اصطلاحية بالمداد والقرطاس.. والله تعالى ليس كذلك عندما يقول: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[٥] وقوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾[٦] وقوله: ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر﴾[٧]... إلخ. كل ذلك منزه عن الحرف والمداد والقرطاس والقلم.. والأصابع التى تحمل القلم... ذلك لأن البارئ - جل شأنه - منزه عن الجسمية.. وهو مخالف للحوادث فى ذات الجسمية أيضًا.

وكذلك فى صفة البصر.. فإنه تعالى لا ينظر بالحدقتين.. وفى صفة السمع.. فإنه لا يسمع بالأذنين.

وعلى هذا تقوم صفة المخالفة فى جميع الصفات والاعتبارات.. فهل فهمت؟

قلت: نعم.. فماذا عن الصفة الخامسة.. وهى قيامه تعالى بنفسه؟

٥ - قيامه بنفسه

قال: كل ماسواه قائم به.. مفتقر إليه.. معتمد عليه فى ذاته ووجوده.. وهو سبحانه - قائم بذاته.. لا يستند إلى شىء.. ولا يعتمد على شىء سواه.. فهو الحى القيوم.. وهو القائم على كل نفس.

قلت: هذا واضح لا يحتاج إلى شرح.. فهل ننتقل إلى الصفة السادسة الوحدانية؟

(٥) سورة الأنعام آية ٥٤.
(٦) سورة الأنفال آية ٦٨.
(٧) سورة الأنبياء آية ١٠٥.

٦ – الوحدانية

قال إن وحدانية الله تعالى.. معناها انعدام النِّدِّ والكفء والشبيه والمثيل فى أى صفة من الصفات.. فإنه تعالى لم ينشأ عن سبب أو مثيل سابق عليه.. ولم ينشأ عنه سبب أو شبيه أو مثيل لاحق به.. وقد تجلى هذا المعنى بوضوح.. فى سورة الإخلاص.. حيث إنه ﴿هو الله أحد * الله الصمد﴾ أى المرجع فى جميع المقاصد ﴿لم يلد﴾ لم ينشأ عنه سواه ندٌّ أو مماثلٌ لاحقٌ به ﴿ولم يولد﴾ أى لم ينشأ هو تعالى عن ندٍّ أو مماثلٍ سابقٍ عليه ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ أى لم يمكن أن يكون له ندّ مكافئٌ.. أو شبيه مماثل.. مهما قال الناسُ فيما يُخَرِّفون ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾.

وصفة الوحدانية مجال برهانى من الناحية الرياضية.. للذين لا يؤمنون بالوحى.. فإذا فرضنا أنه يوجد للعالم إلهان اثنان.. فإنه لا يستقل كل منهما عن الآخر إلا باختلاف الإرادتين.. أو على الأقل.. بعدم الاتفاق فى كل إرادة منهما. واختلاف الإرادة.. يقتضى فساد النظام الكونى.

دليل ١:

فلو فرضنا أن إرادة الإله (أ). وجهت الشمس إلى خط (ج). وجاءت إرادة الإله (ب). لتوجه القمر إلى نفس الخط أو الفلك (ج). فإن من الضرورى اصطدام الكوكبين فى خط. (ج) المفروض.. وبالاصطدام بينهما ينهار وينفسد النظام الكونى كله.. لاختلاف الإرادتين بين الإلهين المفروضين. وعليه فإن استمرار سير النظام الكوكبى.. على المنهاج الفلكى بغير اصطدام.. منذ ملايين السنين إلى الآن.. يدل على وحدانية الإرادة.. ووحدانية الإرادة دليل على وحدانية المريد.. وهو المطلوب.

ولذلك يقول تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلـه إذن لذهب كل إلـه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾(٨).

دليل ٢:

ومن أدلة التوحيد رياضيا.. أننا لو فرضنا أن الإلهين مختلفى الإرادة.. أراد كل منهما غرس شجرة فى نقطة واحدة.. فمعلوم أن النقطة الواحدة لا تتسع لغرس شجرتين اثنتين.. وبهذا يصطرع الإلهان.. كل لتنفيذ إرادته.. وباصطراعهما لابدّ أن يتغلب أحدهما على الآخر.. والمتغلب المنتصر منهما يكون إلها واحدًا.. وهو المطلوب.

وبراهين وحدة الإرادة.. لا تنحصر فى وحدة النظام الكونى فحسب.. بل هى واضحة فى وحدة النبض فى الجنس الإنسانى والفصائل والعائلات الحيوانية والنباتية.. التى تحدد درجة النماء والاستمداد معا.. ولو كان هناك إلهان اثنان مختلفا الإرادة.. لظهر أثر ذلك باختلاف فى النبض الإنسانى ولانفرد كل إله بقياس خاص لدرجة الحرارة والتمثيل الغذائى والكلوروفيلى. وثانى أكسيد الكربون أو الخمس الفعّال.. إلى غير ذلك.

(٨) سورة المؤمنون الآية ٩١.

وقد تحدى رب الوحدانية فى ميدان العمل والإنتاج دعوى الشرك.. كقوله تعالى: ﴿هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه﴾[٩].

ونستطيع أن نشير إلى وحدة الإرادة بأجلى ظهور.. فى السيارات السبع: زحل.. والمشترى.. والمريخ.. والشمس.. والزهرة.. وعطارد.. والقمر. فإن لكل منها فلكا.. أو نهرًا مغناطيسيًا يسبح فيه.. وتتعاون تعاونًا جذبيًا.. بحيث يكون محدّب زحل متساويًا مع مقعّر المشترى.. وقد أوحت الإرادة الإلهية الواحدة فى كل سماء أمرها.. وعقدت أواصر التعاون بين سياراتها وثوابتها.. وقام التلاؤم والتلاحم بين حركاتها ﴿كل فى فلك يسبحون﴾ بحيث تتألف من مواقع النجوم وانتقال السيارات: الفصول الأربعة.. وحركات الإلكترونات الكهربية.. كل ذلك مما يدل على وحدة الكل الطبيعى.. يشعرنا بأن الإرادة الوحدانية حكيمة عليمة.. لاأمت[١٠] بين المنتجات والمولدات والوالدات والأصول والفروع.. وبين حواس الإنسان.. وجعلتها فى مجموعها خدمة للإنسان: ﴿سخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[١١].

ولو كانت هناك إرادتان متباينتان بالانفصال.. ما ثبتت وحدة الكون.. فكيف يقول عاقل إن وحدة الكون واستقراره أثرٌ لإرادتين مختلفتين؟

فبرهان الوحدة الأول يتجلى فى الوحدة الكونية وفى الكل الطبيعى.

وهكذا تلمح فى نفس تكوين الإنسان نفس التعاون الذى يقوم فى السماء بين الكواكب السيارة والكواكب الثابتة.. والتناسب الهندسى بين مواقع النجوم: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[١٢] مع أنه لا توجد وحدة عن إرادتين مختلفتين إذن لظهر الاختلاف والتفوق.. فلا تكون هناك وحدة.

والإنسان نفسه نموذج للكل الوجودى والكل الطبيعى معًا.. وبعبارة أخرى الإنسان ملتقى القوى النارية والنورانية معًا.. فعليه تتنزّل الملائكة حال الإيمان.. وعليه تتنزّل الشياطين حال الكفر والضلال.. وهذا يبدو واضحا فى قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[١٣] وقوله: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبّتوا الذين آمنوا﴾[١٤] إلى غير ذلك فى هذا الباب.. هذا من ناحية تنزل الملائكة.. وسريان القوى الملكوتية فى الإنسان باعتباره تابعًا لوحدانية الكل الوجودى.

وأما من ناحية النار وتنزل الشياطين. ففى قوله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين * تنزل على كل أفّاك أثيم﴾[١٥] وكما جاء فى سورة الأنعام: ﴿كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران﴾[١٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سلطان الشيطان على غير المؤمنين.

---

(٩) سورة لقمان الآية ١١.

(١٠) ناسبت.

(١١) سورة لقمان الآية ٢٠.

(١٢) سورة الواقعة الآيتان ٧٥، ٧٦.

(١٣) سورة فصلت الآيتان ٣٠، ٣١.

(١٤) سورة الأنفال الآية ١٢.

(١٥) سورة الشعراء الآيتان ٢٢١، ٢٢٢.

(١٦) سورة الأنعام الآية ٧١.

فالإنسان ذاته يؤلف وحدة متكاملة.. تدل على وحدانية المريد.. فالأذن تسمع.. والعين تنظر.. والأنف يشم.. واليد تحس.. واللسان يدرك الطعوم.. مما يدل على تعاونٍ قوىّ محكم بين سائر الحواس.. كما أن الإنسان ذاته يؤلف وحدة كاملة بين النار والنور.. وبين الملائكة والشياطين.. فإذا تحرَّزَ من الهَمْزِ والنَّزْغِ والمَسِّ والحضور والاستهواء.. كان منحازًا إلى ناحية النور.. نحو اليمين.. مؤيدًا بالملائكة فى كل موقف يستدعى الخوف أو الحزن. فلا خوف عنده ولا حزن: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[17] ذلك لأن الله وليهم، وهذا الموقف من أخص الخصائص الروحية.

إذن فالإنسان هو الوحدة المحققة أيضا بين الروح والجسم.. فهو بذاته واتحاده مع حقائق الكون.. وانعقاد النسبة بينه وبين مجموع المكونات العلوية والسفلية.. والسيارات والثوابت.. وما وراء ذلك مما لا قدرة للعقل الرياضى على إدراك كنهه.. أو كشف سرّه.. يدل دلالة قطعية الثبوت على وحدة الإرادة الإلهية.. وبالتالى على وحدانية المريد - سبحانه وتعالى.

ونكتفى بهذا القدر الوجيز.. فى إثبات براهين الوحدانية.. بالنصوص الموحى بها.. وبقواعد العقل.. والهندسة الفلكية.. وبحكم النبات والحيوان.. ومتعلقات النفس والجيولوجيا.

وها قد استلزم ذكر صفة الوحدانية سَبْحًا طويلا فى الكل الطبيعى وتكوينه.. يأخذ بيدنا بلطف إلى الصفة السابعة.

قلت: هل انتقلنا إلى صفة القدرة؟.

قال: نعم.

٧ - القدرة

القدرة صفة قديمة.. قائمة بالقادر - سبحانه - يبرزها فى الزمان والمكان.. على ما تعلقت به صفة العلم الأزلى.. فبالقدرة نشأ الكون كله.. على وفق ما تعلقت به صفة - العلم الأزلى - على النحو الذى نراه ونلمسه.

وهذه الصفة تتميز بقيام دليلها فى كل شىء مقترنا بالوحدانية التى تحدثنا عنها. فالوحدانية ظاهرة فى صفة القدرة.. لأنها برهانها القائم.. ودليلها الدائم.. فأنت أيها الإنسان دليل القدرة.. فإنك مقدور.. وكل مقدور دليل للقادر.. كما أن كل مصنوع دليل للصانع.

ومجال القدرة هو كل ممكن جائز.. فلا مجال للقدرة فى المستحيلات.. لأن المستحيل بذاته هو ما لا يتصور وجوده.

قلت: هل يوجد مثل يقرب هذا المفهوم؟

قال: لقد ضرب الله تعالى لنَا مثلا يعلمنا به أن قدرته تعالى إنما تتعلق بكل ممكن جائز.. والجائز هو المرتبة الثانية من مراتب الأحكام العقلية.. وهى: الواجب.. والجائز.. والمستحيل.. فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل.. لأن المستحيل عدم بحت.. والعدم لا يكون محلاً لسريان القدرة. وقد ضرب الله تعالى لنا

---

(١٧) سورة يونس الآية ٦٢.

هذا المثل فى قوله تعالى عن الكافرين: ﴿لا تُفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمِّ الخياط﴾[18] فالاستحالة الذاتية ظاهرة لا يمكن تصورها على النحو المفروض.. وهو دخول الجمل فى عين الإبرة.. حيث لا يمكن تعلق القدرة بذلك.

فلو فرضنا أن القدرة أحالت الجمل إلى خيط رفيع يدخل فى عين الإبرة.. فإن أصل الفرض أنه جمل وليس خيطا.. وإذا قلنا إن القدرة جعلت الإبرة تنفرج وتتسع حتى يدخل فيها الجمل فإن أصل الفرض هنا أنها عين إبرة وليست بوابة.. فلزم عدم تعلق القدرة بالمستحيل.

ولما كان من المستحيل وجود شريك للبارى.. فيستحيل على قدرة الله أن تخلق شريكا لذاتها.. واستحالة شريك البارى قاعدة مقررة.

على أن التعبير اللائق بمقام الله تعالى.. هو القول بعدم تعلق القدرة بالمستحيل أصلا.. لأن المستحيل عدم فى ذاته.. وقدرة الله لا تتعلق بالعدم.. لأنه ليس شيئًا: ﴿والله على كل شىء قدير﴾.

فالقدرة تظهر فى كل ممكن مقدور.. وهى صفة الخلق والإنشاء.. والتقدير والحكمة. ومن هنا يوجد المدخل إلى الصفة الثامنة.

قلت: التى هى الإرادة؟

قال: نعــم.

٨ - الإرادة

الإرادة وظيفتها التخصيص.. ومعناه تخصيص المراد. بالذات والصفة والكم والكيف واللون والجنس والنوع والفعل.

فالله تعالى يبرز بقدرته ماتعلق به علمه.. وخصصته إرادته.. وهذا هو قسم الممكنات الجائزة الحادثة.

ونقول: الحادثة.. يعنى أنها غير قديمة.. لجواز عدمها كما أشار إليه اللَّقّانى فى جوهرته:

وكـل مـا جـاز عليـه العـدمْ   عليـه قطعًـا يستحيـل القِـدمْ

وبهذا يتبين انفراده تعالى بصفة القدم.. فكل ما خصصته الإرادة.. وتعلق به العلم الأزلى.. توجده القدرة تنجيزًا فيكون حادثًا.. فالعالم كله حادث.

وبتجلى صفة الإرادة الإلهية على الإنسان.. جعل - سبحانه - للإنسان إرادة مستقلة.. له أو عليه.. حتى لايقع عليه إكراه بحال.. لأن وقوع الإكراه على الإنسان.. يبطل ركن النية الذى يقوم عليه أمر المثوبة أو العقوبة.. فلا ثواب ولا عقاب إذا ثبت إنعدام إرادة الفاعل.. وهذا واضح فى قوله تعالى: ﴿لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرشد من الغىّ﴾[19].

والقائلون بنفى الإرادة عن العبد.. منكرون لصفة الإرادة الإلهية.. وهم الذين يسميهم العلم - بالجبريين - القائلين بأن الإنسان مجبور على جميع أفعاله.. ولا اختيار له ولا إرادة.. وهذا القول يفضى إلى الحكم على الله - الحكم العدل - بأنه ظالم.. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

---

(١٨) سورة الأعراف الآية ٤٠.

(١٩) سورة البقرة آية ٢٥٦.

وتسند الإرادة إلى الإنسان مجازًا.. كما تسند إلى الجماد.. فأما الإنسان ففى مثل قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا﴾[٢٠] وما قامت العقوبة إلّا على أساس انحصار إرادة الإنسان فى العاجلة – الدنيا – وتعلقت إرادته – سبحانه وتعالى – بتنفيذ إرادة العبد على مسئوليته.. وجزائه على ما أراد واختار لنفسه من بين الأشياء.. فخصصت إرادة الله لهذا العبد ما أراد.. وهذا دليل على اختياره.. وليس على إجباره وإكراهه.

وأما عن الجماد.. ففى مثل قوله تعالى.. فى رحلة موسى والعبد الصالح – عليهما الصلاة والسلام: ﴿فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه﴾[٢١] فإسناد الإرادة إلى الجدار.. إسناد مجازىّ.. وهذا توكيد لنفى الجبر من كل وجه. ولو صحّ وجود جبر أو إكراه على الإنسان.. ما صحّ التكليف.. ولا إنزال الكتب.. ولا إرسال الرسل.. ولانطلق العالم فى فوضى تنهار تحت أنقاضها جميع المبادئ والقواعد والعرف الإنسانى بأسره.. ومعنى هذا سقوط العقل سقوطًا تامًا.

قلتُ: لقد جرّنا هذا البحث إلى – القضاء والقدر.

قال: القضاء والقدر موضوع زلّت فيه أقدام كثير من العلماء والمتعالمين.. فزعم بعضهم أن الإنسان مختار فى الظاهر.. مجبور فى الباطن.. وبذلك نفَوْا عنه الرويّة والتعقّل.. والقياس والترجيح.. وهذا هو مفهوم الإرادة عند الإنسان.. فزعْم هؤلاء متطوِّحٌ بهم إلى مصاف الجبرية وهم لا يشعرون. وما معنى كونه مختارًا فى الظاهر؟.. لا معنى للاختيار الظاهرى إذا كان مجبورًا على الانحراف عمّا توحى إليه لطائف النفس وحركة التدبير.. التى تسلم بها جميع الشرائع السماوية والوضعية معًا.

أما القسم الثانى من العلماء.. فقرروا نفى حصول الجبر والإكراه فى الظاهر والباطن.. وخلاصة رأيهم – وهو مانؤيده وما ألهمنا الله إياه بمحض هدايته – أن الإنسان ينقسم إلى: قوة مجردة.. وهى لله وحده.. إذ لا قوة إلا بالله. وإلى إرادة تقوم على التعقل واستخدام الرويّة والتدبير ﴿ليدّبروا آياته﴾ وبذلك تقع إرادته الإنسانية لتخصيص مراد يريده.

وتتعلق إرادة الحق – سبحانه وتعالى – بكيفية تلك الإرادة التى شاءها العبد تحت مسئولية العبد نفسه.. فالقوة لله تعالى.. أما حركة التوجيه فهى للعقل الذى هو مدار تلك الموازنة وذلك القياس والترجيح: ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ وقوله: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمىَ فعليها﴾[٢٢]

قلت: معنى هذا أن قوة حركة الإنسان من الله.. وأن توجيه الحركة من العقل؟.

قال: تمامًا هذا هو ما أقصده.

قلت: فهل تضرب لى مثلًا يقرب هذا المعنى إلى الأذهان؟

قال: قوة التيار الكهربى مثلًا.. بها تتحرك العربات إلى جميع الجهات.. فاختيار جهة الشرق مثلًا يستمد الاتجاه إليها من التيار نفسه.. واختيار جهة الغرب يستمد القوة من التيار نفسه أيضاً.. فالتيار

---

(٢٠) سورة الإسراء آية ١٨.

(٢١) سورة الكهف آية ٧٧.

(٢٢) سورة الأنعام آية ١٠٤.

هو هو.. وإن اختلف الاتجاه بين الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب.. لأن القوة التيارية لا شرقية ولا غربية.

فإذا أخطأ قائد العربة فى توجيهها وقيادتها.. فقتل بها أحدًا من الناس.. فلا مسئولية على التيار.. لأنه برىء ممن أساء استخدامه.. فسوء استخدام قوة الله تعالى جريمة.. وحسن استخدام قوة الله تعالى حسنة.. وهكذا تقوم قواعد العقل والتحرى.. واستخدام وسائل الرحمة.. وتنظيم السلوك العام.. الذى يمثل آداب الأمم وأخلاقها.

ونصوص القرآن الكريم صريحة فى نفى الجبر.. فالمجبور لا يقول الله تعالى له: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيبْ والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[٢٣] وقوله: ﴿أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾[٢٤] إلى غير ذلك من الآيات التى لاتقل عن المئات فى القرآن الكريم.. وكلها تدل دلالة قطعية الثبوت.. على أن الانسان يتمتع بجزء اختيارىٍّ على قدر علمه.. يكون به لائقًا لوقوع التكليف الشرعى.. والاستنارة بالنظر فيما أنزل رب السماوات والأرض من كتب.. فلو كان مجبورًا ماكان جديرًا بهذه الملايين من الآيات والعبر.. من المبتدأ والخبر.. وما حضر وما غبر.. كل ذلك يجرى آيات بينات.. تليق بكمال الإنسان حامل أمانة العقل ﴿إن فى ذلك لآيات لأولى النهى﴾[٢٥]، ﴿إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[٢٦] أهذا كله يقال لكائن مكبَّل بالأغلال.. كما يزعم أجناد الضلال.. بقولهم المفضوح فى خرافة شاعر:

ماحيلة العبد والأقدار جارية ... عليه فى كل حال أيها الرائى
ألقاه فى اليمّ مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

فتعالوا يا عصابة الشيطان.. أرشدونا إلى مكتوف واحد تلقى تكليفًا.. ولو كنتم مكتوفين كما زعمتم.. ما رأينا شيئًا مما كتبتم.. ثم تعالوا بنا يا من تنزه الشيطان عن جريمتكم وأقسم بعزة الله ليضلنكم.. ألا ترون أنكم بقولكم: ألقاه فى اليم مكتوفًا.. وحذّره من البلل.. يكون بالغ الظلم.. شديد القسوة والجبروت.. لاتعرف الرحمة إليه سبيلًا؟.

كل هذه الجرائم توجهونها إلى الله فى جرأة واستخفاف.. وجهل مكابر!!! وقد مكرتم فزعمتم أن علماء الإسلام أجابوا على هذا الشعر بقولهم:

إن حفّه اللُّطفُ لم يَمْسَسْه من بلل ... ولم يبالِ بتكتيف وإلقاء
وإن يكن قدّر المولى بغرقته ... فهو الغريق ولو ملقى بصحراء

فإن الشعاع الباهر من نور القرآن القاهر.. كشف زيف هذه الإجابة الباهتة.. فإن معنى.. حفّه اللطف يدل على أن اللطف صادر من غيره.. فهو أسير.. ولا ذنب له إذا لم يحفّه اللطف.. لأنه مكتوف.

---

(٢٣) سورة التوبة آية ١٠٥.
(٢٤) سورة الأنعام آية ٥٤.
(٢٥) سورة طه آية ٥٤.
(٢٦) سورة البقرة آية ١٦٤.

وما ذنبه هو إذا تخلف عنه اللطف؟ وقولكم بعد ذلك: وإن يكن قدّر المولى بغرقته.. عودة خبيثة إلى نظرية الجبر.. لأنها تدل على أن الله تعالى قدَّر غَرْقَته رغم أنفه.. وينفى اختياره.. ومتى كان الأمر كذلك فهو مُكْرَهًا لا مختارًا سيكون غريقًا ولو بين الصحراوات والسباسب.

ونحن نقول لكم: إذا كان الإنسان مجبورًا - كما زعمتم - فما الذى يمنعنى من أن أحمل نعلى لتَتَوَرَّدَ بها خدودكم التى لا تتورد بالخجل.. فإن سألتم عقوبة لى على ذلك. سقطت حجتكم لقيام الجبر علىّ.. وتجردّى تمامًا عن الإرادة.. التى تقوم عليها المسئولية. حيث لا مسئولية على مُكرَه.. ولا ثواب ولا عقاب لمجبور.. ولا عقد ولا بيع ولا شراء يكون صحيحًا إذا قام الجبر.

تلك حجة سريعة.. دفعنا بها الغيوم السوداء فى مسألة الجبر:

هل الإنسان مسيّر أم مخيّر؟

إن الإنسان مسيّر بالقوّة. مخيّر بالعقل.. فإن أحسن استخدام القوة فله.. وإن أساء استخدامها فعليه ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.. لأنه حَكَمٌ عَدْلٌ.. وإن مطلق الحكم لا يكون عدلاً.. إلا إذا انطبق على تعلق علم الله تعالى لظروف الحكْم وملابساته وكيفيته.. فما ظلَمَ أحدًا إذا حكم.. فهو العدل.. وما حكم إلا بما علم: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾[٢٧] .. وطبع الرحيم الرحمة.. وطبع الرءوف الرأفة.. وطبع الحنّان الحنَان.. فما أعدَّ لهم السعير. وماهيَّأ جهنم من عنده ولكن من عند أنفسهم.. ومايلقون فيها من ألوان العذاب.. إنما هو الجزاء الوفاق.. كما تعدّد منهم من ألوان الجرائم والآثام والموبقات.. حينما عاشوا لأحكام الله غير مفكرين: ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾[٢٨].

أما ترى هذا التقابل ملموسًا .. فى مثل قوله تعالى عنهم: ﴿قُطِّعت لهم ثياب من نار يُصَبّ من فوق رءوسهم الحميم * يُصهر به مافى بطونهم والجلود * ولهُمْ مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غـمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾[٢٩] تلقاء ماكنتم فيه فى الدنيا.. تقطع لكم أفخر الثياب.. ويصب من فوق رءوسكم أطيب العطور للفسق والفجور.. وتملأون أجوافكم بما تسلب أيديكم من حقوق الآخرين.. وأموال اليتامى والمساكين؟؟؟

وهكذا يصدق قوله تعالى فى الحديث القدسى المعروف:

«يا عبادى: إنى حرّمت الظلم على نفسى.. وجعلته بينكم محرمًا.. فلا تظالموا.

يا عبادى: إنكم لم تملكوا ضرى فتضرّونى.. ولم تملكوا نفعى فتنفعونى.

يا عبادى: إنكم تخطئون بالليل والنهار.. وأنا أغفر الذنوب جميعًا.. فاستغفرونى أغفر لكم.

يا عبادى: كلكم عارٍ إلاّ من كسوته.. فاستكسونى أكسكم.

يا عبادى: كلكم جائع إلاّ من أطعمته.. فاستطعمونى أطعمكم.

يا عبادى: لو أن أوّلكم وآخركم.. وجنّكم وإنسكم.. كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم.. ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا.

---

(٢٧) سورة النساء آية ١٤٧.

(٢٨) سورة العنكبوت آية ٥٤.

(٢٩) سورة الحج الآيات ١٩ - ٢٢.

يا عبادى: لو أن أوّلكم وآخركم.. وجنّكم وإنسكم.. كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا.

يا عبادى: لو أن أوّلكم وآخركم.. وجنكم وإنسكم.. قاموا فى صعيد واحد.. وسألونى فأعطيت كل سائل مسألته.. ما نقص ذلك من ملكى إلاّ ما ينقص المخيط إذا وقع فى البحر.

يا عبادى: إنما هى أعمالكم أحصيها لكم.. وأوفيكم إياها.. فمن وجد خيرًا فليحمد الله.. ومن وجد شرا فلا يلومنّ إلاّ نفسه».

وعندنا فى الرد على هؤلاء مئات الآيات من القرآن الكريم. فمعنى الإرادة أن للعبد إرادة جزئية يحاسب بمقتضاها.. وتلك الإرادة إنما هى من تجليات صفة الإرادة الإلهية القديمة.. وهى التى خصصت ما أحاط به علمه تعالى.. وأبرزته قدرته.

ومن هنا تلمع بين أيدينا الصفة الرئيسية.. صفة الكرسى الأعلى.

قلت: لعلك تقصد الصفة التاسعة.. صفة العلم؟؟؟

قال: نعم.

قلت: وماذا عنها؟

* * *

٩ - العلم

قال: العلم صفة قديمة قائمة بذات العليم - سبحانه وتعالى - ومن حِكَم الترتيب أن تقع صفة العلم تاسع الصفات.. ووظيفتها انكشاف المعلومات أزليا وأبديا.. كليا وجزئيا.. لرب العرش - سبحانه - وعلى صفة العلم استقرار الحقائق الوجودية كلها.

من أجل ذلك سميناها - الكرسى الأعلى - الذى وسع كل شىء علما. مستأنسين بقوله تعالى: ﴿وسع كرسيّه السمٰوات والأرض﴾[٣٠] ويشرحها قوله تعالى: ﴿وسع ربى كل شىء علما﴾[٣١] إذن فالكرسى الذى هو مستقر الحقائق.. هو صفة العلم: ومن مزايا صفة العلم.. الفصل فى شأن العلوم ابتداء ونهاية.. وما بين البدء والنهاية..

وصفة العلم لا تجبر على حصول المعلوم.. وهذا ردّ آخر على الجبريين ومن دار فى فلكهم من زنادقة المتشدقين الذين لا يكادون يفقهون قولا.. فتعلّق علم الله تعالى بحصول شىء وتخصيص إرادته لأسباب حصوله.. وكيفية وقوعه وحدوثه.. لا يكون سببا مكرِها فى حصول ذلك المعلوم.

قلت: أعتقد أن هذا المفهوم يحتاج إلى مثل يقرب معناه إلى الذهن.

قال: سأضرب لك مثلا: زارك رجل فى بيتك.. فقدم إليه أحد غلمانك قدحًا من الشراب.. وتفرس الزائر فى وجه الغلام. ثم قال لك: لعل هذا الغلام يكون فى المستقبل من كبار اللصوص وقطاع

---

(٣٠) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٣١) سورة الأنعام الآية ٨٠.

الطرق.. أو قال لك: سيكون من كبار العلماء، ثم دارت عجلة الزمن.. وانتهى مطاف هذا الغلام إلى النهاية التى تنبأ بها هذا الزائر. فهل علم ذلك الزائر بمستقبل الغلام.. بما قرأه على قسمات وجهه. وأدركه بفراسته.. هل هذا العلم هو الذى جعل الغلام لصًا أو عالما؟؟؟:

إننا نرى يا أخى أن الله تعالى له صفة الكمال فى العلم.. وكامل العلم لا ينتظر وقوع الأعمال لكى يعلمها.. فإن من كمال الإحاطة - العلم بالشىء ابتداءً ونهاية وما بينهما.. فلا ظلم من الله العليم سبحانه - إذا تعلق علمه بأن فلانا سيكون شقيا.. وأن فلانا سيكون سعيدا.. فما إحاطة علمه بشقاء الشقى.. إلا لأنه علم أنه سيسلك مسالك الأشقياء مختارا غير مكره.

وما تعلق علمه بسعادة السعيد.. إلا لأنه علم أنه سيسلك مسالك الأتقياء، وللعلم الإلهى تعلقان:

الأول: يسمى الصلوحى القديم..

والثانى: يسمى التنجيزى الحادث.

فالعلم الصلوحى القديم بأن زيدا يولد من فلان وفلانة.. فى زمان كذا.. ومكان كذا.. هذا العلم الصلوحى القديم لا يتم إلا إذا حصل بالتعلق العملى التنجيزى الحادث.. بعد زواج فلان من فلانة، وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلَمنّ الكاذبين﴾(٣٢) فالعلم القديم أزلاً عند الله عن حقائق الأشياء.. يتم تعلقه الثانى التنجيزى على وفق التعلق القديم الأزلى.. نحو قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾(٣٣) أى حتى يتم العلم الحادث التنجيزى فى موعده وصفته ومقدراته ونتائجه.. على النحو السابق به التعلق الأزلى القديم.. ولا جبر فى كل منهما.

قلت: أما ترى يا أستاذى.. أن هذا المفهوم يحتاج إلى مثل؟؟؟

قال: لدينا مثل - ولله المثل الأعلى - فمعنا مهندس معمارى.. يَدْخَر صدرُه بصور متعددة من العمائر والمبانى والفيلات.. بصور وألوان مختلفة.. كل ذلك بالعلم المجرد. فإذا آن أوان تنجيز ذلك العلم.. وإبرازه من نفس المهندس.. إلى حيز الظهور والتكوين بالعقل لا بالعلم وحده.. أخذ المهندس طريقه إلى الأسباب والجزئيات اللازمة لإقامة العمائر أو المبانى المرسومة فى الورق الشفاف.. وتكون هذه الرسوم تنزّلا ابتدائيا ونموذجا للبناء المنتظر تكوينه.. فيترتب على ذلك انتقال العلم من المهندس إلى التعلق التنجيزى فتكون العمارة بصورتها ونشأتها وجميع قطاعاتها وألوانها.. كما تعلق به علم المهندس فكأن المهندس قال للمعلوم: كن فعلا كائنا فكان.

وعلى هذا النحو يمكن أن نفهم قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾(٣٤). وتقديره: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا﴾ تعلق به علمه أزلاً.. إذا أراده كائنا موجودا ﴿أن يقول له﴾ أى لذلك التعلق القديم الأزلى ﴿كن﴾ تنجيزا حادثا ﴿فيكون﴾ وإلا فما معنى أن يقول له.. أى للشىء الذى لم يوجد بعد.. فكيف يتوجه إليه القول.. وهو ما زال عدمًا؟؟؟

---

(٣٢) سورة العنكبوت الآية ٣.

(٣٣) سورة محمد الآية ٣١.

(٣٤) سورة يس الآية ٨٢.

إذن فالذى توجه إليه القول.. إنما هو الحقيقة الأزلية الثابتة لذلك الشيء المعلوم ويقول الإمام النسفي في العقائد: حقائق الأشياء ثابتة.. والعلم بها متحقق.. وإنما تجرى القدرة فيها خصصته الإرادة لإبراز ما تعلق به العلم.

وسريان الإرادة يدلّ على أن صفة تنتظرنا.. هى مادّة لذلك السريان.

قلت: هل وصل بنا البحث إلى الصفة العاشرة.. صفة الحياة؟

قال: نعم.. وسأحدثك عنها.. إن شاء الله تعالى..

١٠ - الحياة

الحياة صفة قديمة لذات الحى - سبحانه - من شأنها الإمداد بالقوة وسريانها. ودليلها الحركة.. ومن هنا نقول: سريان الحياة فى كل حىّ.. هى برهاننا الواضح.. ودليلنا الجلىّ؛ فالحياة المطلقة.. التى لا يقيدها قيد بوجه من الوجوه.. هى سرٌ سارٍ فى كل متحركٍ نامٍ.. فهى بالحيوان والنبات والجماد.. مؤثرة بالحركة.. وبها تسرى الحرارة فى النبات والحيوان والمادة الجمادية.

فأما فى الحيوان.. فبسريانها يتحرك ويزداد ويتجدد.. وبانقطاعها يسكن وينقص ويتلاشى.. وقد بيّن ذلك قوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمْرنا ليلا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس﴾[٣٥].

وجميل من الذكر الحكيم أن يضع قيدًا بالإضافة فى قوله - الحياة الدنيا - مما يدل على أن الحياة الأخرى هى الحياة العليا.. حيث ينتهى إليها مصير الحىّ فى الحياة الدنيا.. وأن الحياة العليا هى القرار.. كقوله تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[٣٦] وإنما قال الحيوان - بالألف والنون - لإفادة المبالغة.. والمقصود بها الحياة الكبرى.. فقد اعتاد العرب أن يجعلوا الألف والنون لشدّة المبالغة.. كالفرق بين جائع وجوعان.. وظمئ وظمآن.. وهكذا يتبين أن الحياة الدنيا - أى السفلى - ليست سوى مجاز.. ولا يكون هذا المجاز حقيقة إلّا إذا انتفى زواله.. وانتفاء زوال الحياة معناه الخلود.. والخلود للروح حق فى سرمدية الحياة - أى عدم نهايتها.

والمؤمنون مدعوون لسلوك الطريق إلى هذه الحياة الخالدة.. التى هم بغيرها بمثابة الموتى.. لقوله تعالى: ﴿يٰأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[٣٧] فقوله تعالى: ﴿لما يحييكم﴾ يدل على أنه من الممكن الحياة فى الدنيا حياة عليا.. فى نعيم مقيم.. يكفى فى عجز العقل عن إدراكه قول الله عنه: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين﴾[٣٨] ومعنى هذا أنه لا يمكن لأى نفس أن تعلم ما أعد للمؤمنين من نعيم.. تقرّ به أعين قلوبهم.. وكيف للمقيدين بقيود المادة الطينية

---

(٣٥) سورة يونس الآية ٢٤.
(٣٦) سورة العنكبوت الآية ٦٤.
(٣٧) سورة الأنفال الآية ٢٤.
(٣٨) سورة السجدة الآية ١٧.

إدراك ما خلق من النور! وهيهات لتجليات السرِّ المبين.. أن تقع عليها حدقات الأنظار.. ولو كان الأمر فى نطاق الإمكان لما قال الله لموسى: ﴿لن ترانى﴾ لأنه أراد أن ينظر إليه تعالى.. فيكون الله - عز وجل - منظورا.. والمنظور إليه لابدّ أن يكون صورة وجسما وجهة.. وفى الأحكام العقلية أن كل كَمٍّ قابلٌ للكيف.. وهو فى الأبعاد الثلاثة: طول، وعرض، وعمق، ولما كان الله تعالى منزَّهًا عن الجسمية.. وكان فى الصفة الرابعة مخالفا للحوادث.. فى الطول والعرض والعمق.. استحال وقوع نظر موسى عليه.. وإنما يظهر سبحانه فى الكائنات بسرّ الحياة.

ولما كانت صفة الحياة ليست عينًا للموصوف - سبحانه - ولا غيرًا له.. كان ما يظهر منها فى الكائنات إنما هو بالتجلّى.. لا بذات السر.. كما أن التجلى لم يكن لموسى.. بل كان للجبل.. فلما حدث ﴿جعله دكًا وخرَّ موسى صعقًا﴾[٣٩] من هول المشهد.

وعلى هذا فإن سرَّ الحياة الإلهى خفىّ.. والحياة ذاتها أخفى من سرها.. كما يقول تعالى: ﴿يعلم السر وأخفى﴾[٤٠] فما هذا الذى هو أخفى من السر.. إنه ليس سوى الذات.. والذات العليّة ليست محلًا ولا موضوعا للبحث بأى وجه من الوجوه، وبناء عليه لا يمكن فعلا إدراك سر الحياة.

قلت: ما زال هذا المعنى فى حاجة إلى مثل:

قال: أستطيع أن أضرب لك العديد من الأمثلة تثبت مدى عجز العقل عن إدراك سر الحياة.. وسريان سر الحياة. فخذ إليك سمسمة.. ثم زنها بميزان دقيق.. ثم سجِّل مقدار وزنها.. ثم ادفعها إلى الأرض.. فإنك سوف تجد أنها - أى هذه السمسمة - تحوى طاقة لا نهائية من القوة حيث أنها ستنشىء عودًا لا تقل أغصانه عن ثلاثة.. فى كل غصن ما لا يقل عن سبعة أجربة.. تحمل مئات السماسم.. وهكذا تجمع من الشجرة عددًا هائلًا من حبّات السمسم كلما ألقيت إحداها فى رحم الأرض. ثم خذ طريقك فى ترتيب تصاعدى لا ينتهى. ثم خذ سمسمة أخرى.. وقدِّر وزنها.. وافحصها تحت الميكرسكوب.. وافحص غلافها بدقة.. ثم انزعه عنها.. ثم اسحقها.. ثم أعدها فى غلافها بكميتها ووضعها. ثم ادفعها إلى الأرض. فإنها لا تنبت ولا تزيد.

فقل لى: ما الذى نقص منها.. وهذا وزنها هو هو بين يديك؟ إنك مرغم أن تقول لى: إنها فقدت سر الحياة.. فمن الذى يستطيع مهما أوتى من قدرة وقوة وعلم.. أن يدرك سرّ حياة السمسمة.. فضلا عن سر حياة الإنسان.. الذى صنعت السمسمة من أجله؟

إن الأمر عظيم.. وكلما نظرت إلى نواة من النوى.. سواء أكانت خلية نباتية.. أو حيوانية.. أو كهربية.. أدركت أن لها طاقة تتطور بها وبغير انقطاع.. وهذا يدل على أنها تتمتع بفيض متدفّق.. نرى أثره بأعيننا.. ونشمه بأنوفنا.. ونذوقه بألسنتنا ونلمسه بأناملنا.. ونميزه بعقولنا.. ولكننا لا نعلم سره.

إنه فيض الحياة من صفة الحىّ.. والحى هو صاحب صفة الحياة.. القائم به كل شئون الحياة.. ولذلك يقول أحد الشعراء:

لقد ظهرتَ فلا تخفى على أحدٍ ... إلّا على أكمهٍ لم يشهد القمرا
لكن بطَنت بما أظهرت مستترا ... وكيف يُدْرَك من بالعزة استترا

(٣٩) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

(٤٠) سورة طه الآية ٧.

وتتجلى هنا علاقة الحياة بالقيام.. كما يتبين من آية الكرسى: ﴿الله لا إله إلّا هو الحى القيوم﴾(٤١) فالحىّ القيوم أوضح أثرا من أن يمكن تجاهله أو طلب الدليل عليه.. فإن طالب الدليل نفسه حىّ يتجلى صفة الحياة.. قائم بتأثير اسم القيوم وسريان قوّته فيه.. وهو لا ينكر قوته.. ثم هو فى نفس الوقت لا ينكر أن هذه القوّة ليست ملكاله.. لأنه من الممكن أن تسلب منه حتف أنفه.. وليس ذلك بالموت وحده.. بل بالنوم أيضا.

ومن ثم يلزم إسناد الحياة والقوة إلى الحى القيوم - سبحانه - لأنه المالك الحقيقى للحياة والقوة.. يهبها متى شاء.. وينزعها متى شاء.. وظاهرتها الروح.. كما يقول تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(٤٢).

وكما يتبين الأثر الواضح فى سريان الحياة فى النبات والحيوان والجماد.. يتبين ذلك الأثر فى الأرض نفسها كما ورد فى سورة يس: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون *وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب. وفجرنا فيها من العيون *ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾(٤٣) وتستطرد الآية فى عرض الآثار بقوله تعالى: ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾(٤٤) والقسم الأخير ﴿ما لا يعلمون﴾ هو سر الحياة.. أو الروح.. فهذا مبدأ الفيض الأعلى من صفة الحياة عندما يتجلى بها الحىّ.. فتنتعش الأنفس.. وتزدهر الأرض فتصبح مخضرة كما يفيض بها على النفوس الفلكية الكبرى.. التى عناها سبحانه بقوله: ﴿فالمدبرات أمرا﴾.. وهى قوة كوكبية مولدة محكمة التدبير.. وهذا ما يعنيه قوله تعالى: ﴿وأوحى فى كل سماء أمرها﴾(٤٥).. وما يلى ذلك من قوله عن الأرض: ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ إلى غير ذلك من الآيات التى تدور حول إفاضة الحياة.

وإذا لا حظنا العلاقة الوثيقة بين حياة الإنسان.. وحياة النبات.. وحياة الماء أدركنا تماما أن كمال التكوين الجسدى متوقف على كمال الإفادة من النبات والبقول والتوابل الحريفة وغيرها.. وما تنتجه الدورة التدبيرية الفلكية عبر الفصول الأربعة.. لأن هذا يترتب عليه كمال أداء الوظائف الجسدية.. وقيام كل عضو وكل غدّة لما خلقت له.. لأننا سلمنا أن الإنسان وحدة متكاملة مندرجة فى الوحدة الكونية الشاملة.. المرتبطة فى تدبير الأسباب بالسنن الكونية. وهكذا نلمس وحدانية صفة الحياة.

وبذلك يظهر الارتباط بين كمال التكوين الجسدى.. وقيام الأعضاء بوظائفها.. وكمال الوظائف المتعلقة بالمخ.. وعمليات الدماغ.. والمجموع العصبى.. وبين قوة العقل المرتبطة بالمجموع العصبى مباشرة.. وتمام استقامة الحواس.. وعلى الأخص السمع والبصر والشم والذوق.. وهذا يمهد لنا الانطلاق إلى الصفة التالية.

قلت: لعلها صفة السمع؟

قال: نعم.. وسأحدثك عنها. إن شاء الله تعالى.

---

(٤١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٤٢) سورة الزمر الآية ٤٢.

(٤٣) سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٥.

(٤٤) سورة يس الآية ٣٦.

(٤٥) سورة فصلت الآية ١٢.

١١ - السمع

تلك الصفة الحادية عشرة من صفات البارئ - سبحانه وتعالى.. وسمعه سبحانه مخالف لسمع الحوادث كما قدمنا.. فالحوادث تسمع بالصماخ والطبلة الأذنية التى أشار إليها ابن سينا فى كتاب النجاة.. وهذه الحاسة الحيوانية لا تسمع إلا الأصوات.. ولكن الله سبحانه يسمع خطرات النفس.. ونجوى الخواطر.. ويعتبرها تجرى مجرى الصوت.. كما قال تعالى عن زكريا: ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا﴾[٤٦] والنداء الخفى من غير صوت.. فسمع نداءه ووهبه يحيى.. وكما قال تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿فنادى فى الظلمات﴾[٤٧] وهى ظلمات الليل والبحر وجوف الحوت وظلمات النفس الخاطئة أشد.. فسمع نداءه.. بدليل قوله تعالى: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾[٤٨] وكان نداءًا لا صوتيا.. بل هو صادر من أعماق الضمير.. حيث لم يكن يونس يجد متنفسا لارسال الصوت وبذلك يتعين عموم صفة السمع بإطلاقها من القارع والمنقرع - كما يقول ابن سينا عن السمع الصوتى.

وقد تبين من القرآن الكريم تقرير ذلك فى قوله تعالى لموسى وأخيه - عليهما السلام: ﴿إننى معكما أسمع وأرى﴾[٤٩] وفى قوله تعالى فى أول سورة المجادلة: ﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها﴾.

وقد ثبت فى السنّة الصحيحة.. من شعائر الصلاة.. أن القائم من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده» ويتعين من أن يقول المصلى على أثرها «ربنا لك الحمد» ولو رجعنا إلى الناحية العقلية - وهى رياضية بحتة - نجد أن القاعدة تقول: «فاقد الشىء لا يعطيه» فهل يتسنى لغير سميع أن يمنح الناس أسماعا؟؟؟ وحيث إن إفاضة قوة السمع لها مصدر واحد.. هو السميع سبحانه وتعالى - فقد قال: ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ فما تتناجى به ندوات العلماء وغيرهم.. وما يدور فى خطرات النفوس.. يجب أن يحيط به سمعه تعالى.. كما أحاط به علمه فهو السميع البصير.. وقد قال تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[٥٠].

وما أشبه هذا بما نسمعه نحن فى أنفسنا.. وبطريق الرؤى المنامية من أصوات وليست بأصوات ولو كان الذى يناديك فى المنام بصوت مسموع لك.. له أثر فى الموجة الهوائية لسمعه من بجوارك .

وهذا يثبت ما يفيض على نفس الإنسان من النجليات الالهية ليطابق ما قررناه بين وحدة الكون وكون الإنسان مندرجا فى تلك الوحدة الكونية.. وهو مجلى لجميع الصفات الإلهية.. وهذا يستتبع الصفة التالية التى ترتبط ارتباط اتصال بصفة السمع.

قلت: لعلك يا أستاذى تقصد صفة البصر؟.

قال: نعم.

---

(٤٦) سورة مريم الآية ٣.
(٤٧) سورة الأنبياء الآية ٨٧.
(٤٨) سورة الأنبياء الآية ٨٨.
(٤٩) سورة طة الآية ٤٦.
(٥٠) سورة آل عمران الآية ١٨١.

١٢ - البصر

السميع البصير.. وهي الصفة الثانية عشرة.. ويبدو هذا واضحا فى أول سورة الإسراء حيث يقول تعالى: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ باعتبار عبارة - إنه هو السميع البصير - عائد على الاسم الموصول - الذى - والتقدير أن الذى أسرى بعبده.. هو السميع البصير.. السميع لنجوى عبده.. وهمسات خواطره.. البصير بكل شيء.. وهو بكل شيء عليم.. بحيث لا يحل العلم محل البصر.. أو البصر محل العلم.. ولكل صفة مرتبتها واختصاصاتها.. وأثرها على مجالى الصفات.

وصفة البصر قديمة.. قائمة بذات البصير - سبحانه - تحيط بها سبحات الوجه الأعلى - وجه الله - وتحول بينها وبين مكافحة المبصرات حُجب من النور الأعلى.. وقد أشار إليها صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «إن الله تعالى يخفض القسط ويرفعه.. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار.. وعمل النهار قبل عمل الليل.. حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أنتهى إليه بصره من خلقه» ولا يمكن للعقل إدراك الماهية البصرية لهذه الصفة.. ولكن الذى أمر به العقل هو التأمل فى هذا الكون.. بما يحتوى من ألوان فى الثمرات والأزاهير.. وبين الرياض والربى.. ومن ثمرات النخيل والأعناب مختلف أكله وألوانه.. واختلاف ألسنة الناس وألوانهم.. وهذا يفضى بالعقل إلى التسليم رياضيا بأن خالق هذا بصير.. لأن الأعمى لا يميز الألوان ولا يحدد الصور.. فإذا قيل لنا إن الأعمى يعمل مصوِّرا.. فعلى العقل السلام

ومن المعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه.. فلو لم يكن بصيرا.. ما خلق مبصرين وهذا ينطبق على تجليات هذه الصفات فى الإنسان والحيوان.. فلو لم يكن قادرا ما خلق قدرة ولا قادرين.. ولو لم يكن عالما ما خلق علماء ولا مثقفين.. وهكذا فى مجال الصفات جميعا.

وصفة بصره تعالى.. مخالفة للحوادث أيضًا.. فليس معناها البصر بالحدقة والشبكية والهلامية - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - ولكننا قدمنا أنه ليس فى نطاق العقل إمكان إدراك تعريفى عن صفة البصر.. بعدما تجلى من آثارها.. وإذا كنا قد بينا اقتران صفتى السمع والبصر.. فى أول سورة الإسراء.. فقد رأينا ذلك الاقتران فى نجم مقابل من سورة الكهف.. وهو قوله تعالى: ﴿أبصر به وأسمع﴾[٥١] ولا تظن أننا نحاول حصر الآيات التى تناولت ذكر مجالى السمع والبصر فى جميع الآفاق ولكننا نورد منها ما يكفى للدلالة على قيام الصفة فى ذاتها بطريق تجلياتها.

وللانسان كما قلنا - سمع مقيد.. وبما أن الله تعالى منزه عن الحوادث.. فله سمع مطلق.

والسمع المقيد مايتعلق بالصوت ورنينه ووقوعه على صماخ الأذنين.. أما المطلق فإنه لا يتوقف وصوله على شيء.. فهو تعالى يسمع ويرى دبيب النملة السوداء.. فوق الصخرة الصماء.. فى الليلة الظلماء.. يسمع ويرى همسات النسائم خلال الخمائل.. يسمع ويرى تسبيح الذرات والأجزاء والجزئيات.. مما لا يتطرق إلى تقديره عقل عاقل.. ولا ذكاء ذكى.. ولافطنة فطن.

---

(٥١) سورة الكهف الآية ٢٦.

معنى الاقتران بين السمع والبصر:

إن المسموع.. كان كائنا وكان مبصرا - بفتح الصاد وبصيغة اسم المفعول - ومتى كان كذلك كان مرئيا بصفة البصر الإلهي.. وحيث لامسموع إلا الصوت.. فالصوت لابدّ أن يكون ناشئا من كائن صدر منه هذا الصوت.. مهما كان دقيقا ومهما تكن نسبته.. والكمال الإلهي يقتضي أن يكون المسموع مشهودا شهودا مطلقا.. يبدو ذلك في قوله تعالى: ﴿سواء منكم من أَسَرَّ القولَ ومن جهَر به ومن هو مُسْتَخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾[٥٢] أى أن المعقبات هى أمر الله.. أى من عالم الملائكة.. وليس المعنى كما يبدو للعامة.. أن الملائكة المعقبات يحفظون الإنسان من أمر الله.. أى يحولون بينه وبين وقوع أمر الله فيه.. فهذا الرأى كفر صارخ، وجهل مطبق.

كما يبدو اقتران السمع والبصر.. فى قوله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾[٥٣] وقوله: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[٥٤].

ومن هنا يتجلى اشتراك صفة العلم لعقد الرابطة بين صفتى السمع والبصر.. لأن المسموع المشهودَ معلوم علما أزليا حضوريا.. وهذا هو معنى اعتبار صفتى السمع والبصر فى نطاق الصفة العلمية.. ألتى هى - كرسى - ترتكز عليه وتستقر به الكائنات.. لقوله تعالى: ﴿وكل أمر مستقر﴾[٥٥].. فهى كلّية واضحة.. تشمل جميع الأشياء.. فلا يغيب عنهاذرة.. ولا يعزب عنها شىء.

ومن اللطائف أن الله تعالى بصفة السمع يسمع خطرات النفوس سواء كان القول جهرا أوسرا كأمره لموسى - عليه السلام - أن يقول لفرعون عدوه: ﴿فقولا له قولا لينا﴾[٥٦] مقترنا هذا بقوله ﴿إننى معكما أسمع وأرى﴾[٥٧].

ولا حصر لمتعلقات السمع والبصر.. فإن الله تعالى يسمع ويرى تسبيح الكائنات كلية وجزئية.. كما تقترن صفة السمع بصفة العلم مباشرة.. لقوله تعالى: ﴿والله سميع عليم﴾ و ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ وتدفعنا تلك العبارة الأخيرة إلى الصفة المتعلقة بكمال السمع والبصر.

قلت: لا شك إنها صفة الكلام.

قال: نعم فإلى صفة الكلام إن شاء الله تعالى.

---

(٥٢) سورة الرعد الآية ١٠- ١١.
(٥٣) سورة الملك الآية ١٣.
(٥٤) سورة الملك الآية ١٤.
(٥٥) سورة القمر الآية ٣.
(٥٦) سورة طة الآية ٤٤.
(٥٧) سورة طة الآية ٤٦.

١٣ - الكلام

الكلام صفة قديمة قائمة بذات المتكلم سبحانه تعالى:

وفى نور الصفة الرابعة – وهى كونه تعالى مخالفا للحوادث.. غير مشابه لهم.. تنزه كلامه عن الحرفية والصوتية وجرس اللفظ.. إذ أن الكلام عند الحوادث لا يكون إلاّ من جسد.. ومن فم مؤلف من فتحة قصبة هوائية ولسان وشفتين وثنايا لتقطيع الحروف.. وما يستتبع ذلك من الرئتين والبلعوم والتنفس.. وكل هذا على الله محال.

قلت: فأى شىء يمكن أن نفهمه من صفة الكلام الإلهى إذن؟

قال: الذى نفهمه يجب أن يكون مستنيرا بمثل قوله تعالى: ﴿ولو أنّما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[٥٨] وقوله جل شأنه عن عيسى – عليه السلام ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾[٥٩] وقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾[٦٠] إلى آخر الكلمات.. ففى نور هذه الآيات نستطيع أن نستجلى كلمات الله تعالى فى جميع مخلوقاته ومقدراته التى تبرزها قدرته وتخصصها إزادته على وفق ما أحاط به علمه ونفذت به مشيئته.. وحيث أنه لا نهاية لمقدوراته... وأنه فعّال لما يريد بصفته السرمدية الأبدية... فإن أشجار الأرض ومياه البحار المحصورة والمقيدة بالعدد السبعى... لا تستطيع أن تكفى للإحاطة بمقدرات الله الخالق المطلق الجامع للمفهوم الكلىّ من الأزلية والأبدية.. اللتين هما موضوع القدم والبقاء.

وحاصل هذا أن كلمات الله تعالى.. الموحى بها بواسطة أمين الوحى.. تنزيلا بالروح.. إنما هى حدود تشريعية.. وأنباء تاريخية.. وعمليات الرسالات والإشارات إلى الجنة والنار.. والثواب والعقاب.. والمبعث والحشر والحساب.. والأرواح والأجساد.. والإشارة إلى الكلمات الرياضية التكوينية فى الحيوان والنبات.. والماء والهواء والنار.. والتراب والجماد.. وهذه هى الكلمات الكونية.

ومن هنا نجد أن الكلام الإلهى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كلام الوحى وهو كما يقول ﷺ «نفث روح القدس فى روعى» وهذا هو معنى التلقى الملكوتى لتلك المعانى العليا.. بلسان عربى مبين: ﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم﴾[٦١] بما اصطلحوا عليه من الألفاظ. تلك المعانى العليا التى هى كلام الوحى الإلهى المجرد.. الذى لا يتقيد بصوت ولا حرف... ولهذا لزم أن ينزل به أمين الوحى على قلب محمد – ﷺ – لا على أذنيه.. بدليل قوله تعالى ﴿نزل به الروح الأمين* على قلبك﴾[٦٢].

والقسم الثانى: هو كلمات التكوين.. وهى المخلوقات التى لا تنتهى إلى حد.. ولا تخضع لحصر ولا عدّ.. حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ وهو فعل مضارع لا ينتهى.. وقوله:

---

(٥٨) سورة لقمان الآية ٢٧.
(٥٩) سورة النساء الآية ١٧١.
(٦٠) سورة إبراهيم الآية ٢٤.
(٦١) سورة إبراهيم الآية ٤.
(٦٢) سورة الشعراء الأيتان ١٩٣، ١٩٤.

﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام﴾.. إلخ الآيات.. هذا مقيد محدود معدود.. وكلمات الله تعالى لا تحد امدا.. ولا تنحصر عددا.. ولا تنفد أبدا وهذا يؤيد المعنى الذى قررناه من أن كلماته تعالى هى مقدراته الأبدية.. وأن الكلام الإلهى يوضحه قوله تعالى عن المسيح - عليه السلام - ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ فيشعرنا هذا بالاطمئنان إلى المعنى الذى قدمناه من اعتبار كلمات الله تعالى هى مقدراته التى قدرها.. ومخلوقاته التى خلقها.. وحيث أنه خلاق سرمدى لا نهاية له ﴿كل يوم هو فى شأن﴾[٦٣] و ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ فلا نهاية لها ولا حصر - كما تقدم - وهذا هو معنى ﴿ولو أنّما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ لأن الكلمات هى هذه المقدرات السرمدية الأبدية.. التى تبرزها قدرته تعالى حسب ما تخصصه إرادته وتتعلق بها مشيئته تباعا وبغير انقطاع.. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

فصفة الكلام ليس معناها التلفظ باللفظ.. والقول عند البشر قد يكون مجردا من اللفظ والعبارة.. كما قال تعالى عن المسيح - عليه السلام - لأمه إثر ولادته: ﴿فقولى إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًّا﴾[٦٤].. وقوله ﴿قولى﴾ يعنى قرّرى فى نفسك أنك نذرت لله صومًا عن الكلام.. فلزم من هذا أن القول هو ما يكون كامنا فى النفس.. مقررا فى النيّة.. غير محتاج إلى اللفظ والعبارة.. ولذلك التزمت نية الصوم عند مريم - عليها السلام - عندما عيرّها قومها بالوليد: ﴿فأشارت إليه﴾ ولم تتكلم التزاما للوفاء بالنذر الصومى ﴿قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا﴾[٦٥].

لهذا يجب أن نقول إن كلام الله تعالى يعنى المعانى القديمة القائمة بنفسه تعالى.. فقد يوصف كلام الإنسان الحادث بهذه المعانى.. ولكن كلمات الله تعالى هى مقدراته المعلومة المقدرة المخصصة الأبدية.

ولذلك من المناسب الآن أن ننتقل إلى الصفات الكونية السبع.

قلت: ما هى تلك الصفات الكونية السبع؟؟؟

قال:

١٤ - كونه تعالى قادرا.
١٥ - كونه تعالى مريدا.
١٦ - كونه تعالى عالما.
١٧ - كونه تعالى حيًّا.
١٨ - كونه تعالى سميعًا.
١٩ - كونه تعالى بصيرًا.
٢٠ - كونه تعالى متكلما.

قلت: وما معنى أنها صفات كونية؟.

قال: سبق أن ذكرنا فى مطلع هذا البحث.. أن الصفات الكونية هى المتعلقة بالكون والمكونات تعلقا بغير انقطاع ولا تعطيل.. وإنما أبدًا سرمدًا وبلا نهاية.

---

(٦٣) سورة الرحمن الآية ٢٩.
(٦٤) سورة مريم الآية ٢٦.
(٦٥) سورة مريم الآية ٢٩.

قلت: وهل انتهت الصفات العشرون.. وهى واجبة لذات الله؟.

قال: نعم.. ويستحيل عليه أضدادها.. التى ذكرناها فى مستهل هذا البحث.

قلت: بعد أن انتهينا من هذا البحث السريع حول الصفات.. هل نحن على موعد مع الأسماء؟؟؟.

قال: نعم . فإلى اللقاء مع لطائف الأسماء.. بإذنه إن شاء.

أسماء الله الحسنى

١ - الله جـل جلالـه

قلت: هل من الممكن أن نعلم شيئا عن اسم ﴿الله﴾؟..

قال الأستاذ: هو أول الأسماء الإلهية.. وهو علم على ذات واجب الوجود - سبحانه وتعالى - إليه تستند الأسماء كلها.. فنقول: ﴿هو الله الرحمن الرحيم﴾ و ﴿هو الله الملك القدوس السلام﴾.. وهكذا تستند الأسماء.. التى هى أسماء الإحصاء.. إلى الإسم الأول.. وهو ﴿الله﴾..

قلت: وهل هو الاسم الأعظم؟

قال: يقول بعض العلماء: إن هذا الإسم هو الاسم الأعظم.. لأنه اسم للذات.. وبقية الأسماء إنما هى للصفات.

قلت: وهل سُمّى أحد بهذا الإسم؟..

قال: الواقع أن هذا الاسم معصوم من أن يسمَّى به باطلٌ أصلا.. فلم يسبق أن سمى صنم أو وثن باسم الله أبدا.. كما لم يُسمَّ به أحدٌ مطلقا.. ولهذا فالقرآن الكريم يتحدى قائلا: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾[1].

قلت: هل هذا الاسم مشتق من الألوهية؟..

قال: إنه عَلَم على الذات الإلهية.. وليس مشتقا من الألوهية - كما يزعم البعض -

قلت: وما مدى فهمنا لهذا الاسم العظيم؟..

قال: يكفى أن يستقر فى النفس الإذعانُ التام.. والخضوعُ الكامل بإجلال المسمى به - سبحانه - مع التفويض المطلق إليه فى أمر ذاته - أى ذات المسمى - تبارك وتعالى - فإن من النظريات العقلية.. المسلم بها رياضيا.. أن المحيط بكل شىء.. يستحيل أن يحيط به شىء..

قلت: لقد شطح الخيال ببعض العقول فحكموا بتجزئة الخلق وانقسامهم عن الخالق سبحانه.

قال: على فرض قبول التجزئة والانقسام - وتعالى الله عن ذلك - فيستحيل أن يحيط الجزء بالكل استحالة ذاتية.. فكيف بذاته - سبحانه وتعالى - وهو المطلق حتى عن قيد الإطلاق؟؟ فهو سبحانه واجب الوجود.

قلت: وما معنى أن الله - تعالى - واجب الوجود؟

قال: الأحكام العقلية فى مجموعها تنقسم إلى ثلاثة أقسام من حيث الوجود:

واجب - وجائز - ومستحيل. فالواجب هو ما لايمكن أن نتصور عدمه، والجائز هو ما يجوز وجوده.. ويجوز عدمه، والمستحيل هو ما لايمكن أن نتصور وجوده.

قلت: هل معنى هذا أن جميع المخلوقات تدخل فى حكم الجائز؟

---

(١) سورة مريم الآية ٦٥.

قال: نعم فإن جميع المخلوقات.. علوية أو سفلية.. رطبة أو يابسة.. جامدة أو مانعة أو غازية.. حيوانية أو نباتية أو فلزات[٢].. كلها تدخل فى حكم الجواز حيث يجوز أن توجد.. كما يجوز أن تنعدم.

قلت: أما الواجب؟

قال: العقل يحكم بأن الواجب لا يطرأ عليه العدم مطلقا.. ولذلك قلنا: إن الله - تعالى - هو واجب الوجود.. لأنه موجود أزلى أبدى مستمر الوجود.. فهو تعالى سبب كل موجود.. وسرّ الجمال فى كل مشهود.

قلت: إذن فما هو المستحيل؟

قال: أما المستحيل.. فإن قدرة الله تعالى لا تتعلق به مطلقا.. لأن المستحيل عدم بحت.. ولا تتعلق القدرة بالعدم.. فالعدم لا شىء.. ولا يعقل أن يكون اللاشىء موضوعا فى جريان القدرة.

قلت: هل من الممكن توضيح هذا الأمر ببعض الأمثلة التى تقرب معناه إلى أذهاننا؟.

قال: سأوجز لك مثلا بسيطا.. ضربناه من قريب: العقل يحكم باستحالة دخول الجمل فى سَمّ الخياط.. لأن هذا يخالف طبيعة الأشياء.. فنقول هذا أمر مستحيل. فلو فرضنا أن قدرة الله تعالى أحالت الجمل إلى خيط رفيع يدخل عين الإبرة.. فإن أصل الغرض أنه جمل وليس خيطا.. وإذا قلنا إن القدرة جعلت الإبرة تنفرج وتتسع حتى يدخل فيها الجمل.. فإن أصل الغرض هنا أنها عين إبرة وليست بوابة.. فلزم عدم تعلق قدرة الله بالمستحيل.. لأن المستحيل عدم.. والعدم ليس شيئا.

قلت: شكرا.. فهل نعود إلى اسم الذات - الله - جل جلاله؟

قال: ومما يدل على كون اسم الله تعالى علم على ذات واجب الوجود - جل شأنه - أن جميع الأسماء قابلة للإسناد إليه.. مثل قوله تعالى فى آخر سورة الحشر: ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾ إلى آخر أسماء الصفات.. كاسم القادر للقدرة.. واسم العليم للعلم.. واسم الرحيم للرحمة.

قلت: وهل توجد أسماء غير أسماء الصفات؟

قال: نعم.. توجد أسماء التكوين.. وهى الأسماء التى تتعلق بالعرش والمخلوقات.. وهى تستند أيضا إلى اسم الذات.. مثل قوله تعالى بعد الآية السابقة ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾ وعلى هذا نلاحظ عظمة اسم الجلالة ﴿الله﴾ وكونه مرجعًا للصفات والأسماء كلها من ناحية التكوين.. كقوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[٣] وقوله: ﴿قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم﴾[٤].

قلت: هل تجوز شهادة المسلم بغير هذا الاسم - الله -؟

---

(٢) الفلزات: اسم يجمع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وغيرها.
(٣) سورة الأنعام آيتا ١٠٣، ١٠٤.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٩.

قال : لا تتحقق شهادة المسلم إلا بهذا الاسم «أشهد أن لا إله إلا الله». فإذا قال: أشهد أن لا إله إلا الرحمن لا تتحقق شهادته.

قلت: هل يصح أن نقول: الله على العرش استوى؟

قال : إن مدلول اسم - الله - منزه - بذاته تعالى عن الاستواء بأى صورة من صور العرش.. فإن معنى كلمة العرش يعنى جميع المقدَّرات والمخلوقات وكل شىء مندرج فى الذات العلية.. وإنما يُسند الاستواء على العرش إلى أول أسماء الصفات.. وهو ﴿الرحمن﴾.. كما قال تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾(٥).

قلت: إذن كيف ندعو بهذا الاسم - الله - تحقيقا للأمر الصادر إلينا منه تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾؟

قال : قلنا إنه اسم الذات.. تسند إليه أسماء الصفات.. فإذا كنت محتاجا.. فقل: ياالله يا غنى ياكريم.. وإن كنت مقهورا مستذَلاً.. فقل ياالله ياقوى ياعزيز.. وإن كنت خائفا.. فقل ياالله ياسلام.. وإن كنت مظلوما فقل يا الله يا حكم يا عدل.. وهكذا فى باقى الأسماء التى سنستعرضها إن شاء الله تعالى بعد أن نستعرض اسم العرش - الرحمن -.

قلت: يقول تعالى: ﴿قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيًّا مًّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾(٦) فما المقصود من قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ ؟.

قال : الصلاة : هى الدعاء.. وقد اختلف المفسرون حول معنى هذه الآية.. ولضيق المقام سأورد لك بعضا من تلك الآراء.. فمنها قول بعضهم: إذا وقفت على بساط القُربة.. مع المنتخبين من الصحبة.. فاستر المناجاة مع الحبيب.. خوفا من اطلاع الرقيب.. وفى معناه أنشد شاعرهم:

تمنى أنـاس مـا أحبـوا وإنمـا ... تمنيت أن أشكو إليك وتسمعُ

كما قال بعضهم فى معنى تلك الآية: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ ومنهم عائشة وابن عباس -رضى الله عنهما- قالوا: هو أن يذنب العبد سرًّا.. فقيل له: لا تُظهرْ للناس تفصيل توبتك.. فيطلعوا على ما سترتُ عليك من زلّتك.. ﴿ولا تخافت بها﴾ أى لا تترك الاستغفار.. وابتعد عن الإصرار.. ولا تأمن الاغترار.. فلا تُفْش أسرارك تبقى حالتك مستورة.. وأَسْمِعْنا خطابك تَصِرْ زَلَّتك مغفورة.. أين أنت من لطف مولاك.. لما اقترفت ما نهاك.. حيث ناداك ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾.. وفى هذا المعنى قال شاعرهم:

أَرْخِ سترا على حقارة فعلي ... هَتْكُ ستر المحب ليس يَحلٌ
ربمـا قصَّـر الفقيـر المُقِـل ... فى حقـوقٍ بهنّ لا يستقـلّ
ولئن قَـلَّ خـدمـةً ووفـاءً ... فـولاءٌ وحُـرمـةٌ لا تَـقِـلّ

---

(٥) سورة طه الآية ٥.

(٦) سورة الإسراء الآية ١١٠.

ولكن المعنى الذى يشير إليه ظاهر النص.. هو الرأى الذى يقول: إن الصدّيق - رضى الله عنه - كان يخافت فى صلاته بالليل.. فلا يرفع صوته بقراءته. وكان عمر - رضى الله عنه - يجهر فى صلاته.. فسأل رسول الله - ﷺ - أبا بكر عن فعله.. فقال: أسمع من أناجى.. وقال عمر: أوقظ الوسنان[7].. وأطرد الشيطان.. وأرضى الرحمن.. فأمر أبا بكر.. حتى رفع قليلا.. وأمر عمر.. حتى خفض قليلا.

قلت: يقول تعالى: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[8] فما المقصود بوجه الله - تعالى - ؟

قال: لقد ذكّرتنى مناقشة بين الإمام علىّ - رضى الله عنه - وبعض الرهبان.. حيث دخل الراهب على باب مدينة العلم - علىّ - وقال له: ماذا قَبْل الله ؟.. فقال الإمام: هل تُحْسِن العَدد ؟؟. قال: نعم. قال: ماذا قبل الواحد ؟.. فقال الراهب: لا شىء قبل الواحد.. فقال الإمام: إذا كان الواحد الفانى لا شىء قبله.. فالله - سبحانه - لا شىء قبله. فقال الراهب: فى أى جهة يكون وجه الله ؟.. قال الإمام: إذا أوقدت السراج ففى أى جهة يكون وجهه ؟.. فقال: ذلك نور يملأ المكان.. وليس له جهة.. فقال الإمام: إذا كان النور الزائل الحادث لا جهة له.. فوجه ربى - جل وعلا - منزّه عن الجهة والمكان. فقال الراهب: ماذا يفعل ربك الآن ؟ فأجاب الإمام: يرفع أقواما ويخفض آخريْن ﴿كل يوم هو فى شأن﴾[9] فخجل الراهب وانصرف.

قلت: وما أثر هذا الاسم - الله - على العبد؟

قال: ينبغى أن يكون حظّ العبد من هذا الاسم - أن يكون مستغرّق القلب والهمّة بالله تعالى لا يرى غيره.. ولا يلتفت إلى سواه.. ولا يرجو ولا يخاف إلاّ إياه.. فقد رأينا من هذا الاسم أنه الموجود بحق.. وكل ما سواه فانٍ وهالك وباطل إلاّ به.. فيرى العبد أولا نفسه أول هالك وباطل.. وهذا هو ما رآه رسول الله - ﷺ - عندما قال:[10] «أصدق بيت قالته العرب.. قول لبيد: ألا كل شىء ماخلا الله باطل».

والآن ننتقل إلى اسم - الرحمن - إن شاء الله تعالى..

* * *

---

(٧) النائم.

(٨) سورة البقرة الآية ١١٥.

(٩) سورة الرحمن الآية ٢٩.

(١٠) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه.. عن أبى هريرة بلفظ: «أصدق كلمة قالها الشاعر.. كلمة لبِيد: ألا كل شىء ما خلا الله باطل».

٢ - الرحمن

قلت: الله تعالى يقول فى كتابه الكريم: ﴿قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا﴾[(١)] والمعروف فى اللغة أن لفظ ﴿أو﴾ يفيد التخيير بين شيئين مختلفين.. فهل ينطبق هذا الحكم اللغوى على الإسمين الكريمين: الله الرحمن؟

قال: إن اسم ﴿الله﴾ هو اسم الذات العليا.. أما اسم ﴿الرحمن﴾ فهو أول أسماء الصفات - كما ذكرنا من قريب - فهو اسم العرش.. كما قال تعالى: ﴿ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا﴾[(٢)] فاسم ﴿الرحمن﴾ اسم يجمع شئون الملك.. يجرى فى فلكه كل أسماء الصفات المتعلقة بالعرش والمعروشين.. والخلق والمخلوقين.. والرزق والمرزوقين.. فهو المدد الدائم المستمر لكل مستلزمات الخلق بما يضمن لها النماء والبقاء.. فمثلاً يجرى فى فلكه الأسماء: الخالق - البارئ - المصور - البديع - الرزاق.... الخ.

قلت: وهل من أجل هذا يقول تعالى ﴿فاسأل به خبيرًا﴾؟

قال: نعم.. فهو اسم يحتاج إلى خبرة واسعة فى كل جوانب الحياة المادية.. فقد خلق لأن اسمه ﴿الخالق﴾.. ورزق لأن اسمه ﴿الرّزّاق﴾... وأبدع لأن اسمه ﴿البديع﴾.. وجعل الأسماع لأن اسمه ﴿السميع﴾.. وشق الأبصار لأن اسمه ﴿البصير﴾.. وهكذا تجرى كل تلك الأسماء فى فلك الاسم ﴿الرحمن﴾... اسم العرش.

قلت: فما هو العرش إذن؟

قال: العرش هو كل المخلوقات والمقدرات - كما قلنا سابقًا - علوية أو سفلية.. رطبة أو يابسة.. جامدة أو مائعة أو غازية.. حيوانية أو نباتية أو فلزات.. مانعلمه وما لا نعلمه.. كلها تكوّن الكيان المادى لعرش الرحمن - جل وعلا - فأنا وأنت وكل ما تبصرون وما لا تبصرون إنما هى ذرات من ذرات هذا العرش العظيم.. حياتها من الاسم ﴿الحىّ﴾.. وقيامها من الاسم ﴿القيوم﴾ وعلمها من الاسم ﴿العليم﴾ ورزقها من الاسم ﴿الرزاق﴾.

فكيف يكون خلّاقًا - سبحانه - إذا لم يكن هناك مخلوقون؟

وكيف يكون رزاقًا - إذا لم يكن هناك مرزوقون؟

وكيف يكون عرش من غير معروشين؟

إننا إذا قلنا: إن رئيس جمهورية مصر يجلس على عرش مصر - ولله المثل الأعلى - فهل معنى هذا أنه يوجد كرسى يغطى سطح الجمهورية.. ويجلس عليه رئيسها؟.. أم أن عرش مصر.. بمعنى السلطة المهيمنة على كل مافيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك؟.

---

(١) سورة الإسراء آية ١١٠. (٢) سورة الفرقان آية ٥٩.

وأسأل الله تعالى أن يغفر لبعض المتعالين.. الذين جسدوا عرش الرحمن.. فجعلوه كرسيًا فوق السماوات العلا.. وأدى بهم هذا الفكر الشيطانى الخاطئ إلى شبهة تجسيد الذات – وجل شأن الله – وتعالى عن ذلك علوا كبيرًا..وكان يكفى أن يسمعوا قول الإمام أبى حنيفة.. عندما سئل عن كيفية الاستواء على العرش.. حيث قال: «الاستواء معلوم.. والكيف مجهول.. والسؤال عنه بدعة».

قلت: أليس بحثك هذا يا أستاذ بحثًا عن كيفية الاستواء على العرش؟

قال: أستغفر الله من أن يكون كلامى هذا بحثًا عن كيفية الاستواء على العرش.. إنما هو تدبر فى معنى العرش.. تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٣] وقوله: ﴿أفلم يدبروا القول﴾[٤] وقوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[٥] فبحثنا هذا يدور حول معنى العرش.. وليس عن كيفية الاستواء.. لأن ذات الله تعالى. معصومة عن الكيفية والكمية والزمانية والمكانية.. كما ذكرنا فى بحث الصفات.

قلت: إذا كان هذا هو مفهوم العرش.. وهو مفهوم منطقى معقول.. فكيف نفهم إذن وجود حملة للعرش.. حيث قال تعالى حول يوم القيامة: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾[٦]؟

قال: هذا السؤال سابق لأوانه.. وسيأتى إن شاء الله تعالى عند استعراضنا لاسم – الملك – جل جلاله.. لأن العرش يتعلق بالملك.

قلت: وماذا قال رجال التفسير حول اسم – الرحمن؟

قال: قال رجال التفسير: إن معنى – الرحمن – هو المتفضل بجلائل النعم فى الدنيا، أى بالنعم الكبرى. كما قال الإمام النسفى والقرطبى وغيرهما من أصحاب كتب التفسير: إن اسم الرحمن – خاص بالتسمية بالله.. لأنه لا يوصف به غير الله فلا نقول: محمد رحمن. وفى نفس الوقت هو عام فى مفعوله.... يعم المؤمن والكافر بجلائل النعم.

أما اسم – الرحيم – فهو غير اسم – الرحمن – يوصف به غير الله.. فنقول: محمد رحيم.. وعلىّ رحيم.. ولكنه فى مفعوله يخص المؤمنين فقط.. لأن الله رحيم بالمؤمنين من دون الكافرين لقوله تعالى ﴿ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[٧] ولهذا ورد فى الدعاء: يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة.

قلت: وهل وردت آراء أخرى فى كتب التفسير حول اسم – الرحمن –؟

قال: قالوا: الرحمن بوزن فَعْلان – من (رحِمٌ).. بزيادة الألف والنون للمبالغة... مثل غضِبٌ وغضبان.. وظمِئَ وظمآن.. لأن غضبان مبالغة فى الغضب.. وظمآن مبالغة فى الظمأ.. فالرحمن مبالغة من رحمٍ – فهو الذى وسعت رحمته كل شىء. أما ابن العربى.. فقال فيه من ناحية اللغة: الرحم شِجْنةٌ من الرحمن.. أى قرابة مشتبكة.. كما جاء فى الحديث: «الرحم شجنة من الله تعالى» يقصد أن الرحم مشتقة من الرحمن كما أخرج الترمذى عن عبد الرحمن بن

---

(٣) سورة محمد آية ٢٤.
(٤) سورة المؤمنون آية ٦٨.
(٥) سورة ص آية ٢٩.
(٦) سورة الحاقة آية ١٧.
(٧) سورة الأعراف آية ١٥٦.

عوف – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: «قال الله تعالى.. أنا الله وأنا الرحمن.. خلقت الرحم.. وشققت لها من اسمى.. فمن وصلها وصلته.. ومن قطعها قطعته» وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

قلت: وما المقصود بالرحم؟

قال: يفسره لنا ابن العربى فيقول: الرحم هو مكان الاجتنان.. القابل لوجود مخلوقات بدون انقطاع.. وكل مافيها باطن بها.. والألف والنون للمبالغة.. مثل حياة وحيوان فى قوله تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهى الحيوان﴾[8] أى الحياة الكبرى بالألف والنون مبالغة.. مثل جائع وجوعان.

قلت: وماذا يقصد ابن العربى بقوله عن الرحم أنه مكان الاجتنان القابل لوجود مخلوقات بغير انقطاع.. وكل مافيها باطن بها؟

قال: أضرب لك مثلاً بسيطًا.. يقرّب هذا المعنى.. فرحم الدجاجة نجد فيه عنقود البيض الصغير.. كلما نزلت بيضة.. تجد فى العنقود عشرات الحبيبات التى تعتبر أساسًا للبيض الكثير الذى لا ينتهى كلما هيئت له أسباب التوالد والنماء.

قلت: وماذا نستخلص من أقوال الأئمة رجال التفسير حول هذا الاسم الكريم؟

قال: يبدو مما تقدم أن المقصود بمعنى الرحم هنا.. بصيغة المبالغة بالألف والنون – الرحمن أنه هو مكان اختزان المقدرات كلها.. وهو من مجالى اسم الله ﴿الباطن﴾.. فإن الباطن هو الله تعالى – من حيث التدبير.. وهو ﴿الظاهر﴾ من حيث تكوّن وإظهار هذه المدبرات التى دبّرها – سبحانه.

قلت: أنا مازلت فى حاجة ياأستاذى إلى توضيح هذا المفهوم الباطن والظاهر بمثل يقرّب معناه.

قال: سأضرب لك مثلا ذكرته فى بحث الصفات ولله المثل الأعلى.

مهندس معمارى.. يمتلئ صدره بصور متعددة من العمائر والمبانى بصور وألوان مختلفة وكل ذلك بالعلم المجرد.. فهذا العلم نسميه: علم باطن فيه لم يظهر بعد.. ذلك هو الباطن.. بالنسبة لذلك المهندس.. ثم أراد إبراز هذا العلم من باطن صدره.. إلى حيز الظهور والتكوين.. فأخذ المهندس طريقة إلى الأسباب اللازمة لإقامة تلك العمائر.. فبدأ يرسمها فى الورق الشفاف.. فصار هذا الرسم إبرازًا ابتدائيًا ونموذجيًا للبناء المنتظر تكوينه.. ثم ينتقل المهندس إلى إظهار تلك المبانى إلى عالم الظهور.. وذلك هو الظاهر بالنسبة الى المهندس.

قلت: وهل توجد علاقة بين اسمى – الباطن والظاهر – باسم – الرحمن؟

قال: كل اسم من أسماء الله – تعالى – يلزمه المقابل له.. فأسم الباطن يقابله اسم – الأول – لأن البطون يعتبر أولاً قبل الظهور.. واسم الظاهر يقابله اسم – الآخر – لأن الظهور يعتبر آخرًا بعد البطون.. والله تعالى من حيث ذاته: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾[9]، وتلك المجالى لهذه الأسماء كلها.. تابعة لسلطان اسم العرش وهو – الرحمن.

---

(8) سورة العنكبوت آية ٦٤.

(9) سورة الحديد آية ٣.

قلت: حقا إنه اسم يحتاج إلى خبرة واسعة.

قال: ولهذا قال الله إنه اسم يحتاج إلى خبرة: ﴿الرحمن فاسأل به خبيرا﴾ لشمول إحاطته بالحكم والمحكومين.. والملك والمملوكين.. والخلق والمخلوقين.. والرزق والمرزوقين.. والتدبير والمدبَّرات.

فالخلاق مجلاه المخلوقين.. والرزاق مجلاه المرزوقين.. وهكذا تتعدد وتختلف مجالى أسمائه تعالى.. والذات واحدة لا تتعدد. كل هذا تفضلاً منه.. لأنه - الرحيم.

وبهذا انتقلنا إلى الاسم - الرحيم.

قلت: قبل أن ننتقل إلى اسم - الرحيم - لى سؤال هام وهو:

هل معنى هذا أن اسم - الرحمن - ليس مشتقًا من الرحمة؟

قال: ذهب بعضهم إلى أنه غير مشتق من الرحمة.. بدليل أنه لا يذكر فى مواقف الرحمة.. فنحن نقول: الله رحيم بعباده.. ولا نقول: رحمن بعباده.. كما أنه لو كان مشتقًا من الرحمة لما أنكره العرب حين سمعوه.. فهم لاينكرون رحمة ربهم.. وقد قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا﴾(١٠) ولكن الكثير قال: إنه مشتق من الرحمة.. مبنى على المبالغة.. فقالوا: إنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة التى وسعت الخلق فى أرزاقهم.. وأسباب معايشهم.. وعمّت المؤمن والكافر.. والصالح وغير الصالح.

وإن كنت أميل إلى الرأى الأول.

فهيا بنا إلى الاسم - الرحيم - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١٠) سورة الفرقان آية ٦٠.

٣ - الرحيـم

قلت: وقفنا مع اسم - الرحمن - عند شمول إحاطته بالحكم والملك.. والخلق والرزق.. والإبداع والتصوير.. وأمور الحياة والتدبير.. وذلك لأن الله حكيم عليم.. بخلقه رحيم.. فهل معنى هذا أن هناك ارتباطًا بين اسمى: الرحمن الرحيم؟

قال: نعم هناك ارتباط وثيق بين الاسمين.. فإذا كان اسم - الرحمن - هو مبدأ أسماء الصفات العرشية. لزم أن يكون الاسم الرحيم.. هو السبب المباشر لتنزّلات تلك الأسماء المتعلقة بالعرش.. بالفيض على المعروشين.. للحياة والبقاء.. والزيادة والنماء.. مع كمال الخلود.. وتدبير الرزق.. والتجلى بصفات القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام.. وهذا كله كامن فى اسمه تعالى - الرحيم.

قلت: هل من الممكن أن تزيدنى فى هذا الأمر إيضاحًا؟

قال: نعم.. ونستعين بالله تعالى.. ليمدّنا بفيض من عنده.. يعيننا به على إبراز تلك الحقائق.. التى يلزم كل مؤمن أن يحيط بها.. وأن يتذوّق معانيها ويستشفّ مراميها. فنقول وبالله التوفيق.

إن كل المخلوقات كانت كامنة فى عالم البطون.. ومجرد إظهار تلك المخلوقات الكامنة المعلومة وإبرازها من عالم البطون - فى مجالى الاسم الباطن - إلى عالم الظهور فى مجالى الاسم الظاهر - يعتبر رحمة وفضلًا منه تعالى - بأن خلق وبرأ وأنشأ.. وجعل السمع والبصر وأنطق اللسان.. ليكون المخلوق مهيئًا لاستقبال تجليات الصفات.. ويكون هذا إعلانًا للتنافس بين ذوى البصائر والأبصار.. من الأحياء المخلوقين.. الممنوحين من الرحيم سبع صفات من صفاته تعالى.

قلت: هل منح الله الإنسان سبع صفات من صفاته؟

قال: نعم ويسميها العلماء بالصفات الكونية.. وقد أشرنا إليها فى بحث الصفات.. وهى: القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام(١).

قلت: لقد فهمت الآن رحمة الله تعالى بنا.. حين أوجدنا.. ومنحنا تلك الصفات الكونية.. ثم تجلى لنا بالصفات العرشية.

قال: هذا الفهم.. هو الذى كان يقصده باب مدينة العلم - على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه.. عندما قال: «إن النعمة الأولى هى نعمة الوجود».

قلت: إذن فالوجود كله متعلق بالأسماء الثلاثة: الله - الرحمن - الرحيم؟

قال: نعم، ولهذا جعل الله تعالى مفتتح كل شىء: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حيث انتقل من اسم الذات ﴿الله﴾ إلى اسم العرش ﴿الرحمن﴾ لأنه ﴿الرحيم﴾ ولهذا يقول المعصوم.. صلوات الله

---

(١) ارجع إلى بحث الصفات الواجبة لله تعالى.. فى مطلع هذا الكتاب.

وسلامه عليه: «كل أمرٍ ذى بال لايبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم.. فهو أبتر[٢]» كما جعلها الله تعالى مبدأ لجميع سورِ القرآن الكريم.

قلت: يخيل إلىّ أن لهذا الارتباط بين الأسماء الثلاثة: الله الرحمن الرحيم - سرًا عظيمًا. وأمرًا خطيرًا؟

قال: نعم.. إن هذا التعانق الكريم.. يحوى فى طياته جنودًا لا يعلم قوّتها وفاعليتها إلاّ صاحبها.

ألا ترى معى كيف اتخذ سليمان - عليه السلام - من ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ جنودًا لا قِبَلَ لبلقيس وقومها - قوم سبأ أقول لا قبل لهم بها.. ولا طاقة عندهم لمقاومة تأثيرها؟

وكان سليمان - عليه السلام - جازم الإيمان بأن جنود هذه الآية.. لن ترجع من سبأ حتى تُحِقّ الحق.. وتُبطل الباطل.. وتُخرج ورثة العمالقة العاديين الجبابرة - أعتى دولة فى تاريخ البشرية.. سلالة قوم عاد.. تخرجهم من ديارهم أذلّة بسبب عبادتهم الشمس صاغرين.. لأنهم أشركوا بالله.. حيث لا عزة إلا بالإيمان.

فقل لى بربك.. هل أرسل سليمان لهم غير ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يحمل نصها هذا الهدهد الحكيم.. ليلقيه على بلقيس وقومها.. إلقاء روحيًا بذات صاحب اسم الله الرحمن الرحيم ماديًا بصورة الكتاب الذى أرسله مع الهدهد وقال له: ﴿اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم﴾[٣].. وليس فى الكتاب غير بسم الله الرحمن الرحيم..

﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألاّ تعلوا علىّ وائتونى مسلمين﴾[٤] فلم تلبث بلقيس أن هرولت من سبأ باليمن إلى أورشليم بفلسطين.. مدفوعة بتلك القوات الخفية الكامنة فى حنايا هذا التعانق الكريم بين الأسماء الثلاثة الكريمة.. ثم قالت خاضعة خاشعة: ﴿رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[٥].

وهكذا كانت رحلة جنود - الرحمن الرحيم - إلى سبأ رحلة موفقة.. ميمونة الطالع.. أوقفت تيارًا خاطئًا.. دفع الناس فى اليمن إلى عبادة الشمس من دون الله.. وأعادتهم جنود تلك الأسماء المتعانقة الثلاثة إلى عبادة الله وحده.. وهو الذى يملك وحده سعادة الإنسان.. متى سبقت له الحسنى وكان من المؤمنين.

قلت: نلاحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وردت فى أول كل سورة من سور القرآن الكريم إلاّ سورة التوبة.. فلم تبدأ بها.. فما السبب؟

قال: قال رجال التفسير كالقرطبى والنسفى والبيضاوى وغيرهم: إن سورة التوبة لها أسماء: براءة - والتوبة - والمُقَشْقِشة - والمبْعثِرة - والمشردة - والمُخْزِية والفاضحة - والمثيرة - والحافرة - والمنكلة - والمُدَمْدِمَة. وكلها كما ترى أسماء فيها جبروت وليست فيها رحمة.. فهى تُقشقش - أى تبرئ منه - وتبعثر أسرار المنافقين وتبحث عنها.. وتثيرها.. وتحفر فيها.. وتفضحهم.. وتنكل بهم.. وتشردهم.. وتخزيهم.. وتدمدم عليهم.

---

(٢) مقطوع ناقص.
(٣) سورة النمل آية ٢٨.
(٤) سورة النمل آيتا ٣٠، ٣١.
(٥) سورة النمل آية ٤٤.

فهى تجرى فى مجالى اسم الله ﴿الجبار﴾ ولا محل فيها لذكر الرحمة الواردة فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.. ولهذا قال علىّ وابن عباس - رضى الله عنهما: إن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أمان.. وسورة براءة نزلت لرفع الأمان.

قلت: إذن توجد علاقة بين هذا الأمر.. وبين عدم ذكر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ عند الذبح؟

قال: نعم.. فالذبح ليست فيه رحمة بالمذبوح.. فأنت إذا قلت عند الذبح: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فالمفروض أن ترفع السكين ولا تذبح.. مادمت قد دخلت فى مجالى الرحمة، ولكن قل ﴿بسم الله.. الله أكبر﴾.

قلت: نخلص من هذا أن هناك رابطة وثيقة بين الأسماء: الله.. الرحمن.. الرحيم.. كما هو وارد فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

قال: وكما هو وارد أيضًا فى قوله تعالى: ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾(٦) لأن الوجود كله. مابدا منه وما خفى.. كان كائنًا مخلوقًا من فيض رحمة الله وعطفه.. وكمال عنايته ولطفه.

ومن ثم تكون جميع المظاهر من آياته وظواهر تجلياته.. وكمال إبداعه فى مصنوعاته.. كلها مرائى عظمته.. وبراهين حكمته.. ودلائل قدرته. لهذا كان من الملائم أن يكون اسمه التالى للرتبة.. بعد اسم الرحيم - هو اسم - الملك.

قلت: قبل أن ننتقل إلى اسم - الملك - لى سؤال هو: هل يفيض الله تعالى على خلقه بنصيب من الرحمة فيكونون رحماء؟

قال: نعم المخلوق الرحيم يستمد هذه الصفة من تجليات الاسم - الرحيم - وأوفى خلق الله نصيبًا من هذا الاسم هو نبينا - ﷺ حيث يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾(٧).

وقد أخبرنا عليه الصلاة والسلام - عن فيوض الرحمة بين خلق الله.. فى حديث ورد فى مسند ابن حنبل.. قال عنه - ﷺ:

«إن الله عز وجل خلق مائة رحمة.. فمنها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق: فبها تعطف الوحوش على أولادها.. وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة» كما ورد هذا الحديث مع اختلاف فى النص.. فى سنن ابن ماجه.. وصحيح مسلم. وقد ذكر الطبرى(٨) هذا الحديث مطولاً.. قال: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الوهاب قال: حدثنا داود عن أبى عثمان.. عن سليمان قال: «إن الله تعالى ذِكْره.. لما خلق السماوات والأرض.. خلق مائة رحمة.. كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض.. فعنده تسع وتسعون رحمة.. وقسّم رحمة بين الخلائق.. فبها يتعاطفون.. وبها تشرب الوحش والطير الماء.. فإذا كان يوم القيامة.. قصرها الله على المتقين.. وزادهم تسعًا وتسعين».

---

(٦) سورة الحشر آية ٢٢.

(٧) سورة التوبة آية ١٢٨.

(٨) الجزء السابع.. صفحة ٢٧٣ - تفسير الطبرى.

فأنت ترى أن رحمة واحدة وزعت بين الخلائق.. بها تتابع الطير فى جو السماء.. وتسبح الحيتان فى أعماق الماء.. وتحن الأمهات على الأبناء.. ويتراحم بها الحكماء والعلماء على عباد الله الجهلاء.

قلت: قرأت فى بعض الأحاديث أن الله تعالى قال: «سبقت رحمتى غضبى» فما معنى هذا؟

قال: روى البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله –ﷺ– قال: «إن الله لما قضى الخلق.. كتب عنده – فوق العرش – إن رحمتى سبقت غضبى» وفى رواية «تغلب غضبى».

فرحمة الله: إرادته للخير.. والخير بإرادته. وغضبه: إرادته للشر.. والشر بإرادته ايضًا ولكنه تعالى أراد الخير للخير نفسه.. وأراد الشر لما فى باطنه من الخير.. فلم يرد الشر لذات الشر.. فإذا حدثك خاطرك بأن هذا الشر لا خير فيه.. فاتهم عقلك فى هذا الخاطر.. ولعلك فيه مثل الصبى الذى يرى الدواء المرّ شرا محضًا.. أو مثل الغبى الذى يرى القصاص بالقتل شرا محضًا.. لأنه ينظر إلى خصوص المقتول.. ويغفل عن الخير العام الحاصل للمجتمع.. ولا يدرى أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض.. فلا يكن فى قلبك شك مطلقًا أنه أرحم الراحمين.. وأنه سبقت رحمته غضبه ولا يكن عندك ريب أن مريد الشرّ للشر لا للخير غير مستحق لسريان الرحمة فيه.. ولا تطمع فى أكثر من هذا.. فأنت أيها الأخ الحبيب لا أظنك إلا مستبصرًا بسر الله فى القدر.. مستغنيًا عن تلك التحويمات والتنبيهات.

قلت: وهل لهذا الاسم – الرحيم – من أثر فى الدعاء؟

قال: هذا الاسم صالح فى الذكر والدعاء لكل طائع وعاصٍ.. ومن داوم على ذكره بدون عدد.. جعل الله عدوه صديقًا.. ووجد راحة فى نفسه وبدنه – وهو من أعظم الأسماء لقضاء الحاجات حسب نية الذاكر.. والأمور مرهونة بمشيئة الله تعالى فعليك بالهمة وصحة الاعتقاد الجازم. ومن حقنا الآن أن ننتقل إلى الأسم التالى – الملك.

* * *

٤ - الملك

قلت: إذا كان اسم الله - هو اسم الذات العلية - والرحمن - اسم بجميع شئون العرش والمعروشين.. والرحيم - مصدر تجليات الرحمة بالمخلوقين.. لضمان نمائهم وبقائهم فما هو مدار اسم - الملك -؟.

قال: جاء اسم - الملك - فى المرتبة التالية لاسم الرحيم.. لأن الملك هو صاحب العرش وهو مصدر الأحكام ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾[1] و﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾[2] فأنت ترى العلاقة الوثيقة بين اسم - الملك - واسمى - الرحمن والرحيم - اللذين عليهما مدار العرش ومتعلقاته.

قلت: إذن توجد علاقة بين العرش واسم - الملك -.

قال: نعم لأن الملك هو صاحب العرش.

قلت: فما المقصود من قول الله - تعالى حول يوم القيامة: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾[3]؟

قال: هذه الآية تدل على استمرار تجليات وفاعلية الاسم - الرحمن - الذى هو اسم العرش فى الآخرة.. وأن الثمانية من القوى الملائكية ما هى إلّا ازدواج لحملة العرش الآن فى الدنيا.

قلت: ومن هم حملة العرش فى الدنيا؟

قال: قرر العلماء أن حملة العرش فى الدنيا أربعة هم:

جبريل: وهو المختص برسالات السماء.

وميكائيل: وهو المختص بالأرزاق وتدبيرها.

وعزرائيل: وهو ملك الموت.

وإسرافيل: وهو النافخ فى الصور يوم الصعقة الكبرى.. ويوم البعث والنشور.. ولكل منهم تخصصه وأمانته التى حملها من عرش الملك - جل جلاله.. كما يحمل الوزير أمانة وزارته ومسئوليتها أمام رئيسه - ولله المثل الأعلى وهذا هو معنى حمل العرش.. وليس بمعنى الحمل الذى يتصوره الجاهلون ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾.

قلت: وهل يجب على المؤمن أن يؤمن بوجود ملائكة غير الأربعة حملة العرش فى الدنيا؟.

قال: نعم على المؤمن أن يؤمن بوجود عشرة ملائكة.. تحقيقا للبند الثانى من بنود الإيمان الستة التى أشرنا إليها من قبل وهى:

---

(١) سورة هود الآية ١٢٣.

(٢) سورة الملك الآية ١.

(٣) سورة الحاقة الآية ١٧.

الإيمان بالله - وملائكته - وكتبه - ورسله - واليوم الآخر - وأن يؤمن بالقدر.. فإذا كان البند الثانى هو الإيمان بالملائكة.. فعلينا أن نعرف منهم عشرة : الأربعة حملة العرش.. ورقيب وعتيد وهما الموكلان بالحفظ وتسجيل الحسنات والسيئات.. ومنكر ونكير.. وهما رسولا الحساب عند الموت.. ورضوان خازن الجنة ومالك خازن النار وهذا كله إيمان بالغيب.. لنكون من ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[٤] وهؤلاء كلهم عليهم السلام من جنود اسم الملك ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[٥].

قلت: معنى هذا أنه يحصل ازدواج فى حملة العرش يوم القيامة.. من أربعة إلى ثمانية؟

قال : نعم.. هذا ما أخبرنا به ربنا - جل شأنه - وهذا الازدواج يدل على حدوث مظاهر وتجليات لم تبرز فى الدنيا من دائرة مجال الاسم - الباطن - وعليه يكون الحكم فى شأنها الآن حكما لا أساس له.

قلت: إذن ـ لقد اتضح الآن أن حمل عرش الرحمن - جل جلاله - بصورة غيرما نفهمها.

قال : إن القول بمعنى حمل العرش .. هو غير ما يتبادر من معنى الحمل عندنا.. وكذلك تعدد أجنحة الملائكة فى قوله تعالى: ﴿جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾[٦] فهى لا تشبه بحال الأجنحة من الريش.. التى تضرب الهواء لكى تحمل ثقل جسم الطائر فالملائكة لا ثقل فى أجسامها.. ولهذا فلا وجه للمقارنة بين أجنحة الطير وأجنحة الملائكة.. فأجسام الملائكة مجهولة لنا.. مع معرفتنا بأسمائها.. وإنما المراد أن نعلم أن الملائكة تصعد وتنزل.. مثل صعود الطير ونزوله.

وعليه يجب أن نعلم أن حمل العرش ليس حملا على العواتق.. ولا يجوز أن نفهم أن للعرش ثقلا يحمل.. وإنما يجب التفويض فى هذا إلى الله.. فإذا كان حملة العرش الآن أربعة فهو نظام ملكوتى غيبى.. والإيمان بالسمعيات أمر لازم.. ولن يخطر بالبال أى خاطر عن حقيقة الأمور الغيبية السمعية فإن مجرد إمكان تصورها.. يخرج بها عن نطاق الإيمان بالغيب.. كما قال تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وهذا الأمر غيبى محض.

قلت: يفهم من هذا أن استواء الرحمن على العرش.. ليس بالمعنى المفهوم أيضًا؟.

قال : إنه باستواء الرحمن على العرش.. كان هو الملك.. وليس استواء الملك هنا بمعنى الجلوس أو الاستقرار.. ولا بمعنى مجرد الاستيلاء على السلطان والحكم كما رأى بعضهم المفسرين - ولكنه استواء سريان الحياة والقوة فى كل شىء.. لأن الذى استوى على العرش هو ﴿بكل شىء محيط﴾[٧] ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾[٨] إلى آخر الآيات التى تدل على شمول إحاطته بالعلم والذات والقوة.. لأنه ﴿لاقوة إلا بالله﴾.

ونخرج من هذا.. بأن الاستواء معلوم.. والكيف مجهول.. لأننا ناقصو العقل فى هذه الحياة الدنيا.. ولاتزال بصائرنا غافلة عن إدراك الحقائق الملكوتية الكبرى إلى أن يكشف عنا الغطاء بالموت.. فنرى تلك الحقائق.

---

(٤) سورة البقرة الآية ٣.
(٥) سورة المدثر الآية ٣١.
(٦) سورة فاطر الآية ١.
(٧) سورة فصلت الآية ٥٤.
(٨) سورة الحديد الآية ٤.

قلت: هل تسمى الموت كشفًا للغطاء؟

قال: نعم.. ألم تسمع قول الملائكة لابن آدم عند الموت ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[9] فمن العدل والإنصاف أن يتوقف المحجوب تحت الغطاء.. عن إصدار أى حكم فى حقيقة لن تظهر إلا بعد كشف هذا الغطاء.

وليس هناك علم تطمئن إليه النفس.. إلا إذا كان هو تعالى مصدره.. وما من حكم ينشرح له الصدر إلّا إذا كان منه تعالى.. بوصف أنه - الملك - واسم الملك يقتضى مملوكين.. كما يقتضى اسم الحكم محكومين.

قلت: وما معنى المَلِك فى اللغة؟

قال: يقول تعالى فى أول سورة المُلْك: ﴿تبارك الذى بيده المُلْك وهو على كل شىء قدير﴾.. ومعنى المَلِك فى اللغة: هو سلطان الحكم والتقنين والتشريع.. والتحليل والتحريم.. والجزاء ثوابا وعقابا.

وتلك المعانى كلها جزء مما يتضمنه معنى اسم - الملك -.

قلت: وهل هذا المعنى المقصود فى قوله تعالى.. فى فاتحة الكتاب: ﴿ملك يوم الدين﴾؟

قال: إن قوله تعالى: ﴿ملك يوم الدين﴾ تعنى سلطان الحكم كما بيّنّا.. وأما قراءة حفص لتلك الآية ﴿مالك يوم الدين﴾ فإنها تفيد تمام ملكية الملك لكل شىء سواه.. مما خلقه وسوّاه.. كما قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾[10] مما يجعل إسناد الملك إلى سواه تعالى إسنادا مجازيا.. لأن الملِك يجب أن يكون مالكا لما سواه ملكا خالصا مستمدا له من ذاته.

وهذا هو الذى يجب أن تلحظه فى سريان قدرته تعالى فى كل قادر.. وحكمته فى كل حكيم.. وبصره فى كل بصير.

وهكذا نجد استغراقا كلاما بكل كائن فى غيوب شهادات الاسم الملك لأنه متعلق باسم - القاهر - بوصفه الملك.

وللقاهر مقهورون هم عباده إذا آمنوا.. وعبيده إذا كفروا .

قلت: وهل العبادة للملك القاهر.. قاصرة على بنى الإنسان؟

قال: كل شىء فى السماوات والأرض.. وما بين السماوات والأرض.. وما فوق السماوات وتحت الأرض.. وما لا يعلمه سواه.. مذْعِن لعبادته بالذات .

كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها﴾[11] من العقلاء وقوله: ﴿يسبح لله ما فى السمٰوات وما فى الأرض الملك القدوس﴾[12] من الأشياء غير العاقلة وقوله: ﴿وإن من شىء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[13] إن الملك - جل جلاله - فى علياء عرشه العظيم يقول: ﴿هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾[14].

---

(٩) سورة ق الآية ٢٢.
(١٠) سورة آل عمران الآية ٢٦.
(١١) سورة الرعد الآية ١٥.
(١٢) سورة الجمعة الآية ١
(١٣) سورة الإسراء الآية ٤٤
(١٤) سورة الأنعام الآية ١٨

ومن هنا نراه - سبحانه - لا نهاية لعلمه.. ولا معقب لحكمه.. ولا قدرة لأحد على الخروج من قبضته.. كما قدم لنا بهذا دليلا: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا﴾[١٥].

قلت: هل يجوز أن نقول: الإنسان مَلِك نفسه؟

قال: الإنسان مملكته الخاصة جسمه.. وعاصمتها القلب.. وجنده شهوته وغضبه وهواه.. ورعيته لسانه وعيناه ويداه وسائر أعضائه.. فإذا ملكها ولم تملكه.. وأطاعته ولم يطعها فقد نال درجة الملك فى عالمه الخاص فإذا انضم إليه استغناؤه عن كل الناس واحتاج الناس كلهم إليه فى حياتهم الآجلة والعاجلة.. فهو الملك فى العالم الأرضى.. ويقول الإمام أبو حامد الغزالى عن هذا النوع من البشر أنهم الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم استغنوا فى الهداية إلى الحياة الآخرة عن كل أحد إلاّ عن الله عزّ وجل واحتاج إليهم كل الناس.. ويليهم فى هذا المُلك العلماء.. الذين هم ورثة الأنبياء.. وإنما مُلكهم بقدر قدرتهم على إرشاد العباد.. واستغنائهم هم عن الاسترشاد.. وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة فى الصفات.

وقد قال بعض الأمراء لأحد العارفين:: سلنى حاجتك. فقال له كيف أسألك وأنا لى عبدان هما سيداك؟.. فقال له الأمير: وما هما: فقال العارف: هما الحرص والهوى.. فقد غلبتهما وغلباك.. وملكتهما وملكاك.

كما قال بعضهم لبعض الشيوخ: أوصنى.. فقال له.. اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا تكن ملكا فى الدنيا والآخرة.. فإن الملك فى الحرية والاستغناء.

قلت: وكيف أذكر وأدعو بهذا الاسم؟

قلت: إذا ذكرت اسم - الملك - وأنت داخل على ظالم ذلّ فى الحال. واذكره فى الليل كثيرا.. فما عقدت ولاية لولى إلاّ ليلا.. فأصلح بذكره قلبك.. ونسأل الله أن يرزقنا صدق التوكل عليه وحسن الظن به.

وهيا إلى الاسم التالى - القدُّوس -.

---

(١٥) سورة الإنسان الآية ٢٨

٥ – القدوس

قلت: ما معنى اسمه تعالى – القدوس؟

قال: هو الذى تقدست ذاته.. وتعالت عن سمات[1] المحدثات.. وعما يتصوره الجاهلون من الصفات.. يقول باب مدينة العلم – علىّ بن أبى طالب.. فى خطاب الأشباح.. من كتاب – نهج البلاغة: هو القادر الذى إذا ارْتمت الأوهامُ لتدرك مدى قدرته.. وحاول الفكر المبرَّأ من خطرات الوسواس أن يعلم غيوب ملكوته.. وتولّهت القلوبُ إليه.. لتجرىَ فى كيفيات صفاته.. وغَمُضت مداخل العقول.. إذا جرُأت على تناول علم ذاته.. رَدَعَها.. فرجعت معترفةً بالعجز عن إدراك كنه معرفته.. مُقرّةً بعدم القدرة على تقدير جلاله وعزته.

قلت: تلك معانى لا يصل إليها إلاّ ذوى البصائر النافذة.. فماذا قال العلماء عن اسم – القدوس –؟

قال: قال بعض العلماء.. بأن القدوس.. معناه الطُّهور.. ولكننا لا نجاريهم فى هذا المعنى.. من حيث الطُّهر الذى يقابل النَّجَس.. لأن هذا القول يتناول شرحا لاسم من أسماء الذات العلية التى هى فوق الدنس. والأفضل أن نعلم أن معنى – القدوس – هو السموُّ عن إحاطة التعريف بعليائه.. وكل ما ينسب إليه يسمى قُدسا ومقدَّسًا.

قلت: هل ورد شىء عن هذا الاسم فى الكتب القديمة؟

قال: لقد أجمعت كل الكتب القديمة على اعتباره قدس الأقداس.. وقالوا عن جبريل – عليه السلام – إنه – روح القدس – فهو اسم يدل على أعلى المقامات وأسماها عن الإحاطة.. أو محاولة الإدراك.. تقدست ذاته.. وتعالى عما يقوله الظالمون علوا كبيرا.

قلت: وهل هذا الاسم مذكور عند أهل الكتاب؟

قال: اعتاد أهل الكتاب أن يطلقوا اسم – قديس – على من لم يقرب الخطيئة.. أو يقترف الذنب.. ولكن قولنا – قديس – غير قولنا – قدوس – والقدوس هو مصدر التقديس.. والتقديس هو الرفعة والتعالى الذى لا يتناهى.

وهذا الاسم منسوب إليه تعالى.. يحمل طابع التقديس.. ومعناه المنزه عن نزغات الأوهام.. ووساوس النفوس.. وخطرات الخيال.

قلت: إذا كان القدوس مصدر التقديس.. فهل للتقديس أثر فى حياة البشر؟

قال: إن التقديس يجعلنا نترفع بذاته وصفاته وأسمائه – سبحانه وتعالى – عن مستويات

---

(١) صفات.

الاضطراب والفوضى.. وشيوع الحياة شيوعا لا يتميز فيه الحق من الباطل.. ولا الطيب من الخبيث.. فهذا الشيوع والارتجال إبْعادٌ للعقل.. الذى هو مصباح هذه الحياة الإنسانية المنير.. وسراجها المضيء.

وهذا يؤيدنا فى وصف هؤلاء الذين لا يقدسون إنسانيتهم بأنهم الصم البكم العمي.. الذين لا يرجعون.. بعد أن ذهبوا عن المجتمع الإنسانى.. وانحطوا عن آفاق الأنعام.. فلا يملكون برهانا ولا دليلا ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا﴾[٢].

قلت: معنى هذا أن الأنعام أرقى من هؤلاء الناس؟

قال: الإنسان نصفه العلوى ملاك.. حيث يوجد الفؤاد والحواس والمدارك واللطائف. أما النصف السفلى.. فهو حيوان.. حيث الطعام والشراب والجنس.. يشترك معنا فى هذا النصف السفلى جميع الحيوانات والأنعام.. بل نصيب الحيوانات والأنعام فيه أكثر من الإنسان نصيبا.. سواء من ناحية الأكل أو القوة أو الجنس. والإنسان فى صراع بين النصفين.. فإذا انتصر فيه الفؤاد والحواس والمدارك واللطائف كان أرقى من الملاك.. واستحق أن يكون قديسا.. حيث بلغ تلك الدرجة بجهاده مع نفسه.. وصراعه مع شهواته.. وليس للملائكة شرف هذا الجهاد وذلك الصراع. أما إذا انتصر فيه النصف السفلى.. وكانت حياته اضطرابا وفوضى وشيوعا.. يحيا للطعام والشراب والجنس.. حلالا أو حراما.. بدون تقديس للمثل العليا.. والقيم السامية.. كان الحُكْم العدل بقوله تعالى: ﴿إن هم إلّا كالأنعام﴾ وكأنَّ محاميا تقدم للدفاع عن الأنعام.. حيث شُبِّه هذا الإنسان بهم.. لأن كل حيوان قد أدى وظيفته التى خلق من أجلها.. أما هذا الإنسان.. فلم يؤد وظيفته.. ولكنه نزع تاج الإنسانية من فوق رأسه.. وجعله فى مواطىء قدميه.

واستؤنف الحكم.. وصدر حكم الاستئناف ﴿بل هم أضل سبيلا﴾ فقد هبط بنفسه إلى درجة أقل من درجة الأنعام. فلفظ «بل» للاستدراك.. والاستدراك استئناف لحكم سابق.

قلت: هل من حقنا الآن أن ندخل سائلين عن مجالى الاسم - القدوس؟

قال: عندما ندخل معك إلى مجالى الاسم - القدوس - نسأله فى علياء قدسه.. أن يكشف لبصائرنا أسنى المجالى.. وأصفى ما تفيض به آلاؤه الجمّة.. ونعمه الجزيلة.. حتى نشهد الحقائق كما يريد لنا أن نشهدها. فنرى أن القدوس.. هو الذى لا يشوب جلالَه شائبةٌ من النقص.. ولا شبهة من العيب تنافى عزته.. وتكدر معنى جلاله مما يتوهمه المتوهمون ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[٣].

قلت: نحن نسمع كثيرا من الذين يسبحون الله - تعالى - قولهم - سبوح قدوس - فما العلاقة بين هذين الاسمين؟

قال: إن تنزيه ذاته - سبحانه - عن كل ما يطرأ على أذهان الناس من الصفات.. أو يجرى على ألسنتهم عن حقيقته - جل وعلا - من العبارات.. إنما يقوم على أساس كونه - سبوحًا قدوسًا - وهما اسمان متلازمان.. يؤيد كل منهما الآخر.. ومدى ما يمكن أن يصل إليه الشرح.. من معنى الاسم - القدوس - هو قاصر لا محالة.. عن إصابة كبد الحقيقة المنشودة فى جلال هذا الاسم.. ولكن العلم -

---

(٢) سورة الفرقان الآية ٤٤.

(٣) سورة الصافات الآية ١٨٠.

بالقدس – علم قديم جدًا فى الجنس البشرى.. فإننا لا ننسى فى التاريخ المصرى القديم – قدس الأقداس – ويبدو أن معناه موجود فى النفس.. ولو لم تستطع العبارات تحديده.

قلت: ومن الذى سمى جبريل – عليه السلام – باسم – روح القدس –؟

قال: سماه الله تعالى به.. فى قوله تعالى: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾[٤] وقوله: ﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق﴾[٥]، والمفروض أن القدس هو الطُهر الروحى الكامل.. والتجرد التام عن شوائب الظلمات.

قلت: نحن نسمع كثيرا فى المسيحية اسم القديس.. فما المقصود عندهم بهذا الاسم؟

قال: أطلقت المسيحية على كبار رجال الكهنوت والحواريين اسم – القديس – ويراد به الذى تجرد عن الدنيا.. وكرّس حياته لمجد الملكوت.

قلت: وما معنى التقديس عندنا نحن المسلمين؟

قال: عندنا أن التقديس كذلك.. يؤدى معنى التطهر والتمجيد والرفعة.. والعلو عن مستوى النقص أو الدنس.

قلت: أليس كل هذا كافيا لنفهم معنى – القدوس –؟

قال: لا.. كل هذا لا يكفى لتحديد المعنى المراد من اسم – القدوس – بل الذى تتذوقه المشاعر.. وتستشعره القلوب من اسم – القدوس – أنه يشير إلى مقتضيات العلى، العظيم، الجليل، العزيز الملك، المنعم، الغنى، الكريم. فإذا شئنا أن نجد من الأسماء اسما يجمع معانى كل هذه الأسماء.. فإنه الاسم – القدوس – لأن هذه الأسماء كلها من مقتضياته الذاتية.. وعلى الأخص. الاسم، الجليل – المؤيد بكونه تعالى – ذا الجلال والإكرام – فهو فى عِلياء جلاله.. وجلال عليائه.. كريم يفيض حنانا من لدنه.. فَيْضَ آلائه وتجليات صفاته وأسمائه.

ومن أجل ذلك جاء اسم – السلام – تاليا فى الترتيب لاسم – القدوس –.

قلت: وكيف يعمل الإنسان لتقديس ذاته؟

قال: إن العبد يقدس ذاته إذا نزّه علمَه وإرادتَه.. مستعينا بالله القدوس على ذلك.. فينزه علمه عن المتخيَّلات والمحسوسات والموهومات.. بل يكون نظره وعلمه إلى الأمور الأزلية المنزهة عن الحسّ.. بحيث لو سُلب آلة حسّه.. بقى زاخرا بالعلوم الشريفة الإلهية المتعلقة بالعلوم الابدية دون الشخصيات المتغيرة الفانية.

وأما إرادته فينزهها عن الدوران حول الحظوظ البشرية التى ترجع إلى لذة الشهوة والغضب ومتعة المطعم والمنكح والملبس والملمس والمنظر.. فهو لا يريد إلاّ الله تعالى.. ولا يبقى له حظ إلاّ فى الله.. ولا يكون له شوق إلا إلى لقاء الله.. ولا فرح إلاّ بالقرب من الله.. ولو عرضت عليه الجنة وما فيها من نعيم.. لم يلفت همته إليها.. ولم يقنع من الدار إلا برب الدار.. فجلالة المريد على قدر جلالة مراده..

---

(٤) سورة البقرة الآية ٨٧.

(٥) سورة النحل الاية ١٠٢.

وقيمة ما يدخل البطن يساوى قيمة ما يخرج منها.. ومن ترقى بعلمه وإرادته إلى هذا المستوى.. يكون قد دخل حظيرة القدس.. فهو القديس.

قلت: وهل ورد اسم القدوس فى القرآن الكريم؟

قال: نعم ورد فى مقامين.. فى قوله تعالى: ﴿هو الله الذى لا إلـه إلا هو الملك القدوس﴾(٦) وقوله: ﴿يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس﴾(٧).

قلت: وهل يجوز الدعاء والذكر بهذا الاسم؟

قال: ورد عن قتادة.. عن مطرف.. عن عائشة - رضى الله عنهم جميعا - قالت: إن رسول الله - ﷺ - كان يقول فى ركوعه: «سُبُّوح قدوس رب الملائكة والروح».

وإن الذى يذكر ويسبح بهذا الاسم.. يشعر أن جوارحه وحواسه لا تشتهى معصية وقت ذكره.. فيجد أن عينه تكره النظر إلى ما حرم الله.. وأذنه تأبى سماع ما يغضب الله.. لأن لهذا الاسم تأثيرًا ظاهرًا على سائر الجوارح.. فعلى من يريد أن يتحرر من عبودية الشهوة ورِقّ المعصية.. أن يلازم ذكر هذا الاسم - القدوس - فيُذهب الله عنه رجسْ الشيطان.

وقد قرأت أنه من المجرب الأكيد.. أن من تعتريهم الوسوسة.. إذا قالوا: «سبحان الملك القدوس الخلاق.. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز» تذهب عنهم الوسوسة فى الحال.

كما يصلح ذكر هذا الاسم لمن يتكلم الناس فى حقه وعِرْضِه.. فتنعقد ألسنتهم عنه.. ولا يذكرونه بسوء.

واعلم يا أخى أن نيّتك هى مطيّتك. وإلى الاسم التالى - السلام - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(٦) سورة الحشر الآية ٢٣.

(٧) سورة الجمعة الآية ١.

٦ - السلام

قلت: وصلنا من الأسماء الحسنى إلى اسم- السلام- فما معنى السلام؟

قال: السلام هو الله تعالى.. وهو أيضًا الأمان.. كما أنه أيضًا - النعيم - كقوله تعالى: ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾(١) فدار السلام هى دار النعيم.. وهى الجنة.. وفى معنى الأمان يقول تعالى: ﴿قالوا سلامًا قال سلام﴾(٢) وقوله أيضًا: ﴿والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾(٣).. هذا ما قاله عيسى الوليد - عليه السلام - وهو طفل صغير حديث الولادة.. كما قال الله تعالى عن يحيى بن زكريا- عليهما السلام: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّا﴾(٤).

قلت: هل يجمع هذا الاسم كل تلك المعانى؟

قال: إنه يجمع كل هذه المعانى.. ولكنه لا ينحصر فيها.. فإذا كانت الجنة هى دار السلام- وهى ﴿مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾(٥).. فالله تعالى هو: ﴿الملك القدوس السلام﴾(٦). فَيْضُه لا ينتهى - ومعينُه لا ينضب.. وفضله لا ينقطع.. ومددُه لا يُحدّ.. لافى الدنيا ولا فى الآخرة.. ولا فى البرزخ بين الدنيا والآخرة.. فكيف يتسنّى لنا أن نحصر معنى السلام.. فيما نرى أو مالا نرى! إنه لا يمكن حصر مسماه.

قلت: وهل من أجل هذا.. جعل الله السلام شعارًا للتحية بين المسلمين؟

قال: جعل الله السلام شعارًا للتحية بين المسلمين.. من مفهوم الأمان.. وجعل القاء السلام سنّة.. والرد عليه فرض كفاية.

قلت: ما معنى فرض كفاية؟

قال: فرض الكفاية.. بمعنى إذا رد السلام واحد من عدد الذين أُلْقِىَ عليهم السلام. يسقط الفرض عن الباقين.. أما فرض العين.. كالصلاة مثلاً.. فيلزم به كلُّ واحد عن نفسه.

قلت: نرى القرآن الكريم كثيرًا ما يوجه السلام على الكثير من المرسلين.. فما معنى هذا؟

قال: لقد جعل الله السلام توجيهًا للرحمة إلى كثير من المرسلين.. بل إلى كل المرسلين.. فقد قال تعالى ﴿سلام على نوح فى العالمين﴾(٧) وقال: ﴿سلام على إبراهيم﴾(٨) وقال: ﴿سلام على

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٧.
(٢) سورة هود الآية ٦٩.
(٣) سورة مريم الآية ٣٣.
(٤) سورة مزيم الآية ١٥.
(٥) سورة القمر الآية ٥٥.
(٦) سورة الحشر الآية ٢٣.
(٧) سورة الصافات الآية ٧٩.
(٨) سورة الصافات الآية ١٠٩.

آل ياسين﴾[٩] وقال ﴿سلام على موسى وهارون﴾[١٠] ثم وجه السلام إلى جميع المرسلين فقال: ﴿وسلام على المرسلين﴾[١١].. بل وشمل جميع العباد الصالحين.. فقال: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾[١٢].. كما قال: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾[١٣].

قلت: إذن إلقاء السلام واجب على كل مسلم أن يلقيه على أصدقائه وأحبابه كلما لقيهم؟

قال: إلقاء السلام واجب على كل مسلم أن يلقيه على الناس جميعًا.. ولهذا يقول المعصوم صلوات الله وسلامه عليه: «ألق السلام على من عرفت ومن لم تعرف» وقال أيضاً: «أفشوا السلام».

ولقد كان لعبارة السلام- أثر السحر فى جميع أنحاء الجزيرة العربية.. فى أول رسالته - عليه الصلاة والسلام».

فإلقاء السلام على الناس ضرورة إسلامية.. امتاز بها الإسلام.. بل ان الله يأمرنا أن نلقى السلام عند دخول أى بيت.. ولو لم يكن به أحد.

قلت: هل ألقى السلام دون أن يكون فى البيت أحد؟.. فعلى من ألقى السلام إذن؟

قال: من حق المؤمن إطلاق السلام على نفسه.. فى الأماكن غير المسكونة.. ليكون ذلك ضمان أمان له.. فى هذا المكان غير المسكون.. يقول تعالى: ﴿فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾[١٤].

قلت: إذا لقينى إنسان وألقى على السلام.. وأنا أشك فى أنه غير مسلم.. فهل أرد عليه السلام؟.

قال: نعم.. حتى لو تأكدت أنه غير مسلم.. فمفروض عليك أن ترد عليه السلام.. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا﴾[١٥] ولهذا يحرم تحريمًا قطعيا تكفير الناس بالباطل.. ويكفى أن يلقى علىّ السلام.. لأمسك لسانى عن اتهامه بالكفر.. فليس فى استطاعة بشر الكشف عن قلوب الناس.

قلت: تكرر لفظ السلام فى قراءة التشهد.. عند كل صلاة.. فما الحكمة فى هذا؟

قال: عندما بلغ - ﷺ- المشهد الأعلى - بالأفق المبين.. ليلة الإسراء والمعراج.. قدم التحية إلقاء.. واجه به الحق.. تبارك وتعالى- بقوله: «التحيات لله.. والصلوات والطيبات لله».. ولما كان قاب قوسين أو أدنى.. عندما كان يلقى إليه بفريضة الصلاة.. تلقى من الله- تعالى- الرد على تحيته: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته». فتلقاها.. ثم فاضت من جانبه.. وتدلت من رحمته إلى جميع الأنبياء والمرسلين.. وإلى العباد الصالحين. حيث قال مجيبًا على تحية الله تعالى: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

قلت: عليه صلاة الله وسلامه إنه حقًا كان رحمة.

---

(٩) سورة الصافات الآية ١٣٠.
(١٠) سورة الصافات الآية ١٢٠.
(١١) سورة الصافات الآية ١٨١.
(١٢) سورة النمل الآية ٥٩.
(١٣) سورة طه الآية ٤٧.
(١٤) سورة النور الآية ٦١.
(١٥) سورة النساء الآية ٩٤.

قال: نعم.. كان رحمة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[16]، ولهذا على أثر توزيع السلام.. الذى أتاه بالتخصيص من الذات العلية بلفظ «عليك» أقول على أثر توزيعه على المرسلين. وعلى عباد الله الصالحين.. أعلن الشهادة بالوحدانية المجردة والعبودية المطلقة.. بالأصالة عن نفسه.. والنيابة عن جميع الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين فقال: «أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

قلت: إذا كانت اللغة تقول: إن السلام معناه الأمان.. فهل هذا المعنى يجوز إطلاقه على الله سبحانه وتعالى: وكيف يضاف إلى الأسماء الحسنى اسم الأمان؟

قال: الواضح أن المفهوم من اسم الله – السلام – إنه أعلى وأعز من هذا الحصر الأسمىّ لأن الله – تبارك وتعالى – إذا وجّه السلام.. فإنه هو ذاته السلام. ولهذا نقول عقب كل صلاة «اللهم إنك أنت السلام.. ومنك السلام.. حيِّنا ربنا بالسلام.. وأدخلنا دارك دار السلام».

وإذا وجّه الله السلام إلى مخلوق.. لا يكون ذلك بالقول ولا الحرف ولا جرْس الصوت.. كما يتبادر إلى بعض المفاهيم.. إسرافاً منهم وتصويرًا.. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.. لأنه منزه عن الجسمية ولوازمها ومقتضياتها.

ولهذا يلزم لزوما رياضيا أن نعلم أن سلامه تعالى فعل وإمداد.. وفيض واستعداد.

قلت: يبدو أن اسم السلام.. يحمل كل معانى الرحمة؟

قال: وهل أدل على ذلك.. من أن ليلة القدر.. هى ليلة السلام العام.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر﴾.

قلت: وما هو المفهوم العام لاسم – السلام – إذن؟

قال: إنه هو مصدر هذا الفيض والإمداد.. وهو بذاته وبصفاته فيض مطلق أيضًا.. وهذا معنى كونه تعالى – السلام.

فسبحان من بطن بأسرار ذاته.. وظهر بتجليات أسمائه وصفاته.. على جميع المجالى الكونية والظواهر الغيبية.. لأنه وحده – له الخلق والأمر – والخلق هو الظاهر.. والأمر هو الباطن.. وهو تعالى: ﴿الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[17].

قلت: وما أثر هذا الاسم على بنى البشر؟

قال: إن من وقع فى مجلى اسم السلام.. سلم قلبه من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر.. وسلمت جوارحه من المحرمات والمحظورات.. وسلمت صفاته من الانتكاس والانعكاس.. وأعنى بالانتكاس فى صفاته أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه.. بدلاً من أن يكون الشهوة والغضب أسيرى العقل وطوعه.. فإذا انعكس فقد انتكس.. ولا سلامة فى الانتكاس.. حيث يصير الأمير مأمورًا.. والملك عبدًا.

---

(١٦) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(١٧) سورة الحديد الآية ٣.

ولن يوصف بالسلام والإسلام.. إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده فكيف يوصف بالسلام من لم يسلم هو من نفسه؟

قلت: معنى هذا أن الذكر باسم - السلام - يحفظ الإنسان من الذنوب والآثام..

قال: إن من دعا الله باسم - السلام - سلم قلبه من الخواطر والأوهام.. وسلمت جوارحه من المعاصي والآثام..

فمن كان بربه ابتهاجُه.. كان به ارتقاؤُه ومعراجُه.

وحظ الذاكر المسلم من أخيه ثلاثة: إن لم ينفعْه فلا يضرّه.. وإن لم يسرّه فلا يغمّه.. وإن لم يمدحْه فلا يذمّه وإلى الاسم - المؤمن - إن شاء الله تعالى.

* * *

٧ - المـؤمن

قلت: ما معنى الإيمان فى اللغة؟

قال: الإيمان فى اللغة معناه التصديق.

قلت: وهل من حقنا أن نفهم معنى الاسم - المؤمن - بالنسبة إلى الله تعالى.. أى المصدق؟.. فبأى شىء سواه يصدق؟.. وهل يوجد شىء سواه إلا به؟.. وهل توجد حقيقة قائمة إلاّ به؟.

قال: أمام كل هذه الاعتبارات اللفظية.. نرى وجوب تقديس ذات الله تعالى عن المشابهة بالحوادث.. أو المماثَلة لها.. فيكون معنى الإيمان عند الحادث المخلوق هو التصديق.. ومعناه عند الله تعالى.. أنه هو المصدر الرئيسى لوحى الإيمان فى نفس كل مؤمن.. وإلا كان الإيمان من غير مصدر وهو محال.

قلت: إذن إيمان المؤمن ليس منه ذاته.. وإنما مصدره من الله تعالى؟..

قال: نعم.. ومن أجل هذا يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[1] أليس الإيمان كسبًا للمؤمن.. انحاز به إلى أقصى اليمين.. فصار من أصحاب اليمين.. وكان بذلك وليًا لله الذى آمن به؟.. وكان لذلك جديرا بأن تنصبَّ على نفسه أضواءُ الإيمان.. من فيض النور.. لقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾[2].

كما يقول عن أوليائه الذين هو وليهم: ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾[3].. فهؤلاء فى أقصى اليسار.. وشتان بين الاثنين: المؤمن المصدق.. والكافر المكذب.. وهل يستوى الظلمات والنور؟.

فمتى كان الله ولىّ الذين آمنوا.. كان حَريًّا أن يتولى هدايتهم بالنور.. فيوجه بصائرهم إلى الحقائق التى لا يمكن أن تكون مثارا لجدل.. أو موضوعا لخلاف.. لأنها حقائق مجردة.

فإذا كان الإيمان فيضًا متدفقا من عالم الغيب.. ينصبّ فى قلب كل مؤمن.. فإن الاسم - المؤمن - هو المصدر الرئيسى لحصول ذلك الإيمان.

قلت: نفهم من هذا أن نفس المعنى ينطبق على اسم الله تعالى - الصبور -؟.

قال: هذا السؤال سابق لأوانه.. فإننا لم نصل - بعد - إلى اسم - الصبور - ولكنه سؤال وجيه.. يدل على فهم مستنير.. فالله تعالى صبور على ماذا؟ الصبور لا يدل على قوة احتمال المكروه بالنسبة لذات الحق.. المنزه عن الألم.. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.. فكيف يقع ما يؤلمه.. وكل ما يقع فى

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.
(٢) سورة يونس الآية ٩.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٧.

الكون ما هو إلا أمر خصصته إرادته.. وأنفذته قدرته.. ولندع هذا الموضوع حتى يأتى موقعه.. ولكن تعلم أن معنى - الصبور -.. أنه تعالى مصدر لكل صبر جميل.. كما أن - المؤمن - مصدر لفيض الإيمان على نفس كل مؤمن.

قلت: وكيف أكون مؤمنا؟.

قال: ليفهم المؤمن من إيمانه.. باعتبار الاسم - المؤمن - مبدأ أعلى.. ومصدرا رئيسيا - كما بينا - أنه يفيض بقوة الإيمان.. والتصديق بالأشياء الغيبية.. كالخلود.. وأبدية الأرواح.. والنعيم والعذاب.. وانحصار المسئولية فى ذوات أصحابها.. بحيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

قلت: هل حدد لنا رسول الله - ﷺ - معنى الإيمان؟

قال: الحديث معروف.. لما سأل جبريل عليه السلام - رسول الله - ﷺ - عن الإسلام: فأخبره عن قواعد الإسلام الخمس وهى:

الشهادتان - والصلاة - والزكاة - والصوم - والحج عند الاستطاعة. فكان الإسلام هو المرحلة الابتدائية فى الدين.

ثم سأله عن الإيمان: فأخبره عن أركان الإيمان الستة وهى:

الإيمان بالله - والملائكة - والكتب - والرسل - واليوم الآخر - والإيمان بالقدر. فكان الإيمان هو المرحلة الثانوية.. بعد مرحلة الإسلام الأساسية. ثم سأله عن الإحسان: فقال له: أن تعبد الله كأنك تراه.. فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فكان الإحسان هو المرحلة الجامعية.. مرحلة التخصص والدراسات العليا. ولعلك الآن قد أدركت معنى الإيمان بأركانه الستة؟.

فالذين صدقوا بالغيب.. وآمنوا بالجنة ونعيمها.. وصفاء الحياة فى رحابها.. فازوا بها: ﴿إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾(٤)

قلت: وهل المتقون غير المؤمنين؟.

قال: إن التقوى ما هى إلاّ ثمرة نضيرة من ثمار شجرة الإيمان.. الثابتة الأركان.. وما كان ذلك الإيمان.. إلاّ فيضا من فيوض الرحيم الرحمن.. الفعال لما يريد. فلزم من كل ذلك لزوما رياضيا أن يكون الإيمان فيضًا منه تعالى.. وفضلاً على عباده.. فقد جعل المؤمنين جميعًا أولياء ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾(٥) وجعل نفسه وليًّا لهم: ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾(٦).. وجعل ولايته شعارا عاما للأنبياء والمرسلين.

قلت: ما المقصود بالولاية؟

قال: الولاء فى اللغة ضد العداء.. فمن كان وليًّا لله تعالى - .. ى هو مصدر القوة جميعا - مؤمنا

---

(٤) سورة القمر آيتا ٥٤، ٥٥.
(٥) سورة التوبة الآية ٧١.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٧.

به.. كان إيمانه شجرة طيبة.. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.. فيمدّ المؤمن بالقوى اللازمة لمواجهة الحقائق الكونية.. والتعمق فى استقرائها من غير تحيز إلى الأهواء.. واجتناب الضلال.. بين القيل والقال.. وبهذا تتحقق له السعادة والاستقرار والاطمئنان: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾[7].

قلت: هل للإيمان أثر فى سعادة الإنسان فى الدنيا؟.

قال: من غير شك.. فالله تعالى يقول: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا﴾[8]. ويقول: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾[9] ويقول: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[10].

وهكذا كان الإيمان عاملا فى كسب النصر المؤزر عند ابتداء الإسلام.. وكانت جيوشه رهبانا بالليل.. فرسانا بالنهار.. حملتهم أجنحة إيمانهم على أكتاف الأرض فى أقل من نصف قرن من الزمان.. حينها امتدّ نور الإسلام من الصين شرقًا إلى سواحل الأطلس وجبال البرانس غربًا.. بالإيمان وحده لمعت سيوفهم فى المشرق.. وانقضت شهبًا على حيارى المغرب.. فورّثوا البشرية أعظم وأقوم حضارة فى أدق وأحكم نظام اجتماعى.. ينشئ من جميع الشعوب المؤمنة أمة واحدة متماسكة متضامنة متضافرة متعاونة.. تمتاز بالإيثار والعزة والكرامة والشرف وحق النصر فى الحرب.

قلت: حقا إن السعادة فى الإيمان.

قال: السعادة دائما فى ركب الإيمان.. اقرأ قوله تعالى عن قوم يونس: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾[11]، واقرأ أيضا: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون﴾[12]

وما كان ذلك إلّا ثمرة التجليات الدافقة من الاسم – المؤمن – رحمة بالمؤمنين – وولاية لأمورهم.. وإلهامهم.. وتأييدا لهم بالملائكة فى مواقع اليأس ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[13]

قلت: قرأت حديثا يفيد أن الإيمان يزيد وينقص.. فما سبب الزيادة والنقص؟.

قال: إذا كان الإيمان يزيد وينقص – كما فى الحديث – فإن نقص إيمان المؤمن ليس عن إمساك من فيض الاسم – المؤمن – بل من ضعف فى نفس ا لمؤمن.. لأن الله – تعالى – كريم رحيم رءوف.. وهذا كله عامل أسمائى مشترك للإمداد بالإيمان.. فهو لا يبخل إذن بفيضه.. ولكن المؤمن هو الذى يجب أن يفتح جبهة كفاح مع الشيطان ليظفر بقهره.. لتصفو سماء الوجدان.. من غيوم الأوهام.. فينشأ حُسْن الاستعداد المفضى إلى زيادة الإمداد.

---

(٧) سورة الرعد الآية ٢٩.
(٨) سورة فصلت الآية ٣٠
(٩) سورة الأنفال الآية ١٢.
(١٠) سورة الحج الآية ٣٨.
(١١) سورة يونس الآية ٩٨.
(١٢) سورة الجاثية الآية ٢١.
(١٣) سورة غافر الآية ٥١.

قلت: وهل يصح الإيمان بدون عمل؟.

قال: لا إيمان من غير عمل.. وكل آيات القرآن الكريم.. تقرن الإيمان بالعمل دائما: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

ويؤنسنا فى هذا المقام قوله.. عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور: «ليس الإيمان بالتمنى.. ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل.. وإن قوما غرّتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم.. وقالوا: نحسن الظن بالله.. وكذبوا.. لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

قلت: ما هى القوة التى تهيمن على المؤمن.. فى أفعاله وتصوراته وجميع مداركه.. لكى تنقذه بسلطان العلم من متائه الجهل والضلال فى صحراوات الأوهام؟

قال: تلك هى القوى الكامنة فى اسمه تعالى - المهيمن - ونحن لم نصل إليه بعد.

قلت: معنى هذا أن العبد المؤمن لا يخاف أبدا.. لأنه دائما فى أمان بتجليات الاسم - المؤمن -؟

قال: العبد ضعيف بفطرته.. وهو عرضة للأمراض والجوع والعطش من باطنه.. وعرضة للآفات المحرقة والمغرقة والجارحة والكاسرة من ظاهره..

ولا يؤمِّنه من هذه المخاوف كلها إلاّ الذى أعدّ له الأدوية لدفع أمراضه.. والأطعمة لإزالة جوعه.. والأشربة لدفع عطشه.. والأعضاء المدافعة عن بدنه.. والحواس التى هى بمثابة مخابرات تنذره بما يقرب من مهلكاته ليتفاداها.. ثم خوفه الأعظم من هلاك الآخرة.. ولا يُحصِّنه من هذا كله إلا كلمة التوحيد.. والله تعالى هو هاديه إليها.. ومرغِّبُه فيها حيث قال: «لا إلـه إلا الله حصنى فمن دخل حصنى - فقد أمن عذابى».

كما روى البخارى.. عن علىّ - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - عز وجل: «لا إله إلا الله كلامى.. وأنا هو.. فمن قالها دخل حصنى.. وأمن عقابى». فلا أمن فى الدنيا والآخرة.. إلاّ وهو مستفاد بأسباب.. هو تعالى منفرد بخلقها.. والهداية إلى استعمالها.. فهو الذى أعطى كل شىء خلْقه ثم هدى.. فهو المؤمن المطلق حقا.

قلت: وما حظّ العباد من هذا الاسم؟

قال: حظ العبد من هذا الاسم.. أن يأمن الخلقُ كلهم جانبه.. بل يرجو كل خائف الاستعانة به فى دفع الهلاك عن نفسه.. فى دينه ودنياه.. كما قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمن جارُه بوائقَه»[١٤].

وأحق العباد باسم - المؤمن - من يكون سببًا لأمْن الناس من عذاب الله بهدايتهم إلى طريق الهدى.. وإرشادهم إلى سبيل النجاة.. وتلك مهمة الأنبياء والعلماء.. ولهذا روى الإمام أحمد.. ومسلم فى صحيحه عن جابر.. عن النبى -ﷺ- قال: «مثلى ومثلكم.. كمثل رجل أوقد نارًا.. فجعل الجنادب[١٥] والفراش يقَعْن فيها.. وهو يذُبُّهن عنها.. وأنا آخذ بحجزكم عن النار.. وأنتم تفلتون من يدى».

---

(١٤) رواه الإمام أحمد.. والبخارى.. ومسلم.. والنسائى.. وابن ماجه.

(١٥) الجنادب نحو الجراد والفراش.. وهو المعروف.. الذى يقع فى النار.

قلت: الخوف على الحقيقة من الله.. فهو الذى خوَّف عباده.. وهو الذى خلق أسباب الخوف.. فكيف ينسب إليه الأمن؟

قال: الله - تعالى - هو خالق سبب الخوف والأمن جميعا.. وكونه مخوِّفا لا يتعارض مع كونه مؤمِّنا.. كما أن كونه قابضًا لا يتعارض مع كونه باسطا.. فهو القابض والباسط.. وكونه مُذلًّا لا يمنع كونه مُعِزًّا.. فهو المعزّ والمذلّ.. وكونه خافضًا لا يمنع كونه رافعًا بل هو الخافض والرافع.. فكذلك هو المؤمِّن والمخوِّف.. ولكن اسم - المؤمن - ورد النص به خاصة دون المخوِّف.

قلت: إذن من الممكن أن نقول: إن المشرك لا أمن له ولا أمان فى الدنيا والآخرة؟

قال: المشرك قطعا لا أمن ولا أمان له.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[(١٦)]، والظلم هنا يعنى الشرك.. لقول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[(١٧)].

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم.. عصم الله لسانه من الكذب والغيبة. وعلى ذاكره أن يقصد بذكره وجه الله الكريم.. ويخلع نعليه من الشهوات والهوى..

وإلى الاسم - المهيمن - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١٦) سورة الأنعام الآية ٨٢.

(١٧) سورة لقمان الآية ١٣.

٨ - المهيمن

قلت: ما هى القوى الكامنة فى اسمه تعالى - المهيمن -؟

قال: المهيمن هو صاحب الحق الأعظم فى السلطان العلمى على الشئون والنظم والشرائع والكتب.. وكما يقول تعالى عن القرآن الكريم إنه مهيمن على التوراة والإنجيل بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه﴾[١].

قلت: وما علاقة الهيمنة بالسلطان العلمى؟

قال: السلطان العلمى هو مصدر حق الهيمنة.. إذا أن الجهل لا يمكن أن يكون صالحا لأية هيمنة.. فالهيمنة لا تقوم إلّا على أساس العلم.. وهذا العلم هو السلطان الأعلى فى جميع العقائد والأعمال معا.. ألا ترى كيف زكّى الله طالوت عندما اختاره ملكا على بنّى إسرائيل.. لما رفضوا تمليكه عليهم بقولهم: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾[٢] فقال لهم نبيّهم: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم﴾[٢]، واقرأ قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾[٣]. أى بعلم.

وكما قال لموسى وهارون - عليهما السلام: ﴿ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾[٤] فالانتصار والغلبة فى الحق هى الهيمنة باسم - المهيمن - على نظام الحياة ودفع المضار عن البشرية - سواء كانت مضار جسمية أم روحية.

قلت: إذن لابدّ للهيمنة من سلطان العلم؟

قال: نعم .. لابد للهيمنة من سلطان العلم.. فبغير العلم تكون الهيمنة قائمة على أساسٍ واهٍ ضعيف.. لا تلبث أن تصطدم بواقع الحياة فتصير هباء.. ولكن متى كان سلطان العلم أساسا للهيمنة.. كان الاتجاه دائما إلى المنهاج الأقوم.. الذى تتوفر فيه جميع الضمانات لحسن سير الحياة البشرية فى طريق السلام والأمن.. والرخاء المطمئن.. والتقدم المستمر.. والحكم المستقر.. وهذا كله لا يمكن أن يتم إلا بحق الهيمنة على مجريات الأمور.. من شدة ورخاء.. وقسوة وحنان.. وغير ذلك مما يدخل فى مجال الاسم - العليم - الذى أحاط بكل شىء علما.. وأحصى كل شىء عددا.. وسيكون حديثنا عنه عندما نصل ألى الاسم - العليم.

قلت: القرآن الكريم مهيمن على الكتب السماوية السابقة وكلها من مصدر واحد.. فلماذا يوجد الاختلاف؟

قال: القرآن الكريم مهيمن بسلطان الحق العلمى على ما سواه من كتب السماء.. لأنه الكتاب

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٧.
(٣) سورة الرحمن الآية ٣٣.
(٤) سورة القصص الآية ٣٥.

الإلهى الأبيض.. الذى جعله الله نورًا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.. وكل خلاف يقع فى كتاب من الكتب.. يكون مرجع هذا الاختلاف إلى الكلمات البشرية التى يكتبها ويسجلها الحواريون والكهان.. بين التوراة والإنجيل.. إذ أنه لا تناقض ولا اختلاف إذا كان القول وحيًا سماويا منزّلا من مصدر واحد.

قلت: هل معنى هذا أن كل خلاف يوجد فى تلك الكتب يدل على أنه من كلام البشر وليس من كلام الله؟

قال: نعم . ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾(٥)، ومن أجل ذلك كان للقرآن الكريم حق الهيمنة.. لأنه موحى به إلى رجل أمّى.. لم يطلع على الكتب السابقة.. ولا على شىء من أنباء التاريخ.. ولا من العلوم والمعارف.. والحقائق والوثائق.. التى أوردها القرآن الكريم.. فلزم من هذا أن يكون كلام الله تعالى.. الذى أنزله على قلب أبيض.. لم تخط فيه أقلام البشر ولا خطا واحدا.

قلت: هذا حق لاشك فيه ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك﴾(٦).

قال: هو من غير جدال - كما أعترف به فلاسفة المستشرقين - الكتاب الأوحد..الذى تجرد من أوهام البشر ونزغاتهم وميولهم وأهوائهم وطبائعهم.. وهو من أجل ذلك أحق أن يكون المجلى الفعال لأسم - المهيمن - ليوجه الجن والإنس.. من أقرب طريق وأيسر سبيل.. إلى السعادة الروحية العليا.. والكمال الاجتماعى الأمثل.

قلت: هل من أسباب الهيمنة دفع ثوران الباطل الذى قد يكون ذا أنياب ومخالب؟

قال: نعم.. قد يكون للباطل أنياب ومخالب.. ولهذا كان من حق الله تعالى الهيمنة ليدفع ثوران هذا الباطل.. ولهذا يقول - ﷺ - «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» لأن مجرد التحريم بالنص.. لا يكفى لدفع المجرم عن اقتراف جريمته.. فيتعين أن يكون القائم على أمر الحق - تنفيذا وتأييدا وتبليغا وإرشادا وتوجيها - مهيمنا على الحكم والمحكومين ليضع لكلّ حدّه.. ويحفظ لكلّ حقّه.. فالله تعالى يقول: ﴿وله الحكم وإليه ترجعون﴾(٧)، ويقول: ﴿فالحكم لله العلى الكبير﴾(٨) وهو سبحانه - المهيمن - الذى يحمى تعاليمه وشرائعه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(٩).

قلت: ألم يكن كتّاب الوحى يكتبون القرآن بأيديهم؟

قال: إن الله - سبحانه - كان مهيمنا على كتّاب الوحى.. حتى لا تزل أقلامهم.. ولا تضل أهواؤهم عناية بكلامه.. ورعاية لحسن إلهامه.

قلت: قد يظن البعض أن فى تلك الهيمنة على كتّاب الوحى نوعًا من القسر والإجبار يغلب اختيارهم - رضى الله عنهم.

---

(٥) سورة البقرة الآية ٧٩.
(٦) سورة الشعراء الآيتا ١٩٣، ١٩٤.
(٧) سورة القصص الآية ٧٠.
(٨) سورة غافر الآية ١٢.
(٩) سورة الحجر الآية ٩.

قال: إن وحى الإلهام لا يكون قسرا ولا جبرا.. بل هو إنبعاث بالإلهام للخير.. كما أوحى ربك إلى النحل لتعمل لنفسها ولسواها من غير قسر ولا إكراه.

قلت: إذن فهيمنة المهيمن.. هى الضابط الذى يحول بين البشرية.. وبين التردى فى حمأة الميول والأهواء؟

قال: هذا أمر طبيعى.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾[10] فلزم أن يكون لسلطان العلم – وفى نور الرحمة – حق الهيمنة على مجريات الأمور.. واختلاف الشئون لضبط الميزانية العملية للكل الطبيعى.. المملوك لمن بيده مقاليد السماوات والأرض.. لأنه هو الذى ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾[11].

قلت: أليس كل هذا صادرا من الاسم ه القدير – من تجلى صفة القدرة؟.

قال: إن مجرد القدرة شامل لكل فعل من الأفعال التى لابدّ لظهورها من قوة ﴿ولا قوة إلا بالله﴾ ولكن معيار الاعتبار هنا.. هو الحق العلمى.. صاحب السلطان التوجيهى والحكم المطلق.. الذى تقوم على أساسه قوة المهيمنة من تجليات الاسم – المهيمن – لأن القدرة المجردة.. من بين جنود الاسم – المهيمن – فالهيمنة هى سريان نفوذ السلطان العلمى على جميع المقدورات.. التى خصصتها الإرادة.. وأبرزتها القدرة.

قلت: معنى هذا أن اسم – المهيمن – يجمع العلم والإرادة والقدرة؟

قال: اسم – المهيمن – هو الذى لا يغلبه غالب.. ولا يفلت من قبضته هارب.. ولولا الإيمان بهذا . ما هجعت عين.. ولا اطمأن قلب.. ولهذا يقول تعالى: ﴿وله الكبرياء فى السموٰات والأرض﴾[12] فما من حركة ولا سكون ولا حياة ولا موت.. ولا فناء ولا بقاء.. ولا إمداد ولا إسناد إلّا هو سبحانه – المنفرد به بوصفه – المهيمن.

ولهذا يتبين ما بين الأسماء والصفات وتجلياتها على مجالى الوجود.. من ترابط وتعاون قائم على وحدة الذات المتصفة بهذه الصفات.. والمسماة بتلك الأسماء ﴿وله الأسماء الحسنى﴾ وهذا سرّ عزته – تعالى –.

قلت: هل يصح أن أقول إن الإنسان مهيمن على نفسه؟

قال: إن كل مشرف على أى أمر مسئول عن حفظه.. والإشراف يرجع إلىٰ العلم.. والاستيلاء يرجع إلى القدرة.. والحفظ يرجع إلى العقل.. فالذى يجمع كل هذه المعانى يكون هو المهيمن... ولن يجمع ذلك على الإطلاق والكمال إلّا الله تعالى فكل عبد راقب نفسه حتى أشرف على أغوارها.. وعلم خفاياها.. واستطاع أن يقومها على النهج السليم.. ويحفظها على الطريق المستقيم.. كان قلبه هو المهيمن على نفسه.

---

(١٠) سورة المؤمنون الآية ٧١.

(١١) سورة الحج الآية ٦٥.

(١٢) سورة الجاثية الآية ٣٧.

فإن اتسع إشرافه واستيلاؤه على من يجالسه من الناس.. وأطلعه الله تعالى على بواطنهم وأسرارهم بطريق التفرس والاستدلال.. وقام بحفظهم على نهج السداد وسبيل الرشاد - كان نصيبه من اسم المهيمن - أوفر حظا.

وقد ورد أن من يذكر الله بهذا الاسم عقب كل صلاة مائة مرة.. أنار الله تعالى - قلبه بنور الإيمان.. وأذهب عنه الوساوس والأوهام وقوّى فى ذاكرته ملكة الحفظ.

وهيا إلى الاسم العزيز - إن شاء الله تعالى.

* * *

٩ - العزيـز

قلت: هل عزة الخالق - سبحانه - تؤدى نفس المفهوم الذى نعرفه عن عزتنا؟

قال: عزة الله - تعالى - ليست مثل عزة الحوادث.. فهو تعالى مخالف للحوادث.. كما هو النص فى الصفة الرابعة.. من صفاته العشرين - كما قدمنا - ولكنها عزة تعز على العقول والمدارك.. ولا تنال بإمعان النظر.. ولا بإنعام الفكر.. ولا بإرهاف الحس. وعجز المدارك عن الوصول إلى إدراك أسرار هذه العزة.. هو الذى أوحى إلى أبى بكر - رضى الله عنه - أن يقول حكمته المشهورة: «العجز عن درك الإدراك إدراك». وعلى هذا القرار.. قال أحد الشعراء:

لقد ظهرْتَ فلا تخفى على أحد ... إلّا على أكمه[1] لم يشهد القمرا
لكن بطنْت بما أظهرت مستترا ... وكيف يُعرَف من بالعزّة استترا

هذه هى العزّة العصماء.. للعزيز الأعظم.. الذى عزّ وعلا وجل.. عن أن يحيط به سواه.

قلت: هل يقترن اسم - العزيز - بأسماء أخرى؟

قال: اسم - العزيز - يقترن بالاسم - القوى - فى تجليات اسم - اللطيف - ترى هذا فى قوله تعالى: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز﴾[2] فالاسم - العزيز - فى هذه الآية مؤيد بالاسم - القوى - وكلاهما عاملان للاسم - اللطيف - كما ترى.

قلت: أرى الأسماء الثلاثة فى تلك الآية: اللطيف - القوى - العزيز - تكاد تتعانق.

قال: وإنه لتعانق جميل.. يظهر أثره دائما على مجالى هذه الأسماء .. فى اللطف الخفى.. الذى يدبر به أرزاق الكائنات.. التى خلقها فى السموات والأرض.. وفى أعماق البحار.. وفى جوّ السماء.. وفيها لا يعلمه سواه.. استنادا إلى أنه القوى مالك القدرة ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾[3] تركزت كل هذه المعانى فكوّنت تاجًا متألقا تحلّى به مفْرِق الاسم - العزيز - فأظهرت سموَّ عزته.. ومناعة رفعته عن الإحاطة والإدراك.. وعن جميع القيود حتى عن قيد الإطلاق نفسه:

أين يمضى بنا الكلام وأيْنَا ... أثَرًا فى الوجود أو كان عَيْنَا
إن أمر الوجود فوق مدى الفكـ ... ـر إذ الفكر فيه يصبح غينا
ولهذا نرى من الشرك أن نر ... سم خَطًا والطَّود قد صار عهْنا

إنها عزة تجلٌّ عن الإدراك.. لأن بلوغ المدارك مداها - أى مدى العزة - ينافى عزتها.. ذلك لأن

(١) أعمى.

(٢) سورة الشورى الآية ١٩.

(٣) سورة الزمر الآية ٦٧.

هذه المدارك التى نحيا بها.. لم تستكمل ما يؤهلها لإدراك معنى العزة.. على أن كل نفس تستطيع أن تفهم معنى العزة عند الناس.

قلت: وما مفهوم العزة فى اللغة؟

قال: العزة فى اللغة: هى المناعة والرفعة والحصانة من الأذى.. وقوة الجانب.. وامتداد النفوذ.

قلت: ولكن الله تعالى قال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾(٤) فهل كل هذا من حق المؤمنين؟

قال: نعم.. قال هذا ليثبت المعنى الاشتراكى فى مفهوم الكرامة.. التى هى حق مطلق لكل السلالات الآدمية على سطح الأرض.. وتبرز الكرامة من مقتضيات تلك المزايا التى ذكرناها.. والذى يؤلف مجموعها المعنى المقصود للعزيز من البشر.. ولكنه - سبحانه وتعالى - أعلن ملكيته الخاصة للمفهوم المطلق من لفظ العزة.. حيث قال: ﴿فإن العزة لله جميعا﴾(٥).

وهنا نلمح معنى ساميا.. وهو أن كل عزة فى الحق.. تبدو على كل قلب مؤمن سليم أبيض الصفحة.. إنما تكون تجليا من تجليات الاسم - العزيز - وقد منح الناسَ حق هذا التجلى عندما قال: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير﴾(٦)

قلت: هل اسم - العزيز - من الأسماء الاشتراكية؟

قال: نعم.. حيث توجد أسماء اشتراكية كاسم: العزيز.. والملك.. والرءوف.. والرحيم.. وهكذا.. فاسم العزيز مصدر لكل عزة.. كما كان اسم - المؤمن - مصدرا لكل إيمان.. واسم الصبور مصدرا لكل صبر.

قلت: وكيف نرى ونراقب مجالى هذا الأسماء كلها؟

قال: إذا أردنا أن نرى ونراقب مجالى الأسماء.. فنجد تجلى الرحيم عند الرحماء - كما قال تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾(٧).. كما نجد أيضا تجلى - الجبار - فى جبروته وبطشه بأعداء رحمته.. وخصوم صفاته.. فإذا اختلف المفهوم بين الرحمة والجبروت.. فإن هذا الاختلاف.. لا يقدح فى وحدة ذات - الرحيم الجبار -.

قلت: هل نطمع فى مثل يقرب هذا المعنى؟

قال: إليك المثل فى نفسك.. فأنت فى مناسبة تعطى وترحم.. وفى مناسبة تمنع وتقسو.. وأنت أنت فى كل من الحالتين المختلفتين.

وهكذا تتاح الفرصة لذوى البصائر.. أن يطالعوا ببصائرهم.. ما يطالعهم به سفْر الوجود.. وكتاب الحياة المشهود.. ليعلموا أن الملك الأعلى الذى خلق وكوّن.. ونظّم وأتقن.. وصنع وأبدع كل شىء.. هو فى ذاته من ناحية الإدراك والماهيّة.. عزيز المنال.. كما قال بعض الشعراء:

---

(٤) سورة المنافقون الآية ٨.
(٥) سورة النساء الآية ١٣٩.
(٦) سورة آل عمران ٢٦.
(٧) سورة الفتح ٢٩.

والله مـــا مـــوسى الكليمُ ولا المسيـــحُ ولا محمـــد
عرفوا.. ولا النفس البســـــــيطة.. لا ولا الروح المجرّد
كـــلا ولا جـــبريـــل وهـــو إلى مقـــام القـــرب يصعـــد
من كُنْـه ذاتك غـير أنك أوحـــديُّ الـذات ســـرمـد

قلت: ألم يقترن اسم - العزيز - مع أسماء أخرى غير اسمى: القوى واللطيف؟

قال: لقد اقترن اسم - العزيز - مع كثير من الأسماء.. فاقترن باسم - الحكيم - فى مثل قوله تعالى: ﴿لا إلـه إلا هو العزيز الحكيم﴾[8] وباسم - العليم - فى مثل قوله تعالى: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾[9] وباسم - الحميد - فى مثل قوله تعالى: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[10] وباسم - الرحيم - فى مثل قوله تعالى: ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[11]. وباسم - الغفور - فى مثل قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾[12] وباسم - الوهاب - فى مثل قوله تعالى: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾[13] وباسم - المقتدر - فى مثل قوله تعالى: ﴿فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾[14].

كما اقترن أيضا باسم المنتقم فى قوله تعالى: ﴿لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾[15]. ومن هنا ترى شمول هذا الاسم.. البعيد المدى.. فهو - سبحانه - الذى تفرّد بالعزّة.. فلا ترقى الأوهام إلى كماله وجلاله.. ليس له مثال ولا نظير.. لا يَذِلُّ ولا يُضام.. ولا ترقى إليه الخواطر والأفهام..

قلت: ألم يطلق هذا الاسم بحقيقته على غير الله - عز وجل -؟

قال: لا عزّة فى الحقيقة إلاّ لله - تعالى - ولكتابه.. حيث قال: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز﴾[16].

قلت: اعتقد أن الذكر باسم - العزيز - له أثر كبير فى حياة الإنسان..

قال: من داوم على ذكره صار عزيزًا بين أقرانه.. وأعزّه الله بعد الذل.. وأغناه بعد الفقر.. وأمّنه بعد الخوف.

وقد قال السهروردى: من قرأه سبعة أيام متواليات.. أذلّ الله خصمه.. وعطف عليه كل من يراه.

وإلى الاسم - الجبار - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(٨) سورة آل عمران الآية ٦.
(٩) سورة الأنعام الآية ٩٦.
(١٠) سورة إبراهيم الآية ١.
(١١) سورة الشعراء الآية ٦٨.
(١٢) سورة فاطر الآية ٢٨.
(١٣) سورة ص الآية ٩.
(١٤) سورة القمر الآية ٤٢.
(١٥) سورة آل عمران الآية ٤.
(١٦) سورة فصلت الآية ٤١.

١٠ - الجبار

قلت: ما معنى الاسم الجبار - من حيث اللغة؟

قال: اسم الجبار من الاسماء الحسنى.. ومعناه فى اللغة ماضى المشيئة.. شديد البطش.
قلت: أليس معنى الجبار - هو نفسه معنى - القهار -؟

قال: الجبار والقهار اسمان يتفقان من ناحية تنفيذ المشيئة.. ولكن القهار لا نقول عنه إنه شديد البطش مثل الجبار.. وإنما القهار معناه تنفيذ المشيئة طبق ما تعلق به العلم الأزلى القديم.

قلت: هل اسم - الجبار - اسم اشتراكى بين الله والبشر؟

قال: إن الجبروت بين البشر يوصف بوقوع مشيئة إنسان جبار برغم أنف الذين تقع بهم هذه المشيئة مجبورين على قبولها - طوعا أوكرها - ولذلك قرر سبحانه - حق الاشتراك فى الاسم - الجبار - حيث وصف به بعض البشر.. بقوله تعالى: ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾[1].

قلت: هل ينطبق هذا المعنى - من ناحية البطش على الله سبحانه وتعالى.

قال: لا يمكن أن ينطبق هذا المعنى على الله مطلقا.. فلزم أن يكون اسم - الجبار - بمعنى.. النافذ مشيئته.. الماضى حكمه.. الواقعة إراداته بغير استكراه فهو يَجْبُر ولا يُجبَر.. ويُطعِم ولا يُطعَم.

قلت: وأين نرى مجالى الاسم - الجبار -؟

قال: نراه فى ميادين الوغى[2].. وفى المصانع التى تصنع آلات الدمار: ﴿وكذلك أخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إنّ أخْذَه أليم شديد﴾[3] وهو سبحانه - وإن أطلق اسم الجبروت على المتمردين من عبيده.. فإنه نفاه عن الاصفياء من عباده.. وعلى رأسهم مصطفاه ومجتباه محمد - ﷺ - حيث قال له: ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾[4].

قلت: هل معنى هذا أن التجبّر حرام على المؤمنين؟

قال: حرام على المؤمن أن يكون جبارا.. إلّا فى حالة واحدة.. هى سبيل الحق.. فهو جبار فى ميادين الوغى.. قهار فى ساحة القتال.. اقرأ معى قوله تعالى: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾[5].

قلت: إذن فالجبروت فى الحرب محمود لامذموم؟

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٣٠.
(٢) الحرب.
(٣) سورة هود الآية ١٠٢.
(٤) سورة ق الآية ٤٥.
(٥) سورة الأنفال الآية ١٢.

قال: نعم.. الجبروت فى وجه الباطل من أعظم المحامد.. حينما نكون أعداء لم ناصبوا الله العداء.. نجبرهم على الاستقامة أو نطهر الأرض من جرثومتهم.. فلا يحل لمؤمن أن يكون جبارا إلّا فى هذا المقام.. فى سبيل الحق المجرد.. لا فى سبيل الأهواء ونزوات النفوس.

فإذا فعلنا ذلك فى الحروب الإسلامية.. وقطعنا دابر الذين ظلموا.. فإن هذا ليس إلّا من تجليات الاسم الجبار - على أيدينا.. لقوله تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم﴾(٦) وهذا من الاسم - الجبار - تأييد للاسم - المهيمن - وتوكيد للاسم - العزيز -.

فلاخير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدَّرا

قلت: ألمح يا أستاذى من خلال هذا.. أن الاسم الجبار يعمل فى مجال الرحمة.

قال: نعم.. يكون الاسم.. الجبار - درعًا واقيا لسريان الرحمة الإلهية.. لأن القتل أنفى للقتلِ.. كما قال تعالى: ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾(٧).

قلت: هل تعتبر الحدود ثمرة من ثمرات الاسم - الجبار -.

قال: الحدود حقوق إلهية.. تدور فى فلك الاسم - الجبار - ويجب ألا تتخللها لمحات من تجليات الاسم - الرءوف - لقوله تعالى عن حدّ الزنى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله﴾(٨).. لأن الرأفة هنا تقع فى مجلى من مجالى الاسم - الجبار - وهذا خطأ واضح.

قلت: أليس من حق العقل أن يعلن عجزه عن إدراك الحكمة فى وقوع الجبروت من نفس الرحيم.. بمعنى أن الجبار هو نفسه الرحيم؟

قال: نعم من حق العقل إعلان هذا العجز .. ولكن نقول لهذا العقل: ماذا تشعر به فى نفسك.. عندما تجد قوما أعلنوا على قوم هاجعين آمنين غزوة دامية.. فقتلوا الرجال والأطفال.. وسبُوا النساء واستولوا على المتاع.. أيها العقل ماذا تشعر به الآن؟.. و ما هى سبيلك التى ترى أن تسلكها لشفاء نفسك.. وذهاب غيظك؟.. ألا ترى أنه لا يتم اطمئنان النفس.. وراحة الضمير.. إلّا بالقصاص العدل.. من هؤلاء الغزاة المعتدين.. والتنكيل بهم: ﴿والله أشد بأسا وأشد تنكيلا﴾(٩).

قلت: يا سبحان الله.. تتعدد الأسماء وتختلف ولكن الذات واحدة.

قال: لقد رأيت أن الجبار - لا ينافى أنه هو بذاته.. الرءوف الرحيم.. الحنان.. ولكن حكمته تجعل تجليات الأسماء صدقا وعدلا.. فى مواقعها المختلفة حتى لا يُظلم أحد.. فإنما هى أعمالكم تردّ عليكم.. وهو سبحانه - ﴿على صراط مستقيم﴾(١٠) وكما قال تعالى: ﴿صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾(١١) وسوف يتضح هذا المعنى أكثر.. عند النظر فى مجالى الاسمين الكريمين - الحكم العدل.

---

(٦) سورة التوبة الآيتان ١٤، ١٥.

(٧) سورة البقرة الآية ١٧٩.

(٨) سورة النور الآية ٢.

(٩) سورة النساء الآية ٨٤.

(١٠) سورة هود الآية ٥٦.

(١١) سورة الشورى الآية ٥٣.

قلت: فهمنا الآن أن جبروت الله تعالى.. غير جبروت خلقه.

قال: معاذ الله أن يكون وصفه بالجبروت مساويا لما وصف به عباده.. بل جبروته تعالى.. إنما هو لدفع جبروت خلقه.. وهو يحب لعباده الحياة ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾.. لأن القصاص هو القوة الرادعة عن الظلم.. والتمادى فى الإضرار والاساءة.

وبهذا يكون الباعث الأساسى لتجليات الاسم - الجبار - هو الاسم الرحيم: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾(١٢).

قلت: معنى هذا أنه هو وحده المتفرد بالجبروت.. وأن جبروت المؤمنين فى سبيل الحق مستمد منه.

قال: إنه متى كان منفردا بالقوة.. كان من حقه أن ينفرد بالجبروت.. الذى هو أحد مظاهر القوة.. فهو يغضب أن يجد لذاته شريكا فى مقام الجبروت ولذلك لعن الجبارين.. وأورد جبروتهم فى مصاف اللعنة.. كما لعن الذين يشاركونه فى الكبرياء.. كلعنة الموصوفين بالجبروت سواء بسواء وهنا يمكن أن نجد المدخل إلى الاسم - المتكبر.

قلت: قبل أن ننتقل إلى الاسم المتكبر - هل ورد اسم - الجبار فى القرآن الكريم -

قال: نعم ورد مرة واحدة فى قوله: ﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾(١٣).

قلت: وما معنى الجبار فى اللغة؟

قال: الجبر: أن تغنى الرجل من فقر.. أو تصلح العظم من كسر.. وأجبره على الأمر: أكرهه عليه.

قلت: إذن على المرء أن يجبر نفسه على فعل الخير؟

قال: نعم على المؤمن أن يُقبل على تربية نفسه فيجبر نقائصها.. ويحملها على ملازمة الطاعة والتقوى.. حتى لا تزلزله الحوادث. ولا تهزه النوائب فيستريح من التفكير وجهد التدبير.

ومن آداب من عرف أن الله تعالى - جبار - لا يجرى فى سلطانه شىء يخالف مراده.. وأنه لا تناله الأيدى لعلو قدره.. وتحقق أنه لا سبيل إليه إلاّ بالوقوف بين يديه .. فلا يصيب العبد منه إلاّ لطفه وإحسانه ثم ثوابه وامتنانه.. وعفوه ورضوانه.. وأنشدوا:

فـلانيْلَ إلا مـا تزوَّد نـاظـر ... ولا وصْل إلا بالخيال الذى يسرى
وقُلْنَ لنـا نحن الأهلَّة إنمـا ... نضىء لمن يسرى إلينا ولا نقرى

ولهذا جاء فى بعض الكتب:

عبدى تريد وأريد.. فلا يكون إلاّ ما أريد.. فإن رضيت بما أريد كفيتك ما تريد.. وإن لم ترض بما أريد أتعبتك فيما تريد.. ثم لا يكون إلا ما أريد.

---

(١٢) سورة الحج الآية ٤٠.

(١٣) سورة الحشر الآية ٢٣.

سيكون الذى قُضى ِ سَخِطَ العبدُ أم رضى
فدع الهم يا فتى كل هم سينقضِى

وإذا ذكر العبد بهذا الاسم.. لا ينظر إليه أحد إلا غشيته منه مهابة وإلى الاسم - المتكبر - إن شاء الله تعالى -.

* * *

١١ - المتكبر

قلت: هل يجوز أن نقول عن الله تعالى إنه المستكبر؟.

قال: لا يجوز مطلقا.. لأن الاستكبار معناه مُحاولة التكبر.. والله تعالى متكبر بذاته.

قلت: وما معنى المتكبر فى اللغة؟

قال: المتكبر – فى اللغة – هو المتعالى على سواه.

قلت: ولكن.. هل هذا الاسم فى مفهومه ومسماه وحدوده.. معناه بالنسبة لذات البارى – سبحانه وتعالى – بهذه المثابة؟

قال: كلا.. لأنه – سبحانه – قرر وحدانيته فى مقام الكبرياء.. ليكون ذلك رادعا للذين تحدثهم أنفسهم بالكبرياء.. حيث قال عن نفسه: ﴿وله الكبرياء فى السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1].

قلت: وهل قال سبحانه – شيئا فى القرآن الكريم عن المتكبرين من البشر؟

قال: قال عن المستكبرين من الناس.. الذين يحاولون مساواة الله – تعالى – فى أخص صفاته: ﴿أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين﴾[2] وقال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾[3]. فجعل مثواهم ومآلهم ومرجعهم جهنم.. جزاءً وفاقًا لهم.. لتطاولهم على التشبه بصفته تعالى فى الكبر.

قلت: وهل يجوز للمؤمن أن يتكبر؟

قال: لا يجوز للمؤمن الكبر إلاّ على المستكبرين من الناس.. فالأثر الحكمى يقول: «الكبر على أهل الكبر صدقة»

قلت: لا شك فى أنه توجد علاقة بين خشوع المخلوق وكبرياء الخالق؟

قال: إنما يظهر معنى التكبر.. فى رضاه عن عباده الذين يخشونه وحده.. ولا يخشون أحدًا سواه.

قلت: وعلى أى صورة يكون ذلك الرضى منه عن عباده الخاشعين؟

قال: لقد جعلهم أقرب ما يكونون منه عند الذل له. والتضرع إليه.. والسجود بين يديه.. والشعور بالخشوع التام.. والمهابة الكاملة.. والجناب الرهيب.. والجمال المهيب.. فكلما كانوا فى هذا الموقف فى محرابه.. كانوا أقرب إليه من أى موقف سواه.

وهذا هو موقف الكبرياء من الله تعالى.. يقابله الخشية والخشوع من المخلوق.. فتكون أقرب

(١) سورة الجاثية الآية ٣٧.
(٢) سورة الزمر الآية ٦٠.
(٣) سورة غافر الآية ٧٦.

المسافات بينك وبين الكبير المتعال.. عندما تضع جبهتك - وهى أشرف مكان فى جسمك.. على الأرض بين يديه.

قلت: لقد سمعت حديثا لرسول الله - ﷺ - يؤدى هذا المعنى.

قال: نعم.. فقد قال - صلوات الله وسلامه عليه: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

قلت: هل يجوز اعتبار الكبرياء صفة منحولة(٤) لله تعالى - باعتباره العلىّ الكبير؟

قال: إن صفة الكبرياء.. من مقتضى كمال قدرته.. وإحاطة علمه.. وشمول قوّته.. وعظمة عرشه.. فالاسم المتكبر هو اسم اقتضائى بالنسبة لذات الكبير.. كما أن العلياء له تعالى من مقتضيات الاسم العلىّ.. والعظمة من مقتضيات الاسم العظيم.. وهكذا.

قلت: على أى أساس يكون تعامل المؤمن مع اسم الله تعالى - المتكبر -؟

قال: على درجة علمنا بأنه هو وحده المتكبر.. يكون إمعاننا فى الذلّ بين يديه.. واتخاذ العبادة أقرب وسيلة إليه.. نبتغى إليه الوسيلة بالعبرات.. ونلتمس رضاه بالدعوات.. فهذا هو المقام الذى يُعَدُّ المجلى المباشر لتجليات الاسم - المتكبر.

قلت: وهل من أجل هذا كانت الدعوة إلى الصلاة: - الله أكبر -؟

قال: هذا أمر طبيعى.. فالصلاة هى مجال التعبد والخشية.. والخشوع والرهبة.. والتذلل والانكسار.. ألم تستمع إلى قول الحكيم: «أنين المذنبين أحب إلى الله من تسبيح العابدين»؟ وقد جرى مجرى العرف بين المسلمين قولهم عند كل أذان يسمع فيه التكبير: «العظمة والكبرياء لله وحده».

قلت: وما هى العوامل التى يقوم عليها اسم - المتكبر -؟

قال: إنه يقوم على العلوّ والعظمة.. والعزة والحكمة، فله قائمان من الاسمين الكريمين: العلى والعظيم.. ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم﴾(٥)، وله قائمان آخران.. من الاسمين الكريمين: العزيز والحكيم.. لأن العزة والحكمة من مقتضيات الكبرياء: ﴿وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾(٦).

قلت: هل ورد اسم - المتكبر - فى القرآن الكريم؟

قال: ورد بهذا النص مرة واحدة.. فى قوله تعالى: ﴿السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾(٧). كما ورد هذا المعنى فى الحديث القدسى المعروف.. الذى يتوعد فيه - سبحانه - المتطاولين عليه من بنى البشر.. بالدمار والهلاك.. فقد قال رب العزة فى الحديث القدسى: «العظمة إزارى.. والكبرياء ردائى.. فمن نازعنى إحداهما قصمته».

قلت: إذن لايجوز أن يكون المؤمن متكبرا مطلقا؟

قال: قلنا إن الكبر على أهل الكبر صدقة.. ومعنى هذا أن المتكبر من المؤمنين.. هو الزاهد الذى ينزّه خاطره عما يشغل سرّه من الخلق.. ويتكبر على كل شىء سوى الحق - سبحانه - فيكون

(٤) النِّحلة: العطاء من غير عوض.
(٥) سورة الشورى الآية ٤.
(٦) سورة الجاثية الآية ٣٧.
(٧) سورة الحشر الآية ٢٣.

مستحقرا للدنيا ومتاعها وزخرفها وشهواتها.. وإنما يشترى بمتاع الدنيا نعيمَ الآخرة.. فيترك الشيء عاجلا طمعا فى أضعافه آجلا.

ومن استعبدته شهوة المطعم والمنكح فهو حقير.. وإنما المتكبر من يستحقر كل شهوة.. لأنه يعلم أن البهائم تشاركه فيها.

وقد بلغ عمر بن عبدالعزيز أن ابنه اشترى فصًّا لخاتمه بألف درهم.. فكتب إليه: أما بعد.. فلقد بلغنى أنك اشتريت فصًّا بألف درهم.. فبعه.. وأشبع به ألف جائع.. واتخذْ خاتمًا من حديد.. واكتب عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

ولا شيء أحسن على الخدم.. من التواضع بحضرة السادة:

ويظهر فى الهوى عِزُّ الوالى ... فيلزمنى له ذلّ العبيد

ومن أطرف ما قرأت حول هذا المعنى أن أحد المقربين رأى الله فى منامه.. فقال: يارب.. بماذا أتقرب إليك؟.. قال: تقرَّبْ إلىّ بما ليس فىَّ.. قال: وما الذى ليس فيك؟.. قال: الذّلّ والافتقار.

والمتكبر من بنى البشر.. كالرجل فوق الجبل.. يرى الناس صغارا.. وهم يرونه صغيرا.

قلت: الإنسان أحيانا يحس بشيء من الزهو.. إذا وفّقه الله - تعالى - إلى شيء من العبادات والطاعات.. فهل هذا زهو ممدوح أم مذموم؟

قال: التوفيق إلى العبادات والطاعات.. يستحق الحمد لله والثناء عليه.. فأنا إن لقينى طفل يتيم.. وطلب منى قرشا.. ووقانى الله تعالى شحَّ نفسى.. فأعطيته ما طلب.. هذا التوفيق يستحق منى الحمد والثناء على الموفق - سبحانه - لأنه هو الذى ساق اليتيم ليطلب.. ويسر لى سبيل العطاء.. فله الفضل والمنّة..

وقد قال بعض الحكماء: لأن أبيت نائما وأصبح نادما.. أحب إلىّ من أن أبيت قائما وأصبح معجَبًا. ورُبَّ معصية أوجدت ذُلًّا وانكسارا.. خير من طاعة أوجدت دِلًّا وافتخارا.

قلت: وكيف أذكر الله بهذا الاسم؟

قال: ذكره بعد إضافته إلى: الله.. الرحمن.. الجليل.. يجعل الإنسان مهابًا مطاعًا.. وإذا كان متوليا أمرا من أمور المسلمين.. كان موفقا فى أعماله وأفعاله.. موقَّرًا مُسَدَّدًا فى أحواله وأحكامه.

وهيا بنا إلى الاسم التالى - الخالق - إن شاء الله تعالى.

* * *

١٢ - الخــالـق
١٣ - البــارئ
١٤ - المصــور

قلت: اسم الخالق - معروف.. فهو سبحانه الذى خلق كل شىء.. ولكن هل يجوز إطلاق هذه الصفة على بعض البشر؟

قال: قد تطلق تلك الصفة على بعض البشر.. بمعنى الابتكار والاختراع.. ولكنها ليست من الصفات الاشتراكية.

قلت: وهل ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم بالنص اللفظى منسوبًا إلى البشر؟

قال: إن هذا الاسم لم يرد فى القرآن الكريم بالنسبة لبنى الإنسان.. إلا فى خَلْق الكذب.. كما قال تعالى: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا﴾[١]. ويبدو أن الإفك وهو الكذب - هو المخلوق الأوحد.. الذى لا يخلق الناس سواه.. لأن اسم الكذب من الأسماء العدمية .. فلا مفهوم ولا مسمى للافتراء والكذب.. لأن مفهوم الافتراء ومسماه هو العدم.. فلا حقيقة للأمر المفترى أو الخبر الكاذب.. ومتى انتفت الحقيقة وثبت البطلان.. لزمت العدمية.

قلت: إذن فكيف نسند الابتكار والاختراع إلى بنى الإنسان؟

قال: إن إسناد الابتكار والاختراع إلى الخلق.. إنما هو إسناد مجازى.. لأن كلا منهما داخل فى نطاق تجليات الإلهام الإلهى.. فالله سبحانه - هو خالق العمل ذاته.. لقوله تعالى: ﴿والله خلقكم وماتعملون﴾[٢]. فالمخترع والمبتكر.. لم يخلق فى نفسه الفكرة التى ابتكرها.. وإنما الله سبحانه - هو الذى ألهمه إياها. ﴿الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل﴾[٣].

قلت: مادام الله سبحانه - هو خالق كل شىء.. فلماذا أسند خلق الإفك الى الناس فقال: ﴿وتخلقون إفكًا﴾؟

قال: قلنا: إن الإفك عدم.. حيث لا يوجد مفهوم ولا مسمى للكذب والافتراء.. فإذا قلنا إن الله خالق كل شىء.. فليس العدم شيئًا يخلق.. وإنما العدم مستحيل الوجود.. وقدرة الله لا تتعلق بالمستحيل. مطلقًا.. كما ضربنا المثل سابقًا باستحالة دخول الجمل فى سمّ الخياط[٤].. لأن هذا مخالف لطبائع الأشياء.. إلّا إذا صار الجمل خيطًا رفيعًا.. أو أصبح سم الخياط بوابة ضخمة.. وبهذا يكون كل منهما قد خرج عن طبيعته.. فلو فرضنا أن قدرة الله تعالى أحالت الجمل إلى خيط رفيع يدخل فى عين الإبرة.. فإن أصل الفرض أنه جمل وليس خيطًا.. وإذا قلنا إن القدرة جعلت عين الإبرة تنفرج وتتسع حتى يدخل فيها الجمل.. فإن أصل الفرض هنا أنها عين إبرة وليست بوابة.. فلزم عدم تعلق قدرة

---

(١) سورة العنكبوت آية ١٧.
(٢) سورة الصافات آية ٩٦.
(٣) سورة الزمر آية ٦٢.
(٤) ثقب الإبرة.

الخالق – سبحانه – بالمستحيل لأن المستحيل عدم بحت.. والعدم ليس شيئًا.. ولهذا نسب خلق الإفك والكذب إلى الأفاك الكذاب.

قلت: وما الفرق بين اسمى: الخالق والبارئ؟

قال: خيط رفيع جدا.. يفصل بين الاسمين: الخالق والبارئ.. فنحن نفهم أن الخالق – سبحانه وتعالى – أنشأ الكائنات كلها ابتداء.. من غير مثال سبق.. وهو البارئ بهذا المعنى.. لأنه خلق لا عن روية وتفكير.. بل جرت قدرته فى متعلقات علمه.. فبرزت المخلوقات.. وكل ذلك فى غير زمن.. لأن البرْءَ هو مجرد الخلق والإنشاء من غير زمن.

قلت: معنى هذا.. أنه يوجد اقتران بين اسمى: الخالق والبارئ؟

قال: اقترنت تجليات الأسماء: الخالق – والبارئ – والمصور.. اقتران التلازم والضرورة والاقتضاء.. فإن الصورة إنما تتعلق بالمصوَّر – بفتح الواو المشددة – وهو المخلوق الذى أنشأه البارئ على الصورة التى قال الله عنها فى كتابه الكريم. ﴿وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾[5] وقوله: ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[6] وقوله: ﴿الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾[7].

قلت: يفهم من هذا أن الاقتران الثلاثى بين مجالى الأسماء: الخالق – البارئ – المصور اقتران زمنى واحد؟

قال: إذا تناولنا هذا الاقتران من ناحية الزمن.. نجد أن الخلق والبرء لا يحدهما الزمن.. ولكن قد يكون التصوير لاحقًا بالنسبة لهما.. وإن كان أمر اللحوق هذا معنويًا أيضًا.. ولكننا حكمنا باللحوق لقوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[8] لأن – ثم – فى اللغة تفيد الترتيب مع التراخى.. وإن كان العقل يقف عاجزًا أمام معنى الترتيب الثانى.. وهو: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾. وهذا موضوع يبعدنا عن بحث الأسماء.

قلت: على أى حال.. هو اقتران بين تلك الأسماء الثلاثة.. على أية صورة من صور الاقتران.

قال: نعم.. يظهر التلازم الاقتضائى بين تجليات الأسماء الثلاثة.. اقترانًا بحيث لا ينفك أثر أحدها عن أثر الآخر.

وهذا يعطينا طيفًا.. يمرّ بالإدراك – عن عظمة ذلك المُلْك الشاسع اللانهائى.. الذى هو أثر مادى للاسم الخالق – حيث انتقل من عالم البطون وقوة الاسم – الباطن – إلى حيز الظهور وقوة الاسم الظاهر – ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾[9] كما أحاط بكل متحرك وساكن: ﴿وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم﴾[10] وسوف نمر إن شاء الله تعالى على مجالى هذه الأسماء فى مقاماتها..

---

(٥) سورة التغابن آية ٣.
(٦) سورة آل عمران آية ٦.
(٧) سورة طه آية ٥٠.
(٨) سورة الأعراف آية ١١.
(٩) سورة الحديد آية ٣.
(١٠) سورة الأنعام آية ١٣.

قلت: وما أثر هذه الأسماء المتعانقة الثلاثة فى حياة الإنسان؟

قال: أما أسما الخالق والبارئ فلا مدخل للعبد فيهما إلا بنوع بعيد من المجاز.. لأن الخلق والبرء من تجليات القدرة فى ظلال العلم.. فإن كانت للعبد قدرة وعلم.. فإنهما مستمدتان من القادر العليم - سبحانه - فإسناد القدرة والعلم إلى مخترع المصباح الكهربى أو إلى مخترع المذياع.. باعتبار أن كلا منهما قد خلق أو اخترع هذه الأداة بدون سبق مثيل لها.. فإنما هو إسناد مجازى.. وليس إسنادًا حقيقيا.. لأن الله تعالى هو الذى خلق فى نفسه تلك الفكرة.. لإبرازها من عالم البطون إلى عالم الظهور فقد جعل الدنيا قائمة على الأسباب.

وأسماء الله تعالى - منها ما يكون وصف العبد بها مجازًا - وهذا فى الغالب - ومنها ما يكون فى حق العبد حقيقة.. وفى حق الله تعالى مجازًا.. كالمؤمن والصبور والشكور.

ويجب ملاحظة تلك الفروق فى فهم معنى المشاركة فى بعض الأسماء.

أما أثر اسم - المصور - فى نفس العبد.. فإنه هو العامل الرئيسى فى اكتساب العلوم كلها.. ولهذا كانت المصورة لطيفة من اللطائف والملكات عند بنى البشر.

قلت: وماهى اللطائف والملكات عند بنى البشر؟

قال: إن الله تعالى كما وهب الجسم عند الإنسان خمس حواس هى: السمع والبصر والشم والذوق واللمس... وهب الروح خمس لطائف هى: الحفظ والفهم والخيال والتصور والتوهم.

قلت: وما أثر التصور فى اكتساب العلوم؟

قال: إن أثر الاسم - المصور - فى الإنسان يجعله يحصل فى نفسه على صورة الوجود كله على هيئاته وتركيبه وترتيبه.. فيحيط بهيئة العالم كله.. وكأنه ينظر إليه نظر العين.. ثم ينتقل من الكل إلى الأجزاء والمخلوقات والتفاصيل فينتقل من السماوات وما فيها من كواكب وأفلاك ومدارات.. إلى خلق الإنسان وصورته من حيث البدن والأعضاء الجسمية.. فيعلم أنواعها وأعدادها وتركيبها والحكمة فى خلقها.. ثم يشرف على المعنويات فيه والصفات والملكات. وكذلك يعرف صور الحيوانات والنباتات على اختلاف أنواع كل منها. هذا هو حظ العبد من الاسم الكريم - المصور - وهو أن يكتسب قلب الإنسان جميع الصور العلمية المطابقة للصورة الوجودية.. فإن العلم صورة فى النفس مطابقة لصورة المعلوم عند المصور - جلّ شأنه - وعلم الله تعالى بالصور يكون سببًا لوجود الصور بأعيانها.. ووجود الصور بأعيانها يكون سببًا لحصول الصور العلمية فى قلب الإنسان.. وبذلك يستفيد العبدُ العلم بتجليات الاسم - المصور - ويصير باكتساب تلك الصور فى قلبه كأنه مصوِّر.. وإن كان ذلك على سبيل المجاز.. لأن هذه الصور إنما تصوُّرها هو بفعل الله تعالى على التحقيق.. وليست من فعله هو.. ولكن العبد يسعى بالتعرض لفيضان رحمة الله تعالى عليه.. ولذلك روى الطبرانى عن محمد بن مسلمة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ قوله: «إن لله فى أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها.. فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدًا».

قلت: حقا إن الأسماء الثلاثة: الخالق - البارئ - المصور - هى الدوافع الرئيسية التى تدفع الإنسان دفعًا إلى إمعان النظر.. والتأمل بعمق إلى جميع مخلوقات الله تعالى..

قال: نعم.. وإذا عرف العبد أن الله تعالى قد برأه من البر - أى التراب - وأنه لم يكن شيئًا ولا عينًا.. فجعله شيئًا مذكورًا.. وعينًا منظورًا.. فعليه ألا يعجب بحاله.. ولا يزهو بأفعاله.. وكيف لا يتواضع لخالقه وبارئه ومصوره.. وقد علم أن بدايته نطفة.. ونهايته جيفة.. وأنه الآن صريع جَوْعة.. وأسير شَبْعة.. ولهذا قال تعالى: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾(١١) ومن أجمل ما قيل حول تلك الآية: ﴿وفى أنفسكم﴾.. إلخ أن الإنسان إذا نظر وفكر فى جمال وجهه.. وعلم أن الله تعالى قد زيّن هذا العضو الظاهر من جسمه.. وستر الأعضاء القبيحة منه.. علم أن الذى سترمنه المساوئ فى الدنيا خليق ألّا يفضحه على رءوس الأشهاد يوم التناد. وقد روى أن بعض الصالحين رُئِىَ فى المنام.. فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال: أقامنى وأعطانى كتابى.. فممرت بسيئة فخجلت أن أقرأها.. فقال لى: لابدّ من قراءتها.. فقلت: إلهى لا تفضحنى.. فقال: الوقت الذى عملتها فيه ولم تستح ما فضحتك.. أفأفضحك الآن وأنت تستحى؟ كما قرأت حول قوله تعالى: ﴿وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾(١٢). أن الله تعالى نبهنا إلى حسن الخلق أسوة بأمنا الأرض.. نلقى فيها القاذورات.. فتخرج لنا الأزهار والثمرات.. ولهذا قال الشاعر:

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعًا ... يُرْمَى بصخر فيلقى أطيب الثمرِ

قلت: وماهى المجالات التى يُذكر الله فيها بتلك الأسماء؟

قال: لكل اسم من هذه الأسماء الثلاثة ظلالٌ فى التأثير بالدعاء.. فاسم - الخالق - يصلح ذكره لمن كانت مهنته الزراعة.. فإن جعله ورده حفظ الله تعالى زراعته من الآفات.. وله خاصية لمن غاب له غائب.. فإن ذكر به عند النوم حتى ينام.. يرى فى منامه ما يسرّه. واسم - البارئ - يصلح لمن طال مرضه وعجز الطب فيه.. فإن الله تعالى يبرئه ويعافيه.

واسم - المصور - يصلح تلاوته لأرباب الصناعات والفنون.. فيعين على إتقان العمل.. ويصل بصاحبه إلى طريق الشهرة.

واعلم أن سبب عدم الإجابة .. هو الشك.. نسأل الله أن يرزقنا الإيمان والتصديق.. وإلى الاسم التالى.. إن شاء الله تعالى. وهو اسم الغفار.

* * *

---

(١١) سورة الذاريات آية ٢١.

(١٢) سورة الذاريات آية ٢٠.

١٥ - الغَفَّـار

قلت: انتهينا من الأسماء الثلاثة: الخالق - البارىء - المصور - التى يعتبر اقتران مجاليها أصلا لخلق الكون كله.. فلماذا كان الاسم - الغفار - هو الاسم الأول بعد الخلق والبرء والتصوير؟

قال: ألم تر أنه هو أول اسم تجلى به الله على البشرية.. فى صورة آدم عليه السلام.. من أول يوم.. بل من أول ساعة.. بل من أول لحظة بدأ فيها مباشرة حياته الدنيا.. على هذا الكوكب؟

قلت: هل معنى هذا أن مجالى هذا الاسم.. هى المجلى الأول من مجالى الأسماء الحسنى.. من ناحية العبادة والدين؟

قال: نعم.. فقد بدأ الإسلام وليدًا.. وكانت رضعاته الأولى جرعات من الاستغفار.

قلت: أرجو توضيح هذا الأمر..

قال: كل مخلوق لابدّ أن يمر بمرحلة الطفولة.. ثم الصبا.. ثم الشباب.. ثم النضج والكمال.. وكذلك الدين.. بدأ طفلا وليدًا.. لا قواعد له ولا أركان سوى الاستغفار.. فما كانت دعوة نوح - عليه السلام - إلا طلب الاستغفار من قومه.. اقرأ قوله تعالى على لسان نوح: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارًا * ويمددْكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾[١] وهى نفس الدعوة.. فى أيام هود - عليه السلام - لقومه - قوم عاد - من بعد نوح ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدْكم قوة إلى قوّتكم ولا تتولّوا مجرمين﴾[٢].

ثم أخذ الدين يمر بجميع مراحل النمو من حيث قواعده وأركانه من عصر إبراهيم - بعد هود وصالح - إلى عصر موسى.. ثم عصر عيسى - عليهم السلام.

قلت: إنه مفهوم جديد لتطور الدين.. ولكن متى بلغ الدين مرحلة النضج والكمال؟

قال: بلغ الدين درجة الكمال الشامل لجميع نواحى الحياة الدنيا والآخرة.. على يد خاتم الرسل محمد - ﷺ - حيث نزلت آخر رسالة تفضل بها العرش الإلهى الأعلى على العالمين.. فيها تفصيل لكل شىء.. ألم تر أن آخر فقرات تلك الرسالة - وهى القرآن الكريم - كانت: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[٣] ولعل كلمة ﴿أكملت﴾ تبين أنه كان موجودًا.. ولكنه لم يستكمل بعد.. كل هذا فى مجالى الاسم - الغفار -: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾[٤].

قلت: إذن فمجلى الاسم - الغفار - عامل مشترك فعّال.. ذو أثر خطير فى الكيان الدينى؟

قال: ليس فى الكيان الدينى فحسب.. بل فى الكيان الدينى والدنيوى معًا.. ويكفى أنه حجاب يمنع

---

(١) سورة نوح الآيات ١٠ - ١٢.

(٢) سورة هود الآية ٥٢.

(٣) سورة المائدة الآية ٣.

(٤) سورة فاطر الآية ٤٥.

غضب الله وعذابه.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾[٥]؟

قلت: إن مجالى الاسم – الغفار – فى التوبة على المذنبين.. وهذا يتعلق بالكيان الدينى فى الآخرة.. فما أثره فى الكيان الدنيوى؟

قال: أثر مجالى هذا الاسم فى الكيان الدنيوى كثيرة وكثيرة.. فهى واضحة فى قول نوح لقومه: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾[٦] فنزول الغيث مدرارا.. والإمداد بالأموال والبنين.. وجعل الجنات والأنهار.. كلها آثار دنيوية محضة.

قلت: هذا كان فى أيام نوح – عليه السلام – فهل امتدّ هذا الأثر إلى العصر المحمدى؟

قال: نعم.. لقد خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليستسقى ويطلب المطر من الله سبحانه – عندما أمسكت السماء وأجدبت الأرض.. فما زاد فى دعائه على الاستغفار.. فقيل له: ما رأيناك استسقيت يا أمير المؤمنين.. فقال: لقد استسقيت بمفاتيح السماء التى يُستنزل بها القطر[٧].

كما ورد عن الحسن.. أن رجلا شكا إليه الجدب[٨].. وآخر شكا الحاجة.. وثالث شكا قلة النسل.. فأمرهم جميعا بالاستغفار.. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبوابا.. ويسألون أنواعا.. فأمرتهم جميعا بالاستغفار.. فتلا قول نوح لقومه: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ إلى آخر الآيات.

كما ورد عن الحسن بن علىّ أيضًا.. أنه وفد على معاوية.. فلما خرج من عنده.. قال له بعض حجّاب معاوية: يا ابن بنت رسول الله.. إنى رجل ذو مال ولا يُولد لى.. فعلمنى شيئًا.. لعل الله يرزقنى ولدًا.. فقال له الحسن – رضى الله عنه – عليك بالاستغفار – فكان يكثر الاستغفار حتى كان يستغفر فى اليوم سبعمائة مرة.. فوُلد له عشرة بنين.. فبلغ ذلك معاوية.. فقال للحاجب: هلاّ سألته مِمَّ قال ذلك؟ فوفد الحسن مرة أخرى.. فسأله الرجل.. فقال له: ألم تسمع قول هود: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ وقول نوح: ﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾.

قلت: إذا كان مجلى هذا الاسم – الغفار – بهذا الحجم.. من العفو والعطاء فلماذا نخاف؟

قال: إن الغفار – غافر الذنب – هو نفسه القهار – شديد العقاب.. فلا يجوز أن ننظر بعين واحدة.. لأن الله – تعالى – جعل لنا عينين.. لابدّ أن ننظر بهما معًا.

وهذا كان الاسم التالى – بعد الاسم الغفار – هو اسم – القهار.

قلت: وما معنى اسم – الغفار – فى اللغة؟

قال: الغَفْرُ فى اللغة: أى الستر والتغطية.

قلت: وما نصيب هذا الاسم من هذا المعنى؟

---

(٥) سورة الأنفال الآية ٣٣.

(٦) سورة نوح الآيات ١٠–١٢.

(٧) المطر.. من الكشاف.

(٨) الفقر.

قال: اسم الغفار يحمل هذا المعنى.. فهو - سبحانه - الذى أظهر من الإنسان الجميل.. وستر منه القبيح.. والذنوب من القبائح التى سترها الله تعالى على عباده فى الدنيا.. وتجاوز عن عقابهم فى الآخرة. وقد ستر الله على عبده فى ثلاث حالات:

أولا: جعل ما تستقبحه العين من جسمه - مستورا فى باطنه.. مغطى بجمال مظهره.. وكم بين باطن العبد وظاهره من قبح وجمال.. ومن نظافة وقذارة.. وتستطيع أن تدرك ذلك إذا نظرت إلى أعضائك الظاهرة وأعضائك الباطنة المستورة.

ثانيًا: جعل خواطرك المذمومة.. وأفكارك القبيحة.. مكنونة فى قلبك مستورة فى صدرك.. لا يطلع أحد على ما فيها من وساوس وأوهام.. ولو رأى الناس ما تنطوى عليه بعض الضمائر من الغش والخيانة والحقد.. لفتكوا بأصحابها.. فانظر كيف ستر الله السوءات والعورات.

ثالثًا: إنه تعالى يغفر ذنوب عباده.. التى يستحقون عليها افتضاح أمرهم وقد وعد أن يبدل سيئاتهم حسنات.. ليستر قبح الذنوب بجميل الثواب.. طالما كان العبد ثابتا على الإيمان.

قلت: وما صدى هذا الاسم على العبد فى سلوكه؟

قال: على المؤمن أن يستر على عيوب الناس كما يحب أن يستر الله عليه عيوبه.. ولهذا روى الإمام أحمد فى مسنده.. قوله عليه الصلاة والسلام -: «من ستر على مؤمن عورته.. ستر الله عورته يوم القيامة»، وبلفظ آخر: «من ستر أخاه المسلم فى الدنيا فلم يفضحه.. ستره الله يوم القيامة».

وها أنت ترى أن المغتاب والمتجسس والمنتقم.. لا يتصف بتلك الصفة.. وإنما المستحق لهذه الصفة من الناس.. من لا يُفْشى من خلق الله تعالى إلا أحسن ما فيهم.. ولكل إنسان محاسن ومساوئ.. فمن أغمض عينه عن عيوب الناس.. ولم يذكر إلّا محاسنهم.. كان نصيبه من هذا الاسم أوفر نصيب.

كما روى عن عيسى - عليه السلام - أنه مرّ مع الحواريين على جثة.

كلب ميت.. وقد غلب نتنه.. فقال الحواريون: ما أنتن هذه الجيفة!!.. فقال عيسى - عليه السلام -: ما أحسن بياض أسنانه.

وفى هذا رمزية على أن لا نذكر عن كل شيء إلّا أحسنه.

قلت: وهل ذكر هذا الاسم بالنص فى القرآن الكريم؟

قال: نعم.. ذكر بالنص خمس مرات: فى قوله تعالى: ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾(٩) وقوله: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾(١٠) وقوله: ﴿كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾(١١) وقوله: ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾(١٢) وقوله: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾(١٣) كما ورد بهذا المعنى فى آيات كثيرة.

قلت: وفى أى المواقف يمكن استعمال هذا الاسم فى الدعاء؟

---

(٩) سورة طه الآية ٨٢.
(١٠) سورة ص الآية ٦٦.
(١١) سورة الزمر الآية ٥.
(١٢) سورة غافر الآية ٤٢.
(١٣) سورة نوح الآية ١٠.

قال: من أحب أن يكثر ماله وولده.. ويبارك الله له فى رزقه.. فليقل: «أستغفر الله إنه كان غفارا» فى اليوم والليلة سبعين مرة.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من لزم الاستغفار.. جعل الله له من كل هم فرجًا.. ومن كل ضيق مخرجا.. ورزقه من حيث لا يحتسب».

وإلى الاسم التالى - إن شاء الله تعالى.

* * *

١٦ - القهار

قلت: ما معنى القهر فى اللغة ؟

قال: القاهر فى اللغة هو الغالب وقد يكون القهر بمعنى الإكراه.

قلت: وهل ينطبق هذا المعنى على اسم القهار - باعتباره اسمًا من أسماء الله الحسنى؟

قال: الغالب هو الذى كان له نظير يصارعه.. فالمنتصر هو الغالب.. والمهزوم هو المغلوب.. وتعالى الله علوا كبيرا عن المماثلة والمشابهة فى مثل تلك المعانى.

قلت: إذن فما المعنى المقصود من اسمه تعالى - القهار- ؟

قال: القهار مبالغة من القاهر فهو قاهر فوق عباده.. فى تنفيذ مشيئته بمقتضى حكمته وخبرته.. لأن من عوامل اسم القاهر - اسمى: الحكيم والخبير.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾[١].

كما يجرى فى فلكه اسم - الحفيظ -: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة﴾[٢].

ولعلنا نلمح هنا أن تفاعل القاهر فى الآيتين السابقتين بعباده فقط فالقهر المصحوب بالحكمة والخبرة والحفظ لن يكون إلا للأحباب حيث يقهرهم على ما فيه صلاح أمرهم. بأى صورة من صور القهر.. لأنه لم يقل أبدا وهو القاهر فوق عبيده.. بل قال دائما ﴿فوق عباده﴾.

قلت : وهل هناك فرق بين العباد والعبيد؟

قال: نعم.. إن الله تعالى لم يذكر كلمة ﴿العباد﴾ إلاّ ويخص بها أحبابه فقط: ﴿والله رءوف بالعباد﴾[٣] و: ﴿الله لطيف بعباده﴾[٤] و: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب﴾[٥] و: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾[٦] و: ﴿فبشر عباد﴾[٧] و: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾[٨] و: ﴿فادخلى فى عبادى* وادخلى جنتى﴾[٩] وغيرها كثير وكثير.

أما كلمة (العبيد) فهى تعم الخلق جميعا.. الظالم وغير الظالم.. اقرأ قوله تعالى: ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾[١٠] و:﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[١١] و: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾[١٢].

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٨.
(٢) سورة الأنعام الآية ٦١.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٧.
(٤) سورة الشورى الآية ١٩.
(٥) سورة البقرة الآية ١٨٦.
(٦) سورة الزخرف الآية ٦٨.
(٧) سورة الزمر الآية ١٧.
(٨) سورة الحجر الآية ٤٢.
(٩) سورة الفجر الآية ٢٩.
(١٠) سورة آل عمران الآية ١٨٢.
(١١) سورة فصلت الآية ٤٦.
(١٢) سورة ق الآية ٢٩.

قلت: هل معنى هذا أن القاهر - يتعلق بأحباب الله تعالى.. وأن القهار يتعلق بأعدائه .

قال: قد يكون النصف الأول من السؤال صحيحا.. ولكن النصف الثانى غير صحيح لأن اسم - القهار - له مجال عام.. يشمل البر والفاجر.. العاقل وغير العاقل.. فهو تعالى قهار فوق جميع المخلوقات: ﴿ولله يسجد من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها﴾[١٣]

هذا شامل للجنس العاقل كله.. السجود والخضوع والتسليم بالاختيار أوبالاكراه.

قلت: السجود بالاختيار معروف.. فما هو السجود بالإكراه؟

قال: إن خضوع الجسم الآدمى للناموس الكونى.. ولطبائع الأشياء.. هذا سجود وخضوع وتسليم لمجالى الاسم - القهار - فالإنسان لا يملك لنفسه شيئا.. بل هو مجبور ومقهور لتنفيذ ما علمه العليم فى مجال الاسم - القهار - ولعل تلك الآية التى نستعرضها الآن.. تبين لنا قوة الاسم - القهار - وفاعليته. حيث قال تعالى فيها: ﴿ولله يسجد من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾[١٤] فهل يستطيع أحد أن يرفع ظل وجهه من الأرض.. فى وقت الضحى أو ساعة الأصيل؟.

قلت: هذا من جهة العاقل.. فماذا ورد فى القرآن الكريم عن قهر غير عاقل؟

قال: للأسف قهر غير العاقل طوعا بدون إكراه. فبعد أن قال - سبحانه - عن العاقل ﴿وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها﴾[١٥] قال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾[١٦].

وفى موقف السجود قال: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾[١٧].

وقال فى سورة الحجر: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السمٰوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾[١٨] فترى السجود من الشمس والقمر.. والنجوم كلها.. والجبال كلها.. والشجر كله.. والدواب كلها.. أما الإنسان فليس كله.. بل كثير من الناس طوعا وكثير من الناس كرها.

قلت: لقد ظهرت عظمة اسم - القهار - ففى أى فلك يدور؟..

قال: إنه يدور فى فلك - المَلِك - فالملك هو القهار باعتباره صاحب الملك الأوحد ولذلك يلتزم القهار بصفة الوحدانية: ﴿قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار﴾[١٩] ﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾[٢٠] ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[٢١].

ويظهر مجلى هذا الاسم منفردا بعظمته ومجده وقوته.. فى يوم البعث والنشور: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾[٢٢].

---

(١٣) سورة الرعد الآية ١٥.
(١٤) سورة الرعد آية ١٥.
(١٥) سورة آل عمران الآية ٨٣.
(١٦) سورة فصلت الآية ١١.
(١٧) سورة الرحمن الآية ٦.
(١٨) سورة الحج الآية ١٨
(١٩) سورة الرعد الآية ١٦
(٢٠) سورة الزمر الآية ٤
(٢١) سورة يوسف الآية ٣٩
(٢٢) سورة إبراهيم الآية ٤٨.

يوم ينادى المنادى: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ويأتى لرد من الذات على الذات: ﴿لله الواحد القهار﴾[٢٣] وحيث أنه الملك.. الواحد.. القهار. لذلك وهب مخلوقاته الحياة ولوازم الحياة.. لهذا كان الاسم التالى هو اسم - الوهاب -.

قلت: هل لاسم - القهار - أثر فى نفس الإنسان؟

قال: قلنا إن القهار من البشر هو من يقهر عدوه.. أى يغلبه.. ونفس الإنسان هى أعدى أعدائه.. وهى أشدّ عداءًا له من الشيطان نفسه.. فإذا قهر الإنسان شهوات نفسه فقد قهر الشيطان.. لأن الشيطان يدفعه إلى الهلاك بواسطة شهواته.. ومن استطاع إماتة شهواته فى حياته عاش فى مماته.. ألم تر أن الله يقول: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[٢٤].

قلت: وكيف يصل المخلوق الضعيف إلى قهر شهوات نفسه؟

قال: اعلم أنه لابقاء للأمانى والرغبات.. مع مشاهدة ما أعدّ الله للمؤمنين من جنات. ولا بقاء للهوى والشهوات مع ما أعد للكافرين من نيران.. ولا بقاء للحظوظ والمناصب والمقامات مع مشاهدة ما ظهر من عظمة صاحب السلطان.. فإذا حاولت الشهوات صرف العبد عن مجاهداته.. قهرته سطوة العتاب فردّته إلى بذل روحه وماله.. وإذا حاول الشيطان تثبيط همة العارف عن محاولاته قهرته بوادر الهيبة.. فردّته إلى تطلعاته وآماله.

فشتّان بين عبد مقهور بأفعاله.. وبين عبد مقهور بجلاله وجماله فالمقربون بادت وتلاشت سرائرهم عند ظهوره.. فأشباحهم موجودة وأرواحهم مفقودة.. وفى هذا المعنى قال شاعرهم:

محوتُ اسمى ورسم جسمى   وغبتُ عنى ودمتَ أنتَ
وفى فنائِى فنى فنائى   ففى فنائى وُجِدتَ أنتَ
فأنتَ مِنى خيال عينى   وحيث ما كنتُ كنتَ أنتَ

كم مرة ذكر اسم - القهار - بالنص فى كتاب الله تعالى؟

قال: ذكر هذا الاسم بالنص.. ست مرات فى القرآن الكريم:

فى قوله تعالى: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[٢٥].

وقوله: ﴿قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار﴾[٢٦].

وقوله: ﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾[٢٧].

وقوله: ﴿سبحانه قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾[٢٨].

وقوله: ﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾[٢٩].

وقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[٣٠].

---

(٢٣) سورة غافر الآية ١٦.
(٢٤) سورة آل عمران الآية ١٦٩.
(٢٥) سورة يوسف الآية ٢٩.
(٢٦) سورة الرعد الآية ١٦.
(٢٧) سورة إبراهيم الآية ٤٨.
(٢٨) سورة ص الآية ٦٥.
(٢٩) سورة الزمر الآية ٤.
(٣٠) سورة غافر الآية ١٦.

قلت: وما هى مواقع الذكر بهذا الاسم؟

قال: المقصود بذكر هذا الاسم.. أن تقهر شهوتك وغضبك.. وترجع إلى الله تعالى فى كل أمورك.

وقد قرأت أن الله تعالى أوحى إلى نبيه داود - عليه السلام - «يا داود إن سلّمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد.. وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون لك إلا ما أريد» وإذا ذكرت ربك بهذا الاسم.. قهرت أعداءك وشيطانك وشهواتك.. فإذا جعلت همّك همًّا واحدا كفاك الله جميع الهموم.

وقد قال بعض المقربين عن هذا الاسم: «إن هذا الاسم - القهار - لا يحتاج إلى تعليق.. ونترك الكلام عنه لفطنة الذاكر.. فليس كلّ ما يُعرف يقال.. وله خواص عجيبة وفوائد غريبة وهو ظاهر لفظه ومعناه.. ويكفى الإشارة إليه.. ومن نظر فى معانيه قهر الله خصومة وأعاديه.. وتنفع تلاوته فى جميع التوجهات» وهيا إلى الاسم - الوهاب - إن شاء الله تعالى.

١٧ - الوهاب

قلت: أليس عجيبا أن يأتى اسم الله تعالى - الوهاب - بعد اسمه - القهار مباشرة.. مع أنه لاتبدو علاقة ما بين اسم - الوهاب - واسم القهار - فالمفهوم عن اسم - الوهاب - أن مجاليه ترتبط بالأرزاق.. ومنحها هبة منه تعالى للمخلوقات؟.

قال: ليس هذا الفهم صحيحا.. فاسم - الوهاب - لاعلاقة له بالرزق والمرزوقين مطلقا. لأن اسم - الوهاب - مرتبط تمام الارتباط بصفة الرحمة.. ولنحاول معا أن نعيش فترة مع اسم الوهاب - فى كتاب الله - تعالى - عسى الله أن يهب لنا من لدنه رحمة تكشف لنا بعض أسرار هذا الاسم الكريم.. فنجد قوله تعالى: ﴿ربنا لاتُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾(١) و: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾(٢) و: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾(٣) و: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا﴾(٤) و: ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا﴾(٥).

تلك باقة عطرة من رياض القرآن الكريم.. نتنسم منها عبير الرحمة عبقا.. ينشر أريجه فى أعماق النفس.. فيثلج الصدر وينعش الفؤاد.. تعانقت فيها زهرات الرحمة فوق أعواد الاسم - الوهاب - ترويها قطرات الغيث الهاطلة من خزائن العزيز العالى الجناب.

قلت: بالله يا أستاذى.. زدنا من تلك الورود.. فقد ضاقت الصدور.. وزكمت الأنوف من أدخنة النفاق.. وأدران الشقاق.. وأرجاس الشرك.. وأوهام الشك.

قال: أمامنا الأن باقة أخرى من أغصان الاسم - الوهاب - تتراقص على سوقها ورود الحكمة.. وأكمام الملك.

قلت: هل معنى هذا أن الاسم - الوهاب - له علاقة باسمى: الحكيم والملك.. غير علاقته باسمى: الرحيم والعزيز؟.

قال: نعم .. اقرأ قوله تعالى ﴿فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين﴾(٦) و: ﴿رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين﴾(٧).

هذا من ناحية الحكمة.. أما من ناحية الملك.. فاقرأ قوله تعالى: ﴿قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب﴾(٨)

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨.
(٢) سورة ص الآية ٩.
(٣) سورة مريم الآية ٥٠.
(٤) سورة مريم الآية ٥٣.
(٥) سورة ص الآية ٤٣.
(٦) سورة الشعراء الآية ٢١.
(٧) سورة الشعراء الآية ٨٣.
(٨) سورة ص الآية ٣٥.

قلت: لقد رأينا اسم - الوهاب - يتلألأ فى مجالى الأسماء: العزيز - الرحيم - الملك - الحكيم - فلعله لم يبق من مجالى هذا الاسم الكريم شىء؟.

قال: بل إننا مازلنا نخطو خطواتنا الأولى.. لندخل مجالى هذا الاسم.. فإن له ميدانا واسعا فى المنح والعطاء.. ولكنه منح وعطاء من نوع آخر غير ما نعرفه من عوامل المنح التى نعرفها.. وعناصر العطاء التى نألفها.

قلت: هل هناك منح وعطاء.. غير ما هو معروف من العطاء المادى.. من الطعام والشراب والكساء.. أو العطاء الروحى من الأخلاق والشيم والدين؟.

قال: نعم.. إنه عطاء الأنفس من البنين والذرية الصالحة.. وهم البند الثانى من البنود الستة التى تشكل فى مجموعها كل عناصر المتاع فى الحياة الدنيا.

قلت: هل من الممكن أن نعلم بإيجاز تلك البنود الستة.. التى هى كل متاع الحياة الدنيا؟.

قال: نعم لقد أوجزها القرآن الكريم.. فى آية صغيرة المبنى.. واسعة المعنى.. هى ﴿زُيِّن للناس حبّ الشهوات من﴾:

أولا: ﴿النساء﴾ ثانيا: ﴿والبنين﴾ ثالثا: ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ رابعا: ﴿والخيل المسومة﴾ ويدخل فى هذا البند: السيارات الفاخرة.. ووسائل المواصلات الحديثة خامسا: ﴿والأنعام﴾ سادسا: ﴿والحرث﴾ أى امتلاك الأرض ثم قال سبحانه بعد ذكرها: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾(٩).

قلت: وما علاقة البنين باسم الله - الوهاب -.

قال: اسم الله الوهاب هو صاحب الهيمنة فى عطاء البنين.. ولنا جولة واسعة بين حدائق القرآن الكريم.. لنقتطف تلك الزهرات الكريمات من ذلك المنبت الكريم.. فتعال معى لنستمع إلى خليل الله إبراهيم - عليه السلام - يقول: ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾(١٠) وقول الله عنه ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كُلًّا هدينا﴾(١١) وقوله عنه أيضًا: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾(١٢) وقوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلًّا جعلنا صالحين﴾(١٣) واقرأ أيضًا ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب﴾(١٤)، وهذا دعاء إبراهيم أيضًا: ﴿رب هب لى من الصالحين﴾(١٥).

قلت: هذا كله حول إبراهيم - عليه السلام - فهل نجد لهذا الاسم مجالى تتعلق بالبنين فى غير إبراهيم - عليه السلام؟.

قال: نعم نجده مع إمام الصابرين أيوب - عليه السلام - فى قوله تعالى: ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا﴾(١٦).

---

(٩) سورة آل عمران الآية ١٤.
(١٠) سورة إبراهيم الآية ٣٩.
(١١) سورة الأنعام الآية ٨٤.
(١٢) سورة مريم الآية ٤٩.
(١٣) سورة الأنبياء الآية ٧٢.
(١٤) سورة العنكبوت الآية ٢٧.
(١٥) سورة الصافات الآية ١٠٠.
(١٦) سورة ص الآية ٤٣.

ونجده مع داود – عليه السلام: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب﴾[١٧].

ونجده مع زكريا – عليه السلام – حيث يقول: ﴿هنالك دعا زكريا ربّه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة﴾[١٨] ويقول أيضًا: ﴿فهب لى من لدنك وليًّا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا﴾[١٩] كما نجده كذلك يجرى على لسان جبريل – عليه السلام – مخاطبا مريم – عليها وعلى ابنها السلام: ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا﴾[٢٠].

قلت: أرى كل هذا يتعلق بالأنبياء والمرسلين.. فهل ورد فى القرآن الكريم تعلق هذا الاسم بالبنين فى غير الأنبياء والرسل؟.

قال: من صفات عباد الرحمن: ﴿الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾[٢١].

كما جاء الحكم القاطع.. والبيان الساطع.. فى مجال الاسم – الوهاب – ﴿يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور﴾[٢٢].

قلت: لقد استعرضت كل المواقع التى يعمل فيها اسم الوهاب.. فلم يرد فيها شىء يتعلق بأمر الرزق.

قال: أمر الرزق يتعلق باسم الرزاق.. فلعل الله – تعالى – يرزقنا نورا نستشف به هذا الاسم الكريم.

قلت: وبماذا يدعو من هو فى حاجة إلى الولد؟.

قال: عليه أن يتخذ وردا ثابتا.. يقول فيه: «يا الله يا رحمن يا وهاب.. هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك أنت الوهاب» يردده فى الصباح والمساء.. مصحوبا بالثقة المطلقة فى استجابة الوهاب له.. وعلى قدر اليقين.. تكون درجة الإجابة.. ورسولنا – ﷺ يقول: «ادع الله وأنت موقن بالإجابة».

قلت: وهل يصح أن يكون العبد وهابا؟.

قال: الهبة الحقيقية لا تكون إلّا من الله تعالى.. لأنه هو الذى يهب عباده لا لغرض يعود عليه.. أما العبد فإنه يهب ما يهب بقصد التشريف بين قومه.. أو للثناء عليه.. أو لعدم ذمّه.. فهو عامل وليس وهابا.

وإذا استطاع العبد أن يهب جميع ما يملكه حتى روحه لوجه الله تعالى.. لا للوصول إلى نعيم الجنة.. أو الخوف من عذاب النار أو لغرض عاجل أو آجل من الأغراض البشرية فإنه يسمى وهابا وأقل منه درجة.. الذى يهب ما يهب لينال نعيم الجنة.. ودونهما الذى يهب لينال حسن الذكر.. وآيات المديح.. وعبارات الثناء.

قلت: ما دام الله تعالى – وهّابا – فهل يصح أن نطلب شيئا من أحد سواه؟.

قال: من تحقق أنه الوهاب لم يرفع حوائجه إلّا إليه.. ولم يتوكل على أحد إلا عليه.. وهذا الاسم

---

(١٧) سورة ص الآية ٣٠.
(١٨) سورة آل عمران الآية ٣٨.
(١٩) سورة مريم الآية ٥.
(٢٠) سورة مريم الآية ١٩.
(٢١) سورة الفرقان الآية ٧٤.
(٢٢) سورة الشورى الآية ٤٩.

من صفات أفعاله تعالى.. فهو جزيل العطاء.. جميل الهبة .. كثير اللطف والإقبال.. عظيم المن والنوال يعطى قبل السؤال.. ويسمع خصائص الأفضال.

وقد ورد أن موسى – عليه السلام – قال لله – تعالى – إنى أرى فى التوراة أمة أناجيلهم فى صدورهم.. من هم؟.. قال: تلك أمة محمد فلم يزل موسى يعدد الصفات الجميلة التى ذكرت عن أمة محمد فى التوراة ويقول الله تعالى – له فى كل مرة: تلك أمة محمد.. حتى اشتاق موسى إلى لقائهم.. فقال الله – تعالى – له إنك لا تراهم.. ولكن إن شئت أسمعتك أصواتهم.. فنادى أمة محمد – ﷺ – وهم فى أصلاب آبائهم.. فقالوا لبيك يا ربنا.. فقال الله تعالى – يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى.. وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى. فمن تحقق أنه – سبحانه – الوهاب – لا يخاف ضرا ولا فقرا ولا حاجة.. ويقول بعض الصالحين كنت جالسا فى جماعة.. ووقف علينا سائل يسأل شيئا.. فلم يعطه أحد شيئا.. فبكى ذلك الرجل بكاء شديدا فرقّ له قلبى.. فقلت له: تعال معى أعطك شيئا .. فقال: إنى لم أبك لما توهمتَ.. ولكن تذكرت ذلّ منْ يفتقر من رحمة الله كيف حاله.. ثم عاد هذا السائل بعد أيام.. وعليه ثياب حسنة.. فوقف علينا وسلم ثم قال: لما رَدَدْتمونى فى ذلك اليوم.. رجعت إلى ربى فسألته النعماء وأعطانى وأحسن إنعامى.. فمن منكم يحتاج إلى شىء؟ فقلنا له: لا يخلو منا واحد إلّا وله شىء.. فلك الفضل.

قلت: وهل ذكر هذا الاسم بالنص فى كتاب الله تعالى؟.

قال: ورد هذا الاسم ثلاث مرات.. فى قوله تعالى ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾،[٢٣] وقوله: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾[٢٤] وقوله: ﴿قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب﴾[٢٥].

قلت: وفى أى حال يذكر بهذا الاسم؟.

قال: إن ذكر الاسم – الوهاب – يفتح للعبد جميع الأبواب.

وقد سأل بعض المقربين بعض أصحاب أبى علىّ الثقفى.. فقال أى اسم من أسماء الله تعالى يجرى على لسان أبى علىّ الثقفى؟.. فقالوا: يجرى على لسانه اسم – الوهاب – فقال الرجل: ومن أجل هذا كثر ماله.

وإلى الاسم التالى إن شاء الله تعالى.. وهو اسم – الرزاق.

* * *

---

(٢٣) سورة آل عمران الآية ٨.

(٢٤) سورة ص الآية ٩.

(٢٥) سورة ص الآية ٣٥.

١٨ - الـرزاق

قلت: برغم ما علمنا من اسم - الوهاب - والمجالى التى يعمل فى فلكها.. فإننى أعتقد أن هناك علاقة بين اسمى: الوهاب والرزاق.

قال: العلاقة قوية بين الاسمين الكريمين: الوهاب والرزاق.. لأن الرزق سواء أكان ماديا أو معنويا.. فإنه عطاء وهبة من الله تعالى.

قلت: هل الرزق قد يكون ماديا.. وقد يكون معنويا؟

قال: الرزق قسمة بين مخلوقات الله.. فقد قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا﴾[١] ولفظ ﴿معيشتهم﴾ شامل لكل مقتضيات المعيشة.. مادية ومعنوية.

قلت: وهل ورد عن الرسول الله - ﷺ - ما يشير إلى هذا؟

قال: ورد فى الصحيح.. أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم.. وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لم يحب.. ولا يعطى الدين إلا من أحبه».

قلت: إذن فالدين رزق من الله.. منحه عباده المتقين؟

قال: هذا التعبير منك جميل.. فقد منح الله أحبابه المتقين نورا يكشف لهم جوانب الدين والأخلاق والقيم.. وهذا ما يسميه العلماء (فرقانا) يفرقون به بين الحسن والقبيح.. والحق والباطل.. والهدى والضلال.. فقد يكون التضبيق فى الرزق المادى منحة من الله لأحبابه وأصفيائه.. ويكون هذا زيادة لهم فى أنصبتهم من الدين والأخلاق.

قلت: هذا مفهوم عجيب.. ولكن هل من الممكن توضيح هذا الأمر؟.. فكيف يكون التضبيق فى الرزق منحة للمؤمنين؟

قال: يجب أن تعلم أولا.. أن اسم - الرزاق - يتبع تقديرات الاسمين الكريمين: الحكيم والرحيم.. وسأضرب لك مثلا يقرب هذا المعنى: فإذا كنت طبيبا فى مستشفى الحميات.. وطلب منك مريضك لحما حنيذا[٢].. وحساء دسما سمينا.. فرفضت طلبه.. وضيقت عليه فى طعامه.. وقبضت عنه مشتهياته.. هل تكون بذلك حكيما رحيما به.. أم جبارًا قاسيًا عليه؟

إنك ما حجزت عنه مشتهيات نفسه الجاهلة غير الحكيمة.. إلا رحمة به.. وحبا له.. وعملا على شفائه.. وإنقاذه من براثن تلك الحمى القاتلة. فهل له الحق.. فيما بينه وبين نفسه.. أن يتهمك أيها الحكيم بالقسوة والغلظة والجبروت؟

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٢.

(٢) اللحم الحنيذ: المشوى على الجمر.

قلت: إذا كان هذا المثل يبين لنا الفيض فى الرزق حينما يكون نعمة.. فهل يوجد مثل يبين كيف يكون البسط فى الرزق نقمة؟

قال: كم رأينا كثيرا ممن آتاهم الله تعالى فى الدنيا أموالا طائلة.. استخدموها فى معصيته.. واستغلوها فى حربه.. فهى وبال عليهم.. وباب عذاب لهم.. كما قال تعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾(٣).

قلت: إذن سعة الرزق فى الدنيا ليست دليلا على رضى الله.. كما هو مفهوم عند الناس؟

قال: إن البسط فى الرزق ليس دليلا على رضى الله.. ولا القبض فيه دليلا على غضبه.. حيث قد انعكست أحكام البشر.. عندما يكون القبض لحكمة ورحمة.. وعندما يكون البسط لمكر ونقمة.

وهذا ظاهر فى ليل الشك ظهور الفجر.. فى سورة الفجر: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربى أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن﴾(٤) والجواب على هذا من ذات الله تعالى لذاته فى تلك القضية ﴿كلا﴾ أى أن الإكرام والتنعيم فى الدنيا.. لا يكون دليلا على الإكرام والتنعيم فى الآخرة.

كما لا يدل على حب الله تعالى لمن تجلى عليه باسم - الباسط - فى فلك - الرزاق - وعلى الأخص لقوله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزّل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾(٥).

قلت: هل من أجل هذا كان خير خلق الله فقيرا معدما؟

قال: عليه صلاة الله وسلامه.. فقد اختار الفقر رفيقا.. حتى يعيش بإحساس الفقر.. فلا ينسى الفقراء.. ومع هذا طلب منا ألّا نطلب الفقر.. وإنما نسعى إلى الغنى لتكون من الشاكرين.. ببذل النعمة.. والإحسان إلى الفقراء.. ومساعدة البؤساء.. والمسح على رءوس اليتامى.

قلت: وما معنى الشكر.. وهل يتحقق الشكر بقولى «الحمد لله»؟

قال: كلا.. ليس الشكر أن تقول الحمد لله.. مع تقبيل اليد.. ومصمصة الشفاه.. كما يعمل البعض.. وإنما الشكر عمل.. فالله تعالى يقول: ﴿فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾(٦). لم يقل اشكرونى كما قال: ﴿اذكرونى﴾.. وإنما قال: ﴿اشكروا لى﴾ باللام.. وفرق كبير بين الحالتين.. فلا يكفى الشكر بقولك: الحمد لله.. والشكر لله.. فقد قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور﴾(٧). وأرى إرجاء الحديث فى موضوع الشكر.. حتى نصل إلى اسم الله - الشكور - وهو الاسم الذى يتجلى بتلك الصفة.. فهو المصدر الرئيس لوحى الشكر إلى قلوب الشاكرين.

قلت: أرى رابطة قوية بين اسم - الرزاق - واسم - الشكور.

---

(٣) سورة يونس الآية ٨٨.
(٤) سورة الفجر الآيتان ١٥، ١٦.
(٥) سورة الشورى الآية ٢٧.
(٦) سورة البقرة الآية ١٥٢.
(٧) سورة سبأ الآية ١٣.

قال: نعم.. وسأضرب لك مثلا تقريبيا.. عن عدل التجليات بذاتها: فإذا تجلى - سبحانه - باسم - الرزاق - الباسط - على عبد من عباده.. فظهر هذا العبد.. على مقتضى تجليات اسم - الوهاب الكريم - فكان عبدا وهابًا كريمًا.. استمرت تجليات اسم - الرزاق الباسط - على هذا العبد لأنه يعمل عمل الشكور.. بتأثير تجليات الاسم - الشكور - الذى هو المعاون الأول للاسم - الرزاق الباسط: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾(٨).

قلت: يقول تعالى: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾(٩) وفى هذا معنى الخلود.. فما هو الرزق الخالد؟

قال: إن رزق الله خير وأبقى.. متى كان القلب أنقى وأتقى.. لأن الرزق هنا.. هو الرزق الذى تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا﴾(١٠) فهذا الرزق الحسن.. الذى هو خير وأبقى.. هو الفيض الروحى.. الذى يغنى النفس.. ويطمئن له القلب.

قلت: لعل معنى هذا أن الرزق رزقان؟

قال: نعم.. الرزق رزقان.. رزق ظاهر فى الأقوات ومستلزمات الجسد.. ورزق باطن.. وهى المعارف ومستلزمات الروح وقوامها القلوب والأسرار.. وهذا أشرف الرزقين لأن الرزق الظاهر لا ثمرة له إلا جسد محدود الزمن بدنيا.. زائلة فانية.. أما الرزق الآخر فهو رزق يتعلق بحياة دائمة سرمدية خالدة.. والله تعالى - هو الرزاق فى الحالتين.. ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

قلت: وما أثر هذا الاسم فى العبد؟

قال: لاسم - الرزاق - أثر فى نفس العبد.. من زاويتين:

الأولى: أن يعلم حقيقة العلم أن الله تعالى هو وحده المستحق لهذا الاسم.. وهو وحده صاحب تلك الصفة.. فلا ينتظر الرزق إلّا منه.. ولا يتوكل فيه إلّا عليه.

ومن أطرف ما قرأت فى هذا الموضوع.. ما روى عن حاتم الأصم.. أن رجلا قال له: من أين تأكل؟ فقال: من خزانته.. فقال الرجل: أيلقى عليك الخبز من السماء؟.. فقال: لو لم تكن الأرض ملكًا له لكان يلقيه من السماء.. فقال الرجل: أنتم تؤوّلون الكلام.. فقال: لأنه لم ينزل من السماء إلا الكلام.. فقال الرجل: أنا لا أقوى على مجادلتك.. فقال حاتم: لأن الباطل لا يقوم مع الحق.

والثانية: أن يرزقه علما هاديا.. ولسانا مرشدا.. وقلبا خاشعا وبدنا ذاكرا شاكرا.. ويدًا منفقة متصدقة.. فيكون بذلك سببا فى وصول الأرزاق الخالدة الشريفة إلى القلوب.. بأقواله وأفعاله. وحاجة الخلق إليك من نعمة الله عليك.. ولكل نعمة زكاة.. وشكر النعمة يبذلها زكاة عنها.

ومن كان واسطة بين الله وبين العباد فى وصول الأرزاق إليهم كان صاحب حظ كبير من هذا الاسم. وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى موسى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ: «الخازن الأمين الذى يعطى ما أمر به كاملا موفرا.. طيّبةً به نفسُه.. فيدفعه إلى الذى أمر له به - أحد المتصدّقين» وأيدى العباد هى خزائن الله تعالى.. فمن جعل الله يده خزانة

---

(٨) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٩) سورة طه الآية ١٣١.
(١٠) سورة النحل الآية ٧٥.

أرزاق الأجساد.. ولسانه خزانة أرزاق القلوب والأرواح.. فقد فاز بأكبر نصيب من هذا الاسم - الرزاق -.

قلت: معنى هذا أن الله فضل الأغنياء باختيار أيديهم خزائن لمتطلبات الأجساد؟

قال: ولهذا سيحاسبهم على ما ائتمنهم عليه.. وهل نفذوا أوامره فى تصريفها.. أم خانوا الأمانة ولم يؤدوها إلى أصحابها؟؟ إن الله - تعالى - خصّ الأغنياء بما فى أيديهم من الأرزاق.. وخص الفقراء بشهود الرزّاق.. وإن من يسعد بوجود الرزاق لا يشقى بسبب ما فاته من الأرزاق.

وقد روى أن موسى - عليه السلام - قال يوما فى مناجاته: إنه لتعرض لى الحاجة الصغيرة أحيانا.. أفأسألها منك.. أم أطلبها من غيرك؟ فأوحى الله - تعالى - إليه: لا تسل غيرى وسلنى حتى ملح طعامك وعلف شاتك..

كما يحكى عن أحد الصالحين.. أنه أرسل إلى بعض الأغنياء: أن ابعث إلينا شيئًا من دنياك.. فأرسل إليه: سل دنياك من مولاك.. فكتب إليه: دنياى حقيرة.. وأنت حقير.. وإنما أطلب الحقير من الحقير.. ولا أطلب من مولاى غير مولاى.

وقيل لبعضهم: أى شيء القوت؟.. فقال: ذكر الحى الذى لا يموت.. وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

إذا كنتَ قوتَ النفس ثم هجرتَها .فكم تلبث النفسُ التى أنت قوتُها

وقال بعض أهل الإشارة فى قوله تعالى: ﴿والذى هو يطعمنى ويسقين﴾[11] لم يُشرْ إلى طعام معروف.. ولا إلى شراب مألوف.. وإنما أشار إلى طعام المعرفة وشراب المحبة.. وأنشدوا:

شربتُ الحب كأسا بعد كأس فـلا نَفـدَ الشـرابُ ولا رَويتُ

كما قال آخر:

فـأسكر القـومَ دوْرُ كـأسٍ وكـان سكـرى من المـديـرِ

هذا هو القوت الروحى.. أما القوت الجسمى.. فقد رُوى عن علىّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أنه قال: «أُمِرَ الرزقُ بطلبك.. وأُمِرْتَ بطلب الجنة»، ولهذا نرفع أكفنا.. ونسكب دموعنا.. قائلين: اللهم يا رزاق.. إنا نسألك رضاك والجنة.. ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾[12].

قلت: وهل ذكر اسم - الرزاق - فى القرآن الكريم؟

قال: ذكر هذا الاسم.. مرة واحدة.. فى قوله تعالى: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[13].

قلتُ: وفى أى المناسبات أذكره؟

قال: إنه ذكر ميكائيل - عليه السلام - ولا يذكره أحد: إلا يسَّر الله له رزقه من حيث لا يحتسب. وروى أن جماعة دخلوا على أحد المقربين.. فقالوا: نطلب أرزاقنا.. قال: إن علمتم أين هى فاطلبوها.. فقالوا: نسأل الله ذلك؟ قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه.. فقالوا: ندخل بيوتنا ونتوكل

---

(11) سورة الشعراء الآية ٧٩.

(12) سورة طه الآية ١٣١.

(13) سورة الذاريات الآية ٥٨.

على الله ؟.. فقال: التجربة مع الله شكٌّ فى الله.. قالوا: ما الحيلة ؟ قال: ترك الحيلة.. والله هو الهادى والمعين.

قلت: الإنسان يقوم من نومه فيقول: يا فتاح يا عليم.. يا رزاق يا كريم.. فهل توجد علاقة بين الفتاح العليم.. والرزاق الكريم؟

قال: هذان اسمان جديدان.. يتعلقان بالفتح المقترن بالعلم.. وهو موضوع آخر.. فإلى الاسم - الفتاح - إن شاء الله تعالى.

* * *

١٩ - الفتـاح

قلت: ما المقصود بكون الله - تعالى - فتاحًا؟

قال: الفتح - فى اللغة - بمعنى القضاء بالحق.. لأنه يفتح الأمر المغلق.. ولذلك سمى القضاء فتحا.. وسميت الحكومة فتّاحة.. وسمى القاضى فتاحا.. وما زال أهل عمان يسمون القاضى فتاحا إلى اليوم.

وارتباط اسم - الفتّاح - بالقضاء بالحق.. هو الذى جعل شعيبًا - عليه السلام - يقول فى دعائه: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[1] أى اقض بيننا وبينهم بالحق.

كما سمى يوم القيامة بيوم الفتح.. لأنه يوم يقضى الله فيه بين عباده بالحق.. ألم تر قوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين * قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظرون﴾[2].

قلت: نحن ندعو لعزيز علينا فنقول: فتح الله عليك.. ونقول دائما: يا فتاح يا عليم.. فهل معنى هذا أن اسم - الفتاح - يرتبط دائما بأبواب الخير؟

قال: قد يرتبط الفتح بالخير.. مثل قوله تعالى لرسوله محمد -ﷺ-: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾[3] وقوله: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾[4].

كل هذا إذا كان اسم الفتاح مقترنا بالرحمة: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾[5] و﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح﴾[6] و: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾[7].

كما يكون الفتح مرتبطا بالشر والضر.. مثل قوله تعالى عن يوم نوح: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾[8]. يقصد الطوفان المهلك المدمر.. الذى حلّ بقوم نوح.

وقوله أيضا عن الغافلين الذين نسوا الله: ﴿فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء﴾[9].

قلت: ما هو المقصود بفتح أبواب كل شىء.. للذين نسوا ما ذكروا به؟

قال: هذا موضوع عملى واسع.. ومن حقك يا أخى أن تعلم عنه شيئا يكون لك كشافا ينير أمامك طريق الحياة.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨٩.
(٢) سورة السجدة آيتا ٢٨، ٢٩.
(٣) سورة الفتح الآية ١.
(٤) سورة الصف الآية ١٣.
(٥) سورة فاطر الآية ٢.
(٦) سورة المائدة الآية ٥٢.
(٧) سورة النصر الآية ١.
(٨) سورة القمر الآية ١١.
(٩) سورة الأنعام الآية ٤٤.

فإن الله تعالى تحقيقا لرحمته بخلقه.. لا يؤاخذ الناس بظلمهم حتى يذكرهم بأخطائهم.. عساهم يتوبون ويتذكرون.. فيقول سبحانه:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾(١٠) وقوله أيضا: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾(١١).

قلت: هل يوجد مثل يقرب هذا المعنى.. فمازال عقلى قاصرا عن فهم المقصود؟

قال: لو أننى كنت سائرا فى الشارع.. وهبط حجر فوق رأسى.. أسال الدم من جبهتى على خدى.. فهذا الحادث الذى أصابنى.. لم يخرج عن إرادة الله وتقديره لى.. فلماذا قدّر الله تعالى علىّ هذا الألم: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾(١٢) إنه لحكمة خصصتها إرادته.. وشاءتها حكمته.. لأنه يحبنى.. وعندى أخطاء أنا غافل عنها.. فاقتضت رحمته بى أن يذكرنى بأخطائى.. بهذا الحجر الذى أصابنى.. عسانى أعود إلى نفسى فأعرف خطئى.. فأرجع عنه وأتوب إليه - سبحانه - فيصبح هذا البلاء تذكيرا لى.. وفى نفس الوقت يصير تكفيرا عن ذلك الخطأ.. اقرأ مثلا قوله تعالى:

﴿أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾(١٣)، واقرأ قوله أيضا عن مثل ضربه لنا فى كتابه الكريم: ﴿كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾(١٤).

فهذا المثل يبين لنا أن تلك الريح التى تحمل الآفات المهلكة للزرع.. لم تصب حرث هؤلاء القوم وتهلكه.. إلّا لأنهم ظلموا أنفسهم بالمعاصى.

قلت: وما علاقة كل هذا بالآية التى كنا نتحدث عنها.. والتى يقول الله فيها: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء﴾ ماهى تلك الأبواب؟

قال: إن الله الفتاح.. عليم بنفوس هؤلاء.. فهو يذكرهم بالبلاء بين الحين والحين.. لعلهم يتذكرون ويرجعون.. ويتوبون ويتضرعون.. ولكن على أعينهم غشاوة.. وفى آذانهم وقر.. وقلوبهم فى أكنّة.. فلا تصحو قلوبهم من غفلتها.. وضرب عليهم النسيان حجابا كثيفًا من الخطايا والأوزار.. فهم لا يتذكرون.

هؤلاء بعد كل تلك النذر.. يفتح الله عليهم أبواب كل خير دنيوى.. فهو - فى نظرهم المنحرف - خيرٌ كبير.. من مال وبنين وزخارف.. وكلها زهرة الحياة الدنيا: ﴿لنفتنهم فيه﴾.. ولكنه خيرٌ أشبه بشصّ الصائد.. فبعد أن قال سبحانه: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شىء﴾ قال: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾(١٥).

ألم تر معى أنها أبواب ظاهرها الخير وباطنها العذاب الأليم.. ونفس المعنى فى قوله تعالى: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾(١٦).

---

(١٠) سورة النساء الآية ٧٩.
(١١) سورة الشورى الآية ٣٠.
(١٢) سورة النساء الآية ١٤٧.
(١٣) سورة التوبة الآية ١٢٦.
(١٤) سورة آل عمران الآية ١١٧.
(١٥) سورة الأنعام الآية ٤٤.
(١٦) سورة المؤمنون الآية ٧٧.

فلك بعد هذا أن تقرأ قوله تعالى عن هذه الأبواب: ﴿أيحسبون أنما نُمدّهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾[١٧].

قلت: هل من الممكن تحديد هذه الأبواب التى يفتحها الله على الذين ابتلاهم ليذكّرهم فلم يتذكّروا؟

قال: أبواب الفتنة فى الدنيا.. حددها الله تعالى فى ستة أبواب.. ذكرها فى أوائل سورة آل عمران.. وقد أشرنا إليها فى اسمه تعالى - الوهاب - وهى: ﴿زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[١٨].

قلت: وما أخطر تلك الأبواب الستة؟

قال: أخطر تلك الأبواب فتنة.. باب المال.. وقد سماه الله تعالى: ﴿بابا ذا عذاب شديد﴾.. فتعال معى نتابع آيات من سورة (المؤمنون).. لنرى تدرج الله تعالى برحمته.. وهو الفتاح العليم - مع قوم قال عنهم: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾[١٩] أى منحرفون عن صراط الله المستقيم.. هل تركهم؟.. كلا ولكنه ابتلاهم بالضر.. رحمة منه بهم.. وأَملًا فى هداهم.. فيقول سبحانه: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجُّوا فى طغيانهم يعمهون﴾[٢٠]..

ثم يقول سبحانه ليبين لنا رحمته بهم.. ورجاءه فى هداهم.. قال: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾[٢١] يريد الله تعالى بعذابهم وابتلائهم أن يتذكروا ويتوبوا.. فهل تذكروا وتابوا؟.. كلا: ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾[٢١].

هؤلاء شملهم النسيان.. وغشيتهم الغفلة.. فحق عليهم التجلى باسم - الفتاح - فى مجال الانتقام.. فقال عنهم:

﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابًا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾[٢٢] ذلك هو باب المال.. كله هم وبلاء وفتنة.. ألم تر أن الدرهم آخره - هم - وأن الدينار آخره - نار -؟

قلت: هل تقوى الله تعالى - من عوامل التجلى باسم - الفتاح - فى مجال الفتح المعنوى الروحى فقط.. أم فى المجال المعنوى والمادى معا؟.

قال: إن تقوى الله - تعالى - تفتح كل أبواب الرحمة.. روحيا وماديا أيضا.. فانظر إلى قول الله - تبارك وتعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوْا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[٢٣] ففتح البركات من السماء والأرض.. فتح روحى ومادى.

قلت: وما أثر هذا الاسم على العباد؟

قال: إذا علم العبد أن الله - تعالى - هو الفتاح وهو الذى يقضى بين عباده بالقسط.. تجنب جميع

---

(١٧) سورة المؤمنون الآيتان ٥٥ و٥٦.
(١٨) سورة آل عمران الآية ١٤.
(١٩) سورة المؤمنون الآية ٧٤.
(٢٠) سورة المؤمنون الآية ٧٥.
(٢١) سورة المؤمنون الآية ٧٦.
(٢٢) سورة المؤمنون الآية ٧٧.

السبل التى تؤدى به إلى ظلم غيره أو ظلم نفسه.. ويكون دائما يقظا لكل أموره.. متحققا أنه يحاسَب على الصغير والكبير.. ويطالب بالنقير والقطمير.. فقد روى فى الخبر أنه لا يزول قدم عبد من مكانه.. حتى يُسأل عن ثلاث.. فيقال له: شبابك فيما أبليته؟.. وعمرك فيما أفنيته؟.. ومالك من أين جمعته وفيما أنفقته؟.. وهذا كله سلوى للمظلومين.. وتفريج لكرب المكروبين.. ووعيد وتهديد للظالمين.

ومن تحقق وأيقن أن الله تعالى هو – الفتاح – للأبواب.. الميسر لجميع الأسباب.. الدافع للشرور.. المصلح للأمور.. فلن يتعلق قلبه بسواه.. ولا ينشغل خاطره إلا بالله.. فيكون دائما فى انتظار الفرج من مولاه.. واثقا بأن فاتح أبواب الخير لا ينساه.

ألم تر إلى نبى الله يعقوب – عليه السلام – قال لبنيه بعد امتداد البلاء به على مر السنين.. وبعد أن عادوا إليه غير مرة خائبين: ﴿يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾(٢٤)

وقد قرأت فيما قرأت.. أن رجلا كان يؤذّن لأمير المؤمنين علىّ – كرم الله وجهه – فى مسجده.. وكانت تخرج من دار علىّ – رضى الله عنه – جارية تحمل الماء.. فكان المؤذن يقول لها كل يوم: أنا أحبك.. فشكت ذلك إلى الإمام علىّ – فقال لها: إذا قال لك ذلك.. فقولى له: وأنا أيضا أحبك.. فلما قالت له ذلك.. قال لها: إذن نصبر حتى يحكم الله – تعالى – بيننا.. فذكرت ما قاله للإمام علىّ – رضى الله عنه – فدعا المؤذن.. وسأله عما حصل.. فأخبره المؤذّن بصدق.. فقال علىّ – رضى الله عنه – خذ بيدها.. واحملها إلى دارك.. فقد حكم الله بينكما.

قلت: وهل ذكر هذا الاسم فى كتاب الله؟

قال: ذكر اسم – الفتاح – فى القرآن الكريم.. مرة واحدة.. فى قوله تعالى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾(٢٥).

قلت: وهل لهذا الاسم أثر فى الدعاء؟

قال: نعم.. فهو – سبحانه – فتح لقلوب المؤمنين باب معرفته.. وفتح للعاصين أبواب مغفرته.. فمن ذكره بعد صلاة الفجر.. واضعا يده على صدره.. طهر الله قلبه.. وأزال همّه وغمّه.

قلت: حقا إن الله – تعالى – عليم بأحوال العباد؟

قال: وها أنت قد فتحت لنا باب الاسم – العليم – فإليه إن شاء الله تعالى.

* * *

(٢٣) سورة الأعراف الآية ٩٦.
(٢٤) سورة يوسف الآية ٨٧.
(٢٥) سورة سبأ الآية ٢٦.

٢٠ - العليم

قلت: عرفنا فى استعراضنا لاسم المهيمن.. أن شمول السلطان العلمى.. لصفة العلم.. فى العليم - سبحانه - هو مصدر حق الهيمنة المطلقة على كل الوجود. فهل من الممكن توضيح هذا الأمر بعد أن وصلنا إلى الاسم العليم؟

قال: العلم هو مصدر الهيمنة.. لأن الجهل لا يمكن بحال أن يصلح للهيمنة والسلطان.. فأى هيمنة وأى سلطان هذا الذى لا يقوم على أساس من العلم؟

إن العلم هو السلطان الأعلى فى جميع العقائد والأعمال معًا.

قلت: وماهو مفهوم العلم؟

قال: العلم معناه الإحاطة بشىء معلوم.. وهذا الشىء المعلوم له درجتان:

الأولى: العلم الظنى.. كعلمنا بوجود الجن والملائكة.

والثانية: العلم اليقينى.. كعلمنا بأن الواحد نصف الاثنين.

قلت: وهل يكفى علمنا الظنى بوجود الجن والملائكة.. لتحقيق ركن الايمان فى النفس؟

قال: نعم فالإيمان بوجود الجن والملائكة.. لا يمكن أن يتجاوز مرتبة الظن.. وهى كافية للنجاة شرعًا.. تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[1].. فهذا إيمان بالغيب. ولكنه إيمان بعلم ظنى: ﴿وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا﴾[2].

قلت: وهل علمنا بالله تعالى.. هل هو علم ظنى.. أم علم يقينى؟.

قال: العلم بالله تعالى لا يكون علماً بالغيب مطلقًا.. وإنما يجب أن يكون علمًا يقينيًا.. بالنظر والتدبر.. والتفكر فى خلق الله. كما أمرنا سبحانه - بالنظر فى ملكوته. فى كثير من الآيات.. لتصل إلى مرتبة العلم اليقينى بوجوده.. وكأنها شهادة رأى العين.. ولهذا قال الشاعر كما ذكرنا من قبل:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلاّ على أكمهٍ لم يشهد القمرا
لكن بطنت بما أظهرت مستترًا ... وكيف يُعرف من بالعزة استترا

فلابدّ أن يكون علمنا بالله تعالى - علمًا يقينيًا.

قلت: هل اليقين درجة من درجات العلم؟

قال: بالعكس العلم درجة من درجات اليقين.

قلت: وماهى درجات اليقين؟

---

(١) سورة البقرة آية ٣.
(٢) سورة النجم آية ٢٨.

قال: لليقين ثلاث درجات: علم - وعين - وحق.

قلت: هل يوجد مثل يقرب هذا المعنى؟..

قال: نحن نضرب المثل دائمًا بالتفاحة.. فأنا أعلم يقينًا أنه توجد فاكهة اسمها التفاح.. ولكننى لم أرها فى حياتى.. فهذا - علم اليقين. ثم رأيت التفاحة أمامى.. وقال لى قائل: هذه تفاحة.. هنا ترقى علمى بوجود تلك الفاكهة إلى درجة - عين اليقين - حيث رأيت التفاحة بعينها. ثم نظرت جمالها.. ولمست نعومتها.. وشممت رائحتها.. وذقت طعمها.. فترقى يقينى بوجودها إلى درجة - حق اليقين.

قلت: وهل علم الله - تعالى - مثل علمنا؟

قال: نستغفر الله.. فهو سبحانه ليس كمثله شئ.. وإنما العلم عند الله - العليم - له تعلقان:

التعلق الأول: ويسميه علماء التوحيد (الصلوحى القديم).. أى أن الشيء يكون معلومًا لله تعالى.. وهو صالح للخلق والإيجاد والتكوين.. ولكن الله - تعالى - لم يوجده بعد.. مثل قوله تعالى عن الإنسان: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا﴾[3] بمعنى أن كل إنسان قبل خلقه - كان معلومًا لله تعالى علمًا (صلوحيا قديمًا).. ولكنه لم يكن شيئًا مخلوقًا مكونًا مذكورًا.

والتعلق الثانى: ويسميه العلماء (التنجيزى - أو الصلوحى الحادث) وذلك بعد إيجاده وخلقه وتكوينه.

وسأضرب لك مثلًا آخر يزيد هذا الأمر توضيحًا ففى قوله - تعالى -: ﴿إنما قولنا لشيء﴾ معلوم صلوحى قديم.. ﴿إذا أردناه﴾ كأننا فى الحصول الحادث.. المتعلق بالزمانية والمكانية والكمية والكيفية، أن نقول لهذا الشيء المعلوم القديم ﴿كن فيكون﴾[4] يعنى يكون فى عالم المادة والكون والفساد.

فيكون هذا الشيء المعلوم.. قد انتقل من العلم الصلوحى القديم.. إلى العلم الصلوحى الحادث.

قلت: يقول تعالى فى سورة الروم: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾[5] بكسر اللام فلماذا خص العالمين - أى العلماء - فى هذا المقام؟

قال: العالمون فقط هم الذين يستطيعون استيعاب المقصود فى تلك الآية.. فقد يظن البعض أن معنى ﴿اختلاف ألسنتكم﴾ أى اختلاف اللغات.. ولكن الإنسان يستطيع حصر جميع اللغات التى يتخاطب بها البشر.. ومتى تم حصرها.. فقدت قدرة الله عظمتها.. لأن قدرة الله تعالى - لا يحدها حد.. ولا يحصرها عدّ. ولكن المقصود باختلاف الألسنة.. هو أن لكل إنسان صوتًا خاصًا يميزه.. فأنت تستطيع أن تقول: هذا صوت فلان.. دون أن تراه.. فلكل إنسان صوت خاص به. من لدن آدم عليه السلام - إلى يوم القيامة.. وهنا تبرز الآية لتنبئ عن عظمة الخالق وقدرته.

كما يظن البعض أن ﴿اختلاف ألوانكم﴾ بمعنى أن هذا أبيض.. وذاك أسود.. وغيره أصفر.. أو قمحى اللون.. وبحصر المعنى فى العدد المحدود من ألوان البشر.. تقليل من عظمة الله وقدرته.. وإنما اختلاف الألوان.. أنك تجد جميع الوجوه فى صورة واحدة متقاربة.. فلكل إنسان عينان وأذنان وأنف

(3) سورة الإنسان آية ١.

(4) سورة النحل آية ٤٠.

(5) سورة الروم آية ٢٢.

وفم وجبهة وذقن.. ولكنك برغم ما أمامك من ملايين الوجوه المتشابهة.. تستطيع أن تميز وجه زيد من وجه عمرو.. ووجه زينب من وجه فاطمة.. فكل إنسان له شبه خاص يميزه.. من يوم آدم - عليه السلام - إلى يوم القيامة.

وتلك أيضًا هى نظرية اختلاف البنان - أى البصمات.. لكل بنان بصمة تميزه.. من لدن آدم - عليه السلام - إلى يوم القيامة.

تلك هى عظمة الخالق البارئ المصور - العليم - ولن يستطيع الوصول إلى تدبر تلك الآيات إلاّ أولوا العلم.

قلت: لعل نفس المعنى نلمسه فى قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾[٦].

قال: نعم جعل الله تعالى - مايصل إليه أولوا العلم.. بالنظر إلى الكون.. علمًا وتطبيقًا.. وفحصًا وتدقيقًا.. مساويًا تمامًا لما شهد به تعالى لذاته وملائكته.. لأن أولى العلم لم يقفوا بشهادتهم عند حدّ السماع.. بل نظروا حتى وصلوا بعلمهم إلى درجة حق اليقين.

قلت: هل للمعاصى أثر فى دفع فيض الاسم - العليم - عن النفس؟

قال: المعاصى ظلمات.. والعلم نور.. ولهذا يقول الإمام الشافعى.. رضى الله عنه.

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يُهدَى لعاصى

ويعجبنى فى تلك المناسبة.. قول ابن عطاء الله السكندرى - رضى الله عنه: «إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام.. جالت الروح فى ميادين الملكوت.. وتعود إلى صاحبها محملة بطرائف الحكم.. ويعلمه الله من غير معلم.. فينطق بالحكمة.. ويتكلم بالنور» وهذا يطابق قوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلّمكم الله والله بكل شىء عليم﴾[٧].

قلت: هل للعلم حدود يقف عندها العقل؟

قال: العلم صفة من صفاته تعالى.. وصفات الله لا نهاية لها.. وقال الله لنا: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[٨] ولعله تعالى قد محا هذا القليل أيضًا عندما قال سبحانه: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[٩].

إن السلامة ياأخى من مزالق الزلل.. ومهاوى الخطأ والخطل[١٠].. هى التى تضع أمام العقل الرياضى الحدود التى يجب أن يقف عندها بحثه.. وينتهى إليها استقراؤه ودراسته.. فإن فى ذلك الأمن من الزندقة.. والنجاة من الإلحاد.

ولنضع فى اعتبارنا أن العليم من جنوده القبض والبسط.. يقبض العلم عن فلان.. ويبسطه لفلان..

---

(٦) سورة آل عمران آية ١٨.
(٧) سورة البقرة آية ٢٨٢.
(٨) سورة الإسراء آية ٨٥.
(٩) سورة البقرة آية ٢١٦.
(١٠) الخطل : الاضطراب.

كل بحسب استعداده.. لأن كمال الإمداد من كمال الاستعداد.

قلت: وما أثر الاسم – العليم – فى عباد الله؟

قال: أثر هذا الاسم ظاهر فى تجلياته على عباد الله.. والفرق ظاهر بين علم الله تعالى وعلم عباده.. فى ثلاثة فروق.

الأول: أن معلومات العبد محصورة فى القليل.. مهما اتسع نطاق تلك المعلومات.

والثانى: أن علم العبد لا يمكن أن يبلغ الغاية فى الشىء المعلوم.. لأن مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق.. ودرجات المشاهدة تختلف من إنسان لآخر.. فالبصيرة العلمية مثل نظر العين.. وفرق بين الرؤية وقت الإسفار(١١).. وبينها فى ضحوة النهار.

والثالث: أن علم الله تعالى غير مستفاد من الأشياء المعلومة.. بل الأشياء والمعلومات مستفادة منه – تعالى – أما علم الإنسان فهو مستفاد من الأشياء.. وفرق كبير بين الحالتين.

قلت: تلك الحالة الأخيرة تحتاج إلى بعض الإيضاح.. فهل يوجد مثل يقرب معناها إلى الذهن؟

قال: أضرب لك مثلاً بسيطًا – ولله المثل الأعلى – فهناك فرق واضح بين علم متعلم التلفاز وبين علم من اكتشفه واخترعه.. فالذى اكتشفه واخترعه هو سبب وجوده.. ووجود التلغاز هو السبب فى علم من تعلمه.. وعلم المكتشف والمخترع سابق على علم المتعلم.

فكذلك علم الله – تعالى – بالأشياء والمعلومات سابق عليها.. وسبب فى وجودها.. ويكفى بالعبد شرفًا أن يكون عالمًا بفيض من صفة الله تعالى بتجليات من اسم – العليم.

وأشرف المعلومات هو العلم المتعلق بالله تعالى.. ولهذا كانت معرفته – تعالى – بصفاته هى أفضل المعارف.. بل معرفة سائر الأشياء موصلة إلى طريق الله عز وجل – ومقربة إليه.. فهى التى تعرفنا عليه.. وهذا هو الشرف الأعظم.. والعلم الأعزُّ الأكرم.

قلت: وما آداب المتعلم مع الله العليم – عزّ وجل؟

قال: من آداب المتعلم.. الذى أفاض العليم عليه من فضله.. ألّا يغتر بعلمه. وأن يعرف مقدار نفسه بالنسبة إلى جناب العليم – سبحانه – وقد سأل موسى عليه السلام – ربه .. قائلاً: يارب من أعلم الناس؟.. فقال الله تعالى له: «أعلم الناس من يضم علم الناس إلى علمه.. عسى أن يجد كلمة تدلّه على هدى.. أو تردّه عن ردى».

قلت: هل يجوز أن نقول: إن الله عارف وعالم؟

قال: هذا التعبير لا يجوز إلّا فى حق الخلق.. أما الخالق العليم.. فلا يجوز أن نقول عنه: العارف أو العاقل أو الذكى أو الدارى أو الفطن.. مع أنها كلها تؤدى معنى واحدا.. لأن علمه سبحانه كما قلنا نعت من نعوته.. وصفة مختصة بذاته.. ليس بمكتسب.. ولا مجال فيه للمعرفة أو العقل أو الدراية أو الفطنة.

قلت: وما موقف العبد مع العباد فى ظلال هذا الاسم العليم؟

---

(١١) قبل الشروق.

قال: إذا تحقق البعد أن الله عليم بخطراته وسكناته.. مطلع على رغباته وحاجاته.. فلن يخطر بباله إلّا العليم - سبحانه - فإن سكن قلبه إلى غير الله.. عاقبه فى الحال إن كان له عند الله قدر.

وقد قرأت عن أحد المقربين.. أنه كان جائعًا فى الطريق.. وأشرف على مدينة الرى.. يقول: فخطر ببالى أن لى بها معارف.. فإذا لجأت إليهم أضافونى وأطعمونى.. فلما مشيت فى شوارع المدينة رأيت منكرًا.. احتجت أن آمر فيه بالمعروف.. فأمرت بالمعروف.. فأخذونى وضربونى.. فقلت فى نفس من أين أصابنى هذا الضرب على جوعى؟ فنوديت فى سرى.. إنما أصابك هذا لأنك سكنت إلى معارفك بقلبك.. وقلت إنهم يطعمونى.. وغفلت عمن يطعمك ويسقيك.

قلت: وهل ذكر هذا الاسم فى القرآن الكريم؟

قال: ذكر هذا الاسم فى كتاب الله تعالى - مائة وأربعة وخمسين مرة.

قلت: فى أى المناسبات نذكر الله بهذا الاسم.. وما أثره؟

قال: من ذكر الله باسمه العليم.. أفاض الله عليه من جميع العلوم اللَّدُنِّيَّة.. والمفاهيم الربانية.. ونطق بالحكمة.. وتكلم بالنور والله أعلم بالصواب.. وهو الهادى إلى طريق النور والرشاد.

وإلى الاسم التالى إن شاء الله تعالى.

* * *

٢١ - القابض
٢٢ - الباسط

قلت: ما معنى القبض فى اللغة؟

قال: قبض الشىء يعنى أخذه.. كما يقول تعالى: ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾[(١)] وقوله: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾[(٢)] وكما نقول: قُبض فلان.. يعنى مات وأخذ إلى برزخه.

كما تؤدى معنى الإسراع كما فى قوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلّا الرحمن﴾[(٣)].

وتؤدى أيضا معنى الشح والبخل.. مثل قوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهوْن عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾[(٤)].

ولها معان أخرى.

قلت: وما المعنى المقصود لغويا لاسم - القابض -؟..

قال: اسم القابض من القبض.. وهو ضد البسط.. بمعنى التضييق فى الرزق كما فى قوله تعالى: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾[(٥)].

قلت: فهمنا معنى القبض من حيث اللغة.. فما معنى البسط؟

قال: أصل البسط هو السعة.. ومنه قوله تعالى: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾[(٦)]، وقوله: ﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾[(٧)]، وقوله: ﴿قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾[(٨)].

وغيرها فى هذا المعنى كثير.. وهذا هو المقصود من اسم الله تعالى - الباسط -.

قلت: هل يؤدى البسط فى اللغة معنى آخر غير السعة؟

قال: قد يؤدى البسط معنى الإسراف مثل قوله تعالى:

﴿ولا تبسطها كل البسط﴾[(٩)].. كما يؤدى معنى الزيادة والنمو.. كقوله تعالى: ﴿وزاده بسطة فى العلم والجسم﴾[(١٠)].. وقوله: ﴿وزادكم فى الخلق بسطة﴾[(١١)] وكلها من تجليات الاسم - الباسط.

(١) سورة طه الآية ٩٦.
(٢) سورة الفرقان الآية ٤٦.
(٣) سورة الملك الآية ١٩.
(٤) سورة التوبة الآية ٦٧.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٤٥.
(٦) سورة الرعد الآية ٢٦.
(٧) سورة القصص الآية ٨٢.
(٨) سورة سبأ الآية ٣٩.
(٩) سورة الإسراء الآية ٢٦.
(١٠) سورة البقرة الآية ٢٤٧.
(١١) سورة الأعراف الآية ٦٩.

قلت: يخيل إلى يا أستاذ.. أن الاسمين الكريمين: القابض والباسط.. أسهان متلازمان.. يعملان فى أفلاك أسماء مختلفة.

قال: نعم إن القابض والباسط اسهان يعملان بالتضاد فى مجالى أسماء عديدة.. كالرزاق والوهاب والفتاح والعليم.

قلت: وما السبب فى قولك إنهما يعملان بالتضاد؟

قال: إن تجليات الاسمين تدور فى فلك الاسم - الحكيم - وإننا لو تأملنا ما تنطوى عليه حكمته - تعالى - لعلمنا إلى أى مدى سرت حكمته فى الكائنات.. صغيرها وكبيرها.. دقيقها وجليلها.. سريانا لا يمكن للعبارات الحرفية أن تمثل صفته الكبرى وراء العقول.

فهو يقبض بحكمته عندما يكون القبض بتجليات الاسم القابض - عاملا من عوامل الاسم - الرحيم - فيكون قبضه رحمة.. ويبسط عندما يكون الاسم - الباسط - كذلك عاملا من عوامل الاسم - الرحيم - فيكون البسط رحمة أيضا.. وقد يكون اسم - الباسط - عاملا من عوامل الأسماء: الخبير - الجبار - المنتقم.. فيكون البسط هنا نقمة لا نعمة.

قلت: إذن البسط لا يكون دليلا على رضا الله.. والقبض لا يكون دليلا على غضب الله؟

قال: .. ليس البسط دليلا على الرضا.. ولا القبض دليلا على الغضب.. بل قد يكون العكس هو الصحيح.. وقد ضربنا لذلك مثلا بالمحموم يمنع عنه طبيبه ما تشتهيه نفسه من لحم وحساء ودسم.. رحمة به.. وإنقاذا له من مرضه القاتل الفتاك.. فالقبض هنا رضا ورحمة بهذا المحموم.. ولو بسط له الطبيب فى إعطائه ما اشتهت نفسه لقضى عليه.

قلت: هذا المثل أظهر لنا حالة كان القبض فيها رحمة.. فكيف يكون البسط فى الرزق غضبا ونقمة.

قال: ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزّل بقدر ما يشاء﴾(١٢).

وكم رأينا أناسا بسط الله تعالى لهم فى الرزق.. وآتاهم من الكنوز: ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة﴾(١٣) فكان هذا البسط وبالاً عليهم.. أوردهم موارد الهلاك.

قلت: لعلك يا أستاذى تقصد قارون فى أيام موسى - عليه السلام -.. فهل من الممكن أن نعلم شيئا عن تلك القصة؟

قال: إنها قصة طويلة.. لا يتسع لها هذا المقام.. ولكننى سأوجزها لك فى سطور.. لما فيها من عظة وعبرة.. ولنرى من خلالها كيف يتجلى الله تعالى - باسم - الباسط فى فلكى الاسمين: الجبار والمنتقم.

فقد كان قارون ابن عم موسى وهارون - عليهما السلام - وكان دائم التصدى لهما يقول: الرسالة لك ياموسى.. والحَبَارة لك ياهارون.. فماذا تركتما لى؟.. وأنا أغنى منكما.. عندى من كنوز الأرض ما لم يتملك مثله بشر؟.

---

(١٢) سورة الشورى الآية ٢٧.

(١٣) سورة القصص الآية ٧٦.

فقال له موسى - عليه السلام - إن هذا من فضل الله عليك.. وعليك أن تدفع الزكاة من مالك هذا.. درهما عن كل ألف درهم.. ودينارا عن كل ألف دينار.. فوجدها تجمع أموالا كثيرة لا تسمح بها نفسه الخبيثة الشحيحة.. فقال ياموسى: إن الزكاة التى تطلبها من مالى للفقراء.. ما هى إلا أخت الجزية.. ولن أدفعها.. لأننى أوتيت هذا المال ﴿على علم عندى﴾.. وكان الله قد تجلى عليه باسم - الباسط - فكان يحيل المعادن إلى ذهب باستعمالات كيمائية.. وكفر بقوله هذا بالمنعم الذى أنعم عليه.

وكثيرا ما يستعمل بعضنا تلك العبارة التى قالها قارون: ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾[١٤] فيقول الرجل: أنا كوّنت بمجهودى وبذكائى ومهارتى كذا وكذا من المال والعقار والأرض.. يقولها بحسن نية.. ولكنها كلمة قارون التى كفر بها.

ولم يكتف بمنع الزكاة.. بل دبر أمْرًا يؤذى به موسى - عليه السلام - فاتهمه بالزنى أمام قومه.. بنى إسرائيل - ولكن الله برّأ رسوله فى نفس الموقف باعتراف الفتاة التى اكتراها قارون بماله.. لتنفيذ الاتهام..

وغضب موسى وأسف وحزن ودعا الله باسمه - المنتقم الجبار - فابتلعت الأرض قارون إلى وسطه.. فاستغاث بموسى - فأعرض موسى عنه - ثم ابتلعته إلى صدره.. فاستغاث بموسى - فأعرض موسى عنه - ثم ابتلعته إلى عنقه.. فاستغاث بموسى وقال له: أنقذنى بحق الرحم.. ولكن موسى أعرض عنه.. فابتلعته الأرض: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾[١٥].

وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى: ياموسى لقد استغاث بك قارون عدة مرات.. فلم تغثه.. وعزتى وجلالى لو استغاث بى مرة واحدة لأغثته.

وهكذا نرى كيف كان تجلى الاسم - الباسط - فى فلكى الجبار والمنتقم.

قلت: وما المقصود من قوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾.

قال: الله سبحانه بذاته - مطلق - حتى عن قيد الإطلاق.. فيداه سبحانه مبسوطتان.. أى مطلقتان من غير حدود.. ولهذا قال تكملة لتلك الآية: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[١٦]

قلت: لماذا قلنا عن عزرائيل - عليه السلام - إنه قابض الأرواح؟

قال: قلنا إن من معانى القبض فى اللغة أى الأخذ.. فهو آخذ الأرواح بأمر الله تعالى.. فالله - فى الحقيقة- هو قابض الأرواح عن الأشباح عند الممات.. وهو باسط الأرواح فى الأجساد عند الحياة.. وهو قابض الصدقات من الأغنياء.. وباسط الأرزاق للضعفاء.. يقبض القلوب فيُضَيِّقها بما يكشف لها من عظمته وجلاله.. ويبسطها بما يكشف لها من لطفه وجماله.

قلت: وهل يتصف العبد بأنه قابض أو باسط؟

قال: القابض الباسط من العباد هو من ألهمه الله تعالى بدائع الحكم.. وجوامع الكلم.. فتارة يبسط قلوب العباد بذكر أفضال الله وآلائه.. وتارة يقبضها بإنذارهم بجلال الله وكبريائه.. كما فعل رسول

---

(١٤) سورة القصص الآية ٧٨.
(١٥) سورة القصص الآية ٨١.
(١٦) سورة المائدة الآية ٦٤.

الله - ﷺ - مع أصحابه لما قال لهم.. كما روى مسلم فى صحيحه.. من حديث عن حذيفة بن اليمان.. رضى الله عنه.. عن النبى - ﷺ - أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «أَخْرِجُوا بعث النار - أى المبعوث إلى النار - فيقال: من كم؟.. فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». فانكسرت قلوب الصحابة.. وضاقت صدورهم.. فلما رآهم على ما هم عليه من القبض والفتور.. روَّح عليهم وبسط لهم.. وذكر لهم أنهم فى سائر الأمم كشامة سوداء فى ثور أبيض.

قلت: وهل للعبد قدرة فى داخل نفسه على بسطها وقبضها؟

قال: طالما كانت روح العبد متعلقة بربها.. فهو فى بسط دائم.. فإذا انفصلت ورُدَّت إلى خواطرها وأوهامها ضاقت بصاحبها.. وكل هذه التصرفات إنما هى بإرادة الله وحده.

وقد قرأت حول هذا المعنى.. أن رجلا قال: كنت مع شيخ من المقربين فى سفر.. ونزلنا تحت شجرة ليلا.. فجاء أسد فربض بقربنا.. ففزعت فزعًا شديدا.. وعلوت الشجرة وبقيت فوقها حتى الصباح.. خوفًا من الأسد.. وبقى الشيخ مكانه فلم يفزع.. وفى الليلة التالية نزلنا فى مسجد.. فنام الشيخ.. فوقعت على وجهه بقّة.. فضجّ منها وفزع.. فقلت له: إن هذا منك لعجَب.. لم تفزع من الأسد البارحة وتفزع الليلة من بقّة!!.. فقال: إن البارحة كنتُ مأخوذًا عَنِّى.. والليلة أنا مردود على نفسى.

واعلم أن الله تعالى إذا قبض.. قبض حتى لا تكون طاقة.. وإذا بسط بسط حتى لا تكون فاقة.

ويجب على المؤمن أن يتجنب الضجر فى وقت قبْضه.. ويتجنب ترك الأدب فى حال بَسْطه.

قلت: وهل ورد هذان الاسمان فى كتاب الله تعالى؟

قال: لم يردا بهذا النص.. ولكن ورد بهما الخبر.. ونطق بفعلهما الكتاب: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾(١٧)، وقوله: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾(١٨) ومعنى يقدر.. من القبض والتضييق.. وغيرها كثير.

قلت: هل يجوز الذكر بهذين الاسمين؟

قال: اسم - القابض - من ذكر عزرائيل - عليه السلام - فمن كان مظلوما واتخذه وردًا له.. أهلك الله ظالمه.. ولكن ليس الانتقام من صفات المؤمن.. فالعفو من شيم الكرام.

وبعض العلماء لا يذكر باسم - القابض - وحده.. وإنما يذكر «القابض والباسط» معًا.. قائلا: لا يوصف الله - تعالى - بالقبض دون البسط.. فلا يجوز الوصف بالحرمان دون العطاء.

أما اسم - الباسط - فذكره يبسط الرزق.. ويحيى القلب.. ويزيل الهم والغم.

قلت: حقا إن الله يقبض ويبسط كيف يشاء.. ويخفض ويرفع كما تقضى به حكمته.

قال: ها أنت قد أخذت بيدنا إلى الاسمين الكريمين: الخافض والرافع.

* * *

(١٧) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

(١٨) سورة الرعد الآية ٢٦.

٢٣ - الخافض
٢٤ - الرافع

قلت: ما هو الخفض فى اللغة؟

قال: الخفض فى اللغة بمعنى الدَّعة والسَّعة.. يقال: عيش خافض.. وهم فى خفض من العيش.. أى فى سعة ورغد ويسر.

كما نقول: خفض الصوت أى غَضَّه.. والخفض أيضًا: الجَرُّ عند أهل النحو.. والانخفاض الانحطاط.. والله يخفض من يشاء.. يعنى يضعه.

قلت: وما معنى الرفع لغة؟

قال: الرفع فى اللغة: ضد الوضع.. وفى الإعراب الرفع: هو الضم.. والرفعة من العلو والسمو.

قلت: إذا كان الخفض هو الوضع والانحطاط.. والرفع هو العلو والسمو.. فهل معنى هذا أن الاسمين: الرافع والخافض يعملان بالتضاد كما جاء فى الاسمين الكريمين: القابض والباسط؟

قال: نعم.. فالخافض يخفض من يشاء انتقامًا.. وهو نفسه الرافع.. يرفع من يشاء إنعامًا.

قلت: وماهى الأسماء التى يعمل الاسم - الخافض - فى مجاليها؟

قال: يعمل الاسم الخافض فى مجالى الأسماء:

الجبار - والقهار - والمذل - والقابض - والمنتقم - والحكم العدل.. وقد تكون تلك المجالى كلها من العوامل المساعدة مع الاسم: الرحيم.

قلت: وهل يكون الخفض من عوامل الرحمة؟

قال: قد يكون الخفض اختبارًا لنفس المؤمن.. فالله تعالى يرفع من اتبع رضاه.. ويخفض من اتبع هواه.. وقيل: من رضى الخفض إلى أقل من قدره.. رفعه الله فوق غايته.

فيكون الخفض فى تلك الحالة.. لقياس درجة الرضى عند العبد. وعلى قدر درجة هذا الرضى.. تكون درجة الرفع التى يهبها له الرافع - جل شأنه.

قلت: هل معنى هذا أن اسم - الرافع - يعمل فى مجالى الاسم - الوهاب؟

قال: نعم.. اسم الرافع يعمل فى مجالى الاسم - الوهاب - والرزاق والفتاح - والباسط - والمعز - مع ارتباطها جميعًا باسم - الحكم العدل.

قلت: هل الرفع والخفض يتعلقان بالماديات فقط.. أم يتعلقان بالمعنويات أيضًا؟

قال: الخفض والرفع يتعلقان بالماديات والمعنويات.. ففى الماديات يتعلقان بالفقر والغنى.. أما تعلقهما بالمعنويات.. فهو تعلق أوسع وأشمل.. فهما يعملان فى كل تصريف العباد.. فى حالتى الذل والعز.. وفى خفض الكفر وآثاره مع رفع الدين وشعاره.. وخفض الإلحاد وسبيله مع رفع التوحيد ودليله.. وخفض الصنمية ومن رضى تعظيمها باختياره.. مع رفع الإسلام وأنواره.. وخفض أعداء الله

بصدّه وردّه وطرده وبعده.. مع رفع أوليائه بحفظ عهده وحسن ودّه، وجميل رفده، وصدق وعده.. وخفض من اتبع هواه.. مع رفع من سلك سبيل رضاه.

قلت: هل الباطل والحق معرضان للخفض والرفع؟

قال: يقول رسولنا - ﷺ: «إن الله لا ينام.. ولا ينبغي له أن ينام.. يخفض القسط[1] ويرفعه.. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار.. وعمل النهار قبل عمل الليل.. حجابه النور.. لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»

قلت: نلاحظ فى الحديث أن الله تعالى - ذكر خفض القسط قبل رفعه.. فهل لذلك من حكمة؟

قال: من رحمة الله بعباده المؤمنين.. أن جعل خفض الحق ورفع الباطل أولاً.. ليكون الرفع فى النهاية للحق.. فالبقاء للأصلح دائمًا.. يعلوا الباطل ويرتفع.. ويزهو ويزدهر.. حتى يظن الناس أن الحق قد انتهى.. والخير قد مضى وانقضى.. ولكن دولة الباطل ساعة.. سرعان أن تتلاشى أمام قوى الحق والخير.

وأهل الحق دائمًا كشجرة طيبة.. تضرب جذورها فى أعماق الأرض.. ﴿أصلها ثابت وفرعها فى السماء﴾[2] فإذا هبّت عليها أعاصير الباطل جبارة عاتية.. مالت بأغصانها الفارهة.. ذات اليمين أو ذات اليسار.. دون أن تقتلع جذورها.. أو تتخلخل أصولها.. حتى تمر العاصفة وتهدأ ثم تذوب.. فتعود الشجرة قائمة سوقها.. شامخة فى أجواز الفضاء.. أشدّ اعتدالاً.. وأقوم عظمة وشموخًا.. ولهذا قال - ﷺ: «الله يخفض القسط ويرفعه» فكان انخفاض القسط سابقًا لارتفاعه.. لتكون النهاية دائمًا للحق.

ويتضح هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[3].

قلت: وهل يمتد أثر الخفض والرفع إلى الآخرة؟

قال: نعم.. فالآخرة هي الغاية.. وقيل إن امرأة كانت تكنس المساجد.. وكانت تسمى - مسكينة - فلما ماتت.. رآها بعض الصالحين فى المنام.. فقال لها: ما حالك يا مسكينة؟ فقالت: هيهات هيهات.. ذهبت المسكنة وجاء الغنى الأكبر.

كما يقول أبو القاسم - عبد الله القشيرى - فى تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا﴾[4] قال: جاء فى التفسير.. أن الله - سبحانه - يرسل الملك إلى وليّه فى الجنة.. ويقول للملك: واستأذن على عبدي.. فإن أذن لك فادخل.. وإلا فارجع.. فيستأذن عليه من سبعين حاجبًا.. ثم يدخل عليه.. ومعه كتاب الله.. مكتوب على عنوانه: من الحى الذى لا يموت.. إلى الحى الذى لا يموت.. فإذا فتح الكتاب.. وجد مكتوبًا فيه: «عبدى اشتقت إليك فزرنى» فيقول العبد للملك: هل جئت بالبراق؟.. فيقول: نعم.. فيركبه.. فيغلب الشوق على قلبه.. فيحمله شوقه.. ويبقى البراق.. إلى أن يصل إلى بساط اللقاء.

يقول القشيرى: هذا هو الملك الكبير.. الذى تشير إليه الآية ﴿نعيمًا وملكًا كبيرًا﴾ تذكر هذا المعنى

(١) الحق والعدل.
(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٤.
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٨.
(٤) سورة الإنسان الآية ٢٠.

بشيء من التحفظ.. للعلم فقط.. فنحن نعتقد أن كل تلك المعانى.. ماهى إلا محاولات للوصول إلى نعيم قال عنه رسول الله - ﷺ: «فيها مالا عين رأت.. ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر».. فكل ما يخطر بالعقل عن الجنة.. فهى أعلى وأكبر منه.

هؤلاء هم الذين يرفعهم الله فى الآخرة وأما الذين يخفضهم.. فهم أذلّ وأحقر من التراب.. تطؤهم الأقدام.. قال الله تعالى عنهم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا﴾[5]، ويومها ﴿ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابًا﴾[6].

قلت: إذن لهذين الاسمين علاقة بالكفر والإيمان؟

قال: إن الله تعالى يخفض الكفار بالشقاء.. ويرفع المؤمنين بالسعادة.. فمن رفع الله مشاهداته عن المحسوسات.. وإرادته عن الشهوات.. فقد رفعه إلى أفق الملائكة المقربين.. ومن جعل الله مشاهداته قاصرة على المحسوسات.. وهمته على الشهوات التى يشاركنا فيها الأنعام.. فقد انحط إلى درجة أقل من درجة الأنعام.. ولا يفعل ذلك إلا الخافض الرافع.

قلت: وما الواجب على العباد حيال هذين الاسمين - الخافض والرافع؟

قال: على العبد أن يعمل على رفع الحق أينما كان.. وخفض الباطل فى كل صوره فينصر صاحب الحق ليرفعه.. ويقاوم صاحب الباطل ليخذله.. وبهذا يوالى أولياء الله.. ويعادى أولياء الشيطان لأنهم أعداء الله.

قلت: هل ورد هذان الاسمان فى كتاب الله تعالى؟

قال: لم يرد بهما النص.. وإنما ورد بهما الخبر.. أنهما من أسماء الله تعالى. وقد ورد القرآن بأفعالهما.

وقد قرأت أن أحد العلماء كان يفسر قوله تعالى: ﴿كل يوم هو فى شأن﴾[7].. فسأله سائل: ماشأن ربك الآن؟.. فلم يجد جوابًا لهذا السؤال.. ونام فى ليلته مهمومًا مغمومًا.. فرأى رسول الله ﷺ فى المنام.. يقول له: «إذا جاءك السائل الليلة يقول لك: ما شأن ربك الآن؟.. فقل له: «أمور يبديها ولا يبتديها.. يخفض أقوامًا ويرفع آخرين»

قلت: وهل أذكر الله بهذين الاسمين؟

قال: الذكر بهما معًا.. يرفع شأن المستضعفين فى قومهم.. وينصر المظلومين على أعدائهم.

قلت: حقا إن الرفع من الله - تعالى - هو العزّ كل العزّ.. والخفض منه هو الذل كل الذل.

قال: نعم.. وقد وضعت يدنا على الاسمين التاليين: المعز - المذل.. فإليهما إن شاء الله تعالى.

* * *

(٥) سورة الكهف الآية ١٠٥.
(٦) سورة النبأ الآية ٤٠.
(٧) سورة الرحمن الآية ٢٩.

٢٥ - المعز
٢٦ - المذل

قلت: هل المعز والمذل اسمان من أسماء الله تعالى؟

قال: نعم.. هما اسمان من أسمائه تعالى.. وصفات فعله.

قلت: نحن نفهم العزّ فى الدنيا.. بكثرة المال.. فهل هذا هو مفعول اسم الله المعز؟

قال: إعزاز العبد فى الدنيا يكون بالجاه والمال.. كما يكون بإصلاح الحال.. فالإعزاز بالجاه والمال يحصل بهما الاستغناء عما فى يد الغير.. مع جمال المظهر.. وبهاء المنظر.. ونوال المطلوب.. وتحقيق المرغوب.. وهذا هو العز من حيث الجاه والمال.

وأهم من هذا.. العز بإصلاح الحال.. وراحة البال.. وإصلاح الحال فيه زينة السرائر.. ونفاذ البصائر.. ونقاء الصدور.. وشفافية القلوب. فالإعزاز بالمال فيما بين الخلق.. والإعزاز بالحال على باب الحق.

قلت: وما هى العوامل التى تؤهل العبد لكمال التجلى باسم الله - المعز - للإعزاز بالمال.. وإصلاح البال؟

قال: أهم تلك العوامل هو الايمان.. المصحوب بصالح الأعمال.. ونصّ الآية صريح فى قوله تعالى.. فى سورة محمد: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم﴾(١).

قلت: هل معنى هذا أن المؤمن لا يذل أبدا؟

قال: المؤمن ولىّ الله.. وولىّ الله لا يذل إلا لله.. اقرأ قوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل وكبّره تكبيراً﴾(٢) فولىّ الله لن يكون ذليلا مطلقًا لغير الله.

قلت: وكيف يصل الإنسان إلى تلك الدرجة من العزة بالله؟

قال: سأضرب لك مثلاً حول هذا الموضوع.

فإنك مخلوق حادث.. أوجدك الله تعالى فى هذا الكون بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا.. فصرت إنسانًا سويًا.. حيا مريدًا.. عاقلاً عالمًا.. سميعًا بصيرًا.. قادرًا متكلمًا.. فلو أنعمت نظرك فى كل هذا وعلمت أن إمعان النظر نفسه ليس من ذاتك.. وإنما هو من فيض تجلّيه - سبحانه وتعالى - بصفة بصره إلى بصيرتك.. لو أدركت هذا.. لشعرت وأحسست بفضله عليك.. يتنزل صفاته إليك.. وذلك الشعور يجعلك

---

(١) سورة محمد الآية ٢.

(٢) سورة الإسراء الآية ١١١.

تحسّ بالذلّ بالنسبة لنظرك إلى نفسك من حيث أنت.. وهذا هو المجال الذى يؤهلك لكى يمنحك الله العزة منه من حيث هو المعزّ.

قلت: هل هذا الإحساس منى يعتبر شكرًا لله تعالى؟

قال: نعم.. لأن شعورك هذا هو اعتراف بفضله عليك.. والاعتراف بالفضل دائمًا يؤهل لزيادة الفضل من المتفضل.. لقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾(٣).

قلت: وصف الله المؤمنين بالذلّ فى بعض المواقف فقال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾(٤).. فكيف كان هذا؟

قال: كان المسلمون فى بدر قلّة مستضعفة.. فوصْف الله تعالى - لهم بأنهم أذلّة.. يعنى أذلّة فى نفوسهم إلى الله.. من حيث نظرهم إلى ضعفهم وقلة عددهم وعُددهم.. أمام جيش يفوقهم أضعافًا فى العدد والقوة والسلاح.. فكانت نظرتهم تلك إلى نفوسهم.. مؤهلاً لهم لإمدادهم بعزته تعالى من حيث هو المعزّ- كما بيّنا فى السؤال السابق.. فكان لهم عزًّا ونصراً.

قلت: هل يجوز للمؤمن أن يكون عزيزًا على المؤمن؟

قال: يفهم من سؤالك هذا أنك تقصد العزّة بمعنى الكبر والتعالى.. وهذا غير جائز من المؤمن للمؤمن مطلقًا.. فالمؤمن ذليل لأخيه المؤمن. لأن هذا الذل لله.. وباسم الله.. فقد وصف الله تعالى قومًا بأنه يحبهم ويحبونه.. بقوله تعالى: ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾(٥) فوصفهم بأنهم بالنسبة للمؤمنين أذلّة.. وبالنسبة للكافرين أعزة.

قلت: نرى كثيرًا من الظلمة.. يظهرون العزة والكبرياء.. فهل يصح أن نقول عنهم إنهم أعزة.. أو أصحاب العزة؟

قال: هؤلاء يحاربون الله ورسوله.. وقد سمى الله تعالى عزتهم هذه بأنها عزة بالإثم.. فيقول تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾(٦). وقال أيضاً: ﴿بل الذين كفروا فى عزّة وشقاق﴾(٧) فهؤلاء لابدّ أن يذلهم الله بعذاب الخزى فى الحياة الدنيا.. ولعذاب الآخرة أشدّ وأخزى.. ويقول تعالى:

﴿إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك فى الأذلّين﴾(٨). وقال عن الذى يضل عن سبيل الله: ﴿له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾(٩) والخزى أشدّ أنواع الذل.

قلت: الإنسان يرى كثيرًا من الناس.. وقد ارتسمت على وجوههم علامات الذلّ والمسكنة.. فهل نرى هذا فى وجه المؤمن؟

قال: كلا.. المؤمن دائمًا عزيز النفس.. عالى الهمة.. قوى الروح.. وقد كتب الله الذل على قوم بسبب مافى نفوسهم من مكر ونفاق.. اقرأ قوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب

---

(٣) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٣.
(٥) سورة المائدة الآية ٥٤.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٠٦.
(٧) سورة ص الآية ٢.
(٨) سورة المجادلة الآية ٢٠.
(٩) سورة الحج الآية ٩.

من الله﴾[١٠] وقال: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلّة﴾[١١] وقال عن تارك الصلاة: ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾[١٢].

وقال: ﴿ضُربت عليهم الذلّة أينما ثُقفوا﴾[١٣] وغيرها كثير. أما عن المؤمنين فيقول: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلّة﴾[١٤] ويقول: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[١٥] وغيرها أيضًا كثير. ومن اعتز بغير الله ذلّ: ﴿فإن العزة لله جميعًا﴾[١٦].

قلت: وكيف أكون عزيزًا.. وأنا فقير ليس عندى من المال الكثير؟

قال: القناعة والرضى أعظم الكنوز.. فالعزّ فى القناعة.. والذل فى الطمع.. فكم من فقير قانع راض بما قسمه الله له من الرزق وعاش عزيز الجانب.. موفور الكرامة.. مرفوع الهامة.. وكم من صاحب أموال.. استولى عليه الطمع والجشع.. فعاش ذليل النفس.. خائر الهمة.. كسير الجناح.. وسبحان ربك رب العزة.. يعز من يشاء.. ويذل من يشاء.. وهو على كل شىء قدير.

قلت: إذن ماهى أسمى درجات العز.. وما أحطّ دركات الذل؟

قال: العز الحقيقى فى الخلاص من ذل الحاجة.. وقهر الشهوة.. فمن رفع الحجاب عن قلبه حتى شاهد جمال وجلال الله تعالى.. ورزقه القناعة التى استغنى بها عن الخلق.. وأمدّه بالقوة والتأييد.. حتى استولى على صفات نفسه.. فقد صار فى أسمى درجات العزة.. وأوتى الملك العاجل والعز الآجل.

وخير رداء يرتديه ابن حُـرّة   سلامة عرض لم يدنّس بمطمع

أما من امتدت عينه إلى الخلق.. حتى احتاج إليهم.. وسلط عليه الحرص.. لم يقنع بالكفاية.. فهذا هو الذى استدرجه الله تعالى – حتى اغتر بنفسه.. وبقى فى ظلمة الجهالة.. فقد انحط إلى أدنى درك الذل.. وهذا الذليل لا ينقضى ذله فى الدنيا.. بل هو فى الآخرة أشدّ ذلًّا عندما يقال له: ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾[١٧] وهذا غاية الذل.

قلت: ومأأثر هذين الاسمين فى العبد.. وما الواجب عليه حيالهما؟

قال: اعلم أن العز فى الطاعة.. والذل فى المعصية.. وقد قرأت أن الله تعالى أوحى إلى نبيه داود عليه السلام: «يا داود حذر وأنذرْ أصحابك أكل الشهوات.. فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا.. عقولها عنى محجوبة».

كما روى أن أستاذا دخل على تلميذه... فقدم له التلميذ خبزًا قفارًا.. ولم يكن عند التلميذ إدام يقدمه مع الخبز.. وأسف التلميذ فى نفسه لذلك.. وأحس الأستاذ بما فى نفس التلميذ.. فقام الاستاذ..

---

(١٠) سورة البقرة الآية ٦١.
(١١) سورة يونس الآية ٢٧.
(١٢) سورة القلم الآية ٤٣.
(١٣) سورة آل عمران الآية ١١٢.
(١٤) سورة يونس الآية ٢٦.
(١٥) سورة المنافقون الآية ٨.
(١٦) سورة النساء الآية ١٣٩.
(١٧) سورة الحديد الآية ١٤.

وقال: تعال معى.. وذهب به إلى باب السجن فرأى المسجونين يعذبون.. فقال الأستاذ للتلميذ: هؤلاء هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار.. فأدّت بهم شهواتهم إلى هذا الذل. فالعزيز من اعتز بالطاعة.. والذليل من ذل بالمعصية. وقد قال على بن الحسين - رضى الله عنهما: من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان.. وغنى بلا مال فليخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

قلت: هل ورد هذان الاسمان فى كتاب الله تعالى؟

قال: لم يردا بهذا النص.. ولكن ورد بهما الخبر.. فهما من أسماء الله تعالى.. ومن صفات فعله: ﴿وتُعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء﴾[18].

قلت: وما أثر هذين الاسمين فى الذاكر بهما؟

قال: من ذكر الله بهما.. جعله الله تعالى - فى مركز العزة.. وأودع فى قلوب الخلق هيبته.. كما أن الذكر بهما يورث الخوف من الله.. والتواضع.. وقهر النفس على معرفة الحق.

قلت: كل تلك الأمور.. تحتم على الإنسان.. أن يكون واعيًا لكل مايسمع.. نافذ البصيرة فى كل ما يرى.

قال: نعم.. وبهذا نقلتنا إلى الاسمين الكريمين السميع والبصير فإليهما إن شاء الله تعالى.

* * *

(١٨) سورة آل عمران الآية ٢٦.

٢٧ - السميع
٢٨ - البصير

قلت: نعتبر السميع والبصير اسمين من أسماء الله تعالى؟.

قال: نعم.. انعقد الإجماع على أن السمع والبصر اسمان من أسماء صفاته تعالى.. ولله تعالى سبعُ صفات - معانٍ - قائمة بذاته وهى: الإرادة.. والقدرة.. والعلم.. والحياة.. والسمع.. والبصر والكلام.. سماها علماء التوحيد:- الصفات الكونية - لأنها تتعلق بالكون وما فيه من مخلوقات.

قلت: هل سمع الله وبصره.. مثل سمعنا وبصرنا؟

قال: تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.. فالله - تعالى مخالف للحوادث - أى المخلوقات.. نحن نسمع بآلة السمع.. وهى الأذن بأجزائها من صوان وقناة سمعية وطبلة.. إلى آخرها، كما نبصر بآلة البصر.. وهى العين بما فيها من عدسة وقرنية وشبكة عاكسة وأعصاب.. إلى آخرها.

ولكن الله تعالى يسمع ويبصر بغير آلة.. فهو سميع يسمع أصوات المخلوقات كلها.. ويعلم حركاتها وسكناتها ولا تشغله دعوة عن دعوة.. ولا صوت عن صوت.. وهو بصير.. يبصر جميع الموجودات.. ويعلم حركاتها وسكانتها.. ويرى كلياتها وجزئياتها.. ولا يحجب شيء عنه شيئا.. ولا توارى أرض منه أرضا.. ولا تُخفِى سماء عنه سماءً.. فالسمع والبصر صفتان قديمتان.. تتعلقان بذاته - سبحانه - لا يدرك العقل الطينى الذى نحيابه على كوكب الطين عنهما شيئا.. لأنهما تتعلقان بالذات.. ولا يجوز الكلام عن الذات.

قلت: وهل سمع الحيوانات وبصرها.. مثل سمعنا وبصرنا؟.

قال: الفرق كبير.. بين السمع والبصر عند الحيوانات.. والسمع والبصر عند الانسان. وإن كان عضوا السمع والبصر واحد تقريبا فى جميع المخلوقات.. فى الإنسان والحيوان معًا.. فالحيوانات لها أذان تسمع بها كالإنسان.. وقد تكون عند الحيوان أشدّ.. ولها أعين تنظر بها كالإنسان.. وقد تكون عند الحيوان أحدّ.. ولكن السمع والبصر عند الإنسان لهما شأن آخر.. ووظيفة أخرى.. غير شأنها وظيفتها عند باقى الحيوانات.

قلت: هل من الممكن توضيح هذا الأمر؟

قال: نعم.. خلق الله تعالى الحيوانات.. وكل منها مفطور على وضع خاص به موجّه من الله تعالى.. إلى طريقة سلوكه فى الحياة.. فمثلا نحن نجد الفرُّوج الصغير فى داخل البيضة.. ينقر القشرة بمنقاره ليخرج إلى الحياة.. ثم ينقر الأرض بحثا عن طعامه.. ثم يضع منقاره فى مسقاة الماء ويرفع منقاره إلى أعلى لينزل الماء إلى معدته.. كل تلك الحركات فطرية.. لم ير أحدا يصنعها أمامه.. فقد يكون فى مزرعة دواجن وليس معه أم تعلمه.

كما نرى فعلة النحل تبنى خلاياها بطريقة هندسية سداسية رائعة.. والشكل السداسى هو أقوى الأشكال الهندسية إحكاما بحيث لا يمكن أن يترك فراغا ما.. كل هذا وهى لم تتعلم فنون الهندسة ومعرفة الأبعاد والأضلاع والزوايا.. ولكنها فطرة الله.. فهو علم وَهْبىّ لا كَسْبىّ أما الإنسان.. فقد خلقه الله.. أول ما خلقه.. لا يعلم شيئًا.. اقرأ قوله تعالى فى سورة النحل: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[1].

أخرجنا من بطون أمهاتنا.. لا نعلم شيئًا.. ثم منحنا أدوات العلم: السمع والبصر والفؤاد.. لنبحث ونعلم.. فيكون علمنا كَسْبيًّا لا وهْبيًّا.. فالسمع والبصر عند الإنسان.. غيرهما عند الحيوان.

قلت: إذن المقصود بالسمع والبصر عندنا.. غير ما هو معروف من سماع الأصوات.. ونظر المرئيات؟

قال: نعم . سماع الأصوات شىء.. ووعيها شىء آخر.

ونظر المرئيات شىء.. وإبصارها شىء آخر.. ألم تقرأ قوله تعالى عن الكفرة: ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[2].

ويقول لرسولنا ﷺ عنهم: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾[3] فقرر سبحانه – أن لهم أعينا قد تكون فى قوة عين الصقر ولكنه نفى عنهم الإبصار.. وقرر أن لهم آذانا قد تسمع دبيب النمل.. ولكنه نفى عنهم السماع الواعى ثم شبههم بالأنعام.. بل نزل بهم إلى درجة أحط من الأنعام.. فقال: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾.

قلت: إذن نحن مسئولون عن أسماعنا وأبصارنا؟

قال: هذا صريح فى قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[4].

قلت: إذن ما هى الأمانة التى حملها الإنسان.. وأشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال؟

قال: أراك قد وصلت إلى معنى الأمانة التى حملها الإنسان.. وعليها سيكون مدار حسابه.. ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾[5] إنها السمع والبصر والفؤاد.. بالمعنى الذى أشرنا إليه.. وليس بمعنى الأذن والعين والقلب.. فهذه أدوات مادية.. خلفها معنويات نحن مسئولون عنها.. هى السمع والبصر والفؤاد.. ولذلك قال تعالى: ﴿كل أولئك كان عنه مسئولا﴾.

قلت: وما المطلوب من الإنسان نحو سمعه وبصره.. ليكون من الناجين يوم الحساب؟.

قال: إن من يحفظ سمعه وبصره عن كل ما حرم الله – تعالى – ويجعلها فى طاعته.. يكفه الله مئونة نفسه.. ويصونه فى كل أحواله.. فيكون سمعه مصونا عن سماع كل لغو.. وبصره محفوظا عن شهود كل منكر.. وقد ورد فى الحديث القدسى المعروف: «من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب.. وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه.. ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى

---

(١) سورة النحل آية ٧٨.
(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩.
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٨.
(٤) سورة الإسراء آية ٣٦.
(٥) سورة الشعراء آية ٨٨، ٨٩.

أحبه.. فإذا أحببته كنت أذنه التى يسمع بها .. وعينه التى يبصر بها.. ويده التى يبطش بها.. ورجله التى يمشى بها.. ولئن سألنى لأ عطينّه ولئن استعاذ بى لأعيذنه.. وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن .. هو يكره الموت وأنا أكره مساءته».

فإذا بلغ العبد تلك المنزلة.. كان سمعه بالله.. وكان بصره بالله.

قلت: شبّه الله تعالى قوما – فى آية ذكرتها من قريب – بأنهم كالأنعام فى أسماعهم وأبصارهم.. ولكن لماذا حكم عليهم بأنهم أضل من الأنعام؟.

قال: هؤلاء بدلا من أن تكون أسماعهم بالله.. وأبصارهم بالله.. غفلوا عن ربهم.. وخالقهم.. ومدبر أمرهم.. فاستولى عليهم الشيطان فصارت أسماعهم بالشيطان.. وأبصارهم بالشيطان.. وحياتهم للشيطان.. فهم فى الواقع شياطين.. ولكنهم شياطين الإنس.. وهؤلاء أقل درجة من الأنعام.. التى خلقها الله لخدمة الإنسان.. فأدت رسالتها.. وأنهت مهمتها.. فكانت أرقى من هؤلاء الذين حملوا الأمانة فخانوها.. ولبسوا تاج الكرامة.. فنزعوه من فوق رءوسهم.. وجعلوه فى مواطىء أقدامهم.

قلت: حقا إن الله حكم عدل.

قال: وها نحن قد وصلنا ألى الاسمين الكريمين: الحكم العدل.

قلت: قبل أن ننتقل إلى الاسمين: الحكم والعدل.. أريد أن أعرف أثر الاسمين: السميع والبصير على العبد؟.

قال: حظ العبد من اسم – السميع – أمران:

أولا: أن يعلم أن الله سميع فيحفظ لسانه عن الكذب والغيبة والنميمة والعيب.

ثانيا: أن يسمع كلام الله بوعى... فيستفيد به الهداية إلى طريق الله..

وحظه من اسم البصير – امران:

أولا: أن يعلم أن الله خلق له البصر لينظر إلى الآيات.. وعجائب الملكوتّ والسماوات فلا يكون نظره إلاّ عبرة.. وقد قيل لعيسى – عليه السلام – هل أحد من الخلق مثلك؟.. فقال: من كان نظره عبرة .. وصَمْته فكرة.. وكلامه ذكرا.. فهو مثلى .

ثانيا: أن يعلم أن الله يسمعه ويراه.. فلا يستهين بنظره إليه.. وأطلاعه عليه.. ومن أخفى عن الناس ما لا يخفيه عن الله تعالى من المخالفات.. فقد استهان بنظر الله تعالى.. والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان من تلك الزاوية.. فمن اقترف المعصية وهو يعلم أن الله يراه.. فما أجرأه على الله وما أخسره!! وإن ظن أن الله – تعالى – لا يراه فما أكفره!!.

وقد روى عن سهل بن عبد الله – أنه قال: مُذْ كذا سنة .. وأنا أخاطب الحق – سبحانه – والناس يتوهمون أنى أخاطبهم.

وفى هذا المعنى قال الشاعر:

وظَنُّـونى مـدحتهمـو قـديـمـا ... وأنت بـما مَدَحْتُهُمـو مرادى

قلت: وهل ورد هذان الاسمان فى كتاب الله تعالى؟

قال: ورد اسم - السميع - خمسا وأربعين مرة فى الكتاب العزيز.. وورد اسم - البصير - واحدا وأربعين مرة.

قلت: وما أثرهما فى الذكر؟.

قال: الذكر بهما بدون عدد ينير البصائر.. ويجعل الذاكر مسموع القول.. مطاع الأمر.. ويكون طاهر السريرة.. مجاب الدعاء.

وقد قرأت أن رجلا كان يدعو فى الحرم الشريف.. فيقول: اللهم إنى فقير كما ترى.. فما ترى فيما أرى.. يا من يرى ولا يُرى .. فبينما هو كذلك.. إذ حضر شخص من بلده.. وأخبره أنه وريث لأحد أقربائه.. وأنه ترك له ميراثا كبيرًا فقال أحد الحاضرين: ما رأيت دعوة استجيبت بمثل هذه السرعة!! فقال الرجل: ألا ترى أنى دعوت سميعا بصيرًا مجيبا؟.

قلت: من حقك الآن يا أستاذى أن تنتقل إلى الاسمين التاليين.

قال: فإلى الاسمين الكريمين: الحكم والعدل.

٢٩ - الحَكَم
٣٠ - العـــدل

قلت: ما معنى الحكم؟ وما هو المقصود من هذا الاسم؟

قال: الحكم هو الحاكم.. فالله تعالى هو الحاكم المطلق فى هذا الكون بما فيه ومن فيه.. يقضى بحكمه فى ملكه.. ويفعل ما يريد.

قلت: ولماذا اقترن اسم - الحكم - باسم العدْل؟

قال: الله تعالى - حكَمٌ - وحكمه عدل.. فهو الحكم العدل. واسم الحكم من صفات ذاته تعالى.. وله أن يفعل فى ملكه ما يريد.. ولكنه اقترن باسم العدل.. لأن لِلّه صفات العلو. وحقيقة العلو أن يكون الفعل حسنا وصوابا.. والحَسْن والصواب فى العدل: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلاً لا مبدِّل لكلماته﴾[١].

قلت: ما علاقة هذين الاسمين: الحكم العدل - بالأزل قبل الخلق؟

قال: الله تعالى حكَمَ فى الأزل لعباده بما شاء.. بما علم من طبائعهم وما سيكون منهم بعد خلقهم.. فمنهم شقي وسعيد.. وقريب وبعيد.. فمن حكم له بالشقاوة لا يسعد أبدا.. ومن حكم له بالسعادة لا يشقى أبدا.. ولهذا قال بعض الحكماء: «من أبعَدْته السوابق.. لم تقرِّبه الوسائل».

قلت: وما موقف الناس أمام هذا الحكم السابق قبل خلقهم؟

قال: الناس أمام هذا الأمر على أربعة أقسام:

القسم الأول: أصحاب السوابق.. ففكرهم منحصر فيما سبق لهم مِن حكم الله تعالى.. يعلمون أن الحُكْم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد.

والقسم الثانى: هم أصحاب العواقب.. يتفكرون فيما يختم به أمرهم.. فإن الأمور بخواتيمها.. والعواقب مستورة.. ولهذا قيل: لا يغرنكم صفاء الأوقات.. فإن تحتها غوامض الآفات.. وهؤلاء يقول شاعرهم:

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغـتررت بها ... وعند صفو الليالىٰ يحدث الكور

والقسم الثالث: هم أصحاب الوقت.. لا يشغلون فكرهم بالسوابق ولا العواقب.. بل يشتغلون بمراعاة الوقت.. وأداء ما كلفوا من أحكام الوقت.. ولهذا قيل المؤمن ابن وقته.

(١) سورة الأنعام الآية ١١٥.

والقسم الرابع: فالغالب عليهم ذكر الحق سبحانه.. فهم مأخوذون بشهود الحق عن مراعاة الوقت.

وكل أصحاب تلك الأقسام الأربعة.. ماضٍ فيهم حكم الله بمقتضى عدله وحكمته.

قلت: حكم الله تعالى بقطع يد السارق مثلا.. وقد سرق ليأكل ويعيش فهل هذا عدل؟

قال: إن الله تعالى لم يحكم بقطع يد السارق الذى سرق ليأكل ويعيش.. وإنما حكم بقطع يد السارق الذى توفرت له كل أسباب الحياة.. عنده سكنه ومسكن أولاده.. وعنده لباسه ولباس أولاده.. وعنده طعامه وطعام أولاده.. فإذا سرق.. كان معنى هذا أن تلك اليد السارقة مريضة بمرض السرقة.. لأنها سرقت من غير حاجة إلى السرقة.. والقانون الطبى يقول: إن العضو المريض فى الجسم يجب بتره لضمان سلامة الجسم.

أليس هذا عدلا؟ إن الله حكم بالقصاص فى الحياة.. يقتل القاتل وهذا عدل.. وحكم برجم الزناة أو جَلدهم وعدم الرأفة بهم.

فقال: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله﴾[٢]. وهذا عدْل.

إن حكمة الله تعالى.. جعلت تجليات أسمائه صدقا وعدلا فى مواقعها المختلفة.. فهو الجبار فى مجال العدل.. وهو الرحيم أيضًا فى مجال العدل.. ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا﴾[٣].

قلت: وهل من العدل أن يحكم لهذا بالغنى الزائد.. ولذاك بالفقر المدقع؟

قال: نعم.. إن الله يختبرنا بالغنى والفقر.. وباليسر والعسر.. وبالصحة والمرض.. فهو القائل: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾[٤]. وفى هذا المعنى تطاول الكفرة فى قوله تعالى فى سورة يس: ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلاّ فى ضلال مبين﴾[٥] مع أنهم هم الذين ضلّوا.. ولم يعرفوا حكمة الله فى غنى فلان.. وفقر فلان.. فإن الله تعالى يريد أن يكتب كشفًا بأسماء الأغنياء الشاكرين.. ويقابله كشف أخر بأسماء الفقراء الصابرين.

ولو شاء لجعل الغنى فقيرًا.. والفقير غنيًا.. ولكنه حكَمٌ عدلٌ.. يضع كل حكم فى موقعه.

قلت: إذن على الإنسان أن يرضى بحكم الله.. مع الثقة بأنه حُكم عادل؟

قال: نعم إن اسمَىْ: الحكم العدل.. يجريان فى فلك الاسم - الرحيم - بالذات ومن هنا نستطيع أن نعبد الله على غير حرف.. عبادة صادرة عن دين خالص.. ورضاء كامل بحكمة الحكيم.. وقَدَر المقدِّر.. سرَّنا ذلك أو سَاءَنا.. ولا نكون من الذين قال الله عنهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾[٦]. وما أصابه هذا الخسران: إلا بسبب عمى بصيرته عن مقتضيات الأسماء..

(٢) سورة النور الآية ٢.
(٣) سورة الحج الآية ٤٠.
(٤) سورة الأنبياء الآية ٣٥.
(٥) سورة يس الآية ٤٧.
(٦) سورة الحج الآية ١١.

وتجلياتها على مختلف مجاليها.. وقد ثبت أن صفة العليم - سبحانه - قامت بالانفراد فى الحكم فى تجليات اسم - الحَكَم - وبما أن الاسم - العدل - هو من قوة اسم - الرحيم - لزم اقتران الاسمين: الحَكَم العدل - اقترانا ضروريا لقوله تعالى: ﴿فالحكم لله العلى الكبير﴾[٧]. ولقوله: ﴿أفغير الله أبتغى حَكَمًا﴾[٨]. ولقوله: ﴿لا معَقِّب لحُكْمه﴾[٩] وحيث أن الحكم رحيم.. وأن الرحيم عادل.. وجب الرضا بقضائه والنزول على حكمه.. مع اطمئنان القلب.. وثقة النفس بروح هذا العدل.. سواء أكان مطابقا لهوى النفس.. أو مخالفا.

وهكذا تتعدد مجالى الأسماء.. متضامنة مع تجليات الصفات.. فى الشئون المختلفة.. والمراتب المتفاوتة.. والمقامات المتعددة.

قلت: حقا إن الله حَكَمٌ عدل.. لطيف بعباده.

قال: ولهذا كان الاسم التالى هو اسم الله - اللطيف.

قلت: وما نصيب العبد من هذين الاسمين؟

قال: نصيب الإنسان من اسمى: الحَكَم والعدل.. هو أن يَكون راضيا بحكم الله تعالى وقضائه.. مؤمنا بعدالته فى العسر واليسر.. والصحة والمرض.. والغنى والفقر.. وأن يكون عادلا مع نفسه.. بأن يجعل الشهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين.. فمن جعل عقله خادما لشهوته.. خاضعا لغضبه.. فقد ظلم نفسه ولم يعدل معها..

وعدلك مع كل عضو من أعضاء جسمك أن تستعمله على الوجه الذى أذن الشرع فيه.. وكذلك العدل فى الأهل والذرية.. وفى الرعية إن كان من ذوى السلطان.

قلت: هل يجوز لى أن أقول: إن العدل هو إيصال النفع إلى الغير.. وإن الظلم هو إيذاؤهم؟

قال: هذا معنى خاطئ.. فلو فرضنا أن ملكا عنده من الخزائن ما يشتمل على أموال وسلاح وكتب.. ولكنه وزع الأموال على الأغنياء.. وأعطى الأسلحة للعلماء.. ودفع الكتب إلى الجنود.. فقد نفعهم جميعا.. ولكنه ظَلَم ومال عن طريق العدل.. لأنه وضع كل شىء فى غير موضعه اللائق.

ولو أنك آذيت المرضى وآلمتهم بسقيهم الأدوية المرة.. وآذيت المجرمين والجناة بالعقوبة والسجن والضرب.. كنت عادلا.. لأنك وضعت الأمور فى مواضعها. ونصيبك من اسم - الحَكَم العدل - أن تثق فى عدل الله - تعالى - لا تعترض عليه فى تدبيره وحكمه وجميع أفعاله.. وافق ذلك مرادك أم لم يوافق.. والإيمان بعدل الله يقطع الاعتراض ظاهرا وباطنا. فلا تسبّ الدهر.. ولا تنسب الأشياء إلى أسباب حدوثها.. واعلم أن كل شىء مسخّر من الحكم العدل.. وقد رُتبت الأسباب وُوجِّهت إلى المسببات أحسن ترتيب.. ولهذا قال الشاعر:

ويَقْبحُ من سواك الفعلُ عندى ... فتفعله فيحسن منك ذاكَ

فمن أيقن أن الله - عدلٌ - لم يستقبح منه موجودا.. ولم يستثقل منه حكما.. بل يستقبل حكمه

---

(٧) سورة غافر الآية ١٢.

(٨) سورة الأنعام الآية ١١٤.

(٩) سورة الرعد الآية ٤١.

بالرضا.. ويصبر تحت بلائه بغير شكوى.. ولهذا قيل: قلوب العارفين أفواهها فاغرة[١٠] لمفاجأة القدر.

قلت: وهل ورد هذان الاسمان الكريمان فى القرآن الكريم؟

قال: ورد اسم - الحكم - فى الذكر الحكيم.. مرة واحدة.. فى قوله تعالى: ﴿أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا﴾[١١]. كما جاء هذا الاسم بمفعوله فى مثل قوله تعالى: ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾[١٢] أما اسم العدل - فلم يأت بنصه فى القرآن.. وإنما أتى بمفعوله وأثره.. فى مثل قوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾[١٣].

قلت: وما أثر هذين الاسمين فى الدعاء؟

قال: من ذكر اسم - الحكم - فى جوف الليل على طهارة تامة.. جعل الله باطنه موطن الأسرار الربانية.. وظاهره مشرق الأنوار الرحمانية. ومن لازم ذكر اسم - العدل - اثنتين وتسعين مرة قبل طلوع الشمس.. وكان حاكما.. ألهمه الله العدل فى رعيته.. ووفقه لما فيه الخير لأمته. وهيّا بنا إلى الاسم التالى إن شاء الله تعالى.

* * *

(١٠) متفتحة.
(١١) سورة الأنعام الآية ١١٤.
(١٢) سورة الأعراف الآية ٨٧.
(١٣) سورة الأنعام الآية ١١٥.

٣١ - اللطيف

قلت: هل اسم اللطيف - من أسماء الله تعالى؟

قال: نعم.. اللطيف اسم من أسمائه تعالى.. جاء ذكره فى القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿الله لطيف بعباده﴾[١] وقوله: ﴿إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾[٢] وقوله: ﴿إن الله لطيف خبير﴾[٣].. وغيرها.

قلت: وما معنى اللطيف فى اللغة؟

قال: اللغة تقول: إن لفظ اللطيف يحمل ثلاثة معان:

الأول: تقول: لطف يلطف فهو لطيف.. إذا صغرْ ودقّ.. ولان ورقّ.. فاللطيف بهذا المعنى ضد الكثيف.. وهو معنى لا يليق بوصفه تعالى.

والثانى: اللطيف هو العالم بدقائق العلوم وغوامضها ومشكلاتها.. يعلم بواطنها وخفياتها.

والثالث: يقال لطف يلطف بمعنى الرفق والرحمة.. فيحيل النقمة إلى نعمة.. ويوصل المنافع إلى عبده من حيث لا يعلم.. ومن حيث لا يستطيع رفقًا به ولطفًا.

قلت: إذن اسم الله - اللطيف - بأى من المعانى الثلاثة؟

قال: اسم الله - اللطيف - بمعنى العليم بدقائق الأمور.. وهذا واجب فى وصفه تعالى.. واللطيف بمعنى المحسن الموصل للخير إلى عبده برفق.. دون علمه.. وهذا من صفات فعله تعالى.. وفى نور تلك المعانى العليا.. نرى أن قوله تعالى: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز﴾[١] يحتمل المعنيين الأخيرين معًا.. فهو عالم بعباده وبمشكلاتهم وبحاجتهم.. يرزق من يشاء.. كيف يشاء.. وهو فى نفس الوقت لطيف بهم - يحسن إليهم.. ويتفضل عليهم.. ويرفق بهم فى البلاء..

قلت: إذا كان معنى اللطيف أنه العالم ببواطن الأمور.. وخفاياها.. أليس فيها تخويف وترهيب لنا فى كل أمور الحياة؟

قال: نعم.. هذا المعنى يشير إلى ماتقول.. لأنه العليم بخفيات اللفتات.. وأسرار اللحظات.. ودقائق الإشارات.. قال تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى﴾[٤] وقال أيضًا: ﴿يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور﴾[٥] وفى هذا تخويف للمؤمن من أقل همزة.. وأتفه لمزة.. وترهيب له من زيغ النظرات والغمزات والخطرات.

قلت: هل توجد علاقة بين اسم اللطيف - وأسماء أخرى؟

قال: نعم.. اسم اللطيف يعمل تحت ظلال الاسم - الرحيم - وله عاملان: من أسماء الصفات..

---

(١) سورة الشورى الآية ١٩.
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٠.
(٣) سورة لقمان الآية ١٦.
(٤) سورة طه الآية ٧.
(٥) سورة غافر الآية ١٩.

هما القوى والعزيز: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز﴾[٦] فالاسم - العزيز فى هذه الآية.. مؤيد بالاسم - القوى - وكلاهما عاملان للاسم - اللطيف.

وهذا تعانق جميل يظهر أثره على مجالى هذه الأسماء.. فى اللطف الخفى.. الذى يعمل فيه الاسم - الرزاق - فيدبر به أرزاق الكائنات.. التى خلقها فى السماوات والأرض.. فى أعماق البحار.. وفى جو السماء.. وفيما لا يعلمه سواه.. استنادًا إلى أنه القوى العزيز.. اللطيف الخبير.. مالك الملك.. وصاحب الأمر كله.

قلت: إذا كان الله تعالى لطيفًا بعباده.. فكيف نفهم أنه لطيف بالكفرة الذين يعذبهم فى جهنم؟

قال: إن الله تعالى حصر اللطف فى عباده المؤمنين فقط.. فقال:

﴿الله لطيف بعباده﴾ فكلمة عباد تخصّ المؤمن دون الكافر.. أما كلمة عبيد فإنها عامة تشمل المؤمن والكافر.. ففى كلامه تعالى عن المؤمنين يقول: ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ ويقول: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب﴾[٧] ويقول: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾[٨] ويقول: ﴿نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم﴾[٩] ويقول: ﴿ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى﴾[١٠] وأمامنا عشرات الآيات تفيد أن كلمة عباد خاصة بالمؤمنين.

أما فى الخطاب العام فيقول: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾[١١] ويقول: ﴿ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد﴾[١٢] ويقول: ﴿ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾[١٣] ولعلك عرفت الفرق بين لفظى العباد والعبيد - العباد: خاص.. والعبيد: عامة.

قلت: كثير من الناس يتوهمون أن لهم عبادات وطاعات يستحقون عليها درجات وكرامات عند الله.. فهم لذلك يعتقدون أنهم فى ظلال الاسم - اللطيف - فما رأى الدين حيال هؤلاء؟

قال: إذا ظن العبد أن له عند الله درجات وكرامات.. ظهرت الآفات.. ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾[١٤] وقوله: ﴿الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾[١٥] وهؤلاء هم أشد الناس عذابًا من سواهم.. ولهذا قال حكيم: «إن المفلس حقًا من ظن أنه موسر.. ثم ظهر له إفلاسه عند تصفح ديوانه».

قلت: هل يعتبر من لطف اللطيف أنه جعل الحسنة بعشر أمثالها؟

قال: إن لطف الله سبحانه - ظاهر فى العاملين الرئيسيين فى الحياة.. وهما العطاء.. والتكليف.. فالحياة كلها عطاء من الله يقابله تكاليف كلفنا بها.. ولطفه تعالى ظاهر فى كونه: أعطانا فوق حاجتنا.. وكلفنا بأقل من طاقتنا.. ففى العطاء يقول: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[١٦] والإسباغ معناه الزيادة عن قدر الحاجة. ونحن إذا كنا نعلم نعمة الظاهرة.. إلا أننا لا ندرى نعمة الباطنة فهذا كله عطاء ضخم كبير.. لأنه اللطيف.

(٦) سورة الشورى الآية ١٩.
(٧) سورة البقرة الآية ١٨٦.
(٨) سورة الحجر الآية ٤٢.
(٩) سورة الحجر الآية ٤٩.
(١٠) سورة الفجر الآيات ٢٨ - ٣٠.
(١١) سورة الأنفال الآية ٥١.
(١٢) سورة ق الآية ٢٩.
(١٣) سورة فصلت الآية ٤٦.
(١٤) سورة الزمر الآية ٤٧.
(١٥) سورة الكهف الآية ١٠٤.
(١٦) سورة لقمان الآية ٢٠.

أما فى التكاليف فقال: ﴿وماجعل عليكم فى الدين من حرج﴾[١٧] يعنى من ضيق.. وقال: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾[١٨].

ويقول رسول الله ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة» كما قال: «يسّروا ولا تعسّروا.. وبشّروا ولا تنفّروا» أليس هذا كله تخفيف على الطاقة والقدرة.. ذلك لأنه - اللطيف.

قلت: هل لاسم اللطيف شأن فى توجيه العبد وتوفيقه؟

قال: نعم.. فمن لطفه تعالى.. التوفيق إلى الطاعات.. وتيسير العبادات.. إذ لولا لطفه.. لارتكبنا المخالفات.. ولا نهمكنا فى اللذات.. ولو قعنا فى الزلّات. ومن لطفه بالعباد حفظ التوحيد فى القلوب.. وصيانة العقائد صند الارتياب.. وسلامة القلوب من الأضطراب.. يقول تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[١٩] واعلم أن بقاء أنوار المعرفة فى القلب.. بين ظلمات الذلة والذنب.. أعجب من إخراج اللبن من بين الفرث والدم.. ولكن جرت سنة الله سبحانه - بحفظ اللطائف فى حنايا الكثائف.. ألم تر أنه جعل الحجر الصلد محلاً للذهب والجواهر؟.. كذلك جعل القلوب محلاً للعقائد الصافية والمعارف الصحيحة. كما جعل الصدف للدرّ درجًا.. وجعل النحل للعسل مكانًا.. وجعل الدود للحرير محلاً.. فكذلك جعل قلب العبد لمحبته ومعرفته مستقرًا.

قلت: معنى هذا أن المؤمن لا يغتر بالظواهر؟

قال: المؤمن بعيد النظر.. لا تغرّه الظواهر.. فالدرّ وراء الصدف.. فلا تحتقر أحدًا لقبح منظره.. أو حقارة ثيابه.. فقد يكون فى داخله عبد صالح.. وولىّ مقرب.

قلت: إن الله لطيف خبير.

قال: إنه تعالى لطيف حليم كريم.. من لطفه بعباده وفّقهم لذكره.. والرجوع إليه.. ورفع حوائجهم بحضرته.. ودوام المناجاة معه متى شاءوا.. مع ما هم فيه من كثرة الذنوب والآثام. فسبحانه ما أحلمه على العاصين.. وأكرمه للمؤمنين.

قلت: هل لاسم اللطيف ارتباط باسم الخالق؟

قال: نعم وهو ارتباط وثيق.. ويكفى ظهور لطفه فى خلق الجنين فى بطن أمه.. وحفظه وتغذيته عن طريق السرّة.. ويكفى ظهور لطفه - تعالى - فى تأخيره خلق الأسنان بعد ميلاد الطفل حتى يحتاج إليها بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام.. ويكفى ظهور لطفه تعالى فى شق قشرة البيضة عن الفرخ.. والهامه التقاط الحب فى الحال من غير تعليم أو مشاهدة. فالله - تعالى - من حيث تدبير الأمور حكيم - ومن حيث إيجادها كريم.. ومن حيث إبداعها وترتيبها مصور بديع.. ومن حيث وضع كل شئ فى موضعه عدل.. ومن حيث لم يترك فيها وجهًا من وجوه اللطف لطيف. وليس أدل على لطفه من أنه خلق الإنسان من نطفة قذرة وجعله مستودعًا لمعرفته.. حاملًا لأمانته.. مشاهدًا لملكوته.

قلت: وما أثر هذا الاسم فى العباد؟

قال: نصيب العبد من هذا الاسم.. الرفق واللطف بعباد الله.. والدعوة بالحسنى إلى الله والهداية إلى السعادة الخالدة.. من غير ازدراء ولا عنف.. ولا خصام ولا تعصب.. وأفضل دعوة إلى الله فى ظلال

---

(١٧) سورة الحج الآية ٧٨.

(١٨) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(١٩) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

اللطيف.. يجذب العباد الى قبول الحق.. بالسيرة المرضية.. والأعمال الصالحة.. فهى أوقع وألطف من الألفاظ المزوّقة.. والعبارات المنمقة.

قلت: كم مرة ذكر هذا الاسم فى كتاب الله؟

قال: ذكر اسم - اللطيف - فى كتاب الله - تعالى - سبع مرات.

قلت: هل لهذا الاسم أثر فى الذكر به؟

قال: إن اللطيف - سبحانه - أخفى عواقب الأمور فى حنايا أضدادها.. كما أخفى ليوسف عليه السلام- عظمة الملك فى ثوب الرق.. حتى قال: ﴿إن ربى لطيف لما يشاء﴾[٢٠].

فهو اسم عظيم الشأن.. سريع الإجابة.. صالح لتفريج الكروب عند الشدائد.. ولا يضاف إليه غيره من الأسماء.. فكل من يذكر به وهو فى شدّة.. سرعان ما تنحلّ شدّته وتنفرج كربته.

ومن داوم على ذكره.. وجعله من ورده.. وسع الله عليه.. ولطف به فى جميع أحواله ﴿إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾[٢١].

وهيا بنا إلى الاسم - الخبير - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(٢٠) سورة يوسف الآية ١٠٠.

(٢١) سورة يوسف الآية ١٠٠.

٣٢ - الخبير

قلت: ما معنى الاسم - الخبير فى اللغة؟

قال: الخبرة فى اللغة تفيد معنى العلم.. فتقول: أنا خبير بكذا.. أى عليم به.. وهذا رجل خبير: أى عالم.. كما تفيد معنى التجربة.. فتقول: خبرت الرجل أى جربته.. والخبير أيضا هو الأكّار.. الذى يزرع الأرض بنصيب من إنتاجها.. ومنه المخابرة أى المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض.

كما أن الخبير هو النبات.. وفى حديث رسول الله - ﷺ - «نَسْتَخْلِبُ الخبيرَ» يعنى نقطع النبات ونأكله.

قلت: وهل اسم الخبير - من أسماء الله تعالى؟

قال: نعم.. الخبير اسم من أسمائه تعالى.. ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾[1] وقوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[2] وقوله: ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾[3] وقوله: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا﴾[4] وغيرها كثير.

قلت: وما المعنى المقصود من الاسم - الخبير - من بين المعانى التى ذكرتها اللغة؟

قال: اسم الخبير من أسماء صفات ذاته - سبحانه - فهو العليم الخبير بجميع أحوال العبد.. باطنها وظاهرها.. سرها وجهرها.. يعلم خطرات النفوس.. وزيغ النظرات.. وخفى الغمزات والهمزات.

قلت: وما موقف العباد أمام هذا الاسم؟

قال: إذا علم العبد أن الله تعالى خبير بأحواله وأوحاله.. ومطاعمه ومطامعه.. وأماله وآلامه.. فبالحرىّ أن يكون صادقًا فى أقواله وأفعاله.. واثقا بجميل اختياره - سبحانه - متحققا بأن ما قسم له لا يفوته وأن ما ليس له فلن يستطيع إدراكه.

وقد سئل نبى الله سليمان.. عن أقرب شىء وأبعد شىء.. فقال: أقرب شىء الآخرة.. وأبعد شىء ما فاتك من الدنيا.

قلت: وهل الناس كلهم على هذا الحال؟

الناس أمام هذا الأمر قسمان: قسم على عيونهم غشاوة.. وفى آذانهم وقر.. وغُلّفت قلوبُهم بغلاف سميك من الخطايا والأوزار.. فلا يصل إليها بصيص من نور الإيمان. يضيفون الأحداث إلى الخلق.. فيكذبون وينافقون ويتملقون فى سبيل قضاء مصالحهم.. والوصول إلى مطامعهم وأغراضهم.. ناسين أن

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٨.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٣.

(٣) سورة لقمان الآية ٣٤.

(٤) سورة الإسراء الآية ١٧.

الله خبير بما يعملون.. مطّلع على ما يُكنّون.. ولن يصلوا إلى شيء إلاّ إذا كان العليم الخبير قد قدّره لهم. هؤلاء انحدروا إلى مهاوى الذل.. ومزالق الشرك.. ودركات الشك.. أما القسم الثانى.. فقد صفت أفئدتهم.. وشفّت بصائرهم.. واطمأنت قلوبهم.. فنسبوا الأحداث والأمور كلها إلى العليم الخبير – سبحانه – فهؤلاء تهون عليهم الأمور.. لأنهم يعلمون أن الله تعالى يعدُّ أنفاسهم.. ويعلم ظواهرهم وحواسّهم.

وقد حكى بعضهم أنه قال: قصدت بعض الصالحين ومعى بعض رفاقى.. فى وقت أصابتنا فيه فاقة ومجاعة.. فقلت فى نفسى: أتحدث مع هذا الشيخ الصالح فى حالى وحال هؤلاء الفقراء الذين معى.. فلما وقع نظر الشيخ علىّ.. قال لى: الحاجة التى جئتنى فيها.. هل الله عالم بها أم لا ؟.. فقلت: بل الله عالم بها.. فقال: إذن فارفعها إليه.. قال: فانصرفنا من عنده.. فلما وصلنا منازلنا.. فتح الله علينا بأرزاق كفتنا ذلك اليوم.

قلت: وكيف يكون رفع مثل هذه الأمور إلى الله؟

قال: إن العبد إذا علم أن الله.. سبحانه – مطلع على سره.. عليم خبير بأمره.. يكتفى من سؤاله برفع همته إليه.. واستحضار الحاجة بقلبه لربه.. من غير أن ينطق بلسانه.. أو يعرب ببيانه.. فالله عليم بخطرات القلوب.. فهو لطيف خبير.

قلت: هل توجد علاقة بين الاسمين الكريمين: الرحمن والخبير؟

قال: نعم.. العلاقة كبيرة بين اسمى: الرحمن والخبير.. فقد سبق أن ذكرنا أن اسم الرحمن.. اسم يجمع شئون الملك.. حيث يجرى فى فلكه كل أسماء الصفات التى تتعلق بالملك والمملوكين.. والعرش والمعروشين.. والرزق والمرزوقين.. فاسم – الرحمن – هو المدد الدائم المستمر لكل مستلزمات الخلق.. بما يضمن لها النماء والبقاء.. ولا يعرف معناه الواسع المدى.. إلاّ من كان خبيرًا خبرة واسعة فى كل جوانب الحياة المادية.. فيعلم أن الله خلق لأنه الخلاّق.. وأحسن كل شيء خلقه لأنه البديع.. ورزق لأنه الرزاق.. وجعل الأسماع لأنه السميع.. وشق الأبصار لأنه البصير.. ومن هنا يعمل اسم – الخبير – فى مجال الاسم – الرحمن –.

قلت: حقا يا أستاذى.. كل هذا يحتاج إلى خبرة.

قال: ولذلك قال تعالى: ﴿ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا﴾[٥].

قلت: هل اسم – الخبير – هو الاسم المهيمن على حصر أعمال العباد.. لعرضها عليهم أمام الله تعالى يوم الحساب؟

قال: إنه اسم شامل جامع.. يحصى على العبد أقواله وأفعاله.. بواطنه وظواهره.. حركاته وسكناته.. فيراها يوم القيامة معروضة عليه نوعا من العرض.. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

قلت: تقول يا أستاذى: إن الإنسان يرى أعماله معروضة عليه.. فهل معنى هذا أن ذلك العمل يكون مشهودا أم مقروءا؟

(٥) سورة الفرقان الآية ٥٩.

قال : واضح أن العمل يكون مقروءا مشهودا بذاته.. لقوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾(٦) بمعنى أن العمل نفسه يكون منسوخا.. أى مصورا مشهودا. وقوله أيضا: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾(٧) نفس العمل.. خيرا كان أو شرا.. يجدونه حاضرًا مشهودًا.. يراه الإنسان كما حصل منه.. ولعل هذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زُوِّجت﴾(٨) فالإنسان يرى تسجيلا كاملا عن حياته.. من لحظة مولده.. إلى لحظة موته.. هذا التسجيل فيه الصوت والصورة.. وفيه خطرات النفوس وهمسات الضمائر.. ﴿يوم تبلى السرائر﴾(٩) ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾(١٠).

قلت: معنى هذا أن الإنسان يرى كل سيئاته وحسناته؟

قال : نعم يراها كلها.. فالتسجيل المنسوخ المصور.. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.. فيه كل حياة الإنسان - كما ذكرنا - من لحظة ميلاده إلى لحظة وفاته.. حيث يطوى هذا التسجيل لحظة الموت.. ويعلّق فى عنقه - اقرأ: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه﴾(١١) وطائره يعنى كتابه.. والعنق هنا هو العنق الروحى وليس العنق المادى.

﴿ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾(١١) والمخرج هو الله - سبحانه وتعالى - ومنشورا يعنى معروضا كما ينشر (القلم).. نسأل الله الرحيم أن يعرض علينا كتابنا من جهة اليمين.. لنكون من الناجين: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾(١٢) وبهذا تتم شهادة أعضاء الإنسان عليه: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾(١٣).

قلت: يا له من موقف خطير.. أمام اللطيف الخبير.

قال : إنه موقف عظيم خطير.. شديد عسير.

وقد قرأت أن رجلا فكّر فى نفسه.. وقال: كم عمرى؟.. ثم عدَّ ذلك.. ثم قال: كم تكون شهورا؟ فعدَّ ذلك.. ثم عدّ الأيام فقال كم يوما يكون فبلغ ألوفا.. فقال: لو لم أعص فى كل يوم إلا معصية واحدة.. لكان ذلك كذا وكذا ألف زلّة.. فكيف وفى كل يوم اجترحت زلات كثيرة.. فخنقته العبرة.. وزهقت نفسه فمات - رحمة الله عليه.

قلت: حقا إن الله عليم خبير.. ولكن كيف يترك المجرمين العاصين.. وهو بصير بما يعملون.. خبير بما يكنوّن من أذى وشرّ؟

قال : يترك لهم الفرصة ليتوبوا.. فهو واسع المغفرة.. ولأنه حليم.. وهذا سنعرض له فى بحث اسم - الحليم.

قلت: وما نصيب العبد من هذا الاسم؟

---

(٦) سورة الجاثية الآية ٢٩.
(٧) سورة الكهف الآية ٤٩.
(٨) سورة التكوير الآية ٧.
(٩) سورة الطارق الآية ٩.
(١٠) سورة الزلزلة الآيتان ٧، ٨.
(١١) سورة الإسراء الآية ١٣.
(١٢) سورة الإسراء الآية ١٤.
(١٣) سورة النور الآية ٢٤.

قال: نصيب العبد منه أن يكون خبيرا بما يجرى فى عالمه الخاص.. وعالمُهُ الخاص هو قلبه وبدنه.. فيعرف ما خفى فى قلبه من الغش والخيانة.. والميل إلى النعيم العاجل.. وإضمار الشر مع إظهار الخير.. وادعاء الإخلاص.. وهذا لا يعرفه إلاّ من كان صاحب خبرة واسعة يتغلغل بها إلى أعماق نفسه فيعرف مكرها وخداعها فيحذرها ويعاديها.. فهذا العبد يستحق أن يسمى خبيرا.

قلت: كم مرة ذكر اسم - الخبير - فى القرآن الكريم؟

قال: ذكر هذا الاسم فى القرآن الكريم خمسًا وأربعين مرة - فهومرة ﴿الحكيم الخبير﴾ ومرة ﴿الخبير البصير﴾ وأخرى ﴿اللطيف الخبير﴾ وغيرها ﴿العليم الخبير﴾ و ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[١٤]؟

قلت: وما أثر هذا الاسم فى الذكر؟

قال: من خصائص هذا الاسم أن من كانت له حاجة يريد معرفة أمرها.. فليقرأ عند النوم ﴿ألا يعلم منْ خلق وهو اللطيف الخبير﴾ حتى يغلبه النوم.. فإنه يرى ما يكشف له وجه الصواب فيها إن شاء الله تعالى.

وإلى الاسم التالى - الحليم - إن شاء الله تعالى.

* * *

(١٤) سورة الملك الآية ١٤.

٣٣ - الحليم

قلت: هل ورد اسم - الحليم - فى القرآن الكريم؟

قال: نعم فى قوله تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾[١] وقوله: ﴿وصية من الله والله عليم حليم﴾[٢] وقوله: ﴿ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم﴾[٣] وقوله: ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورا﴾[٤] وقوله: ﴿والله شكور حليم﴾[٥] وغيرها كثير.

قلت: وما معنى الحليم؟

قال: يقول البعض: إن الله حليم.. بمعنى أنه يؤخر العقوبة عن المستحقين.. ويكون هذا الاسم من صفات أفعاله.. على هذا المعنى.. ويقول أهل الحق: حلمه أى إرادته لتأخير العقوبة.. فيكون هذا الاسم من صفات ذاته تعالى.. لم يزل حليمًا.. ولا يزال.

قلت: وما معنى الحلم فى اللغة؟

قال: الحلم بكسر الحاء - الأناة والتؤدة والصبر.. والحلم بضم الحاء ما يراه النائم.. والحلمة بفتح الحاء واللام - رأس الثدى.. والحالوم لبن يُغلَّظ فيصير شبيهًا بالجبن الرطب.

قلت: إذن فمعنى الاسم الحليم.. من الوجه الأول.. من الأناة والتؤدة؟

قال: نعم.. فالله تعالى حليم.. يريد تأخير العقوبة عن بعض المستحقين لها.. ثم قد يعذبهم.. وقد يتجاوز عنهم ويغفر لهم.

قلت: هل تأخير العقوبة عن المذنبين.. دليل غضبه تعالى عليهم؟

قال: بالعكس.. إن الله تعالى لا يعجل بالانتقام.. فضلاً منه سبحانه عسى أن يتوب العبد وتشمله الهداية.. ولهذا يمهل الظالم.. فإذا أخذه لم يفلته.

وروى أن رجلاً قال لبعض الأنبياء: كم أخالف الله وأعصيه ولايعاقبنى.. فأوحى الله إلى ذلك النبى: قل لفلان: ذلك لتعلم أنى أنا وأنت أنت.

وقد يكون فى علم الله تعالى.. من أحوال بعض العصاة أنه يتوب.. ويحسن حاله.. فيحلم عنه فى الوقت.. لأنه يعلم أنه يصير من جملة أوليائه فى المستقبل.

وقد حكى عن مالك بن دينار أنه قال: كان لى جار مسرف على نفسه بالمعاصى.. وكان يرتكب الفاحشة.. وتضجر منه جيرانه.. فأتونى شاكين له.. متظلمين منه.. فأحضرته وقلت له: إن هؤلاء الجيران يشكونك.. فعليك أن تخرج وترحل عن هذا المكان.. فقال: أنا فى منزلى لا أخرج منه.. فقلت له: تبيع دارك.. فقال: لا أبيع ملكى.. ولا يمكنكم أن تخرجونى منه.. فقلت: نشكوك إلى السلطان..

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٥.
(٢) سورة النساء الآية ١٢.
(٣) سورة الحج الآية ٥٩.
(٤) سورة فاطر الآية ٤١.
(٥) سورة التغابن ائية ١٧.

فقال: السلطان يعرفني وأنا من أعوانه.. فقلت: ندعو الله عليك.. فقال: الله أرحم بي منكم.. فغاظني ذلك.. فلما أمسيت.. قمت وصليت.. فلما فرغت من الصلاة دعوت عليه.. فهتف بي هاتف: لا تدع عليه.. فإن الفتى من أولياء الله.. قال: فلما أصبحت.. جئت باب داره.. ودققته عليه.. فلما خرج ورآني.. ظن أني جئت لأخرجه من داره. فقال معتذرًا عما حصل منه بالأمس.

فقلت له: ما جئت لذلك.. ولكن رأيت كذا وكذا.

قال: فبكى بكاء شديدا.. ثم قال: إني تبت إلى الله بعدما كان مني. وخرج من البلد.. ولم أره بعد ذلك.

ثم خرجت في سنة بعد ذلك إلى الحج.. فرأيت في المسجد الحرام حلقة.. فتقدمت اليهم.. فرأيت ذلك الشاب عليلاً مطروحًا.. فلم ألبث حتى قالوا: قضى الشاب - رحمه الله -.

قلت: حقا إن الله عظيم الحلم.. واسع العفو.

قال: إنما يسبق حلمه غضبه.. لرجاء عفوه ورحمته.. لأنه إذا ستر في الحال بحلمه وفضله.. فالمأمول منه أن يعفو في المآل بلطفه.. وقد قرأت فيما قرأت.. أن بعضهم رُئي في المنام بعد موته.. فقيل له: مافعل الله بك؟.. فقال: أعطاني كتابي بيميني.. فمررت بزلّة.. استحييت أن أقرأها وأراها.. فقال: اقرأها.. فقلت: إلهي.. لا تفضحني.. فقال: حين عملتها ولم تستح.. لم أفضحك أفأفضحك وأنت تستحي؟

قلت: وصف الله تعالى - خليله إبراهيم عليه السلام - بالحلم - فكيف حصل إبراهيم على تلك الصفة الجليلة من صفات الله تعالى؟

قال: نعم يقول الله تعالى عن خليله ابراهيم ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾[٦] ذلك لأن إبراهيم - عليه السلام - يحمل أحن قلب في الوجود.. فقد بلغ حلمه وحنانه على البشر.. أن قال لله تعالى: ﴿فمن تبعني فإنه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[٧] وكأنه يطلب من الله إلغاء جهنم.. وما ذلك إلا لعظم حلمه.. وكبير جنانه.. ولو شاهدناه.. وهو يجادل ملائكة العذاب.. وهم في طريقهم إلى سدوم وعمورة بالأردن.. لإهلاك قوم لوط.. لرأينا كيف كان حليمًا رحيمًا.

قلت: وكيف كان يجادل الملائكة؟

قال: دخل عليه الملائكة وهو يحسبهم ضيوفًا.. يشير اليهم قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾[٨] فلما قدم لهم الطعام.. لم يأكلوا.. فأوجس منهم خيفة.. فأخبروه أنهم ملائكة.. والملائكة لا تأكل ولا تشرب.. فلما ذهب عنه الروع والخوف.. سألهم عن غايتهم.. فقالوا: ﴿إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾[٩] لنهلكهم وندمّر عليهم قريتهم.. فقال لهم: أليس فيها مائة بيت من المسلمين.. قالوا: لا .. قال: أليس فيها خمسون بيت؟.. أو أربعون؟ أو عشرون؟.. أو عشرة.. وفي كل مرة يقولون له: لا .. ليس فيها.. إلى أن قالوا: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾[١٠] فقال لهم: ﴿إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها﴾[١١] واستمر إبراهيم في جدالهم حنانًا منه ورحمة بقوم لوط.. وكان بهذا الموقف جديرا بأن يقول الله تعالى عنه: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى

---

(٦) سورة هود الآية ٧٥.
(٧) سورة إبراهيم الآية ٣٦.
(٨) سورة الذاريات الآية ٢٤.
(٩) سورة هود الآية ٧٠.
(١٠) سورة الذاريات الآية ٣٦.
(١١) سورة العنكبوت الآية ٣٢.

يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾[١٢] إلى أن قالت له الملائكة: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾[١٣] أى عن هذا الجدل. ﴿إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾[١٣].

قلت: حقا إن الله حليم.

قال: ومن حلمه.. أنه لا يستفزه عصيان العاصين.. ولا يحمله على سرعة الانتقام تهتك الخاطئين.. فيحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم.. ويستر حتى يتوهم المغرور أنه ليس يبصر. إنه تعالى حليم عظيم..

قلت: هل يتصف العبد بالحلم؟

قال: لا شك أن الحلم سيد الأخلاق.. وقد سأل داود سليمان - عليهما السلام قائلا: ما هى الركوبة التى تؤدى براكبها إلى الشر.. والركوبة التى تؤدى براكبها إلى الخير؟.. فقال: الركوبة التى تؤدى براكبها إلى الشر - الحدة عند الغضب.. والركوبة التى تؤدى براكبها إلى الخير.. الحلم عند الغضب.

ولهذا يجب أن يكون الإنسان حليمًا.. فيملك انفعالات نفسه عند الغضب حتى لا ينحدر به غضبه إلى التهلكة والتهور..

قلت: وما نصيب العبد من هذا الاسم فى حياته العامة؟

قال: على العبد أن يصبر ويحلم على أخطاء الناس.. وينظر إلى العصاة بعين الرحمة.. ويرى أن كل معصية فى الناس وكأنها فيه.. والحكمة تقول: لا راحة فى الدنيا.. ولا شفاعة فى الموت.. ولا حيلة فى الرزق.. ولا سلامة من الناس.. وقد ضرب الله تعالى لنا أبلغ الأمثال فى قوله عز وجل: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة﴾[١٤] ويقول: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة﴾[١٥].

قلت: كم مرة ذكر هذا الاسم فى القرآن الكريم؟

قال: ذكر هذا الاسم فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة.. منها: ﴿غفور حليم﴾ و ﴿عليم حليم﴾ و ﴿غنى حليم﴾ و ﴿شكور حليم﴾..

قلت: وما أثر هذا الاسم فى الدعاء؟

قال: من ذكره عند جبار وقت غضبه سكن غضبه.. ويصلح ذكره لمن عندهم متاعب نفسية.. يلهمون سعة الصدر فى معاملة الأهل والخلق.. ومن دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا إله إلا الله الحليم الكريم.. سبحان الله.. وتبارك الله رب العرش العظيم.. والحمد لله رب العلمين»

فإلى الاسم - العظيم.. إن شاء الله تعالى.

* * *

(١٢) سورة هود الآيتان ٧٤، ٧٥.
(١٣) سورة هود الآية ٧٦.
(١٣) سورة هود الآية ٧٦.
(١٤) سورة فاطر الآية ٤٥.
(١٥) سورة النحل الآية ٦١.

٣٤ - العظيـم

قلت: هل ذكر القرآن الكريم.. اسم الله العظيم؟

قال: نعم.. ذكر هذا الاسم.. فى مواقف كثيرة.. منها: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[١] و: ﴿وسع كرسيه السمٰوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾[٢] و: ﴿له مافى السمٰوات ومافى الأرض وهو العلى العظيم﴾[٣] و: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾[٤] و: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾[٥].

قلت: نحن نقول فلان عظيم.. وهذا ملك عظيم.. فهل هذا هو المعنى المقصود من هذا الاسم.. بالنسبة إلى الله... تعالى؟

قال: العظيم فى اللغة لا يتحقق إلا بأحد أمرين:

أولاً: إما بالعظم فى الحجم.. كالجبل مثلاً.. فيقول تعالى: ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾[٦] أو بعمق الشعور بالألم والنعيم.. ففى الألم، مثل قوله تعالى: ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾[٧].. وفى النعيم مثل قوله تعالى: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾[٨].

ثانياً: وإما بمعنى عظم القدر.. واستحقاق علوّ الوصف.. وسمات التعالى.. كاستحقاق القدم والوحدانية.. والانفراد بالقدرة على الإيجاد والتكوين.. وشمول العلم والإحاطة.. وتعلق القدرة بكل المكونات والمخلوقات.. ونفوذ الإرادة.. وإدراك السمع والبصر لجميع المسموعات والمشهودات.. واستغنائه عن الأعوان والأنصار.. وتنزيهه عن الأماكن والأزمان.. وتعاليه عن المماثلة والحدثان.. وهذا هو المقصود من اسم الله - العظيم.

قلت: سبحانه ما أعظمه.. وكيف يحيط العقل بعظمته؟

قال: لا يمكن للعقل البشرى أن يحيط بعظمة ذى الجلال.. لأنه تعالى بكل شىء محيط.. والمحيط بكل شىء.. لا يحيط به شىء.. وإنما يجب على العقل أن يبحث.. وعلى المدارك أن تنظر وتعى وتتدبر.. وعلى قدر إعمال الفكر وتدبر المدارك.. تكون درجة القرب.. من رب العرش العظيم.

قلت: هل من الممكن توضيح هذا الأمر؟

قال: إنك لو قيل لك: هذا فلان وهو رجل غنى.. واسع الغنى.. عظيم جليل العظمة.. كانت له فى نفسك درجة على قدر ما سمعت عنه فقط.. ولكنك إذا سرت بين قصوره ومزارعه وأملاكه الواسعة الشاسعة؟.. وكلما سألت: لمن تلك القصور.. ولمن هذه المزارع والأملاك الشاسعة؟.. قيل لك: إنها

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٣) سورة الشورى الآية ٤.
(٤) سورة الواقعة الآية ٧٤.
(٥) سورة الحاقة الآية ٣٣.
(٦) سورة الشعراء الآية ٦٣.
(٧) سورة البقرة الآية ١١٤.
(٨) سورة الحديد الآية ١٢.

لفلان.. لاشك أن منزلته تعلو فى نفسك.. وعظمته تزداد فى يقينك.. لأنك رأيت بعينك دلائل غناه.. وعوامل عظمته.

لهذا طلب الله تعالى منا أن ننظر فى ملكه.. ونستبصر فى ملكوته.. فقال جل شأنه: ﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض﴾[9] ثم يُندد بإعراضهم.. ونأيهم عنه.. فيقول فى مرارة: ﴿وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[10] ثم يندد أيضًا بتخلفهم عندما يقول: ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء﴾[11] ويقول أيضًا: ﴿وكأيِّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾[12] ولن يستطيع الإنسان أن يرى عظمة الله تعالى.. حتى ينظر بعين بصيرته فى هذا الملكوت العظيم.. ليقرب من معنى اسمه تعالى – العظيم: ﴿وهو رب العرش العظيم﴾[13].

وقد استطاع الحسن بن هانئ (أبو نواس) أن يصل إلى عظمة الله بالنظر.. مع أنه كان خليعًا ماجنا.. فقال يصف زهرة القرنفل البيضاء.. وفى قاع كأسها قامت أعضاء التذكير الذهبية.. على عودها الأخضر الذى يشبه الزبرجد فى خضرته.. قال:

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجَيْن[14] شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وهذا الشاعر.. هو الذى رآه أحد كبار الصالحين.. فى منامه بعد موته.. رآه يرفل فى حلل من الخزّ والديباج والإبريز.. فقال له: ويحك ياخليع.. بم بلغت هذا المقام؟.. فقال: ببيتين من الشعر قلتهما لربى.. فقال له: فما هما؟.. قال: قلت:

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ ... فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ

هكذا وفقه الله تعالى إلى النجاة من غضب الله.. بالنظر فى خلق الله.

قلت: يا أستاذى.. وكيف يكون توجيه النظر.. لنصل به إلى عظمة العظيم؟

قال: إنك لو نظرت إلى السماء.. لرأيت السيارات فى أفلاكها: زحل، والمشترى، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.. ولكل منها فلك.. أو نهر مغناطيسى يسبح فيه.. وتتعاون تعاونا جذبيًا.. بحيث يكون محدّب زحل متساويًا مع مقعر المشترى.. وقد وجه العظيم إرادته بأن أوحى فى كل سماء أمرها.. وعقد أواصر التعاون بين سياراتها وثوابتها.. وأقام التلاؤم والتلاحم بين حركاتها: ﴿كل فى فلك يسبحون﴾[15]. بحيث تتألف من مواقع النجوم.. وانتقالات السيارات.. الفصول الأربعة وحركات الألكترونات الكهربية.. وجعلها كلها فى خدمة الإنسان: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[16].

(9) سورة يونس الآية ١٠١.
(10) سورة يونس الآية ١٠١.
(11) سورة الأعراف الآية ١٨٥.
(12) سورة يوسف الآية ١٠٥.
(13) سورة التوبة الآية ١٢٩.
(14) فضة.
(15) سورة الأنبياء الآية ٣٣.
(16) سورة لقمان الآية ٢٠.

أما ترى الطير صافات مسخرات فى أجواز السماء مايمسكهن إلا الله..

أما ترى السحاب المسخر بين السماء والأرض: ﴿ألم تر أن الله يزجى سحابًا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما﴾[17].

أما ترى الرياح: ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾[18]. أليس مدبر كل هذا عظيماً؟

ولو نظرت إلى نفسك.. وماركب فيك من حواس.. من سمع وبصر وشم وذوق ولمس.. لكل حاسة مجال تخدم الإنسان فيه.. فالأذن تسمع وتميز بين المتناسب المتناغم.. وبين النشاز المتنافر.. والعين ترى المشهودات فتميز بينها وتدرك الألوان المتناسبة.. والمعارف المتناسقة.. ومايمكن أن يسمى جمالاً وما يمكن أن يسمى قبحًا.. بل وتعرف البؤس والابتسام:

والعين تعرف من عينى محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

والأنف يشم الزهور.. ولكن لكل عبير قَدْرُه وميزتُه وخاصيتُه.. وكذلك يحسّ البنان نعومة الشىء وملاسته.. وخشونته وجفاءه.. وسائله ولازجه ويابسه.. ولكن ليس للبنان أن يدرك طعمه.. وإن أدرك حرارته أو برودته.. فيأتى اللسان ليتمم هذا النقص.. فيختص بالطعوم إدراكًا.. كما يختص الأنف شمًا..

أليس مدبر كل هذا عظيماً؟.

ولو نظرت إلى الأرض كيف شقها.. وأنبت فيها من كل زوج بهيج.. فأخرج منها الحب والفاكهة للإنسان.. والعشب والكلأ للحيوان.. ﴿وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾[19] ﴿وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[20] أليس مدبر كل هذا عظيماً؟

قلت: حقا إنه لعرش عظيم.. لملك عظيم.. ولكن ما المقصود فى وصف القرآن بالعظمة.. فى قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم﴾[21]؟

قال: نعم.. القرآن عظيم.. فنحن لو أشرفنا على الملكوت الروحى للقرآن العظيم.. لعلمنا أنه هو الدافق الباعث.. الذى يحرر النفوس من يأس الكفر.. إلى رجاء الإيمان.. إنه هو النظام المستقر.. الثابت الدعائم.. القبس الخالد من سنا الحق المبين.. هذا السنا المتألق.. الذى أعطى البصائر من بصائر آياته حقَّ إطلاق النظر فى ملكوت الله.. فهو عظيم.. لن يدرك غورُه.. ولن ينتهى دورُه.. فهو كتاب الحياة الحقيقية.. التى لا يشوبها وهْم.. ولا يعتريها انحراف ولا زيغ.. إنه ليس ورقًا من صفحات مليئة بالرموز الحرفية.. بل هو تيسير الله تعالى: ﴿فإنما يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوما

---

(١٧) سورة النور الآية ٤٣.
(١٨) سورة فاطر الآية ٩.
(١٩) سورة إبراهيم الآيتان ٣٣.
(٢٠) سورة النحل الآية ١٤.
(٢١) سورة الحجر الآية ٨٧.

لُدًّا﴾[٢٢]. إنه روح ونور: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾[٢٣] فهو كاشف الحقائق الكونية الثابتة.. علمًا وذوقًا روحيًّا فيَّاضًا.. يكوّن مَلكة الانقياد.. فى رضى وسعادة وتقدير.. فيوحى بجميع الأحكام والآداب والشرائع والسنن والنظم والمبادئ والعُرف.. بين كافة سكان الأرض.. من جن وإنس: ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾[٢٤] لا من وحى الأوهام.. ولا مقدرات السياسة بين الليالى والأيام.. هذا هو القرآن العظيم.. فى عظمة ملكوته.. وسرّ وحيه.. وقوة إلهامه.. وحسن هدايته.. فى مختلف الفنون والمعارف.. بلطف مشمولٍ بعظمة تشعر السامع أنه كلام رب العرش العظيم..

قلت: وهل من أجل هذا قال الله تعالى لمحمد - ﷺ: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٢٥]؟

قال: كان طبيعيًا أن يُنزل الله العظيم. قرآنه العظيم.. على صاحب الخلق العظيم.. شمس سماء الأسرار.. ومظهر الأنوار.. مركز مدار الجلال.. وقطب فَلَك الجمال.. عليه صلاة الله وسلامه.

قلت: ومن الذى يطلق عليه اسم العظيم - من بنى البشر.. غير رسول الله - ﷺ؟

قال: العظماء من العباد هم الأنبياء والعلماء.. فهم الذين يهابهم العقلاء لما عرفوا من صفاتهم وقربهم من الله - تعالى - فالنبى عظيم فى حق أمته.. والعالم عظيم فى حق تلميذه.. وهى عظمة ناقصة.. لأن التلميذ إذا تساوى مع استاذه أو جاوزه.. فقد الأستاذ عظمته بالنسبة إلى هذا التلميذ.. فهى عظمة بالإضافة إلى الغير.. ولا يوجد عظيم مطلق إلاّ الله - عز وجل - لأن عظمته ليست بطريق الإضافة إلى أى شىء وقد قال عيسى عليه الصلاة والسلام. «من تعلّم وعلّم وعمل.. فذلك يدعى فى ملكوت السماوات عظيمًا»

قلت: وما نصيب العبد من هذا الاسم الكريم؟

قال: من غلب على عقله تعظيم الله - تعالى - خضع لهيبته.. ورضى بقسمته.. ولا يرضى بدونه عوضًا.. ويذل فى رضاه كل ميسور.. وصغرت الأشياء أمامه.. فمن لبس ثوب المعرفة صغر فى نظره كل شىء..

فانهض من نوم الغفلة.. واستيقظ فقد طلع الصبح.. وأقلعْ عن الذنوب.. واسكب الدموع.. وافتح أذن قلبك.. وهزّ فؤادك.. واملأ روحك بالنور.. واغترف من هذا الشراب الطهور.

قلت: كم مرة ذكر هذا الاسم فى كتاب الله تعالى؟

قال: ذكر هذا الاسم ست مرات: منها واحدة فى آية الكرسى.. وواحدة فى سورة الشورى ومرتين فى سورة الواقعة.. ومرتين فى سورة الحاقة.

قلت: وما أثر الذكر باسم الله - العظيم؟

قال: قال عليه الصلاة والسلام «من دخل على مريض لم يحضره أجله فقال: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك - سبع مرات - شفى بإذن الله».

---

(٢٢) سورة مريم الآية ٩٧.
(٢٣) سورة الشورى الآية ٥٢.
(٢٤) سورة فصلت الآية ٤٢.
(٢٥) سورة القلم الآية ٤.

ومن خواصه أن ذاكره تظهر عليه آثار الهداية.. ويعظم فى أعين الناس.. ويصبح مطاعًا مهابًا.. والاختصار أولى من الإكثار..

قلت: حقا إن الله عظيم.. حتى فى غفرانه عن المذنبين.. فكيف نستطيع حمده وشكره؟

قال: ها أنت قد وضعت يدنا على الاسمين التاليين من أسمائه تعالى الغفور والشكور.

* * *

٣٥ - الغفـور
٣٦ - الشكـور

قلت: هل يحمل الاسمان - الغفور والشكور - معنى المبالغة؟

قال: نعم فالغفور مبالغة من الغافر.. والشكور مبالغة من الشاكر.. ولعل فيما ذكرنا حول اسم - الغفار - ما يغنى عن التعليق على الاسم - الغفور -.

قلت: وما معنى الشكر فى لغة العرب؟

قال: الشكر فى الحقيقة هو الاعتراف بنعمة المنعم. ويقول أهل اللغة: هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه.. والعرب تقول: دابة شكور.. أى يكفيها قليل العلف.. ومع هذا تسمن وتصلح.. ويقال: ناقة شَكِرَة.. تعتلف أى علف كان.. ويصبح ضرعها مملوءً لبنًا.

كما يقال: شَكِرَت الشجرة.. أى كثر شكيرها.. وهى الفروع والأوراق الغضة. وقال عمر بن عبدالعزيز لهلال بن مجَّاعة: هل بقى من شيوخ مجَّاعة أحد؟.. قال: نعم.. وشَكير كثير.. يريد الأحداث من القبيلة[1]. فالأصل فيه لغةً: الزيادة.

قلت: وما المقصود إذن من اسم الله الشكور؟

قال: الله - سبحانه - سمى نفسه شكورا.. على معنى أنه يجازى العبد على الشكر.. فسمى جزاء الشكر شكرا.. كما سمى جزاء السيئة سيئة.. فى قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[2]. وقد قلنا إن حقيقة الشكر.. الثناء على المحسن بذكر إحسانه.. فإذا أثنى العبد على ربه بذكر إحسانه ونعمته.. وبذلها فى سبيله.. كان اسم الله - الشكور - مبالغة فى وصفه تعالى بالثناء على عبده.. ومدحه له.. بذكر إحسانه وطاعته.. فى ملأ خير من ملئه.

كما قيل: إن اسم (الشكور) فى وصفه تعالى بمعنى أنه يعطى الثواب الكثير على اليسير من الطاعة.. فقد ذكرنا أن الناقة الشَّكِرَة.. يمتلئ ضرعها باللبن.. برغم قلة العلف.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[3].

قلت: هل المطلوب من الشكر.. أن يذكر الإنسان نعم الله عليه فقط.. أم يبذلها فى سبيله؟.

قال: ليس الشكر كلاما يقال.. وأحاديث تذاع.. وإنما هو أمر عملى.. فالله تعالى يقول: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[4] فالحديث بنفس النعمة.. وليس المطلوب الحديث عنها.. فالشكر بالبدن.. يكون باستعمال جوارحه فى طاعة الله.. والشكر بالقلب.. بحسن النية.. والاشتغال بذكر الله..

---

(١) أساس البلاغة فى شَكَر.

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٧.

(٤) سورة الضحى الآية ١١.

والشكر باللسان.. يكون بالأمر بالمعروف.. والنهى عن المنكر.. والشكر بالمال.. بإنفاقه فى رضا الله ومحبته.. ألم تر كيف قال الله تعالى.. لآل داود: ﴿اعملوا آل داود شكرا﴾[٥].

قلت: بمناسبة ذكر آل داود.. نلاحظ أن الشكر جاء فى أكثر من موقع فى القرآن الكريم على لسان سليمان بن داود - عليهما السلام - لماذا؟.

قال: ورد الشكر على لسان سليمان فى مثل قوله تعالى: ﴿قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنىّ كريم﴾[٦] قالها سليمان - عليه السلام - لما استقر عنده عرش بلقيس ملكة سبأ.. منقولا من سبأ باليمن إلى أورشليم بفلسطين.. قبل أن يرتد إليه طرفه.

وفى قوله تعالى: ﴿وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ﴾[٧] قالها سليمان لما أمدّ الله فى سمعه.. حتى سمع النملة تقول لقومها: ﴿يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾[٨] والملاحظ أن الشكر كان يجرى على لسان سليمان - عليه السلام - كلما حصل أمر لا يتحقق لغيره من البشر.. مثل الأمرين المذكورين.. من نقل عرش بلقيس من سبأ إلى القدس من غير زمن.. ومثل فهمه.. حديث ا لنملة بعد سماعه قولها وهو فى هذا الحشد الضخم من الجنود.

وذلك لأنه طلب من الله ملكا لا ينبغى لأحد سواه.. يقول تعالى على لسان داود: ﴿قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى﴾[٩] فاستجاب الله - تعالى - له.. ووهبه ملكا لم يهبه غيره: علّمه لغة الطير.. يقول تعالى على لسان سليمان: ﴿يأيها الناس عُلِّمنا منطق الطير﴾[١٠]، وسخّر له الريح تجرى بأمره بالسحب الممطرة.. يقول تعالى: ﴿فسخّرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب﴾[١١]، وسخر له الجن جنودا فى جيشه.. يقول تعالى: ﴿وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾[١٢]، كما سخرهم له عمالا وصناعا.. يقول تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدور راسيات﴾[١٣]. أما يستحق بعد هذا العطاء الضخم أن يكون عبدا شكورا؟

قلت: اسمح لى يا أستاذ أن أسأل سؤالا.. قد يكون فيه شىء من الخروج عن حد الأدب.. أليس فى قول سليمان - عليه السلام -: ﴿وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى﴾.. شىء من حب الذات.. حيث طلب من الله - تعالى - ألّا يهب هذا الملك أحدا سواه؟

قال: أخطر من سؤالك هذا عبارة قالها الحجاج بن يوسف الثقفى.. فى حق سليمان - عليه السلام - عندما قيل له: ياحجاج إنك حسود.. قال: أحسد منى من قال: ﴿وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى﴾[١٤] وهذا من جرأة الحجاج على الله وشططه.. فإن سليمان - عليه السلام - لم يطلب هذا الملك حبًّا فيه.. للاستمتاع بأبهته وبذخه وعظمته.. بدليل أنه برغم هذا الملك الواسع

---

(٥) سورة سبأ الآية ١٣.
(٦) سورة النمل الآية ٤٠.
(٧) سورة النمل الآية ١٩.
(٨) سورة النمل الآية ١٨.
(٩) سورة ص الآية ٣٥.
(١٠) سورة النمل الآية ١٦.
(١١) سورة ص الآية ٣٦.
(١٢) سورة النمل الآية ١٧.
(١٣) سورة سبأ الآية ١٣.
(١٤) تفسير الكشاف ٣٥/ص.

العريض.. الخارق للمألوف والمعروف.. مات - عليه السلام - وهو واقف خلف عمال الجن والمردة والشياطين.. حتى لا يتراخون فى أعمالهم.. اقرأ قوله تعالى عن سليمان: ﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلّا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾[15] فأى استمتاع هذا بذلك الملك؟

إنه لم يطلب من الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده.. إلا ليشكر شكرًا لا ينبغى لأحد من بعده.. لينال درجة الشاكرين.. وهى الدرجة الثانية من درجات القرب من الله تعالى.. وللقرب من الله أربع درجات.

قلت: وما هى درجات القرب من الله؟

قال: قال بعض المحققين: أربعة أشياء: من حاز منها واحدة.. كان من عباد الله الصالحين. ومن حاز منها اثنتين.. كان من الشهداء الموقنين. ومن حاز منها ثلاثة.. كان من الأولياء المقربين. ومن حازها كلها.. كان من الصديقين المحققين.

فأولها: الذكر.. وبساط الذكر (العمل الصالح).. وثمرته النور.

وثانيها: التفكر.. وبساط التفكر (الصبر).. وثمرته العلم.

وثالثها: الفقر مما سوى الله إلى الله.. وبساط الفقر (الشكر).. وثمرته الزيادة فى كل خير.

ورابعها: الحب.. وبساط الحب (بغض مفاتن الدنيا).. وثمرته الوصل.

قلت: حقا إن للشكر درجة كبيرة.. فالشاكر على هذا الأساس فى درجة الأولياء المقربين.

قال: لقد جعل الله - تعالى - الشكر والكفر فى كفتى ميزان.. اقرأ قوله تعالى على لسان سليمان فى الآيتين الأولى والثانية: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنىٌّ كريم﴾[16] و ﴿قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر﴾[17] وقوله تعالى: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد﴾[18] وقوله: ﴿فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾[19] وقوله: ﴿إنّا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورا﴾[20] وقوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾[21]. أرأيت كيف جعل الشكر والكفر نقيضين؟

قلت: وما هى الأسماء التى يعمل الاسم الشكور فى مجالها؟

قال: الاسم - الشكور - هو المعاون الأول لاسم - الباسط - ويعمل معه الاسمان الكريمان: الوهاب والكريم.. ولأضرب لك مثلا تقريبيا:

إذا تجلى الله - تعالى - على عبد باسم - الباسط - فظهر هذا العبد على تجليات الاسمين: الوهاب والكريم.. يكون هذا العبد وهابًا كريمًا.. وتستمر تجليات اسم الباسط عليه.. لأنه يعمل عمل

---

(15) سورة سبأ الآية ١٤.
(16) سورة النمل الآية ٤٠.
(17) سورة النمل الآية ٤٠.
(18) سورة لقمان الآية ١٢.
(19) سورة البقرة الآية ١٥٢.
(20) سورة الإنسان الآية ٣.
(21) سورة إبراهيم الآية ٧.

الشكور.. وقد قلت إن اسم الشكور هو المعاون الأول لاسم - الباسط - وهنا يبرز معنى قوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾(٢٢) فالشكر هو البذل مما تفضلت به تجليات الاسم - الباسط - وبهذا وردت الآيات لتأييد هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾(٢٣) ولم يقل اشكرنى.. وقوله: ﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك﴾.. فجعل النعمة هنا مفعولا من الشكر.. فشكر النعمة بذلها.

قلت: وما هو الشكر بين العباد بعضهم البعض؟

قال: العبد يشكر عبدا آخرَ إذا أحسن إليه بواحدة من اثنتين:

إما بالثناء عليه ومدحه.. وإما بمجازاته أكثر مما صنعه معه.. وتلك من الصفات الحميدة.. فقد روى الإمام أحمد فى مسنده.. والترمذى.. عن أبى سعيد - رضى الله عنه.. أن رسول الله - ﷺ - قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». هذا عن شكر العبد للعبد.. أما شكر العبد لله.. فهو نوع من المجاز.. لأن العبد لن يستطيع أن يحصى ثناء على الله.. وإن أطاعه.. فطاعته نعمة أخرى من الله عليه.. بل نفس الشكر من العبد نعمة أخرى وراء النعمة المشكورة.. وخير حالات الشكر لله استخدام النعمة فى الطاعة.. وعدم استعمالها فى المعصية.. وهذا أيضا يكون توفيقا من الله تعالى يستحق عليه الشكر.

قلت: هل من الممكن ضرب مثل تقريبى حول هذا المعنى؟

قال: إذا كنت سائرا فى الطريق.. ولقيك صبى يتيم.. وطلب منك قرشا.. فأعطيته القرش.. فهذا فى الواقع فضل من الله عليك.. يستحق عليه الشكر منك.. فهو الذى ساق إليك الصبى ليسألك.. وهو الذى هيأ القرش معك.. وهو الذى وقاك الشح لتجود على هذا اليتيم بذلك القرش.. واختار يدك ليخرج عن طريقها هذه الصدقة.. إن نعم الله عليك لا تحصى.. لقد أنعم عليك بملاذ الدنيا وكرائمها.. ثم عدّ ذلك قليلا فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾.

إن الله تعالى يقبل اليسير من الطاعات من عباده.. ويثنى عليهم بالكثير.. وقد قرأت فى بعض الروايات أن رجلا رئى فى المنام بعد موته.. فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال: أقامنى بين يديه وحاسبنى فرجحت كفة سيئاتى.. فنزلت صرّة فى كفة حسناتى فثقلت.. ففتحت الصرة فإذا بها كف من تراب كنت وضعته فى قبر مسلم.

قلت: وهل ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم؟

قال: ورد أربع مرات فى قوله تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾(٢٤).. وقوله: ﴿وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾(٢٥).. وقوله: ﴿ومن يقترف حسنة نزدْ له فيها حسنًا إن الله غفور شكور﴾(٢٦).. وقوله: ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾(٢٧).

---

(٢٢) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٢٣) سورة لقمان الآية ١٤.
(٢٤) سورة فاطر الآية ٣٠.
(٢٥) سورة فاطر الآية ٣٤.
(٢٦) سورة الشورى الآية ٢٣.
(٢٧) سورة التغابن الآية ١٧.

قلت: وما أثر هذا الاسم فى الذكر؟

قال: من داوم على ذكر اسم – الشكور – دامت عليه النعمة.. وحفظت من الزوال.. وبورك له فى بدنه.. وقد قرأت أن من قرأه على ماء.. إحدى وأربعين مرة.. ثم شرب منه.. ومسح به وجهه أذهب الله عنه ضيق الصدر.. وتعب البدن.. وثقل الجسم.. وضعف البصر.

قلت: هل بقى شيء حول اسم – الشكور –؟

قال: اسم الشكور لا ينتهى مدده.. ولا تنقطع فيوضه.. وخير ما نختتم به هذا الاسم الكريم.. أن أقول لك: حقيقة الشكر.. الغَيْبَة عن مشاهدة النعمة.. لمشاهدة المنعم.. وهيا بنا إلى نور – العلى الكبير.

* * *

٣٧ - العلى
٣٨ - الكبير

قلت: هل الاسمان العلى والكبير - متلازمان؟

قال: نعم هما متلازمان.. وقد ذكرا فى القرآن الكريم متلازمين فى خمسة مواقع: فى قوله تعالى: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليًّا كبيرا﴾[١].. وقوله ﴿وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾[٢].. وقوله ﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾[٣].. وقوله ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير﴾[٤].. وقوله ﴿وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير﴾[٥].

قلت: أكاد ألمح من خلال تلك الآيات الخمس سرا يربط بين الاسمين الكريمين: العلى والكبير ولكننى لا أستطيع تحديد هذا السر. فهل تساعدنى فى الوصول إليه؟.

قال: لو أنعمت بصيرتك فى جميع تلك الآيات.. لوجدت رابطة وثيقة تربط بينهما ولرأيت أن هذين الاسمين.. عاملان رئيسيان فى فلك الاسم - الحق.

قلت: كيف ذلك؟

قال: فى الآية الأولى - وهى آية سورة النساء تجد أن الله تعالى قد حدد فى علاج النساء اللاتى نخاف نشوزهن.. ثلاث خطوات:

أولاً: النصح والعظة.

ثانيا: الهجر فى المضاجع.

ثالثا: الضرب غير المبرح.. فإذا نجح العلاج وأطعننا.. فمن الحق عدم البغى عليهن بأى سبيل من سبل البغى والظلم والجور.. يقول تعالى: ﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا﴾.

فأنت ترى فى تلك الآية الاسمين الكريمين: العلى والكبير - عاملين لاسم - الحق -.

قلت: هذا واضح.. فماذا فى الآية الثانية؟.

قال: الآية الثانية هى آية سورة الحج.. واسم -الحق - يتلألأ تاجًا على مفرقها ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾[٦] وقبل تلك الآية يلمع نجم الحق

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤.
(٢) سورة الحج الآية ٦٢.
(٣) سورة لقمان الآية ٣٠
(٤) سورة سبأ الآية ٢٣.
(٥) سورة غافر الآية ١٢.
(٦) سورة الحج الآية ٦٢.

ساطعًا فى نصرة المظلوم: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لَينصرنه الله إن الله لعفو غفور * ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير﴾[7] وولوج الليل فى النهار وولوج النهار فى الليل لا يقوم إلا على الحق..

ثم ذكر الآية التى نستعرضها: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأنّ الله هو العلى الكبير﴾.

قلت: وماذا فى الآية الثالثة؟.

قال: الآية الثالثة هى آية سورة لقمان.. وهى نجم مقابل لنجم آية الحج التى ناقشناها تماما - وقد ذكر الله تعالى قبلها.. ولوج الليل فى النهار وولوج النهار فى الليل .. وما فيها من شمس وقمر مسخريْن يجريان فى مدارهما القائم على الحق.. فقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير* ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾[8].

قلت: وماذا فى الآية الرابعة؟.

قال: الآية الرابعة.. هى آية سورة سبأ.. وهى آية تهز الوجدان.. وتزلزل كيان الإنسان.. فلو أن الإنسان سما ببصيرته وبصره .. إلى أعالى الآفاق.. لا ستمع لتسبيح الطير فى جو السماء: ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ متمتعا بحريته.. فى غدوه ورواحه يحصل على نصيبه من الرزق.. نباتا أو ديدانا.. من غير تشاجر ولا تناحر ولو توكل الإنسان على بارئه.. توكل الطير.. بل حق توكله.. لرزقه ولأنزل عليه بركات من السماء والأرض.

فالذين كذبوا أخذهم بذنوبهم .. لأنهم لم يعلموا أن دابة من الأرض.. ولا طائرا يطير بجناحيه قد كذب بالحق.. ولا أعرض عن تسبيحه.. ولادعا سواه.. فهذا هو هدهد سليمان.. قد استنكر على دولة السبئيين.. وهم أعتى دول التاريخ.. استنكر عليهم سجودهم للشمس.. وندّد بتمليكهم امرأة عليهم عندما قال الهدهد لسليمان - عليه السلام: ﴿إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾[9] وبهذا يكون ذلك الهدهد الموحّد المفرِّد... قد سجل قاعدة أبدية أزلية عن نظام التوحيد.. وتحرير النفس عن عبادة ما سوى الله.. مهما كبر حجمه.. وعظم شأنه.. فإلى أى مستوى بعد هذا يهوى الإنسان الظالم لنفسه من هذا المقام الذى يستنكر فيه هدهد السجود للشمس الكبرى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾[10] نعم استنكر الهدهد أن يسجد الإنسان لأكبر سيّار.. فكيف به إذا رأى الإنسان يسجد للانسان والتماثيل سواء أكانت من خشب أو نحاس أو ذهب: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[11] وتلمع آية سبأ.. التى نحن بصدد استعراضها لتقول: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى

---

(7) سورة الحج الآية ٦٠، ٦١.
(8) سورة لقمان الآية ٢٩، ٣٠.
(9) سورة النمل الآية ٢٣، ٢٤.
(10) سورة غافر الآية ٥٧.
(11) سورة المطففين الآية ٤، ٦.

السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير﴾(١٢).

قلت: وهل بقى تعليق على الآية الأخيرة.. آية غافر؟.

قال: نعم.. فإن المفهوم أن من اقترف سيئة.. وهو يعلم أنها سيئة.

يكون اعترف ضمنا بالتشريع.. وينتظر له أن يتوب.. ولكن من يقترف السيئة وهو يظن أنها حسنة.. فلن يتوب منها.. لعدم اعترافه بكونها سيئة.. وهؤلاء أشد الناس كفرا.. وأشدهم عذابا.. وقد أشار سبحانه وتعالى.. إلى هذا النوع من الحب المشترك.. فى قوله فى سورة البقرة ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾(١٣) وقد حكم بشركهم عند ما قال بعد هذا النص مباشرة: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾ والظلم هو الشرك لقول لقمان لابنه: ﴿يا بنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ ثم بين سبحانه تبرؤ المتبوعين الضالين المضلين من الذين اتبعوهم ممن كانوا ضحاياهم بقوله سبحانه.. بعد الآيات السابقة مباشرة: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كَرَّة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾(١٤) وهكذا حكم بخلودهم فى جهنم حكما قطعيا.. وقوله تعالى عنهم.. أنهم ظلموا يراد به أنهم أشركوا.. إذ جعلوا لله تعالى أندادا.. والندُّ هو المساوى ولعلك فهمت الآن المقصود من آية سورة غافر: ﴿ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يُشرَك به تؤمنوا فالحكم لله العلىّ الكبير﴾(١٥).

أليس هذا هو الحق؟.

قلت: هل المقصود من الاسم - العلى - هو العلو المكانى؟.

قال: العلوا المكانى يتعلق بالمخلوق.. أما الخالق جل وعلا.. فهو علىّ فى جلاله.. جليل فى علوه.. لا تدركه العقول والأبصار.. وهو يدرك العقول والأبصار.. فإذا قال تعالى.. مثلا: ﴿وكان عرشه على الماء﴾(١٦) فليس هذا بمعنى العلو والاستعلاء.. بل بمعنى بساطة المخلوقات فى الأرض فى النشأة الأولى.. وأنها أساسا مخلوقة من أبسط البسائط.. وبتركب هذه البسائط يحدث التطور الخلْقىّ.. وهو ما يعبّر عنه عند الحكماء.. بالانتقال من ذات الخلية الواحدة - الفيروس - إلى المركبات متعددة الخلايا بسبب الانفعالات التطورية المتعاقبة.. كما قال تعالى: ﴿خلقا من بعد خلق﴾(١٧).

وهذا التطور بسبب طروء التركيب على البساطة البدائية.. تماما كما قال فى خلق السماء: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان﴾(١٨) والدخان هنا هو المسمى (هيولة) فى عرف متكلمى

---

(١٢) سور سبأ الآية ٢٢، ٢٣.
(١٣) سورة البقرة الآية ١٦٥.
(١٤) سورة البقرة الآية ١٦٦، ١٦٧.
(١٥) سورة غافر الآية ١٢.
(١٦) سورة هود الآية ٧.
(١٧) سورة الزمر الآية ٦.
(١٨) سورة فصلت الآية ١١.

المسلمين.. ويسمى (السديم) فى عرف فلاسفة الإغريق.. ومعنى الهيولة أو السديم.. أى الكلية الطبيعية القابلة لجميع الصور.. هذا هو - العلى الكبير -.

قلت: وهل يطلق اسم - العلى - على ما سوى الله؟.

قال: يطلق اسم العلى على القرآن الكريم.. الكتاب المكنون.. وقد قال الله تعالى عنه: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾[19] ومن هنا نشرف على المكنون الروحى للقرآن الكريم.. فما هو بقول شاعر.. ولا بقول كاهن.. بل هو نور من فيض الروح الأقدس: ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾[20] إنه ليس ورقا ولا حروفا حادثة بل هو كما قلنا من قبل تيسير الله تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا﴾[21] إنه هو المعانى الأزلية.. والفرائض الروحية.. التى هى القرآن.. أما العبارات الملفوظة.. فهى غير الإشارات الملحوظة.. لأن اللفظ ذاته حادث.. ولكن المعانى لكلام العلى الكبير.. المعبر عنها بلسان العرب قديمة أزلية.. قائمة بذات المتكلم - جل شأنه -.

وعلى هذا يبدو القرآن الكريم عليا فى ذات.. وهذا هو السبب فى وصفه بأنه علىّ حكيم.

قلت: هل يوصف إنسان بأنه علىّ؟.

قال: لا يكون الإنسان عليا مطلقا.. لأنه لا يكون فى درجة إلا ويكون فى الوجود ما هو فوقها.. كالأنبياء والملائكة.

نعم قد يصل الإنسان إلى درجة لا يكون فى الإنس أو الجن أو الملائكة من هو فوقها.. وهى درجة نبينا - ﷺ - ولكنه ليس علوا مطلقا لأنه علو بالإضافة إلى المخلوقات.. أما العلو بالنسبة إلى الله تعالى فهو علو مطلق لأنه ليس بالإضافة إلى شىء.

قلت: وهل ينطبق هذا المعنى على صفة الكبير من البشر؟.

قال: الكبرياء بالنسبة إلى الله تعالى يعنى كمال الذات.. أى كمال الوجود.. وكمال الوجود يرجع إلى أنه وجود دائم أزلا وأبدا.. وكل وجود بعد عدم سابق وله عدم لاحق.. فهو ناقص.. ولذلك يقال للإنسان إذا طال عمره: إنه كبير أى كبير السن.. طويل مدة البقاء.. ولا يقال عظيم السن.

فالله - عز وجل - هو الموجود الذى يصدر عنه كل موجود.. ولذلك فهو وحده المنفرد بالكبرياء.

قلت: يوجد تعبير تلوكه الألسن.. وهو وصف عظماء الناس بأنهم كبراء القوم فهل هذا التعبير جائز؟.

قال: الكبير من العباد هو الكامل الذى لا يقتصر كماله على ذاته.. بل يفيض من صفات كماله على من يجالسه ويختلط به.. وكمال العبد فى عقله وعلمه وورعه.. فالكبير هو العالم التقى المرشد للخلق.. الصالح لأن يكون قدوة يقتبس من علومه وأفضاله.. ولذلك قال عيسى - عليه السلام:

من علم وعمل فذاك يدعى عظيما فى ملكوت السماء.

---

(١٩) سورة الزخرف الآية ٣، ٤.

(٢٠) سورة المائدة الآية ١٦.

(٢١) سورة مريم الآية ٩٧.

قلت: وما نصيب العباد من اسمَىْ : العلى والكبير؟

قال: أعظم صفة يستفيدها العبد من هذين الاسمين - العلى والكبير - هى صفة التواضع متى علم أن الله وحده هو المنفرد بالعلو والكبرياء.

وقد قرأت فيما قرآت.. أن الله تعالى أوحى إلى موسى - عليه السلام - فقال له: أتدرى لماذا اخترتك للنبوة؟.. فقال: يارب أنت أعلم به.. فقال له: لأنك كنت ترعى الغنم.. فشردت شاة.. فعدوت خلفها.. فلما أدركتها لم تضربها.. وقلت: لا يا مسكينة لقد اتعبتنى وأتعبت نفسك.. فحين رأيت منك الشفقة عليها رزقتك النبوة. وحقيقة التواضع هو قبول الحق ممن يقوله.. والتكبر هو عدم قبول الحق.. اقرأ: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم﴾[٢٢].

وقد روى أن بلالا شكا إلى رسول الله - ﷺ - أن أباذر قد عيّره بالسواد.. فقال رسول الله - ﷺ - لأبى ذر: ما علمت أنه بقى فى قلبك كبر الجاهلية.. فوضع أبو ذر خده على الأرض .. وحلف أن يضع بلال قدمه على خده - رضى الله عنهما.

قلت: وما أثر هذين الاسمين فى الذكر بهما؟.

قال: الذكر بهما يُصلحُ حالَ من له زميل مسىء.. أو جار سوء.. كما قرأت فى شرح الأسماء الإدريسية أن من قال «يا كبير أنت الله الذى لا تهتدى العقول لوصْف عظمته» أدّى الله دينه.. ووسع رزقه وإن داوم على ذكرهما مفصول من وظيفته كل يوم ألفا - وهو صائم - فإنه يعود إلى وظيفته بإذن الله تعالى.

كما ورد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - كان يعلمهم دعاء رُقيةً من الأوجاع كلها.. ومن الحمى: «بسم الله الكبير.. نعوذ بالله العلى العظيم من شر كل عِرْقٍ نعّار.. وشر حر النار».

وهيا إلى الاسم التالى - الحفيظ - إن شاء الله تعالى.

---

(٢٢) سورة البقرة الآية ٢٠٦.

٣٩ - الحفيظ

قلت: وما هو الاسم التالى يا أستاذى؟

قال: الاسم التالى من الأسماء الكريمة.. بعد اسمي: العلى الكبير.. هو اسمه تعالى - الحفيظ -.

قلت: هل ورد اسمه تعالى - الحفيظ - فى أسماء الله الحسنى؟

قال: نعم.. ورد الخبر بهذا الاسم.. وهو صفة مبالغة من - حافظ - لأن فعيل مبالغة من - فاعل - كما جاء به القرآن الكريم.. فى مثل قوله تعالى: ﴿فالله خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين﴾[١] وقوله: ﴿إن ربى على كل شىء حفيظ﴾[٢]. وقوله: ﴿وربك على كل شىء حفيظ﴾[٣]. وقوله: ﴿وسع كرسيّه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾[٤] وقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٥].

قلت: وما هو المقصود بالذكر المحفوظ؟

قال: الذكر هو القرآن الكريم.. اقرأ قوله.. فى أول سورة - ص -: ﴿ص والقرآن ذى الذكر﴾[٦]. وقوله: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾[٧]. وقوله: ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾[٨]. وقوله: ﴿وقالوا يأيها الذى نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾[٩]. وقوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[١٠]. وقوله: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلّا استمعوه وهم يلعبون﴾[١١]. وقوله: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾[١٢]. وقوله: ﴿لقد أضلّنى عن الذكر بعد إذ جاءنى﴾[١٣]. وقوله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز﴾[١٤]. وقوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾[١٥]. وقوله: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرا﴾[١٦]. وغيرها كثير وكثير.

قلت: وكيف يحفظ الله القرآن الكريم؟

قال: يقول تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ بمعنى أن الله تعالى.. هو الذى حفظه من الدسّ والتبديل.. وسأضرب لك مثلا: فقد عهد الله تعالى إلى بنى إسرائيل أن يحفظوا التوراة.. التى أنزلها لهم على موسى - عليه السلام - فوكل الله تعالى حفظها إلى أمته اليهود.. قال تعالى: ﴿إنا

---

(١) سورة يوسف الآية ٦٤.
(٢) سورة هود الآية ٥٧.
(٣) سورة سبأ الآية ٢١.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٥) سورة الحجر الآية ٩.
(٦) سورة ص الآية ١.
(٧) سورة آل عمران الآية ٥٨.
(٨) سورة الأعراف الآية ٦٣.
(٩) سورة الحجر الآية ٦.
(١٠) سورة النحل الآية ٤٤.
(١١) سورة الأنبياء الآية ٢.
(١٢) سورة الأنبياء الآية ٥٠.
(١٣) سورة الفرقان الآية ٢٩.
(١٤) سورة فصلت الآية ٤١.
(١٥) سورة الزخرف الآية ٤٤.
(١٦) سورة الطلاق الآية ١٠.

أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾[١٧] فكلمة ﴿استحفظوا﴾ تدل على أنهم كُلفوا بالمحافظة على كتاب الله – التوراة – فحرفوا وبدلوا فيها.

وأنزل الله تعالى الفرقان على – خاتم الرسل – محمد – ﷺ – وضمن حفظه.. بقوله: ﴿وإنا له لحافظون﴾.

ومن الواضح أن الله تعالى عصمه وحفظه. من تبديل أى كلمة أو حرف.. حتى لو أخطأ مخطئ فى حركة من حركات حروف القرآن.. لقام آلاف الصبيان بتخطئته فضلا عن القراء..

فشتان بين أمة استحفظهم الله – تعالى – كتابه فحرّفوا فيه وبدّلوا.. وبين أمة حفظ الله لهم كتابهم.

وكم حاول اليهود تغيير شيء فيه.. فلم يفلحوا.. وقد طبعوا مرة.. مصحفا ذكروا فيه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[١٨] بعد أن أضافوا عبارة – ﷺ – بعد كلمة – محمد – ولكن لم يقرأ أول صبى تلك الآية.. حتى عرف ما فيها من دسيس.. فخاب سعيهم.. وطاش سهمهم.. لأن الله تعالى.. هو حافظه.

قلت: يقول تعالى: ﴿وسع كرسيّه السمٰوات والأرض ولا يئوده حفظهما﴾[١٩] فما المقصود من حفظ السمٰوات والأرض؟

قال: الله تعالى يجيبنا على هذا السؤال بقوله – جل وعلا –:

﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾[٢٠] وقوله: ﴿إن الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا﴾[٢١] فهو الذى رفع السمٰوات بلا عمد.. وحفظها بعد رفعها بغير استعانة بأحد.. ولا احتياج إلى مدد.. لأنه الواحد الأحد.. الفرد الصمد.

قلت: هل يحفظ الله المؤمنين من عوامل الشر؟

قال: إن الله يصون لأوليائه عقائدهم فى التوحيد.. عن اكتفائهم بالتقليد.. ويحقق المعرفة فى أسرارهم بجميل التأييد.

قلت: أليس الحفظ بالنسبة للمؤمن.. متعلقا بالحياة المادية؟

قال: ليس كل الحفظ أن يحفظ العبد عند البلاء.. وإنما الحفظ أن يحفظ قلبه بخلوص المعرفة من بين الأهواء المادية والروحية معا.. حتى لايزل عن الصراط المستقيم.. فيهوى إلى مستنقعات البدع والهوى.. يقول تعالى: ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[٢٢].

قلت: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة﴾[٢٣]؟

قال: إن الله تعالى خلق ملائكة.. ووكلهم بحفظ بنى آدم من البلاء والآفات.. حتى إذا ساروا

---

(١٧) سورة المائدة الآية ٤٤.
(١٨) سورة آل عمران الآية ١٤٤.
(١٩) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٢٠) سورة الحج الآية ٦٥.
(٢١) سورة فاطر الآية ٤١.
(٢٢) سورة إبراهيم الآية ٢٧.
(٢٣) سورة الأنعام الآية ٦١.

أو قاموا.. أو انتبهوا أو ناموا.. تقلبوا فى حفظه وحراسته.. وتحركوا على حكمه ورعايته.. يقول تعالى:

﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾[٢٤] فهو - سبحانه - الذى يحفظك.. يحفظ دينك ومالك وحالك وقومك وعيالك.. ولو رفع رعايته عن جميع أسبابك لهلكت.

وخير ما تقوله عند خروجك من بيتك فى سفر.. أن تقول: اللهم إنك نعم الصاحب فى السفر..ونعم الخليفة فى البيت والمال والولد.

قلت: يقول تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾[٢٥] فهل معنى هذا أن المعقبات تحفظنى من أمر الله وقضائه فتمنعنى من أمر الله؟

قال: المعقبات يعنى الملائكة.. وهم الحفظة.. الذين وكلهم الله تعالى لحفظ الإنسان.. وسميت المعقبات.. لأنهم يتعاقبون فى حفظه بين الليل والنهار.

يقول الله تعالى عنهم.. فى موقع آخر: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين﴾[٢٦] وهما فى الواقع اثنان.. اسما وظيفتهما: رقيب وعتيد.. يلازمان ابن آدم بالتعاقب.. أحدهما يسجل الحسنات. والثانى يسجل السيئات.. يسلمان من يعقبهما فى الفجر من كل يوم.. ولهذا يقول تعالى: ﴿وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾[٢٧] فالشهود فى وقت الفجر أربعة.. لأنه وقت تبادل - رقيب وعتيد - عليهما السلام - وليس المقصود فى الآية ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ أنهم يحفظون الإنسان من قدر الله وأمره.. بل المقصود أن الملائكة المعقبات.. هم من أمر الله.. لأن الملائكة من عالم الأمر.. وليست من عالم الخلق.. فيكون تقدير الآية: «له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه» وهذه المعقبات ﴿من أمر الله﴾.

قلت: إذا كان الله - تعالى - قد تولى حفظنا بجنوده.. فيجب ألا نعتمد إلا عليه.

قال: نعم.. هذا إذا أردت سعادة الدنيا والآخرة معا. وقد قرأت عن بعض الصالحين أنه قال: ورثت عن أبى عشرة آلاف درهم.. فقلت: إلهى.. إنى محتاج إلى هذه الدراهم.. ولكنى لست أحسن حفظها.. فأدفعها إليك لتردها علىّ وقت حاجتى. ثم تصدقت بها كلها.. ولزمت الفقر.. فما احتجت فى دنياى قط إلى شىء.. وكنت إذا أردت شيئا فتح لى فى نفس الوقت.

ومن هذا الباب قصة أم موسى.. لما كمل اعتمادها على الله.. وصدق توكلها عليه.. ألقى فى قلبها وألهمها.. وحفظ ولدها فى اليم.. يقول تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[٢٨] فحفظه الله وهو فى مكان الغرق والهلاك.

قلت: يقول تعالى فى صفات المؤمنين: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾[٢٩] فما المقصود بحفظ الفروج؟

---

(٢٤) سورة الأنبياء الآية ٤٢.
(٢٥) سورة الرعد الآية ١١.
(٢٦) سورة الانفطار الآيتان ١٠، ١١.
(٢٧) سورة الإسراء الآية ٧٨.
(٢٨) سورة القصص الآية ٧.
(٢٩) سورة المؤمنون الآية ٥.

قال: يعتقد كثير من الناس.. أن المقصود بالفروج هنا.. القبل والدبر عند المرأة والرجل فقط.. ولكن لفظ الفروج.. جمع مفرده فرج.. والفرج هو الفتحة.. فكل فتحة بين شيئين.. يقال لها فرج.. قال الأخطل:

إذا طَعَنت ريحُ الصَّبا فى فروجه   تحلَّبَ ريَّـانَ الأسـافـل أنْجَـلُ

والنجل بفتحتين: سعة شق العين.. ومنه عين نجلاء.. ويقصد الأخطل: أنه واسع مخرج الماء. وقال شاعر آخر:

كأن هَزِيزَ الريح بين فروجه   أحاديثُ جِنٍّ زُرْنَ جنا بجَيْهَمَا

وجيهم: مكان تنسب إليه الجن بناحية الغور.. يصف الريح وهى تعصف بين فروج الجبال.

كما قال الفرزدق:

نخوض فروجَه.. حتى أتينا   على بُعد المناخ من المزار

فغروج الإنسان.. هى الفتحات الموجودة بجلده.. وهى تسعة فروج.. منها سبعة فى الوجه هى: فتحتا الأذنين.. وفتحتا العينين.. وفتحتا الأنف.. ثم الفم.. هذه سبعة.. ثم القبل والدبر.. فتكون تسعة فروج.. فالإنسان مكلف بحفظ هذه الفروج التسعة.. حفظ الأذنين عن التجسس والتلصص وتتبع عيوب الناس..

وحفظ العينين عن النظر إلى ما حرم الله.. لأن العين تزنى.. فقد دخل عبد الرحمن بن عوف.. على خليفة رسول الله – عثمان بن عفان – رضى الله عنهما.. فرأى جارية لعثمان أعجبته فنظر إليها فى شهوة.. فلما دخل على الخليفة.. نظر إليه وقال له: أتدخل علىّ ياابن عوف.. وفى عينيك أثر الزنى.. فقال له: أَوَحْىٌ بعد رسول الله يابن عفان؟.. صدقت.. إنى رأيت جارية عندك أعجبتنى.. فقال: ألم تسمع قول رسول الله – ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن.. فإنه يرى بنور الله».. ثم وهبها له.

ثم حفظ الأنف عن تتبع ما لايحل.. فقد قرأت: «إذا تطيبت المرأة.. وخرجت إلى الشارع للفتنة.. فلها فى كل أنف تشمها زنية.. وكل عين زانية».

وحفظ الفم.. عن أكل الحرام.. ونهش الأعراض.. والنميمة.. والغيبة.. والكذب. علاوة على حفظ القبل والدبر عن الفحشاء والمنكر.

هذا هو وصف ا لمؤمنين.. فى قوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾.

قلت: هل يوجد مفهوم لمعنى حفظ السموات والأرض غير ما ذكرت؟

قال: إننا لم نتحدث عن حفظ السموات والأرض إلا بذكر الآيتين الكريمتين اللتين ذكرهما الله تعالى إجمالا.. وإذا ذكر الله تعالى أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا.. فإنما يعنى هذا التعبير ما فى السماوات والأرض من مخلوقات فهو – سبحانه – حافظ المتضادات من الطغيان بعضها عن بعض.. وإليك بعض الأمثلة:

فالماء والنار يتعاديان بطباعهما.. فإما أن يطفئ الماء النار.. وإما أن تتغلب النار على الماء فتحيله إلى

بخار وهواء.. وكذلك الحال بين الحرارة والبرودة.. وبين الرطوبة واليبوسة.. وكل حيوان لابدّ له من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته.. ولابدّ له من رطوبة تكون غذاء لجسمه.. كالدم وما يجرى مجراه.. ولابدّ له من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه وعظامه.. ولابدّ له من برودة تكسر حدة الحرارة حتى لا يحترق الجسد.. ومن هذه المتضادات قام الحيوان والنبات وسائر المركّبات.. ولولا حفظ الحفيظ لتنافرت وطغى بعضها على بعض.. وفسدت الحياة فهو - سبحانه - الذى حفظ التعادل بينها.. بأن جعل قوة البرودة تعادل قوة الحرارة.. فإذا اجتمعتا لم يغلب أحدهما الآخر.. فيتقاومان ويبقى قوام المخلوق معتدلا.. وهذا ما يعبرّ عنه باعتدال المزاج.

وهو سبحانه الممدّ لها جميعا.. فإذا ضعف أحدها عن مقاومة المضاد له.. أمده ليقاوم الغالب.

قلت: هل من مثل يقرب هذه المعانى؟

قال: المعروف أن الرطوبة تفنى بالحرارة وتجف.. فإذا غلبت الحرارة واليبوسة.. ضعفت البرودة والرطوبة.. فيكون إمدادها بالماء وهو معنى العطش.. ليعوض ما فقد منها.. وقد خلق الله الأطعمة والأدوية وسائر المتضادات.. بحيث إذا غلب شىء يقاوَم بضده لينهزم.. وهذا هو الإمداد.. وذلك بخلق الأطعمة والأدوية.. وخلق الآلات والمعرفة الهادية إلى استعمالها.. وكل ذلك لحفظ أجساد الحيوان والمركبات من المتضادات.. وهذه هى الأسباب التى تحفظ الأرض بمن فيها من الزوال..

كما أن الإنسان معرض للهلاك من أسباب خارجة.. كالسباع والوحوش والهوام.. فخلق له الجواسيس والطلائع التى تدله على قرب أعدائه منه.. كالعين والأذن.. وخلق له اليد المدافعة.. والأسلحة الواقية كالسيف والمدفع.. ثم أمده بأداة الهرب وهى الرِّجل.. كما خلق الجناح للطائر.. وقد شمل حفظه تعالى كل شىء فى السماوات والأرض.. حتى النبات فى الأرض.. يحفظ لُبابَه بالقشر الصلب.. وما لا يحفظ بالقشر جعل له شوكا يحميه.. فالشوك سلاح للنبات كالقرون والمخالب والأنياب للحيوانات.. بل كل قطرة من ماء معها حافظ يحفظها.. وقد ورد فى الخبر: أنه لا تنزل قطرة من المطر إلا ومعها ملك يحفظها إلى أن تصل إلى مستقرها من الأرض.. والكلام فى هذا المقام لا حدود له.. قال تعالى: ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾[٣٠] فهو الذى يحفظ النفس والمال.. والدين والحال.. والقوت والعيال.

قلت: كم مرة ذكر هذا الاسم بالنص فى القرآن الكريم؟

قال: ذكر اسم - الحفيظ - بالنص فى القرآن الكريم ثلاث مرات: ﴿... إن ربى على كل شىء حفيظ﴾[٣١] و ﴿... وربك على كل شىء حفيظ﴾[٣٢] و ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم﴾[٣٣].

قلت: وما أثر هذا الاسم عند الذكر به؟

قال: على من يذكر الله بهذا الاسم - الحفيظ - أن يحفظ جوارحه وقلبه من سطوة الغضب.. وغلبة

(٣٠) سورة الأنبياء الآية ٤٢.
(٣١) سورة هود الآية ٥٧.
(٣٢) سورة سبأ الآية ٢١.
(٣٣) سورة الشورى الآية ٦.

الشهوة.. وخداع النفس.. وغرور الشيطان. ومن خواص الذكر به لمن لا يستطيع حفظ العلوم.. أن يذكره مع قوله تعالى: ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾ فإن ملكة الحفظ تنمو عنده نموا ملحوظا.

وهيا إلى الاسم التالى – المقيت –

* * *

٤٠ - المقيت

قلت: ما هو الاسم التالى.. بعد اسمه تعالى - الحفيظ؟

قال: الاسم التالى.. هو اسمه تعالى - المقيت.

قلت: هل ورد هذا الاسم.. فى القرآن الكريم؟

قال: نعم.. ورد فى قوله تعالى: ﴿وكان الله على كل شىء مُقيتا﴾(١).

قلت: وما معنى اسم - المقيت؟

قال: المقيت لغةً.. قد تكون من - وَقَتَ - والشىء الموقوت.. أى المحدود الزمن.. فنقول: بلغوا الميقات من مواقيت الحج.. والهلال: ميقات الشهر.. والآخرة ميقات الخلق.. ومعنى كل هذا.. مصير الوقت.

أما المعنى الأصح.. فى اسمه تعالى - المقيت - فهو اسم فاعل من - قَوَتَ - فنقول: أكلوا قوتهم وأقواتهم.. وهو ما يقيتهم ويمسك رَمَقَهم.. وفلان يقوت عياله.. وفى الحديث: «كفى بالمرء إثما أن يُضيِّع من يقوت».

ومن المجاز أن نقول: فلان يقتات الكلام اقتياتا.. إذا كان كلامه قليلا.. قال ذو الرُّمَّة:

وغبـراءَ يقتات الأحـاديثَ ركْبُها ... ولا يخْتـطيها الـدهـرَ إلا مقـاتـلُ

وقال أيضا:

فقلت لـه ارفعْها إليـك وأحْيِها ... بـروحك واقْتَتْـه لها قِيتَـةً قَدْرًا

أى ترفق بها فى النفخ.. واجعله شيئًا خفيفا مقدرا. كما نقول: الحرب تقتات الإبل.. أى تعطى الإبل فى ديات القتلى قال أبو دؤاد الشاعر:

إنـهـا حـربٌ عـوَانٌ لَقِحَـتْ ... عن حِيالٍ فهى تقتات الإبل(٢)

قلت: هذا يا أستاذ من حيث اللغة.. فما معنى الاسم - المقيت؟

قال: الله تعالى.. هو المقيت.. من حيث القوت.. هو القُوى التى تُقَوِّت الإنسان.. فالقوت هو ما يكون به استقلال النفس.. ويكون قواما لها.. وسببا لبقائها.. وسأضرب لك مثلا: فنحن نرى كثيرا من الأغنياء.. يتناول كل منهم ثلاث وجبات غذائية كاملة يوميا.. فيها الدسم والدهون واللحوم والسكريات والفاكهة.. ومع ذلك نرى الواحد منهم معتلّ الجسم.. ضعيفا هزيلا.. خائر القوى.. يكاد النسيم أن يطرحه أرضا. بينما نجد عاملا زراعيا فقيرا.. يكاد قوته لا يزيد على الخبز الجاف.. والجبن

---

(١) سورة النساء الآية ٨٥.

(٢) هذا البحث من أساس البلاغة باب - قَوَت -.

(القريش).. وأوراق السريس.. ورءوس البصل.. وفيه من الصحة والقوة ما يعادل حيوانا يجر عربة ثقيلة.

أما ترى معنى أن الله هو المقيت.. وليس المقيت هو الغذاء.. كماً ونوعا.

قلت: أما يحتمل معنى الاسم - المقيت - أن الله تعالى.. هو الذى خلق الأقوات.. وأودع فيها خصائص التغذية؟

قال: نعم.. إن الله تعالى.. جعل أقوات العباد والحيوانات والنباتات من المخلوقين والمخلوقات.. فمنهم من جعل قوته المأكولات والمشروبات على حسب اختلافهما فى الأجناس والأصناف المطعومات.. ومنهم من جعل قوته فى التسبيح والطاعات كالملائكة.. وخص بنى آدم.. بأن جعل قوتهم أطيب الأشياء وألذها.. يقول تعالى: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾[٣].

قلت: تقول يا أستاذى إن الله جعل التسبيح والطاعات قوتا للملائكة.. فهل معنى هذا أن القوت ليس ماديا فقط؟

قال: إن الله تعالى جعل قوت الأشباح الطعام والشراب.. وجعل قوت الأرواح المعانى التى لها قدرها ورتبتها.. وبها يحصل تفاوت درجاتها ومنازلها.

قلت: هل ورد فى القرآن الكريم.. ما يردُّ جوْعة النَّهِم إلى العلم.. ويروى غُلّة الصادى إلى المعرفة.. حول قوت الأشباح؟

قال: نعم.. إننا لو أمعنا النظر فيما ورد فى سورة الواقعة.. عن خصائص الحيوان فى قوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تُمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[٤].

ثم انتقل إلى عالم النبات.. فقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[٥]

ثم انتقاله من النبات إلى الماء.. بقوله: ﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[٦].

ثم انتقاله من الماء إلى النار.. بقوله: ﴿أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾[٧] أجل.. لو تأملنا ما تنطوى عليه تلك الآيات.. لعلمنا إلى أى مدى سرى اسمه تعالى - المقيت - فى الكائنات.. صغيرها وكبيرها.. دقيقها وجليلها.. سرياناً لا يمكن للعبارات الحرفية أن تمثل صفته الكبرى.. وراء العقول: ﴿وكان الله على كل شىء مقيتا﴾.

وقد يكون قوت الأجسام والأشباح روحيا.. كما جاء فى الحديث أن بعض المسلمين كان يصل الصيام.. فقال لهم - عليه الصلاة والسلام - ما معناه.. «لا تصلوا الصيام كما أصل.. فإنى لست كأحدكم.. كنت أنقطع إلى ربى فيطعمنى ويستقينى»[٨].

---

(٣) سورة يونس الآية ٩٣.

(٤) سورة الواقعة الآية ٥٨، ٥٩.

(٥) سورة الواقعة الآية ٦٣، ٦٤.

(٦) سورة الواقعة الآية ٦٨، ٦٩.

(٧) سورة الواقعة الآية ٧١، ٧٢.

(٨) عن أبى هريرة.. رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال: «إياكم والوصال» قالها ثلاث مرات. قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله!!.. قال: «إنكم لستم فى ذلك مثلى: فإنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى.. فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون» رواه البخارى ومسلم.

قلت: هذا بعض ما أفاض الله علينا من قوت الأشباح.. فماذا عن قوت الأرواح؟

قال: قبل أن نتحدث عن قوت الأرواح.. أقول: لعلك لحظت أن اسم - المقيت - له ارتباط وثيق باسم - الرزاق - فالاسمان عاملان رئيسيان في مجالى الاسم - الحكيم - والحكيم - سبحانه - يقول عن القوت والرزق: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾(٩) لأن الرزق هنا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ومن رزقناه منا رزقا حسنا﴾(١٠) فهذا الرزق الحسن المشار إليه في آية ﴿خير وأبقى﴾ لمن كان قلبه أنقى وأتقى إنما هو الفيض الروحى.. الذى يغنى النفس.. ويطمئن له القلب.. كما أشار قوله تعالى عن العطاء: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾(١١) ومن هنا أشار الحبيب - عليه الصلاة والسلام - إلى هذا المقام بقوله: «إن الغنى غنى النفس».. وأشار إليه قول الله تعالى في سورة الضحى: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ إذ أنه ليس المقصود بهذا الغنى.. غنى المال.. فمن المعلوم أنه - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله - لم يكن من أصحاب الملايين ولا العمائر حتى عيرّه المشركون العمى الذين لا يبصرون بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾(١٢).. وقولهم: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾(١٣) بل لقد خرج من دنيا الناس مدينا.. رهين الدرع.. للحصول على قوت عياله. فلم يبق إلاّ المعنى الذى اتجهنا إليه في القوت الروحى.. وهذا ثابت بالنص بما قرره علم البديع مقترنا بالبيان والمعانى الروحية.. حيث أن الآيات من سورة - الضحى -: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * وجدك عائلا فأغنى﴾ فيها - اللف والنشر المرتب - فيكون التقدير:

أولا: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى﴾ ملفوفة لقوله تعالى في الآية المنشورة ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾.

ثانيًا: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ ملفوفة لقوله تعالى في الآية المنشورة ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أى لا تنهر سائلا عن علم.. وتلطف في هدايته وإنقاذه من حيرته وضلاله.. لأننا وجدناك ضالا.. تلتمس السبيل إلينا فهديناك بنورنا.

ثالثًا: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ ملفوفة لقوله تعالى في الآية المنشورة ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ والمقصود بقوله تعالى ﴿عائلا﴾ أنها اسم فاعل من - العيْلة - وهى لغةً الفقر. والمقصود بهذا الفقر.. فقر النفس.. كقوله تعالى: ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم﴾.. وقوله - سبحانه - في سورة - القدر ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ التى نزلت في أول سورة نزلت من القرآن الكريم: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ وكانت بالإذن التكوينى.. على يدى الروح الأمين - جبريل - عليه السلام - وبهذا امتلأت نفسه - عليه السلام - بنعمة العلم.. وغنى المعرفة.. ولزم أن يكون هذا الغنى الروحى الكريم.. بما أفاض عليه - المقيت - سبحانه فإنها نعمة أسداها الله إليه ليعطيها وينفق منها.. لذلك يقول له في منشور الآية: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾. لتكون عبدا شكورا.. ينفق مما رزقناه سرا وجهرا.. لا قيْد عليه ولا حجْر.. لأنه هو بذاته يقول: «من رآنى فقد رآنى حقا.. فإن الشيطان لا يتمثل بى» فمن

(٩) سورة طه الآية ١٣١.
(١٠) سورة النحل الآية ٧٥.
(١١) سورة النساء الآية ٥٤.
(١٢) سورة هود الآية ١٢.
(١٣) سورة الإسراء الآية ٩٣.

الفضل المتبقى.. الذى يمنحه رسول الله - ﷺ - من أحب من أمته.. أن يزوره فى المنام.. فيتحدث إليه - ﷺ - بما آتاه الله من الكتاب والحكمة.. فإذا حصل ذلك فى البرزخ المنامى.. فإنه - ﷺ - يتحدث بنعمة الله جهرًا.. وإن كان ذلك برزخيا. وهكذا رفع الله القيد عن روحه - عليه السلام - وأطلق له الحق فى التحدث بنعمة الله إلى من شاء كما شاء.. وفضله - عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام - على المؤمنين والمحسنين والصديقين ثابت بالنص فى قوله تعالى للذين قالوا: ﴿حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾[(١٤)] فهذا الفضل تنبيه للمؤمنين منه - ﷺ - تنبيه مطلق.. فى الزيارات الروحية البرزخية.. ولا يكون ذلك إلّا إذا تعلق بالاسمين: الودود والمقيت - فإن زيارته - عليه السلام - للمؤمن أو المحسن أو الصديق.. ما هى إلّا توكيد للودّ الإلهى الذى يتجلى به على العبد.. هذا هو المفهوم عند المحققين من معنى الآية ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ فمن آتاه الله مالاً دنيويا.. من متاع الغرور .. له أن يقول: لقد أوتيت الملايين والقصور.. وهو بهذا القول لا يحدث عن النعمة - بكسر النون المشددة - وإنما يتحدث عن النَّعمة - بفتح النون المشددة.

قلت: وهل هناك فرق بين النِّعمة - بكسر النون - والنَّعمة - بفتحها؟.

قال: نعم إن النِّعمة - بكسر النون - مغايرة تماما للنَّعمة - بفتحها - لأن الله تعالى ذكر أصحاب النَّعمة - المفتوحة النون - مع الكافرين.. فى قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونَعمة كانوا فيها فاكهين﴾[(١٥)].

كما توعدهم بالعذاب الأليم.. فى قوله تعالى: ﴿وذرنى والمكذبين أولى النَّعمة ومهلهم قليلا * إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غصّة وعذابا أليما﴾[(١٦)] وعلينا فى ضوء هذا أن نميز معنى قوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ الذين هم ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فنعلم أن النِّعمة هى الرضا والهدى.. لأن نقيضها هو الغضب والضلال. ومن هنا نشرف ببصائرنا على معنى قوله تعالى: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾[(١٧)] فإنه لا شرط فى أن يكون النبى ثريا.. أو مالكا لحرث أو عقار. والفعل - أنعم - قد يكون مصدره - نَعمة ونِعمة - بالفتح أو الكسر.. والسياق هو الذى يعين المصدر. لأن الله - المقيت - يقول: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾[(١٨)] والمراد هنا - النَّعمة - بفتح النون - من الرزق الدنيوى.. ليطابق المفهوم الكلى من قوله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾[(١٩)] ومحال أن تكون مشابهة لقوله تعالى: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ وهنا يتعين أن يكون غناه - عليه السلام - غنى علميا خالدا.. وقوتا ربانيا كريما.. لا يُطْغِى.. ولا يجعل الإنسان يُعْرض وينأى بجانبه.. بل يجعله يُقبِل ويلتمس الودّ والمحبّة واللقيا.. كما كانت حالهُ - ﷺ - تماما.. حيث أنه لما أنعم الله عليه.. لم يكن طاغيا ولا معرضا ولا نائيا.

هذا هو ما يجب أن نفهمه.. للتخلص من شبهة قد يثيرها ملحد كافر على مسلم.. فيقول له: ما بال الفاتحة تفرض عليكم أن تسألوا الله أن يهديكم: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾.. مع أن

---

(١٤) سورة التوبة الآية ٥٩.
(١٥) سورة الدخان الآيات ٢٥ - ٢٧.
(١٦) سورة المزمل الآيات ١١ - ١٣.
(١٧) سورة مريم الآية ٥٨.
(١٨) سورة الإسراء الآية ٨٣.
(١٩) سورة العلق الآيات ٦، ٧.

النعمة الوفيرة.. والمال الكثير.. إنما يقع فى أيدى اليهود والأمريكان.. وكثير من المجرمين واللصوص.. فهل تريدون أن تقولوا: اهدنا صراط ذوى الأموال والثروات من اليهود والنصارى وغيرهم؟.. فيكون الجواب: إننا نطلب أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم بالرضا والهدى.. لأن أثرهما نعيم خالد.. وملك لا يبلى ولا ينتهى.. هذا هو مرادنا من النعمة.

قلت: إذن يصح أن نقول: العلم قوتٌ للأرواح؟

قال: العلم يتعلق بالعقل.. والعقل هو قوت القلوب والأرواح.. فبه تقوم جميع المحاسن.. فمن رزقه الله العقل أكرمه وأزانه.. ومن حرمه ذلك أذله وأهانه.

وقد قيل: إن جبريل - عليه السلام - جاء إلى ادم - عليه السلام - وقال له: إنى أتيتك بثلاثة أشياء.. فاختر منها واحدة.. فقال: وما هى؟

قال: العقل والدين والحياء.. فقال آدم: لقد اخترت العقل.. فخرج جبريل وقال للدين والحياء: انصرفا أنتما.. فقد اختار العقل.. فقال الدين والحياء: إنما أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان.

وإلى لقاء آخر.. مع اسم آخر.. إن شاء الله تعالى.

قلت: قبل أن ننتقل إلى الاسم التالى.. لى سؤال حول اسم - المقيت - وهو: أليس اسم - المقيت - من القوت سواء كان قوتا ماديا أو روحيا.. يكون مرادفا لاسم - الرزاق -؟

قال: اسم المقيت بهذا المعنى أخص من الاسم - الرزاق - يقول الإمام أبو حامد الغزالى: الرزق يشمل القوت وغير القوت.. أما القوت فهو ما يكتفى به فى قوام البدن. وقد ذكرتنى بهذا السؤال أن هذا الاسم يحتمل معنى ثالثا غير الميقات من الوقت وغير القوت من (قَوَت).. وهو معنى القدرة على الأشياء كلها والاستيلاء عليها.. فقوله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ أى عالما قادرا.. فيكون معناه راجعا إلى القدرة والعلم.. ويكون بهذا المعنى وصفه بالمقيت أتم من وصفه بالقادر وحده.. أو بالعلم وحده.. لأنه دل على المعنيين معا.. وبهذا يخرج هذا الاسم عن الترادف.

قلت: وما أثر اسم - المقيت - فى الذكر؟

قال: الذاكر بهذا الاسم.. يوفقه الله تعالى إلى إطعام الجائع.. وكسوة العارى.. والأخذ بيد المحتاج.. وهذا فضل من الله كبير.. يفرح به المؤمنون: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾[٢٠] وإلى اللقاء مع اسم الله - الحسيب - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(٢٠) سورة يونس الآية ٥٨.

٤١ - الحسيب

قلت: ماهو الاسم التالى بعد اسمه تعالى - المقيت؟

قال: الاسم التالى.. هو اسم - الحسيب.

قلت: وما معنى اسمه تعالى - الحسيب؟

قال: فى الواقع.. اسم الحسيب يحتمل معنيين.. كليهما ينفرد بهما الله تعالى:

الأول: بمعنى الكافى.. وهو المعطى حتى الكفاية.. ومنه تقول: ﴿حسبى الله﴾ أى هو الذى يعطيك حتى يكفيك..

والثانى: بمعنى المحاسب.. لأن «حسيب» فى اللغة.. على وزن فعيل أى فاعل.. كما تقول: فلان نديمى لأنه ينادمك.. وفلان أكيلى لأنه يؤاكلك ويأكل معك.. فلفظا نديم وأكيل على وزن فعيل بمعنى منادم ومؤاكل.

قلت: إذا أردنا البحث فى المعنى الأول.. فهل يكفى الله تعالى عبده بإعطائه كل مايريد؟

قال: كفاية الله تعالى للعبد.. أن يكفيه جميع أحواله وأموره ومشاغله.. وأعظم الكفايات.. ألا يعطى العبد إرادة شيء.. بل يكفيه هو بقضاء حاجته.. وتحقيق مأموله.. لأن الإنسان أعمى الإرادة.

قلت: أما ترى يا أستاذى أن تلك العبارة «الإنسان أعمى الإرادة» تحتاج إلى إيضاح؟

قال: منح الله - تعالى - الإنسان صفة الإرادة.. ولكنها إرادة عمياء.. فانظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1] ثم انظرا أيضًا فى قوله تعالى: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾[2] ثم اقرأ بعد ذلك قوله - جل شأنه: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾[3]. تلك هى إرادة الإنسان العمياء.. يحب شيئًا وهو شرٌ له.. ويكره شيئًا وفيه له الخير الكثير.. ويلح على الله تعالى فى طلب أمر أو تحقيق رجاء.. وهو يعتقد أن هذا الأمر وذلك الرجاء فيه خير له وهو لا يدرى أنه شرٌ كله ﴿ويدْع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾.

قلت: هل أطمع فى ضرب مثل يقرب هذا المعنى؟

قال: نعم.. عندك طفل مريض.. وأنت حرصًا منك عليه تريد أن تسقيه الدواء المر.. لتعود إليه صحته.. وهو يحاول جاهدًا ألاّ يتناول هذا الدواء.. فهو فى نظره شرٌ وألم.. ولكن نظرك أبعد من نظره.. فلكى يستريح لابدّ أن يتناول هذا الدواء المر الآن.. ليشفى من مرضه غدًا.. وأنت إن أطعته.. ونفذت إرادته فى عدم تناوله الدواء ازداد مرضًا.. وقد يؤدى هذا المرض إلى الموت.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

(٢) سورة النساء الآية ١٩ سورة.

(٣) سورة الإسراء الآية ١١ سورة.

وما بالنا نذهب بعيدًا.. وفى القرآن الكريم مايغنينا عن ضرب الأمثلة. فكم رأينا فيه باطن المنحة.. فى ظاهر المحنة.

ولكأنى أرى العبد الصالح- صاحب موسى عليهما السلام.. وهو يخرق السفينة وهى بين أحضان الموج فى وسط البحر.. وقد امتلأت بركابها المسافرين.. حتى دخل الماء من الفجوة إلى جوف السفينة.. ولم يستطع موسى صبرًا.. فخلع ملابسه يسد بها الخرق وهو يقول لصاحبه: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرا﴾[٤]. ومع أن موسى- عليه السلام - من أولى العزم من الرسل.. الذى قال الله تعالى له: ﴿يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى﴾[٥] وقال له: ﴿وألقيت عليك محبة منى﴾[٦] وقال له: ﴿ولتصنع على عينى﴾[٧] وقال له: ﴿واصطنعتك لنفسى﴾[٨] ومع هذا لم ير موسى من ظاهر هذا الأمر إلا شرا.

وبعد هذا استمع إلى العبد الصالح.. وهو يذكر لصاحبه موسى.. مافى هذا الأمر من خير.. لما أراد أن ينبئه بما لم يستطع عليه صبرًا.. حيث قال له: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها﴾ لماذا؟.. لأنه ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا﴾[٩] السفينة التى تعجبه يغتصبها من أصحابها بدون ثمن ولا تعويض.. فلا سبيل إلى انقاذها منه.. إلا بإحداث عيب فيها.. أرأيت مكنون الخير.. فى ظاهر الشر؟

وانظر بعد ذلك إلى نفس العبد الصالح.. وهو يشير إلى غلام صغير.. فى عمر الزهور.. إشارة كأن فيها تيارًا كهربياً.. سقط على أثرها الغلام ميتاً.. ولم يستطع موسى صبرًا فى تلك المرة أيضًا.. فقال لصاحبه: ﴿أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئًا نكرا﴾[١٠] واستمع إلى العبد الصالح.. وهو يذكر لصاحبه موسى مافى هذا الأمر من الخير.. حيث قال له: ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا﴾[١١]. فالله تعالى يعلم أن ذلك الغلام مطبوع على الكفر.. ولكن لإيمان أبويه.. وخشية عليهما من طغيان هذا الغلام عندما يشب ويكبر.. هبت نسمة رحمة بهذين الأبوين المؤمنين.. لتطيح بهذا الغلام.. فيحتسبانه صابريْن - عند الله.. فيبدلهما خيرًا منه صلاحًا وتقوى وصلة رحم.. فيكرمهما فى شيخوختهما. فظاهر الحادث شر مستطير.. أب وأم يجدان وحيدهما الغلام الجميل ميتاً.. بعد أن بلغ السعى.. لا شك أنها كانت بالنسبة لهما ليلة ليلاء.. احتملاها فى عزة الصبر ونور الإيمان.

أرأيت مكنون الخير فى ظاهر الشر؟

قلت: نعم يا أستاذى.. إن إرادتنا عمياء حقًا.. إذن يجب على الإنسان أن يرضى بقضاء الله.. فهو لا يدرى مافيه من الخير أو الشر؟

قال: نعم.. وتلك طبيعة المؤمن.. لا يجزع فى الملمات.. ولا يفرح بالعطيات.. فهو يعلم أن الله

---

(٤) سورة الكهف الآية ٧١.
(٥) سورة الأعراف الآية ١٤٤.
(٦) سورة طه الآية ٣٩.
(٧) سورة طه الآية ٣٩.
(٨) سورة طه الآية ٤١.
(٩) سورة الكهف الآية ٧٩.
(١٠) سورة الكهف الآية ٧٤.
(١١) سورة الكهف الآيتان ٨٠، ٨١.

بالمؤمنين رءوف رحيم.. فهو حسبه وكفايته.. ومن عوامل رأفته ورحمته - تعالى - ألا يصيب المؤمن إلاّ بالخير.. وقد يكون هذا الخير كامنًا فى ظاهر الشر.. وعطاء العلم والحكمة خير عطاء.. وقد قال عز الدين فى هذا المعنى:

وهل ينتهى إمداده وهو دائم ... ويدركه الإعياء وهو قدير؟
ويسأله من فى السماوات فضله ... ومن فى الثرى والكل وهو خبير
ومن ذا الذى يحصى عطاياه بالندى ... ومن دونه بين العباد بصير؟
وهل غيره يعطيك علمًا وحكمة ... وأنت سميعٌ باسمه وبصير؟
وحولك آلاف يشودك عدُّها ... ومن حولها نارٌ تشبُّ ونور
وهيهات للفانى وإن شف عقله ... إحاطة علم والحدوث قصور

قلت: هذا من مفهوم الاسم - الحسيب - بمعنى الكفيل والكافى.. فما معناه بمعنى المحاسب؟

قال: من علم أن الله تعالى حسيب بمعنى المحاسب.. علم أنه محاسبه على الكبير والصغير.. والنقير والقطمير.. فعند ذلك يحاسب نفسه قبل أن يحاسب.. ويطالب قلبه قبل أن يطالَب.. فإن الله تعالى قضى وحكم بألا تزول قدما العبد حتى يُسأل عن حركاته وسكناته وجميع حالاته.. حتى سرائر قلبه: ﴿يوم تبلى السرائر﴾[12] يوم يعرض على الإنسان كتاب: ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾[13] هذا اليوم هو يوم الحساب.

قلت: إنه ليوم عصيب.. فما هو ذلك الكتاب الرقيب الحسيب؟

قال: هذا الكتاب من الغيبيات التى يجب على المؤمن الإيمان بها.. ليكون من الذين يؤمنون بالغيب.. ولكن من حق العقل أن يتفكر ويتدبر فى كل تلك الأمور الغيبية.. على ضوء ماورد عنها فى كتاب الله الذى يقول: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[14] فلو تدبرنا قوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إذا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[15] وقوله: ﴿ووجدوا ماعملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدا﴾[16] بعد قولهم: ﴿يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ نجد أن الإنسان يرى نفس عمله منسوخًا مصورًا مشهودًا.. كما قلنا من قبل.. إنه كتاب أشبه (بفلم) تسجيلى مصور عن حياة الإنسان من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت.. فيه حركاته وسكناته.. صوته وصورته.. نواياه وسريرته.. ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه﴾ وطائره يعنى كتابه.. وشريط حياته ﴿ونخرج له يوم القيامة﴾ المخرج هو الله - جل شأنه - ولله المثل الأعلى.. نخرج له: ﴿كتابًا يلقاه منشورا﴾ معروضا ﴿اقرأ كتابك﴾ الكتاب ناطق مشهود ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[17] فإذا جاء عرض الشريط من جهة اليمين.. كان صاحبه من الذين قال الله عنهم: ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابية * فهو فى عيشه راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم فى

---

(12) سورة الطارق الآية ٩.
(13) سورة الكهف الآية ٤٩.
(14) سورة ص ٢٩.
(15) سورة الجاثية الآية ٢٩.
(16) سورة الكهف الآية ٤٩.
(17) سورة الإسراء الآية ١٣، ١٤.

الأيام الخالية﴾[١٨] وأما إن جاء هذا العرض من جهة الشمال.. كان صاحبه من الذين قال الله عنهم: ﴿وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ماحسابيه * ياليتها كانت القاضية﴾[١٩].

قلت: هل معنى هذا أن المؤمن يرى فى كتابه ما عمل من سيئات أيضًا؟.

قال: نعم.. كل إنسان يرى كل حياته.. صغيرها وكبيرها.. حقيرها وجليلها.. سيئاتها وحسناتها.. ولكن من سبقت له الحسنى.. عندما يرى هفوة ارتكبها.. أو زلة سقط فيها.. يرتجف ويفزع.. ولكن الله تعالى يقول له: لا تفزع فقد غفرنا لك هذه: ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون﴾[٢٠] ﴿ويعفو عن كثير﴾[٢١].

قلت: كم للإنسان من زلات وأخطاء.. فهل يرى الناس يوم القيامة زلاتى وأخطائى؟

قال: الله تعالى رءوف رحيم بعبده.. فإذا كنت من أصحاب الميمنة.. فلن يرى الناس مافى كتابك من سيئات.. بل أنت وحدك الذى يراها.. ويريهم الله حسناتك فقط.. لتستطيع أن تقول لهم: ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ لأنك كنت تخشى الله.. ولا تبتغى بعملك إلا وجهه.. وكنت تعدّ نفسك لهذا اليوم – يوم الحساب – كنت تخطئ – والإنسان خطاء – ولكنك كنت تبادر بالتوبة.. فتسكب الدمع الهتون فى جنح الليل.. بين يدى رب العالمين.. نسأله العفو والصفح والغفران.

أما أصحاب المشأمة.. وأغلبهم من المنافقين.. الذين يظهرون التقوى والورع أمام الناس.. فإذا خلوا إلى شياطينهم يرتكبون مايندى له جبين الإنسانية من الشرور والآثام.. ولا يعملون ليوم الحساب حسابًا.. فهذا يوم فضيحتهم وخزيهم.. فيرى الناس الذين كانوا مخدوعين بتقواهم المزيفة.. مغرورين بورعهم المزعوم.. يرون ما كانوا غارقين فيه من جرائم وآثام.

ولهذا نرفع أكفنا ضارعين خاشعين: ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾[٢٢].

قلت: هكذا يحاسب كل الناس من لدن آدم إلى يوم القيامة؟

قال: ليس كل الناس فقط.. بل الإنس والجن.. وكلهم فى لحظة واحدة. ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾[٢٣] ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾[٢٤] وروى أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: من يلى حساب الخلق يوم القيامة؟ قال: الله تعالى.. قال الأعرابى: هو بنفسه؟.. قال: نعم.. فضحك الأعرابى. فقال له النبى ﷺ: ما أضحكك؟ فقال الأعرابى: إن الكريم إذا قدر عفا.. وإذا حاسب سامح.

قلت: أريد أن أعود قبل أن ننتقل إلى الاسم التالى – إلى معنى اسم الحسيب بمعنى الكفاية.. فأقول: أليست الأم كافية لابنها فى إرضاعه.. والمعلم كاف لتلميذه فى تعليمه.. فلماذا قلت فى أول هذا

---

(١٨) سورة الحاقة الآيتان ١٩، ٢٤.
(١٩) سورة الحاقة الآية ٢٥ – ٢٧.
(٢٠) سورة الأحقاف الآية ١٦.
(٢١) سورة المائدة الآية ١٥.
(٢٢) سورة آل عمران الآيتان ١٩٣، ١٩٤.
(٢٣) سورة الأنعام الآية ٦٢.
(٢٤) سورة لقمان الآية ٢٨.

البحث حول هذا الاسم.. أن المعنيين: الكافى والمحاسب.. ينفرد بهما الله تعالى؟

قال: الله تعالى وحده هو حسيب كل أحد وكافيه.. فلا تظنن أن الطفل الذى يحتاج إلى أمه ترضعه وتتعهده فليس الله حسيبه وكافيه.. بل الله - تعالى - هو الذى خلق الأم.. وخلق له فى ثديها اللبن.. وخلق فى قلبها الشفقة والمودة نحوه.. حتى مكنته من التقام الثدى ودعته إليه وحملته عليه.. فالكفاية إنما حصلت بتلك الأسباب.. والله وحده هو المنفرد بخلقها من أجله.. فمن أين تكفيه الأم إذا لم يخلق الله فى ثديها اللبن؟

ونفس المعنى فى كفاية المعلم لتلميذه.. فهو - سبحانه - خالق المعلم.. وهو المفيض عليه من صفة علمه تعالى.. وهو مانحه تلك القدرات التى أوصل بها العلم إلى تلميذه.

ومن هنا نفهم أن الكافى والحسيب هو الله تعالى.. كافٍ وحسيب لكل شىء.. فالأشياء يتعلق بعضها ببعض.. وكلها تتعلق بقدرة الله تعالى.

قلت: وما نصيب العبد من هذا الاسم - الحسيب؟

قال: ليس للعبد مدخل فى هذا الوصف إلّا بنوع من المجاز بعيد.. فالإنسان وإن كان كافيًا لطفله بتعهده.. أو لتلميذه فى تعليمه.. حتى لم يفتقر إلى الاستعانة بغيره. كان واسطة وسببًا للكفاية.. ولم يكن بذاته كافيًا.. لأن الله تعالى هو الكافى.. فحظ العبد من هذا الاسم أن يكون الله وحده هو حسبه وكافيه.. بالإضافة إلى همّته وإرادته.. فلا يريد إلا الله.. ولا يريد الجنة.. ولا يشغل قلبه بالنار.. بل يكون مستغرق الهم بالله وحده.. ولا شئ غير الله.

قلت: وكم مرة ذكر هذا الاسم - الحسيب - فى كتاب الله؟

قال: ذكر اسم - الحسيب - فى القرآن الكريم ثلاث مرات: ﴿وكفى بالله حسيبا﴾(٢٥).. و: ﴿إن الله كان على كل شىء حسيبا﴾(٢٦) و: ﴿ولا يخشون أحدًا إلا الله وكفى بالله حسيبا﴾(٢٧).

قلت: وما هى مواقع الذكر بهذا الاسم - الحسيب؟

قال: من ذكر بهذا الاسم.. علم أن الله كافيه.. فلا يحزن من إعراض الناس عنه.. ثقة منه بأن الذى قسم له لا يفوته.. والذى لم يقسم له لا يصل إليه وإن أقبل الناس عليه.

ومن خاف من ظالم.. وتلا هذا الاسم بقوله: حسبى الله الحسيب تسعين مرة كفاه الله شره.. على أن تكون التلاوة بلسان يوصل إلى القلب.

قلت: وهل هناك ذكر بالقلب؟

قال: الذكر أنواع:

١ - **ذكر اللسان:** يعتبر قرعا لباب الملك. وهو كفارة ودرجات.
٢ - **ذكر القلب:** يعتبر إذنًا بمخاطبة الملك.. وهو زلفى وقربات.
٣ - **ذكر الروح:** وهو مكالمة الملك ومحادثته.. وهو حضور ومشاهدة.

---

(٢٥) سورة النساء الآية ٦.
(٢٦) سورة النساء الآية ٨٦.
(٢٧) سورة الأحزاب الآية ٣٩.

فالذكر باللسان.. والقلب غافل.. هو ذكر العادة.. العارى عن الزيادة.
والذكر باللسان.. والقلب خاطر.. هو ذكر العبادة.. المخصوص بالإفادة.
والذكر بكل اللسان وملء القلب.. هو الكشف والمشاهدة.. ولا يعلم قدره إلا الله تعالى.
والمقرَّب إذا كاشفه الله بجلاله.. قال ذلك حسبى.. فلست أريد غيره ولا أبالى فاتنى غيره أو لم يفت.
وها نحن قد أشرفنا على اسمه تعالى - الجليل -.

* * *

٤٢ - الجليل

قلت: انتهينا عند الاسم الحسيب.. فما هو الاسم التالى؟

قال: الاسم التالى هو الاسم - الجليل- .

قلت: وما معنى الاسم - الجليل -؟

قال: الجليل هو المستحق لصفات التعالى والرفعة والإحسان.

فالله تعالى فى ذاته وصفاته يخضع لسلطات هيبته جميع خلقه.. ويستحى منه أهل العلم والمعرفة وتخشع قلوبهم لذكره.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾[1].

قلت: وهل معنى هذا أن هناك علاقة بين جلال الجليل.. وخشية العالم العارف الحكيم؟.

قال: العلاقة وثيقة.. فالعارفون كاشفهم الله تعالى بجلاله فغابوا.. والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا.. فمن غاب فهو مهيم.. ومن طاب فهو مقيم.. لأن من كاشفه الله بجلاله أفناه.. ومن كاشفه بجماله أحياه.

قلت: وكيف يصل العبد الضعيف إلى جمال الجميل.. وجلال الجليل؟.

قال: مما لا يحتاج إلى استخدام الروية والبحث. دلالة الأثر على المؤثر. فإننى عندما أشعر بالعسر والحاجة.. ثم أجد يدًا امتدت فقذفت إلى حبيبى بكمية كبيرة من المال.. فابدلَت عسرى يسرا.. وحاجتى غنى.. ثم سألنى أحد أصدقائى عن مصدر تحول عسرى إلى يسر.. وفقرى إلى غنى. فإن الواقع يلزمنى أن أقول إن الذى صنع هذا صانع كريم.. ورءوف رحيم عرفت أسماءه وصفاته من فعله.. وما تركه فعله من الأثر المحمود وتحقيق الأمل المنشود.. ومتى كان وصول المدد فى ساعة الحرج وفى الوقت المناسب.. علمت لهذه المناسبة أنه عليم جميل جليل.. وهكذا فى غير هذا المثل من صروف الحياة وأحداث الزمان وقد بينا من قبل التقابل بين الرحيم والقابض.. وأنه واحد بالذات.. مع الاختلاف بين تجليات كل من الاسمين.. وقلنا إن تعدد الصفات كتعدد الأسماء.. لايدُل على تعدد المسمى. الذى قامت بذاته الأحدية هذه الصفات .

فمن هذا المنهج البعيد عن لولبيات الفلسفة.. وحلزونيات الاستقراء.. نواجه البداهة الواضحة فى مطالعة المشهودات.. لندرك ولو شيئا من الإدراك ما يجب لصانعها من الصفات.. وما يستحيل عليه تعالى من أضدادها.. وما يقضى به تقديسه - سبحانه - عما للحوادث من صفات وهنوات.. وأخطاء وهفوات باعتبار كونه - تعالى - الحكيم العليم - العلى العظيم.. المقدر المدبر.. الظاهر بما شاء أن يظهر به فى الحال.. الباطن بما لا يزال منتظرًا زمنه المقدر مما هو فى عالم الغيب.. فتعلم أنه جليل مستحق لصفات التعالى والرفعة.

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

قلت: فى الآية التى ذكرتها سابقا. يقول تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ مع أننا نرى كثيرا من العلماء الأوربيين كفارا.. لم يصلوا إلى خشية الله وجلاله.. فما معنى هذه الآية إذن؟

قال: هذا السؤال يذكرنى بأن كثيرا من الناس أضلهم الله على علم. كما جاء فى قوله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾[2] وعلى هذا يكون سؤالك: كيف يكون العلم مع الضلال.. مع أن العلم مرتبط بالعقل.. ولا عقل لمن لا إيمان له؟ وأقرب جواب على هذا السؤال: أن للعلم قسمين: ظاهر وباطن.. فالعلم بظواهر الحياة لا يقتضى الإيمان.. والعقل فى هذه الحالة يكون آليا رياضيا فحسب.. وهو العلم المسمى بالعلم الضرورى بظواهر الأشياء. دون تعمق فى حقائقها الذاتية.. وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله فى سورة الروم: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[3].

لأننا نجد مثلا.. رجلا مثل - أديسون - مخترع المصباح الكهربى.. وإبراهام لنكولن - مخترع القاطرة .. هذان على سبيل المثال لا الحصر يتمتعان بالعقل الرياضى الظاهرى... المتعلق بالمرئيات والمحسوسات.. لا باللطائف والدقائق الملكوتية التى تسمو بهما إلى معرفة الجميل الجليل.

قلت: يقولون إن أمثال هؤلاء العلماء يتمسكون بالمنطق. فهل هذا صحيح؟

قال: المنطق قسمان: تصورات وتصديقات. فالتصورات تنظم البحث فى كل ما يمكن تصوره.. وترسم الخطوط التى تسيِّر الفكر فى طريق مستقيم.. يدور على ضبط القياس فى تكوين المقدمات المنتجة نتيجة معقولة.. لأن المنطق فى ذاته هو علم يعصم الذهن عن قبول الخطأ القياسى.. فى القضايا الكلية والجزئية. والسالبة والموجبة.. وغيرها من فنون النظر.

أما التصديقات: فهى أمور ترتكز على عناصر غيبية لا يمكن تحديدها بأشكال القياس المنطقى.

فمثلا الكلام عن ذات الله وجل وعلا.. وعن الملائكة والجن.. وعن الحشر والمعاد.. والجنة والنار.. والثواب والعقاب.. وما وراء العقل مطلقا.. كل ذلك غير ممكن التصور ولا الحد ولا الرسم.. ولا صياغة تعريفية علمية - أى منطقية - فلزم من هذا أن تكون هذه الشئون من قسم التصديقات لا من قسم التصورات.

قلت: وما هو التصديق؟.

قال: التصديق هو الإيمان بوجود حقائق ثابتة بالأثر.. مجهولة العين لا يمكن تصورها.

قلت: إذن توجد علاقة بين التصديق والإيمان؟.

قال: العلاقة قائمة بين التصديق - وهو القسم الثانى من أوليات المنطق - وبين الإيمان.. والإيمان هو أن أصدق بوجود الله تعالى.. فهو جليل بوجوده وجودا ذاتيا.. قائما بالصفات التى تقوم به.. مع العلم باستحالة تصور ذاته سبحانه وتعالى وكذلك الإيمان بالملائكة والجن.. والكائنات الموجودة فى عالم الخفاء.. الذى هو خفاء نسبى.. أى بالنسبة لنا نحن الذين إذا لم يكن لنا إمكان تصور شىء واضح

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٣.

(٣) سورة الروم الآية ٦، ٧.

الأثر على العين.. وجب علينا من باب الإنصاف واحترام العقل - فضلاً عن الوحى والدين - أن نعلن الإيمان به تصديقًا قاطعًا.. لا يتسلل إليه شك.. ولا يتسرب إليه ريب.

قلت: هل أطمع فى ضرب مثل يقرب لى معنى التصديق بوجود الجليل - سبحانه - عن طريق أثر من آثاره؟

قال: إليك مثلاً زهرة بيضاء من زهرات القرنفل.. وفى قاع كأسها عند براعم التذكير لون ذهبى.. وهى قائمة على عود أخضر فاتح.. فانظر إليها.. وأنعم النظر .. ثم أنعم الفكر.. وقل لى: ألا تشهد فيها بعينى رأسك.. وعين بصيرتك.. آيات الإبداع فى الصنع والتلوين.. والقدرة الجميلة الجليلة المريدة الفعالة فى الإنشاء والتكوين؟.

أنت الآن تشهد أمام ضميرك الحى الواعى.. أن منشئها صانع حكيم.. قادر عليم.. جميل جليل.. ولكنك رأيت أثر هذه الأسماء ولم تشهد المسمى فلزم التصديق بوجوده.. وإن كنت رأيت أثره ولم تشهد ذاته. ومن هذا المثال نبتدىء الطريق إلى مراقبة تجليات ذلك الخالق البديع بما ذرأ على الأرض.. ثم فى نفسك أنت وما يحيط بك من متعلقات شأنك بين الحياة والموت.. واليسر والعسر.. والقبض والبسط.. فإن إمعان النظر والمطالعة الواعية فى جميع صفحات هذا الكون من كتاب الوجود المشهود.. يزيدك إيمانا على إيمانك.. ويعطيك برهانا على مقارعة الذين هم عن طريق الإيمان ناكبون.. ومن حقه تعالى أن يقول لهم: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[4] ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون﴾[5].

وفى تلك الآية الأخيرة نرى القسمين المنطقيين.. ما تبصرون هو قسم التصورات .. وما لا تبصرون هو قسم التصديقات.

فنحن نتصور الممكنات التى يتيسر إدراكها.. ونصدق بالكائنات المجهولة الخفية وبالأسرار الكونية التى لا يمكن وقوع إدراكاتنا عليها.. وإلا غمرتنا الآية ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[6] لأن التكذيب ضد التصديق.

فاعلم أن الله جليل فوق النسب والإضافات.. فإذا ظهر شىء مما تبصرون فهو مصدره وإذا بطن شىء مما لا تبصرون.. فهو مبدؤه.. ومن كان هكذا.. منه المصدر والمبدأ.. وإليه الحكم والمعاد.. كان واحدا.. يُرى أثره.. ولا يُعلم خبرُه.. وهنا تظهر قوة الإيمان.. وموضع الناس على كفتى الميزان.

نسأل الله الجليل أن يجعلنا ممن ثقلت موازينهم.. وحق يقينهم ويقول أستاذنا فى هذا المعنى:

يـارب عـبـدك بـاعـهـا نـفـسـا تحـنُّ إلى وفـائـكْ
وتحـب وِرْدَك صـافـيـا وصفـاءُ وِرْدك من صفـائـكْ
ولـقـد شهـدتـك حـانـيـا حـاشـاك تعلن عن جفـائكْ
عـجبـا خـفـاؤك من ظـهـ ـورك أم ظهورك من خفائكْ

قلت: أليس معنى الجليل هو العظيم والكبير؟

---

(٤) سورة الواقعة الآية ٨٢.
(٥) سورة الحاقة الآية ٣٨.
(٦) سورة يونس الآية ٣٩.

قال : اسم - الكبير - يرجع إلى كمال الذات.. واسم الجليل - يرجع إلى كمال الصفات واسم - العظيم - يرجع إلى كمال الذات والصفات جميعا.

قلت: هل ورد اسم - الجميل فى اسماء الله تعالى؟.

قال : لم يرد هذا الاسم الجميل - فى حديث رسول - ﷺ - «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما» إلخ.. ولكنه جاء فى بعض أحاديث أخرى.. والأولى الاكتفاء بالأسماء التسعة والتسعين التى وردت فى الصحيح.. ولهذا لم نفرد له فصلا ولكننا نقول إن صفات الجلال إذا نسبت إلى البصيرة المدركة لها سميت جمالا.. ويسمى المتصف بها جميلا.. وكل جميل محبوب ومعشوق عند من يدرك جماله.. ولهذا كان الله تعالى محبوبا عند العارفين.. تماما مثل الصور الجميلة محبوبة ولكن عند المبصرين لا عند العميان.

قلت: وما أثر اسم الجليل - عند العبد؟

إذا فكر العبد فى فضل الجليل ازداد رغبة.. وإذا فكر فى عذابه ازداد رهبة.. وقد جعل الله تعالى متعة العارفين فى شهود جلاله وجماله.. فإذا كاشفهم بنعوت الجلال كانت أحوالهم طَمْس فى طمْس.. وإذا كاشفهم بصفات الجمال كانت أحوالهم أنس فى أنس.. وقد قال قائلهم:

جمالك نزهتى ورضاك عيشى وحبك لى من الأديان دين

قلت: وما فائدة الذكر باسم - الجليل -؟

قال : الذكر بهذا الاسم له أسرار خطيرة.. فمن داوم على الذكر به.. ينال العز والقبول وعلو المنزلة فى الدنيا والآخرة.

وهيا بنا إلى الاسم التالى إن شاء الله تعالى.

* * *

٤٣ - الكريم

قلت: أى الأسماء الحسنى بعد اسم الله تعالى - الجليل -؟

قال: الاسم الذى يلى الاسم الجليل.. هو الاسم - الكريم -.

قلت: هل المفهوم من اسم الله تعالى - الكريم - هو وصفه تعالى بالكرم.. والمعروف أن الكرم ضد الشح والبخل؟

قال: هذا المفهوم هو مفهوم الكرم بالنسبة إلينا نحن بنى البشر.. ولكنه بالنسبة إلى الله.. فهو يعنى معانى أخرى أجلّ وأعظم.. وأعلى وأكرم.. فاقرأ مثلا قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾(١) حيث تجد فى تلك الآية الكريمة أن الله الكريم يشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم.. مع أن الأنفس والأموال منحة من الله تعالى وهبها عباده.. من غير طلب منهم.. وبدون مقابل.. فالله تعالى هنا يشترى حاجته ومنحته هو.. وانظر كيف جعل الثمن المقابل لهذا الشراء.. جنة عرضها السماوات والأرض.. فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر..

فهل هذا الكرم فيه أى وجه للشبه بينه وبين صفة الكرم فى الإنسان؟

قلت: حقا إنه كرم عجيب.. وما معنى الاسم - الكريم ـ إذن؟

قال: الاسم - الكريم - معناه رفعة القدر.. وعظم الشأن.. وحب العفو.. وكثرة الجزاء.

قلت: وهل ورد هذا الاسم - الكريم - فى القرآن الكريم؟

قال: نعم.. فى قوله تعالى.. مخاطبا الإنسان: ﴿يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾(٢) وقوله: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنىّ كريم﴾(٣).

قلت: وماذا قال العلماء حول هذا الاسم؟

قال: قالوا: إن الوصف له - تعالى - بأنه كريم.. من صفات ذاته.. ولم يزل الله كريما ولا يزال.. ومعناه: نفى الدنائس والنقائص. كما قيل إن الكريم - فى وصفه تعالى.. يكون بمعنى المحسن الكثير العطايا والإحسان.. والعفو عن المسىء.. فالله تعالى هو المحسن إلى خلقه من غير استحقاق.. والآخذ بأيديهم عند الضرورة من غير استيجاب.. بل ابتداء فضل.. وكمال لطف.

وقال بعضهم أيضا: الكريم هو الذى لا يحوجك إلى وسيلة.. وهو الذى لا يبالى بما أعطى.. ولا لمن أعطى.

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١.

(٢) سورة الانفطار الآية ٦.

(٣) سورة النمل الآية ٤٠.

وكذلك قالوا: الكريم الذى إذا عفا عن عبد.. عفا عمن عمل مثل تلك المعصية.

وقد قرأت فى بعض الكتب - عن الله عز وجل -: ما أنصفنى عبد أستحى أن أعذبه ولا يستحى أن يعصينى.

والكريم هو الذى لا يرضى بأن ترفع حاجتك إليه. وروى أن موسى - عليه السلام - قال فى مناجاته: اللهم إنه لتعرض لى الحاجة أحيانا فأستحى أن أسألك.. فأوحى الله إليه.. سلنى حتى ملح عجينك.. وعلف دابتك.

كما يحكى أن بعض الصالحين الأغنياء.. أشرف من قصر له على دار عجوز من جيرته.. فرآها تتوضأ من جرة فخار.. فقال فى نفسه: عجوز فى جيرتى ليس لها إبريق.. ثم فكر وقال: إذا أمرت لها بإبريق فإنها تخجل وتعلم أنى اطلعت عليها.. فأمر بأن يعطى لكل واحد من جيرانه إبريق.. حتى دفع إليها إبريقا ولم تخجل.

قلت: أرى أن هذا الاسم - الكريم - يطلق على أشياء كثيرة.

قال: نعم فلغة العرب تقول عن الشىء الخطير النفيس إنه كريم.. قال تعالى: ﴿وأعدّ لهم أجرا كريما﴾(٤). قالوا: ثوابا حسنا. وكذلك قال تعالى: ﴿وكنوز ومقام كريم﴾(٥). وقوله: ﴿أولئك لهم مغفرة ورزق كريم﴾(٦). وقوله: ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾(٧) وغيرها كثير.. وكلها تفيد معنى الحسن والنفاسة.

كما يقال لجياد الإبل: كرائم الإبل لنفاستها وطيب عنصرها. ويقال لشجرة العنب: الكرمة.. وقد سمت العرب العنب بهذا الاسم.. للطافة شجره.. وطيب ثمره.. ودنو قطوفه من غير تجشم مشقة.. وليس له شوك يضرّ جانيه كما للنحل.. ولا يحتاج قاطفه إلى ارتقاء شجره. وقد قال رسول الله - ﷺ: «إن الرجل المؤمن أولى باستحقاق هذه التسمية لما فيه من كرم السجايا».

قلت: نحن نقول عن الرجل إنه كريم السجايا.. ولا نقصد بهذا معنى البذل فقط.. بل نقصد كرم صفاته كلها.. فمن هو الرجل الذى يستحق هذا الوصف؟

قال: الرجل كريم السجايا.. هو الذى إذا أذنبت اعتذر عنك.. وإذا هجرت وصلك.. وإذا مرضت عادك.. وإذا وفدت من سفر زارك.. وإذا افتقرت أحسن إليك.

كما قيل إن كريم السجايا.. هو الذى إذا طلبت منه حاجتك عاتب نفسه.. كيف لم يبادر إلى قضائها قبل أن تسأله..

وحكى عن علىّ - رضى الله عنه وكرم الله وجه - أنه جاءه إنسان ليلة يسأله حاجة.. فقال: ارفع السراج يا غلام.. فسئل بعد ذلك عن السبب.. فقال: حتى لا رأى فى وجهه ذل السؤال. كما روى أن بعض الكرام المحسنين.. كان لا يناول أحدا شيئًا من عطائه بيده.. بل كان يضعه أمامه ليأخذه المستحق.. ويقول: الدنيا أقل خطرا من أن أرى يدى لأجلها فوق يد أحد.

---

(٤) سورة الأحزاب الآية ٤٤.
(٥) سورة الشعراء الآية ٥٨.
(٦) سورة سبأ الآية ٤.
(٧) سورة الشعراء الآية ٧.

قلت: علمنا الآن.. أن الاسم - الكريم - يطلق على كل شيء نفيس.. وكل صاحب خلق حسن.. فهل يطلق هذا الاسم على شيء غير هذا؟

قال: نعم.. فعرش الرحمن.. عرش كريم.. اقرأ قوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾(٨) وقرآن الله كريم.. لقوله تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون﴾(٩) وقوله: ﴿فى صحف مكرمة﴾(١٠) وملائكة الله كرام.. لقوله تعالى: ﴿بأيدى سفرة *كرام بررة﴾(١١) وقوله: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين﴾(١٢) وقوله: ﴿وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾(١٣).

ورسول الله كريم.. لقوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم *وما هو بقول شاعر﴾(١٤) وقوله: ﴿إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين﴾(١٥).

قلت: وهل لهذا الاسم نصيب عند العبد؟

قال: عرفنا أن الكريم.. هو الذى إذا أعطى زاد على منتهى الرجاء.. ولا يبالى كم أعطى ولمن أعطى.. ولا يرضى على الاحتياج إلى غيره.. ولا يضيع من لاذ به والتجأ إليه.. ويغنى المحتاج عن الوسائل والشفعاء.. فمن اجتمع له جميع ذلك من غير تكلف.. فهو الكريم المطلق.. وذلك هو الله تعالى فقط.

وهذه الخصال قد يتجمل العبد باكتسابها.. ولكن فى بعضها بنوع من التكلف.. فذلك يوصف بالكريم.. ولكنه كرم ناقص لو أضفناه إلى الكريم المطلق. ولذلك قال رسول الله - ﷺ: «لا تقولوا لشجرة العنب الكرْم.. فإن الكرْم هو الرجل المسلم» وقال عن ربه: «إن الله عزَّ اسمُه كريم.. يحب مكارمَ الأخلاق.. ويبغض سَفْسَافَها».

قلت: وما فائدة الذكر بهذا الاسم؟

قال: على الذاكر بهذا الاسم أولا أن يكون كريما.. يقوم بقضاء مصالح الضعفاء والمساكين.. فيستجيب لله أولا فى صفة الكرم.. ليستجيب الله له.. وخاصية الذكر بهذا الاسم لكثير الذنوب.. فعليه أن يواظب على الذكر به مع الاستغفار.. فيغفر الله ذنوبه.. ويستر عيوبه.. والله كريم يعفو بقليل من الاستغفار مع التوبة.. وقد قيل:

وحمل الزاد أقبح كلِّ شيء ... إذا كان القدوم على كريم

نسأل الله الكريم.. أن يجعلنا من عباده المكرمين.. الذين قال عنهم: ﴿أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * فى جنات النعيم﴾(١٦). وإلى لقاء كريم.. مع اسم جديد كريم.. هو اسمه تعالى: الرقيب -.

* * *

(٨) سورة المؤمنون الآية ١١٦.
(٩) سورة الواقعة الآية ٧٧.
(١٠) سورة عبس الآية ١٣.
(١١) سورة عبس الآية ١٦.
(١٢) سورة الإنفطار الآيتان ١٠، ١١.
(١٣) سورة الذاريات الآية ٢٤.
(١٤) سورة الحاقة الآيتان ٤٠، ٤١.
(١٥) سورة التكوير الآيتان ١٩، ٢٠.
(١٦) سورة الصافات الآيات ٤١ - ٤٣.

٤٤ - الرقيب

قلت: هل ورد اسم الله تعالى - الرقيب - فى القرآن الكريم؟

قال: نعم.. فى قوله تعالى: ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾[١] وقوله: ﴿وكان الله على كل شيء رقيبا﴾[٢]، وقوله على لسان عيسى - عليه السلام -: ﴿فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم﴾[٣].

قلت: وما معنى الاسم - الرقيب -؟

قال: الله تعالى رقيب لعباده.. أى حفيظ لهم.. يعلم أحوالهم.. ويعدُّ أنفاسهم.. ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

ويقال: رقبتُ الله إذا علمت أنه مطلع عليك فراعيت حقه.

قلت: وهل لهذا الاسم أثر على نفس المؤمن؟

قال: نعم.. لابدّ للمؤمن أن يكون من أهل المراقبة.. وأهل المراقبة هم الذين يعلمون أن الله رقيب لهم.. مطلع عليهم.. فيرجعون إليه فى كل الأحوال.. يخافون سطوات عقوبته فى كل نفس.. ويهابونه فى كل وقت.

وقد سئل بعضهم: بم يستعين الرجل على حفظ بصره من المحظورات؟.. فقال: بعلمه أن رؤية الحق - سبحانه - سابقة على نظره إلى تلك المحظورات.. فلو امتد بصره إلى امرأة فاتنة.. رأى عين الله ترقبه.. فيستحى.. فيغض تلك النظرة الخائنة.. لأنه يعلم أن الله: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾[٤].

قلت: معنى هذا أن الإنسان إذا رقب الله.. فلن يستطيع أن يرتكب خطأ.. لأنه فى كل لحظة يعلم أن عين الله ترقبه؟.

قال: نعم.. فقد حكى أن ابن عمر - رضى الله عنهما - مرّ بغلام يرعى غنما فى شعاب الجبال.. وقد أدرك الجوع ابن عمر وصحبه.. فقال للغلام: بعنا حملا من هذه الغنم.. فقال الغلام: ياسيدى الغنم ليست غنمى.. وإنما أنا راع عند صاحبها.. فقال له ابن عمر: بعنا حملا وقل لسيدك إن الذئب أكله.. فقال له الغلام: هذا ما أقوله لسيدى.. فماذا أقول لربى؟.

فأعجب ابن عمر بهذا الغلام.. وبشدّة مراقبته لله.. فاشتراه من سيده.. واشترى معه الغنم.. ثم أعتقه ووهبه الغنم.. وظل ابن عمر مدة طويلة يذكر مراقبة هذا العبد مولاه.. ويكرر قوله: فماذا أقول لربى؟.

فصاحب المراقبة يستحيى من الرقيب.. فيدع المعاصى استحياء منه وهيبة له.. وهذا أفضل كثيرا

---

(١) سورة النساء الآية ١.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٢.

(٣) سورة المائدة الآية ١١٧.

(٤) سورة غافر الآية ١٩

ممن يترك المعاصى طمعا فى الجزاء.. وخوفا من العقاب.. لقوله تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾[٥].

قلت: هل توجد علاقة بين اسم – الرقيب – وأسماء أخرى من أسمائه تعالى؟

قال: نحن نرى من مقتضيات الأسماء: المهيمن.. والسميع.. والبصير.. والخبير.. والحكيم.. وجود الاسم – الرقيب – لأنه من مقتضيات هذه الأسماء الكريمة.. فالرقيب القويب هو الذى: ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض﴾[٦] فهو بصير خبير لكل شيء وبكل شيء.. تماما كما يقتضى اسما: السميع والرقيب.. تجلى الاسم – المجيب –.

قلت: تقول يا أستاذى: إن السميع والرقيب.. يقتضيان تجلى اسم – المجيب؟

قال: نعم.. اسما: الرقيب والسميع يقتضيان تجلى اسم المجيب.. بشفاعة الاسم – الرحيم – فإنه تعالى يرشدنا فى كتابه الحكيم.. باستجابته لنداء عباده الذين نادوه.. استجاب لهم بمحض رحمته.. أى بشفاعة الاسم – الرحيم – ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾[٧] ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسّنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾[٨] ولكنك يابنى قد خرجت بنا بسؤالك هذا عن الاسم – الرقيب – إلى الاسم – المجيب – ولم يحن وقته بعد.. فعد بنا إلى اسمه تعالى – الرقيب.

قلت: معنى هذا يا أستاذى أن اسم – الرقيب – له دور كبير.. فى مجليات كثير من الأسماء؟

قال: نعم.. إن اسم الرقيب عامل هام مع الاسم – الحسيب – أيضا من غير الأسماء التى ذكرناها.. فقد رُئى بعض الصالحين فى المنام.. فقيل له: ما فعل بك الله قال: غفر لى.. وأحسن إلىّ كثيرا.. إلا أنه حاسبنى.. حتى طالبنى بيوم كنت صائما فيه.. وكنت قاعدا على حانوت صديق لى يتاجر فى الحنطة.. فلما كان وقت الإفطار.. أخذت حبة حنطة فكسرتها بأسنانى وأكلتها من غير إذنه.. فأخذ صديقى هذا من حسناتى بمقدار تلك الحبة.. ولقد رأيت صدق كتاب الله تعالى عندما قال عنه: ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾[٩].

قلت: إذن يجب أن نرقب الله فى كل حركاتنا وسكناتنا؟

قال: يجب ألا نضيع عمرنا فى الجهالة.. ولا نمحق وقتنا فى الغفلات والبطالة.. ونجعل الرقيب نصب أعيننا فى السرّ والعلن.. فى الروحة والغدوة.. فى اللفتة والنظرة.. فهو الرقيب الحسيب.. وأهل المراقبة بعيدو النظر.. حديدو البصر.

قيل لبعض الأئمة فى البصرة: إن بالبصرة شابا صالحا.. ولكنه لا يحضر مجلسك.. فذهب الإمام إليه وسأله: لم لا تحضر مجلسنا.. وأنا أرى فى وجهك نور الإيمان؟.. فقال له: ياسيدى أنا أنوى كل يوم أن أحضر مجلسك.. فإذا أمسيت.. استقبلنى قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾[١٠]..

---

(٥) سورة العلق الآية ١٤.
(٦) سورة سبأ الآية ٣.
(٧) سورة الصافات الآية ٧٥.
(٨) سورة الأنبياء الآيتان ٨٣، ٨٤.
(٩) سورة الكهف الآية ٤٩.
(١٠) سورة السجدة الآية ١١.

فأفكر فى ذلك.. كيف يكون حالى؟ ثم يستقبلنى قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[11] فأفكر فى ضيق القبر.. كيف يكون حالى فيه.

ثم يستقبلنى قوله تعالى: ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾[12] فافكر فى القيامة كيف يكون فيها حالى. ثم يستقبلنى قوله تعالى: ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾[13] فأفكر فى أى الفريقين أكون.. فيفوتنى حضور مجلسك.. فصاح الإمام صيحة.. ثم قال: إنى فى حاجة لأن أحضر مجلسك.

قلت: وما المقصود بلفظ رقيب فى قوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لُديه رقيب عتيد﴾[14]؟

قال: قالوا: الرقيب فى تلك الآية معناه: الحافظ.. والعتيد يعنى الحاضر.. ولكن الغالب على أن رقيب وعتيد من الكرام الكاتبين.. وأنهما ملكان يسجلان على الإنسان كل ما يعمل من حسنات وسيئات.. فرقيب يسجل الحسنات.. وعتيد يسجل السيئات.. يقول تعالى قبل الآية السابقة مباشرة: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[14] ويقول: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾[15] ويقول أيضا: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾[16] ومعنى المعقبات أن الملكين الكريمين: رقيب وعتيد.. يعتقبان فى حفظه وتسجيل عمله.. وهى من أمر الله تعالى.

وهكذا نجد أنك مضطر إلى مراقبة الرقيب - جل شأنه - فإن من أيقن أن آخر عمره دخول اللحد.. لم يشتغل بتزيين المهد.. بل عمَّر قبره.. ولم يشيد قصره.. ومن علم أنه لابدّ أن يركب الأعناق والأجياد.. لم يبتهج بركوب فاخر العربات وأصيل الجياد.. واعلم أن مالك إن لم يزل عنك بحادث.. زال عنك بوارث.

نسأل الله تعالى أن يجعل اسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا عالقة بمراقبته.. إنه سميع مجيب.

وقد آن لنا الآن أن ننتقل إلى اسمه تعالى - المجيب.

قلت: لى سؤال قبل أن ننتقل إلى اسم - المجيب - هو: هل يجوز أن يتصف العبد بأنه - رقيب -؟

قال: الإنسان رقيب بمراقبته لربه.. فيعلم أن الله رقيبه وشاهده فى كل شىء.. وهو أيضا رقيب على نفسه وشيطانه.. لعلمه أنهما عدوّاه.. يدفعانه إلى الغفلة والمخالفة.. فيأخذ منها حذره فيلاحظ مكامنهما ومواضع انبعاثهما.. فيسد عليهما المنافذ والمجارى.. فهذه مراقبة.. ألم تر أن المراقبة تدفع المرء إلى غضّ البصر عن محارم الله.. فمن كثرت لحظاته.. دامت حسراته.

وتلك خاصية الذكر بهذا الاسم.

وإلى الاسم - المجيب - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١١) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.
(١٢) سورة ق الآية ٤١.
(١٣) سورة الشورى الآية ٧.
(١٤) سورة ق الآيتان ١٧، ١٨.
(١٥) سورة الانفطار الآيات ١٠-١٢.
(١٦) سورة الرعد الآية ١١.

٤٥ - المجيب

قلت: أى الأسماء تشرق أنواره بعد اسم - الرقيب؟

قال: لقد أشرقت علينا أنوار اسمه تعالى - المجيب - وهو الاسم التالى بعد اسم الرقيب.

قلت: هل ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم؟

قال: نعم.. يقول تعالى: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾[١] كما قال تعالى: ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾[٢].

قلت: أرى هذا الاسم - المجيب - مقترنًا بالقرب فى الآيتين السابقتين.. فهل توجد علاقة بين الإجابة والقرب؟

قال: إن اسم المجيب - من مقتضيات بعض الأسماء.. مثل - السميع - لأن الإجابة نتيجة طبيعية لسماع الدعاء.. ولهذا يقول تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾[٣] والسميع لابدّ أن يكون قريبًا.

قلت: وهل يرتبط الاسم - المجيب - مع أسماء أخرى غير اسم السميع؟

قال: اسم المجيب - يرتبط ارتباطًا وثيقًا مع اسمه تعالى - الرحيم - فقد تكون الاستجابة منافية للرحمة.

قلت: هذا عجيب.. كيف تكون الاستجابة منافيه للرحمة؟

قال: الإنسان جهول.. لا يستطيع أن يميز بين الخير والشر بالنسبة لنفسه.. اقرأ قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[٤] وقال أيضًا: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾[٥] ولهذا قال عن الدعاء ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً﴾[٦] فقد يدعو الإنسان ربه.. ملحًّا فى طلب شىء.. وهو لا يدرى أن فى الاستجابة له ضرراً كبيرًا.. وشرا مستطيرًا.. فيشفع له الاسم - الرحيم- لعدم الاستجابة له رحمة به.

أما فى مواقف الشدة والبأس.. فإن الرءوف الرحيم.. يرشدنا فى كتابه الحكيم.. باستجابته لنداء أحبابه بمحض رحمته.. فيقول: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾[٧].. ويقول ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسّنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضرّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾[٨].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦.
(٢) سورة هود الآية ٦١.
(٣) سورة الأنعام الآية ٣٦.
(٤) سورة البقرة الآية ٢١٦.
(٥) سورة النساء الآية ١٩.
(٦) سورة الإسراء الآية ١١.
(٧) سورة الصافات الآية ٧٥.
(٨) سورة الأنبياء الآية ٨٣.

وبعد ذكر إسماعيل وإدريس وذى الكفل قال: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾(٩).

فانظر بلطف العقل وراء صور الحروف.. وماذا تحويه سور القرآن.. لعلك تشهد فى لمحة من لمحات الصفاء طيفًا من مشاهد الجلال.. برحمة من الرقيب القريب.. السميع المجيب.. الرءوف الرحيم.. ومن هنا تعبد الله على غير حرف.. عبادة صادرة عن دين خالص.. ورضاء كامل بحكمة الحكيم.. وقدرة المقدرٍ.. سرَّك ذلك أو ساءك.. ولا تكون من الذين قال الله تعالى - عنهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾(١٠).

وماكان ذلك إلّا لما هو فيه من عمى البصيرة عن مقتضيات الأسماء وتجلياتها على مختلف مجاليها.

واعلم أن من خصائص لطف الله المجيب أنه يعطى قبل السؤال.. ويحقق مراد عبده بعد سؤاله بجميل النوال.

وجاء فى الخبر: أن الله تعالى يستحيى أن يرد يد عبده صفرا.. ولكن للدعاء شروط وآداب.

قلت: وماهى شروط الدعاء وآدابه؟

قال: لا شك أن الدعاء مخ العبادة.. ويقول تعالى: ﴿قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾(١١).

وقد ورد فى الخبر.. أن الله تعالى قال لآدم عليه السلام - بعد هبوطه من الجنة: «يا آدم أجمع لك العلم كله فى أربع كلمات:

واحدة لى.. وواحدة لك.. وواحدة بينى وبينك.. وواحدة بينك وبين الناس. فأما الكلمة التى لى... فألّا تشرك بى شيئًا.

وأما الكلمة التى لك.. فأجزيك بعملك.

وأما الكلمة التى بينى وبينك.. فمنك الدعاء ومنى الإجابة.

وأما الكلمة التى بينك وبين الناس.. فأن ترضى لهم ماترضى لنفسك.

ولكن لو تأملنا قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾(١٢) نجد أن الله تعالى يطلب منا الاستجابة له أولاً.. كشرط من شروط صحة الدعاء.

قلت: وكيف نستجيب نحن لله؟

قال: سأضرب لك مثلاً: رجل بخيل.. شحيح النفس.. لا يطعم طعامًا.. ولا يساعد محتاجًا.. فهذا الرجل لم يستجب لله تعالى - فى صفة الكريم.. لأن الله كريم يحب الكرام.. فهل يجوز لهذا الرجل.. فى

---

(٩) سورة الأنبياء الآية ٨٨.

(١٠) سورة الحج الآية ١١.

(١١) سورة الفرقان الآية ٧٧.

(١٢) سورة البقرة الآية ١٨٦.

وقت الحاجة.. أن يقول يا كريم؟ إنها تكون منه بجاحة وصفاقة.. فكيف يدعوه من لم يستجب له – تعالى – فى صفاته؟ أما إذا كنت كريمًا.. تطعم الطعام.. وتعطى المحتاج.. كان من حقك أن تتجه إلى الله فى وقت الحاجة.. وتكون الاستجابة لك أقرب إليك من لفظ الدعاء.. لأنك قد استجبت له فى صفة الكرم.. فلزم أن يثبت لك أنه مصدر الكرم الذى استجبت له فيه.

وكذلك الرجل القاسى.. الذى لم يستجب لله فى صفة الرحمة.. لا يجوز له فى وقت الضيق أن يقول يا رحيم.. ولهذا قيل: ارحموا من فى الأرض.. يرحمكم من فى السماء. وهكذا تكون استجابة العبد لله فى جميع صفاته – تعالى – مؤهلاً لاستجابة الله له عند الدعاء.

فهل فهمت معنى الاستجابة لله تعالى قبل الدعاء؟

قلت: نعم.. لقد وضح هذا الأمر.. وهل من حق الانسان أن يدعو الله بما يشاء؟

قال: من أدب الدعاء.. أن تطلب من الله شيئًا يتناسب مع عظمته وجلاله.. وكرمه وكماله.

فأنت إذا طلبت منه تعالى.. ملكات جمال العالم.. وقناطير الذهب والفضة.. وفاخر السيارات.. وشاهق العمارات.. مع عمر نوح – عليه السلام – فى أقوى صحة وأهنأ حال.. واستجاب الله – تعالى – لك وأعطاك كل ما سألت.. فإنك فى الواقع لم تطلب منه إلا شيئًا حقيرًا.. وأمرًا تافهًا صغيرًا.. فقد قال المعصوم – صلوات الله وسلامه عليه: «لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء» فالدنيا بكل ما فيها من نساء وبنين.. وقناطير من الذهب والفضة.. وخيل مسومة.. وأنعام.. وحرث.. كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. فهل يجوز أن تطلب من الكريم الغنى الواسع الوهاب شيئًا تافهًا لا يساوى جناح ذبابة؟ إن الله يريد منك أن تطلب منه شيئًا ذا قيمة.. كالعفو والعافية.. وتثبيت الإيمان.. والتوفيق والهدى والنور.. والسعادة فى الدين.. وإصلاح البال.. وحسن المآل.

الجأ إلى الله فى الهم والحزن.. والخوف والحاجة. يقول جعفر بن محمد الباقر – رضى الله عنه.. عجبت لمن يخاف.. لم لا يفزع إلى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ فقد سمعت الله عقبها يقول: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾[13] وعجبت لمن يغتم.. لم لا يفزع إلى: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ فقد سمعت الله عقبها يقول: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾[14] وعجبت لمن يُمكر به.. لم لا يفزع إلى: ﴿وأفوض أمرى إلى الله﴾ فقد سمعت الله عقبها يقول: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾[15].

قلت: يقول تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[16] فكيف أدعو الله بأسمائه تعالى؟

قال: إذا كنت مظلومًا.. فادع الله باسمه.. الحكم العدل.. وإذا كنت مستذَلاً.. فادع الله باسمه القوى العزيز. وإذا كنت فقيرًا محتاجاً.. فادع الله باسمه.. الرزاق الوهاب الكريم.. وهكذا كل اسم من اسمائه تعالى له اختصاص فى الدعاء بحسب حاجة الداعى.

قلت: هل توجد أوقات يستجاب فيها الدعاء؟

---

(١٣) سورة آل عمران الآية ١٧٤.
(١٤) سورة الأنبياء الآية ٨٨.
(١٥) سورة غافر الآية ٤٥.
(١٦) سورة الأعراف الآية ١٨٠.

قال: نعم.. يقول - ﷺ: «إن لله فى أوقات دهركم نفحات.. ألا فتعرضوا لها» فأوقات السحر.. وليلة الجمعة.. وليالى القدر.. وليلة النصف من شعبان.. وعقب كل صلاة.. كلها من الأوقات التى يستجاب فيها الدعاء.

قلت: وهل توجد أماكن يستجاب فيها الدعاء؟

قال: يقول - ﷺ: «أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد» فمن مكان السجود.. حيث التقاء الجبهة - وهى أشرف مكان من جسم الإنسان - بالأرض بين يدى الله تعالى يكون الدعاء أقرب قبولاً.. وأسرع إجابة وقد قرأت عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - رواية معناها أنها قالت: كان ﷺ يصلى فى ظلمة حجرتها.. ففتحت الباب فوجدته ساجدًا.. ورأت عمودًا من النور يصل من رأسه إلى سقف المكان.. فأغلقت الباب فى هدوء.. وانتظرت ساعة.. ثم فتحت الباب فوجدته مازال ساجدًا ومازال عمود النور متصلاً.. فأغلقت الباب للمرة الثانية.. ثم فتحته بعد ساعة فوجدته مازال ساجدًا ومازال عمود النور متصلًا.. فظنت أنه قُبِض.. فلمست إبهام رجله اليمنى.. فحرك إصبعه.. ثم جلس وتشهد وسلم.. ثم قال لها: «هل ظننت أنى خِسْتُ[17] بك ياحميراء.. ألم تعلمى أنها ليلة النصف من شعبان»؟ سجدة تتصل إلى ثلاث ساعات.. إنها مناجاة الحبيب للحبيب.

قلت: وهل يقبل الله تعالى الدعاء من الكافر؟

قال: إذا كان مظلومًا.. حيث يقول - ﷺ: «اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب» سواء أكان المظلوم مؤمنًا أو كافرًا.

وقد جاء فى صحف إبراهيم - عليه السلام - أن الله تعالى يقول لنمرود: «أيها الملك المبتلى المغرور.. إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا إلى بعضها.. ولكننى بعثتك لتردَّ عنى دعوة المظلوم.. فإنى لا أستطيع ردها ولو كانت من كافر» وكذلك دعاء الآباء للأبناء.. ولو كان الأبوان كافرين.

قلت: نرى بعض الناس يستجاب لهم.. وبعضهم لايستجاب له.. فما السبب؟

قال: على قدر يقين الداعى تكون الاستجابة.. ولهذا يقول ﷺ: «ادع الله وأنت موقن بالإجابة» ولكن لاتعجل.. فربما يضيق الحال بالداعى.. حتى إذا يئس وظن أن الله لن يستجيب له.. تداركه بحسن إيجاده.. وجميل إمداده.

وقد قرأت فيما قرأت.. أن بعض الصالحين.. مشى مع أحد تلاميذه فى بعض الأسفار.. حتى وصلا الكوفة.. فدخلا مسجدًا قديمًا بها.. ثم نظر الشيخ إلى تلميذه قائلاً: إنى أرى بك الجوع.. فقال التلميذ: هو كما ترى يا أستاذى.. فقال له: أعطنى الدواة والقرطاس.. فجاءه بهما.. فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.. أنت المقصود إليه بكل حال.. والمشار اليه بكل معنى..

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ ... أنا جائع أنا ظامئٌ أنا عارى
هى سِتَّةٌ وأنا الضَمِين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا بارى
سُؤلى لغيرك لهبُ نارٍ خضتُها ... فأجِرْ عبادك من دخول النار

---

(17) خست بك أى ظلمتك.

ثم دفع الورقة إلى تلميذه.. وقال له: ادفعها إلى أول من تلقاه.. فلقيه شاب حسن الوجه.. نظيف الثياب.. راكبًا بغلة.. فناوله الورقة وقال له: يقول لك أستاذى خذ هذه الورقة.. فنظر فيها الشاب وبكى.. وقال له: أين صاحب تلك الورقة؟.. فقال له: فى المسجد الفلانى.. فناوله صرة فيها ستمائة دينار وقال له: احملها إليه.

فسأل التلميذ بعض الناس: من هذا الشاب؟.. قالوا: إنه نصرانى.. ثم ذهب إلى شيخه وأخبره بما حصل.. وإذا بالشاب يقبل.. حتى دخل على الشيخ.. وقبل رأسه وقال: نِعْم ما أرشدتنى.. أخبرنى عن الإسلام.. فأخبره فأسلم.

قلت: هل يجوز أن يتصف العبد بأنه مجيب؟

قال: العبد يجب أن يكون مجيبًا أولاً لله تعالى.. فى تنفيذ أوامره.. واجتناب نواهيه.. ثم يكون مجيباً للعباد فيما أنعم الله عليه ببذل المال.. ومساعدة المحتاج.. وإرشاد الضال.. وتلبية الدعوة والسؤال.. ولهذا روى الإمام أحمد فى مسنده.. وابن حبان فى صحيحه.. والترمذى فى سننه.. عن أنس رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: «لو أهدى إلىَّ كراع لقبلت.. ولو دعيت عليه لأجبت» وهذا كرم وفضل منه ﷺ بقبول الهدايا.. وإجابة الدعوات.. لما فيه من إسعاد للداعى.. وكم من خسيس متكبر.. يترفع عن قبول الهدية.. ويتأفف من حضور الدعوة كبرًا وصلفًا.. فهذا لا نصيب له فى هذا الاسم.

قلت: وما خواص هذا الاسم فى الدعاء؟

قال: على الذاكر بهذا الاسم أن يلتزم بإجابة المحتاج أولاً ليستجيب الله له.. وقد قرأت رواية عن ابن عباس – رضى الله عنه – معناها أن سائلا سأل امرأة وفى فمها لقمة.. فأخرجت اللقمة وناولتها السائل.. ورزقها الله غلامًا.. فدخل خباءها ذئب.. فاحتمل ولدها.. فخرجت تعدو فى أثر الذئب وهى تقول: يارب.. ابنى.. ابنى .. فأمر الله ملكًا أن يلحق بالذئب ويأخذ الصبى من فيه.. ويقول لأمه هذه لقمة بلقمة. ويصلح ذكر اسم – المجيب – لعقد ألسنة السوء من الحاقدين والحاسدين وهو من الأسماء السريعة الإجابة.

قلت: حقًا إن الله – سميع مجيب.. واسع قريب.

قال: وها أنت قد نقلتنا إلى اسمه تعالى – الواسع.

* * *

٤٦ - الواسع

قلت: هل انتقلنا إلى اسم الله تعالى - الواسع -؟.

قال: نعم فهو الاسم الذى يلى اسمه تعالى - المجيب.

قلت: وهل معنى هذا أن هناك ترابط بين الاسمين الكريمين: المجيب والواسع؟.

قال: الترابط قوى بين الاسمين.. لأن الله تعالى واسع العطاء عند الإجابة.. ولعلك تذكر ما قلناه حول الاسم - الكريم - من أنه تعالى يعطى بغير حساب.. وضربنا المثل بقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾[1] ورأينا كيف أن الله يشترى الأنفس والأموال.. وهى حاجته هو.. وهبها الإنسان من غير مقابل.. يشتريها منه بثمن لاحدّ لوصفه.. ولا تقدير لقيمته.. جنة عرضها السماوات والأرض.. فيها ما فيها من نعيم خالد.. وسعادة أبدية..وملك لا يبلى.. أليس هذا المشترى واسع كريم؟.

قلت: إذن فمعنى الواسع أنه كثير العطاء؟.

قال: هذا معنى أقرّه كثير من العلماء.. فقالوا: الواسع هو وافر العطاء.. كثير الخير. وإذا كانت العرب تقول: فلان مُوسِع إذا كان غنيا.. كما يقول تعالى: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾[2] ويقول أيضا: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾[3].. يعنى ذوغنى من غناه.

ويقول: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما﴾[4] إلا أن الغنى لا نسميه مُوسِعًا إلا إذا كان منفقًا.. فالله تعالى هو الغنى.. وهو الواسع.. كثير العطاء.. ولكن عطاءه لا يُعدُّ ولا يحصى.. وآلاءه لا تُحدُّ ولا تستقصى: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾[5].

قلت: وهل ورد فى القرآن الكريم ما يشير إلى هذا المعنى مقترنا بأسم الواسع؟.

قال: اقرأ مثلا قوله تعالى: ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾[6] واقرأ: ﴿والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾[7] ثم اقرأ: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾[8].

قلت: أرى اسم - الواسع - فى الآيات التى ذكرتها.. مقترنا باسمه تعالى - العليم - فما معنى هذا؟

قال: لقد فسر بعض العلماء اسمه تعالى - الواسع - بأنه العالم.. لقوله تعالى: ﴿ربنا وسعت كل

(١) سورة التوبة الآية ١١١.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٦.
(٣) سورة الطلاق الآية ٧.
(٤) سورة النساء الآية ١٣٠.
(٥) سورة إبراهيم الآية ٣٤.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٤٧.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٦١.
(٨) سورة النور الآية ٣٢.

شيء رحمة وعلما﴾[٩].... وقوله: ﴿وسع كرسية السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما﴾[١٠] ومعناها أنه سبحانه أحاط بكل شيء علما.

قلت: فهمت الآن عن اسم – الواسع – معنيين: معنى الغنى .. كثير العطاء.. ومعنى العليم.. الذى أحاط بكل شيء علما.. فهل يحتمل هذا الاسم معنى آخر؟.

قال: إن هذا الاسم واسع المعانى أيضًا.. فهو سبحانه.. واسع الفضل كذلك.. وأفضل الفضل المغفرة والعفو.. وهل يوجد عطاء.. أجلّ وأعظم من المغفرة والعفو.. والجزاء بأحسن الأعمال.. والتجاوز عن سيء الفعال؟.

يقول تعالى: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم﴾[١١] ويقول: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[١٢] ويقول: ﴿إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم﴾[١٣] ويقول: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[١٤].

قلت: حقا إن هذا الاسم.. يسع كل تلك المعانى.

قال: نعم.. فهو واسع الغنى والعطاء.. وواسع الإحاطة والعلم.. وواسع الفضل والمغفرة.. وواسع الرحمة.. فقد وسعت رحمته كل شيء.

قلت: لقد ذكرتنى يا أستاذ.. أن الله تعالى يقول: ﴿ورحمتى وسعت كل شيء﴾[١٥] فكيف وسعت رحمته المعذبين فى جهنم يوم القيامة؟.

قال: قال أهل العلم: نعم الله سبحانه – على الناس.. على نوعين: نعم نافعة.. ونعم دافعة. فالنعم النافعة: ما وهبهم مما يجلب لهم خيرا.. والدافعة: ما منعهم مما يتسبب لهم شرا.

وقالوا: إن المشركين فى النار وإن لم تكن لله عليهم نعمة نفع – فإن له عليهم نعمة دفع.. لأنه – سبحانه – يستطيع أن يعذبهم بأكثر مما يعذبهم به.. فإذا لم يعذبهم بأكثر مما هم فيه من العذاب.. كان ذلك دفعا عنهم.. وتلك نعمة باطنة.

ومن آداب من عرف أن إحسان الله إليه.. واسع لا يتناهى.. أن يكبح جماح نفسه عن العصيان.. استحياء.. من واسع كرمه وكثرة إنعامه.

وليست نعم الله على العبد.. محصورة فى نوال مطلوب.. وامتلاك مرغوب.. وانتظام أسباب الدنيا.. والتمكن من تحصيل المنى. والوصول.. فيها إلى الهوى.. بل لطف الله سبحانه – فى دفع البلايا.. ورفع الرزايا.. مما لا يعلمه الإنسان: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[١٦] فالنعم الباطنة أوسع وأعظم من النعم الظاهرة.. لو تعلمون.

قلت: معنى هذا أن المؤمن يجب أن يستجيب لله فى صفة الواسع – فيوسع على سواه.. تنفيذا لقوله

---

(٩) سورة غافر الآية ٧.
(١٠) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(١١) سورة البقرة الآية ٢٦٨.
(١٢) سورة آل عمران الآية ٧٣.
(١٣) سورة النجم الآية ٣٢.
(١٤) سورة المائدة الآية ٥٤.
(١٥) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(١٦) سورة لقمان الآية ٢٠.

تعالى: ﴿فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾(١٧).

قال: إن العبد إذا علم أن الله تعالى يعطيه ما يكفيه.. لا يبخل عليه بما يأمر به.. بل يوسع على عباده إذا وسع الله عليه.. وفى حالة الضيق ينتظر الفرج من الله تعالى وأحسن إلى الناس بكلمة طيبة ووجه باسم.. فقد قيل:

إن البخيل من ضَنَّ بالبشْر والكلام الحسن.. ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿وكان الله واسعا حكيما﴾(١٨) والذكر بهذا الاسم مفيد فى سعة الرزق وفتح أبواب الخير والسعادة.. وإلى الاسم - الحكيم إن شاء الله تعالى.

* * *

(١٧) سورة البقرة الآية ١٨٦.

(١٨) سورة النساء الآية ١٣٠.

٤٧ - الحكيم

قلت: هل الاسم التالى هو اسمه تعالى - الحكيم -؟.

قال: نعم.. الاسم الحكيم هو الاسم التالى بعد اسمه تعالى - الواسع -.

قلت: هل ورد اسم - الحكيم - فى القرآن الكريم؟.

قال: ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم سبعا وتسعين مرة مثل: ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾[١] و: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾[٢] و: ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾[٣].

قلت: وما معنى - الحكيم -؟.

قال: الحكمة هى وضع الشىء فى محله.. والحكمة عند اليونان هى دراسة حقائق الأشياء الثابتة.. وهى عند العلماء - الفلسفة - ويظهر أن تسميتها بالفلسفة منبثقة من الاسم الإغريقى المؤلف من مقطعين «فيلا - سوف» ومعناها بلسان الإغريق «محب الحكمة».

قلت: فهل الله - تعالى - حكيم بهذا المعنى؟.

قال: كلا.. لأنه كما قدمنا فى الصفة الرابعة من صفاته - تعالى - العشرين.. مخالف للحوادث.. فى كل زاوية من الزوايا.. فالحكيم - سبحانه - اسم قد تجلى على مجالى متفاوته الآفاق.. فتظهر حكمته فى عالم النبات بصورة يدرسها علماء النبات وفى عالم الحيوان بصورة يدرسها علماء الحيوان.. وهكذا فى عالم الجماد والأثير وما حواه كل منها.. كل هذا لا يمكن أن يتم إلّا بحكمة الله.. مما يبدو فى الكائنات من تنافر أو تجاذب .. أونسبة أوتناسب.. أو ملاءمة أومتافرة.. أو ازدواج أو اقتران.. أو غير ذلك من مظاهر الكون.

كل هذا أثر إيجابى لتجليات الاسم - الحكيم - فى جميع هذه المجالى، وحدوثها هكذا دليل مادى على حكمته وإتقان صنعته وإبداعه وحسن تكون مخلوقاته.

ولو أننا أمعنا النظر فيما جاء فى سورة الواقعة:

﴿أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[٤] نجده تعالى يحدثنا فى تلك الآية عن أخص خصائص الحيوان.. ثم انتقل إلى عالم النبات فقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[٥] ثم انتقل إلى الماء فقال: ﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[٦] ثم أنتقل من الماء إلى النار.. فقال: ﴿أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٢
(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٩
(٣) سورة الأنعام الآية ١٨
(٤) سورة الواقعة الآيتان ٥٨، ٥٩.
(٥) سورة الواقعة الآيتان ٦٣-٦٤
(٦) سورة الواقعة الآيتان ٦٩

شجرتها أم نحن المنشئون﴾[٧] أجل لو تأملنا ما تنطوى عليه هذه الآيات.. لعلمنا إلى أى مدى سرت حكمته فى الكائنات. صغيرها وكبيرها.. دقيقها وجليلها.. سرياناً لا يمكن للعبارات الحرفيةأن تمثل صفته الكبرى وراء العقول: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[٨].

قلت: وما هى الاسماء التى تدور فى فلك الاسم - الحكيم -؟.

قال: أهم الأسماء التى تدور فى فلك الاسم - الحكيم - الاسمان: القابض والباسط.. فيقبض أويبسط بحكمته عندما يكون الاسم القابض أو الاسم الباسط عاملا من عوامل الاسم - الرحيم - أو عاملا من عوامل الاسم - الجبار المنتقم -.

وبهذا لا يكون القبض دليلا على غضب.. ولا البسط دليلا على رضا.. حيث قد انعكست أحكام البشر عندما يكون القبض لحكمة أو رحمة.. وعندما يكون البسط لمكر ونقمة كما بينا ذلك بإفاضة عندما تحدثنا عن الاسمين الكريمين: القابض والباسط.

وأقرب مثل لذلك قول الله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾[٩] فإذا رأينا الاسم - الحكيم - يؤيده الاسم - المهيمن - ليرسم الخطة للاسم - الرازق - فيحدث الرزق كما تقتضيه تجليات الحكمة من الاسم - الحكيم -.

قلت: وهل يفيض الله تعالى بالحكمة على بعض عباده؟.

قال: لو تأملنا قوله تعالى: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾[١٠] نجد أن (من) للتبعيض.. ومعنى هذا أنه تعالى يعطى عباده بعضًا مما يسألونه.. أما من يعطيه الله كل ما سأل.. فهو الذى يؤتَى الحكمة.. لقوله تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا﴾[١١].

والصفوة المقربون هم الذين يؤتيهم الله الحكمة.. مثل قوله تعالى عن يوسف - عليه السلام -: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾[١٢] وقوله عن موسى - عليه السلام -: ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما﴾[١٣].

وقوله عن يحيى - عليه السلام -:

﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا﴾[١٤].

وكذلك قوله عن عيسى - عليه السلام - فى موقع آخر: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾[١٥] كما يقول لخاتم رسله - ﷺ -: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم﴾[١٦].

قلت: أرى فى كثير من الآيات لفظى الكتاب والحكمة مقترنين.. فما الكتاب وما الحكمة؟.

---

(٧) سورة الواقعة الآيتان ٧٢
(٨) سورة المؤمنون الآية ١٤
(٩) سورة الشورى الآية ٢٧
(١٠) سورة إبراهيم الآية ٣٤
(١١) سورة البقرة الآية ٢٦٩
(١٢) سورة يوسف الآية ٢٢
(١٣) سورة القصص الآية ١٤
(١٤) سورة مريم الآية ١٢
(١٥) سورة آل عمران الآية ٤٨
(١٦) سورة النساء الآية ١١٣

قال: نعم ورد اللفظان مقترنان فى كثير من الآيات غير ما ذكرنا. فاقرأ مثلا: ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾[17] واقرأ قول الله تعالى للرسل فى آية الميثاق: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه﴾[18].

وجاءت الحكمة مفردة.. فى مثل قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله﴾[19] و: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾[20] ومدى ما ألهمنا الله من معنى الكتاب والحكمة.. أن الكتاب هو نص الكتب المنزلة من السماء.. وأن الحكمة هو مفهوم هذا النص وروحه وما يحويه من أهداف سامية ومعان عميقة الغور.. بعيدة المدى.. لا يستوعبها إلا الحكماء.

قلت: هل يجوز أن نسمى القرآن ذاته حكيما؟.

قال: لقد بدأ الله تعالى سورة ﴿يس﴾ وهى قلب القرآن.. باعتبار القرآن فى هذا المقام - حكيما - وهو صفة - الحكيم - سبحانه بقوله: ﴿يس * والقرآن الحكيم﴾ إشارة إلى عظمة القرآن الحكيم.. أقسم به فى مطلع ﴿يس﴾ ليدلنا على أن الأمر فى الحكمة أجل وأعظم من تلك النظرة السطحية للآيات.

على أن رعاية الحكمة كان أمرا مقرونا بالذكر فى بيت محمد - ﷺ -.

بقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا﴾[21] مؤكدا الطهر بالمصدر فى قوله: ﴿ويطهركم تطهيرا﴾ فإن الطهر لا يتأتى إلّا من ذكر ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله على حدة.. ومن الحكمة على حدة باعتبار الحكمة أمرا آخر غير مجرد الآيات.

ذلك لأن تجليات الاسم - الحكيم - فى الحكمة القرآنية.. تفتح فى النفوس المستعدة.. من آفاق المعرفة ما لا يتسنى لمجرد ظواهر الآيات بعثّهُ فى أعماق الصدور.

ومن ثم يتعين أن نشير إلى ذلك المثل.. الذى ضربه الله تعالى عن أحبار اليهود.. الجامدين على ظواهر النصوص.. دون عناية بالحكمة.. ولا إيمان بالحكيم.. عندما قال عزّ من قائل: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا﴾[22] أى كتبا كبارا.

والمعنى الواضح أن القوم لم يتعلقوا بالحكمة من لباب الآيات.. ووقفوا جامدين وراء جدر الألفاظ وأسوار الحروف.. كما قال تعالى فى تقسيم ورثة الكتاب إلى ثلاثة أقسام بقوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه. ومنهم مقتصد. ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾[23] ذلك الفضل الذى حرم منه الواقفون عند النصوص.. المحجوبون عن شهود تجليات الحكمة من فيض الاسم - الحكيم -.

---

(١٧) سورة النساء الآية ٥٤
(١٨) سورة آل عمران الآية ٨١
(١٩) سورة لقمان الآية ١٢
(٢٠) سورة الإسراء الآية ٣٩
(٢١) سورة الأحزاب الآية ٣٤
(٢٢) سورة الجمعة الآية ٥
(٢٣) سورة فاطر الآية ٣٢

وقد تفضل - ﷺ - بشرح هذا المقام.. فى مثل قوله: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم.. كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا.. وأصاب طائفة منها أخرى لكنها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.. فذلك مثل من فقه فى دين الله.. فنفعه الله بما أنزل علىّ.. فتعلّم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا.. ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

وتبين من هذا الحديث أن مجرد التلاوة وإلقاء الحروف والأصوات من غير عناية بتجليات الحكمة.. لا يجعل عند التالى قبولا ولا قوة استعداد تؤهله لأن ينتفع هو بما يتلو.. وهذا يحول بين الناس وبين الانتفاع به.. فهو أشبه بصحراء واسعة ينهمر عليها الغيث.. ويغيب فى رمالها دون أن ينبت شيئا ينتفع به الناس.

أما القسم الأوسط.. وهو الأجادب الصخرية.. فهم الذين استوعبوا وحفظوا نصوص الكتاب... وألقوها بأمانة إلى الناس.. فهو نفع توجه منهم.. فلهم أجره على قدره.

أما القسم الأعلى.. فهم أصحاب النفوس الطيبة المشبهة بالأرض الطيبة والتربة الخصبة التى أحياها الغيث القرآنى.. فأنبتت فيها من ثمرات الحكمة القرآنية رياضَ ما تجلى به الحكيم - سبحانه وتعالى - فهى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها من أزاهير العلم وبدائع التجليات التى لا ينتهى أمدها.. ولا ينقطع مددها.. ذلك لأن النفس الطيبة هى بذاتها كلمة طيبة.

ولا يعظم عليك يا أخى أن أسميك كلمة.. فإن الله - سبحانه - قال عن المسيح عليه السلام: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾[٢٤] ومتى كانت الكلمة طيبة.. كانت ثابتة الأصل.. تضرب جذورها فى تخوم أرض الاستمداد.. وكلما امتدت تلك الجذور قام عليها نبات تلك الكلمة.. يقول تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾[٢٥].. ولا لبقائها من استمرار.. ليس فيها عمق استعداد لطلب الإمداد.. فهى سطحية غير عميقة كسطحية أولئك الذين ليس لهم من القرآن سوى ألفاظه وحروفه ورموزه.. فلا يكونون مؤمنين به حق الإيمان.. ما داموا لا يتلونه حق تلاوته.. وحق تلاوة القرآن التعمق وتلمس المعانى الروحية العليا.

إننا لو نظرنا فى تجليات الاسم - الحكيم - فى تكوين عينى الإنسان.. وتعيين إنسان قائم بذاته فى كل عين منهما.. وتجهيز الآلوف من الخيوط الشبكية فى ذلك السواد الذى يتوسط إنسان العين.. لشهدنا الحكمة مع عجزنا عن الإحاطة بمداها.

وقد امتنّ الله تعالى على عبده المسيح - عيس بن مريم - عليه السلام - حيث قال عنه: ﴿ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾[٢٦].

وعلى هذا النحو تضافرت آيات القرآن تورد آيات الكتاب مقترنة بالحكمة فكيف لا يكون

---

(٢٤) سورة النساء الآية ١٧١
(٢٥) سورة إبراهيم الآيتان ٢٤، ٢٦
(٢٦) سورة آل عمران الآية ٤٨

للحكمة مدلولها فى هذا الكتاب.. والحكمة ليست منفصلة عنه بل هى أخص خصائصه.. وأتم آثاره عملا فى النفس .. واحتمالا فى الصدر والقلب.. ونورا للبصيرة. وهو نفسه: ﴿للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾(٢٧) وما كان ذلك إلا لأنهم لم يشهدوا تجليات الاسم – الحكيم – على مجالى الحكمة فى القرآن الحكيم.

وإذا أردنا أو حاولنا استقصاء تجليات الاسم – الحكيم – فى جميع الكائنات وطبائعها وفصولها وأجناسها وأنواعها لضاق بنا المقام.. ولكننا نكتفى من تجليات الحكمة بما يتبادر لنا فى طبائع تكويننا بأنفسنا هذه.. الزاخرة بالحواس: من سمع وبصر وذوق وشم ولمس.. ومن تصور وتخيّل ووعى وتوهم وإدراك لنعلم علما ضروريا بالمباشرة.. ما هو مدى تجليات الاسم – الحكيم – وهو قرين الاسم – العليم – ومن أكثر ذكره أوتى الحكمة.. وعلمه الله دقائق العلوم ﴿والله عليم حكيم﴾.

وتجلّى حكمته وسريان لطفة يشعران بما تفضل به من بسط يد التودد بينه وبين عباده المخلصين.. الذين قرر أنه سيجعل لهم ودًّا فى قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا﴾(٢٨).

وهذا هو المدخل الفطرى للكلام عن اسم – الودود –.

* * *

---

(٢٧) سورة فصلت الآية ٤٤

(٢٨) سورة مريم الآية ٩٦.

٤٨ - الـودود

قلت: هل اسم - الودود - هو الاسم التالى بعد اسمه تعالى - الحكيم -؟.

قال: نعم حيث يدور فى فلك الاسم - الودود - الأسماء: الرزاق.. والوهاب.. والكريم.. والشكور.. والمنعم.. والمعطى.. وكل تلك الأسماء من عوامل الاسم - الحكيم -.

قلت: هل ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم؟.

قال: ورد فى قوله تعالى: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود﴾(١) وقوله: ﴿إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود﴾(٢).

قلت: وما معنى اسم - الودود -؟.

قال: فى معنى هذا الاسم قولان:

أحدهما: أنه فعول.. مبالغة من الفاعل.. كقولك: هذا رجل أكول إذا كان كثير الأكل.

الثانى: أنه فعول.. مبالغة من المفعول.. كقولك هذه بقرة حلوب بمعنى محلوبة.

والرأيان مبالغة من الودّ - وهو الحب.

فمعنى الودود - فى وصفه تعالى.. أنه يودّ المؤمنين ويوَدُّونه كما قال ﴿يحبّهم ويحبونه﴾(٣).

قلت: هل هذا الاسم من الأسماء الاشتراكية؟.

قال: نعم - الودود - من الأسماء الاشتراكية.. فاللغة تقول: رجال متوادون.. وفى الحديث المعروف: «إنما مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم.. كمثل الجسد.. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

كما قال القرآن الكريم عن أصل السعادة الزوجية: ﴿وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾(٤).

قلت: إذا كان اسم - الودود - اسما اشتراكيا.. فما معناه فى المخلوق.. وما معناه فى الخالق - جل شأنه؟.

قال: معناه فى المخلوق الحادث.. هو لطف المعاشرة.. وإخلاص المحبة ونقاء السريرة نقاء يفضى إلى التعاطف.. وتعلق القلب.. وحب التواصل والتزاور.. إلى غير ذلك من مشاعر الولاء.

أما بالنسبة للقديم - سبحانه وتعالى - فهو المفيض بالخير حنانا من لدنه ورأفة وحبا وإمدادا وإسعادا.. فهو سبحانه وصف لعبده زكريا فيض عطفه عليه بولده يحيى - عليهما السلام: ﴿وحنانا

---

(١) سورة هود الآية ٩٠.
(٢) سورة البرج الآيتان ١٣، ١٤.
(٣) سورة المائدة الآية ٥٤.
(٤) سورة الروم الآية ٢١.

من لدنّا وزكاة﴾[٥] فهو يذكر له ما يفيض به قلب يحيى من حنان على أبويه.. وأن ذلك الحنان من لدنه – سبحانه وتعالى –.

قلت: هل يتحد معنى الاسمين الكريمين: الودود والحنّان –؟.

قال: الاسمان متعلقان وليسا مترادفين.. فإن مجرد الحنان هو مطلق الرحمة وهو من اللوازم الاقتضائية والاقتضاءات الذاتية للاسم – الرحيم – ولكن الود هو شدّة الحب.. ولذلك قال عن الذين آمنوا أنهم: ﴿أشدّ حبًّا لله﴾[٦] بسبب ما جعل لهم من – ود – من لدنه سبحانه.

ولكن مفهوم الحنان.. وإن لم يغاير المعنى الذى قلناه – إلا أنه يختص بالفيض المجرد بكل ما تحتاج إليه الكائنات لكمال وجودها.. وتمام نشأتها.. فهذا فيض الحنان بالماء والهواء والنبات وغير ذلك من متاع الإنسان والحيوان معا.. مثل قوله تعالى: ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾[٧] وقوله: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾[٨] تلك هى تجليات: الحنّان والرزاق.. ولهذا لم يرد اسم – الحنان – فى اسماء الله الحسنى المعروفة.

ولكن تجليات الاسم – الودود – تتعلق بحركات القلوب وخطرات المشاعر.. وكلمات الضمائر.. وشتان بينهما على ما ترى.. لأن الحنّان – رحيم.. ورحمته وسعت كل شىء.. ولكن – الودود – يختص بالمؤمنين فقد قرر سبحانه بسين التنفيس المتعاقبة المستمرة أنه: ﴿سيجعل لهم الرحمن ودا﴾[٩] وهذا الود معنوى خالد.. وأما أثر الحنّان فهو ما دى جسمانى بائد.. وهيهات أن يستوى البائد والخالد.

وإن الرحمة التى أنزلت إلى الأرض.. إنما هى جزء من مائة جزء.. كما هو نص الحديث المعروف: «إن الله تعالى خلق يوم خلقها مائة رحمة.. أنزل منها رحمة واحدة إلى الأرض.. بها ترحم الأم ولدها.. وترفع الفرس حافرها عن فلوها»[١٠] وهذا يدل على عمومية تجليات الحنّان.. الذى هو: أحد ثمار الاسم – الرحيم – الذى وسعت رحمته كل شىء بغيرا استثناء.. فأين هذا من تجليات الاسم – الودود – التى تمد يدها البيضاء إلى الغرقى فى بحار الدنيا.. بين ظلماتها وأوهامها.. وآلامها وآمالها.. وشئونها وشجونها.. وهمومها وغمومها.. فتنتشلهم إلى ساحل الأمن الأبدى.. كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[١١] أما أولئك الغرقى.. المتمتعون بتجليات الحنّان الرزاق فإنه.. وإن تيسرت دنياهم.. وأدركوا سعادتها.. فإنهم لم يطمئنوا بعد إلى شىء خالد.. أو ملك دائم.. أوقوة مستمرة.. لأنهم يرون الموت راصدًا لهم دائما ينتظرهم.. سواء طالت آجالهم أو قصرت

فعلى أساس اختلاف طبائع المجالى.. واختلاف تجليات الأسماء.. نستطيع أن نفرق بين مفهوم الاسم وغيره.. إذ لا تستوى تجليات الاسم – الرحيم – مع تجليات الاسم – المنتقم – للتباين الواضح بين النعيم والعذاب.. وقد أشار – سبحانه – إلى ذلك العذاب الانتقامى.. فى توقيع الحدّ على الزانين

---

(٥) سورة مريم الآية ١٣.
(٦) سورة البقرة الآية ١٦٥.
(٧) سورة يونس الآية ٢٤.
(٨) سورة طه الآية ٥٤.
(٩) سورة مريم الآية ٩٦.
(١٠) الفِلو – بكسر الفاء – ابن الفرس.
(١١) سورة الأنعام الآية ٨٢.

المحصنين.. بقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ بعد أن قرر نفى التأثر بتجليات الاسم – الرءوف – حال إقامة الحد.. حيث قال: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله﴾[١٢] لأن تجليات اسم – المنتقم – تحجز سنا تجليات الاسم – الرءوف – وهكذا نستطيع أن نميز الفرق الواضح بين تجليات الأسماء والصفات مع اختلاف المجالى.. مؤمنين بوحدة المسمَّى وإن تعددت الأسماء.. وبوحدانية المتجلى وإن اختلفت المجالى.

قلت: يقول الله تعالى عن الحب والود: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾[١٣] فما هو هذا الحبّ المشترك؟.

قال: من الناس من يتخذ أشخاصا يحبهم.. ويلتمس ودّهم . . ويطلب مددهم وبهذا جعلهم أنداد لله.. ويـدعى فى نفسه أنه حب لله.. وما هو إلا حب النفس.. وهذا لون من ألوان الاستهواء الشيطانى.. يأتى فيه الشيطان عن يمين من يستهويه ليمعن فى ضلاله.. حيث قال لرب العزة من قبل: ﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾[١٤] ولهذا كانت تكملة الآية التى وردت فى سؤال: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ أن حكمه تعالى بشركهم عندما قال بعد هذا النص مباشرة: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾.

ثم بين تعالى بعد ذلك تبرؤ المتبوعين الضالين المضلين من الذين اتبعوهم ممن كانوا ضحايااستهواء الشياطين.. بقوله سبحانه – فى الآية التالية: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرَّة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾[١٥] وهكذا حكم – سبحانه – بخلودهم فى جهنم حكما قطعيا.

وقوله تعالى عنهم: إنهم ظلموا.. يراد به أنهم أشركوا إذ جعلوا لله أندادا.. والنّد هو المساوى. وما كان ذلـك إلا لأن الشيطان استهـواهم.. وزين لهم سوء أعـمالهم.. وهم يظنـون أنهم يحسنون صنعا وقد أوقع الشيطان فى هذا كثيرا من الناس.

قلت: يقول تعالى حكاية عن سليمان – عليه السلام: ﴿إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد * فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب * ردّوها علىّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق﴾[١٦] فكيف أحب سليمان – عليه السلام – الخير الدنيوى عن ذكر الله تعالى؟.

قال: لقد ذكرتنى بسؤالك هذا موضوعا خطيرا.. ذكره بعض هواة الحشو فى تفسير آيات كتاب الله تعالى حول هذه الآية.. فقالوا: إن سليمان – عليه السلام – لما اشتغل بعرض الأفراس.. حتى توارت الشمس بالحجاب.. فاتته صلاة العصر.. فقال: ﴿ردوها علىّ﴾ يعنى الأفراس.. وكانت أربع عشرة.. فضرب سوقها وأعناقها بالسيف.

فهل يصدق العقل أن هذا العمل يحصل من سليمان – عليه السلام – مع أن المثل العامى يقول:

---

(١٢) سورة النور الآية ٢.
(١٣) سورة البقرة الآية ١٦٥.
(١٤) سورة الأعراف الآية ١٧.
(١٥) سورة البقرة الآيتان ١٦٦، ١٦٧.
(١٦) سورة ص الآيات ٣١، ٣٣.

«إن فلانا يقطع رقاب الخيل» للمبالغة عن شرّه وأذاه.. وفجوره وفسقه.. فهل نقبل هذا على سليمان عليه السلام - ؟.

أما ترى معى أن قتل الخيل بتلك الصورة .. إفساد للمال.. ومعاقبة من لا ذنب له؟.. فما ذنب الخيل فى غفلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فى الحجاب؟.

وقد هاجم الفخر الرازى فى تفسيره أصحاب هذا الرأى.. وقال: وأنا شديد التعجب من الناس.. كيف قبلوا هذه الآراء السخيفة مع أن النقل والعقل يردّانها.. وليس فيها شبهة فضلا عن حجة[(١٧)].

كما قال أبو القاسم القشيرى: ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر -اهـ. وحقيقة هذا الأمر: أن سليمان - عليه السلام - كان محبا للجهاد والحرب فى سبيل إعلاء كلمة الله.. ونشر دينه فى كل بقاع الأرض.. ورباط الخيل من أول دعائم الجهاد.. فكانت عنده فصائل الخيول العراب.. الصافنات الجياد.

وأمر - عليه السلام - باستعراض الخيل.. استعدادًا لاحدى غزواته.. ومرت أمامه مئات الخيول الأصيلة.. فى عزم وجمال.. وعزة وجلال فأخذته نشوة المنظر.. وقوة المخبر.. حتى مرت جميعها وتوارت عن بصره خلف الجدر البعيدة حول الميدان.

وتذكر سليمان - عليه السلام - أن نظره فى تلك المرة كان منصبًا على الناحية المادية فى الخيل.. وأنها خير ومال وعز.

فقال فى نفسه: كان الأولى ذكر الله فى جمال تركيبها.. وبديع تصويرها وفائق روائها: ﴿فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى﴾ وتلك صفة المؤمن.. يعبد الله فى كل شىء.. فى الهواء الذى يتنفسه وفى الماء الذى يشربه.. وفى الطعام الذى يتناوله.. وفى الدابة التى يركبها.. وفى كل شىء من خلق الله يقع نظره عليه.

هذا مطلوب من كل مؤمن عادى.. فما بالك بنبى الله سليمان؟.

وعاد سليمان إلى طبيعته الأصلية فى الشكر.. الشكر الذى تراه يلازمه فى كل صغيرة وكبيرة.. من نعم الله عليه.. فينادى: ﴿ردوها علىّ﴾ أى ردُّوا الخيل علىّ.. فقد نسيت أن أذكر مُبدعَها ومصوِّرها ومنشئَها.. وأعادوها عليه.

يقول الزهرى وابن كيسان: كان يمسح سوقها وأعناقها بيديه.. ويكشف الغبار عنها.. حُبًّا لها.

وقال ذلك الحسن وقتادة وابن عباس - رضى الله عنهم جميعا - ولاشك أن هذا هو الرأى.. فصار يمسح بيده سوق الخيل وصدورها وأعناقها وهذا واضح أنه عادة هواة الخيول العربية.. حبا.. وتأملا.. وإعجابا بكمال خلق الله وجمال إبداعه.

وفى الحديث: أن النبى - ﷺ - رُئى وهو يمسح فرسه بردائه وأنه قال عن الخيل: «امسحوا بنواصيها وأكفالها»[(١٨)].

---

(١٧) راجع تفسير القرطبى سورة ص آية ٣٢.

(١٨) القرطبى وغيره سورة ص آية ٣٣.

قلت: هذا كله من ظواهر الحب والودّ.

قال: قرأت فيما قرأت عن أبي الحسن الشاذلي - رضى الله عنه - قال رأيت رسول الله - ﷺ - في المنام فقال لي: «يا علي طهر ثيابك وادع إلى الله».. فقلت يا رسول الله.. وما المقصود بتطهير ثيابي؟ قال: «يا علي إن الله يخلع على عبده خمسة أثواب: ثوب المحبة.. وثوب المعرفة .. وثوب التوحيد.. وثوب الإيمان.. وثوب الإسلام:

فمن لبس ثوب المحبة هان عليه كل شيء
ومن لبس ثوب المعرفة صغر لديه كل شيء
ومن لبس ثوب التوحيد لم يشرك بربه شيئا
ومن لبس ثوب الإيمان أمن من كل شيء
ومن لبس ثوب الإسلام أسلم وجهه لله

فقلما يعصيه وإذا حصلت منه معصية اعتذر.. فإذا اعتذر قبل الله عذره.

فالمحبة شجرة تغرس في الفؤاد.. وتسقى بماء الوفاء.. أصلها ثابت في السر.. وفرعها ثابت في هواء الهمّة.. وثمرها لطائف الأنس.. تؤتي أكلها دائما.

نسأل الله أن يقبلنا من عباده الذين سيجعل لهم ودًّا متصلا وحبا متبادلا.. إنه هو السميع المجيب الحميد المجيد.

قلت: وهل يسمى العبد ودودا؟.

قال: الودود من عباد الله من يحب للخلق كل ما يحبه لنفسه.. وأعظم منه من يؤثرهم على نفسه.. كما قال أحدهم: أريد أن أكون جسرا على النار يعبر عليّ الخلق ولا يتأذون بها.. وفي هذا من المثل العليا ما فيه.. كما قال - ﷺ - للإمام عليّ - كرم الله وجهه - إن أردت أن تسبق المقربين.. فَصِلْ من قطعك.. وأعط من حرمك.. واعف عمن ظلمك».

كما جاء في الحديث: «نظرُ الرجل لأخيه على شوق خير من اعتكاف سنة في مسجدي هذا» والذكر بهذا الاسم.. يكون سببا في حب الناس للذاكر به .

وإلى الاسم - المجيد - إن شاء الله.

٤٩ - المجيد

قلت: هل ورد اسمه تعالى - المجيد - فى القرآن الكريم؟.

قال: نعم فى قوله تعالى ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾[(١)].

قلت: وما معنى المجيد فى اللغة؟.

قال: نقول مَجَدَت الإبل والغنم.. إذا رعت فى مرعى خصيب حتى شبعت.. فنقول أَمْجَدَها صاحبها.. وأَمْجَدْتُ الدابة. إذا أحسنت علفها ومن أمثلة العرب «فى كل شجر نار.. واسْتَمْجَدَ المرخُ والعَفَار» والمرخ والعفار شجرتان إذا حك أحدهما بالآخر اضطرم النار منها فمعنى استمجد فى هذا المثل أى استكثر.

ومن المجاز أن تقول: مَجد الرجلُ ومَجُد: أى عظم كرمُه فهو ماجد ومجيد وله شرف ومجد.. وقوم أمجاد وأماجد.. وأَمْجَدَ اللهُ فلانا ومجَّده.. أى كرَّم فعاله.. وقال شبيب بن البرصاء:

دعينى أُمَاجِدْ فى الحياة فإننى　　إذا ما دعا داعى الوفاة مجيبُ

قلت: وما معنى هذا الاسم بالنسبة إلى الله تعالى؟.

قال: إن اسم المجيد بالنسبة إليه تعالى.. يحتمل معنين: مجيد بوزن فعيل.. مبالغة من الفاعل.. بمعنى جليل القدر.. فله المجد التام والشرف الرفيع المستحيل المنال.

وإما مجيد بوزن فعيل أيضًا.. بمعنى مُفْعِل.. مثل أليم ومؤلم.. أى جزيل العطايا.. كأنه أَمْجَدَ عباده.. يعنى أكثر عطاءهم.. كقولك: أمجدْتُ الدابة .. إذا أحسنتَ علفها.

فأنت إذا أثنيت على الله تعالى باسم - المجيد - فقد أثنيت عليه بالوصفين معا.. فكل من يدعو الله باسم المجيد - فقد وصفه بأنه عظيم جليل رفيع القدر. وأنه محسن جزيل البر والعطاء.. يُحْسن إلى عباده.. ويُفيض عليهم سنا نواله وأفضاله.

قلت: وما هو أعظم الفضل فى عطاء المجيد لعباده؟.

قال: من وجوه إحسانه إلى عباده - وهو ما يخفى على كثير من الناس - أنه حفظ عليهم قلوبهم.. وأطاب لهم أقواتهم وأوقاتهم.. فإن أعظم النعم نعمة القلوب السليمة.. وشر المحن محنة القلوب المريضة وقد قال بعضهم شعراء:

كان لى قلب أعيش به　　ضاع منى فى تَقَلُّبِهِ
رَبِّ فارْدُدْهُ علىّ فقد　　ضاقت الدنيا علىّ بِهِ

---

(١) سورة هود الآية ٧٣.

رَبِّ فـارْدده عـلىّ فقـد   عيـل صـبرى فى تـطلُّبهِ
وأغِـثْ مـا دام بى رمـق   يـا غيـاث المستغيثِ بـه

كما روى عن بعض الصالحين أنه قال: رأيت رجلا يطوف بالبيت وهو يقول: وا وحشتاه بعد الأنس.. وا ذلّاه بعد العز.. وا فقراه بعد الغنى فقلت له: أَذَهَبَ مالك أم أصابتك مصيبة؟.. قال: لا.. ولكن كان لى قلب فقدته.

كما حكى عن أبى عبد الله بن خفيف.. أنه قال: رأيت بمصر رجلا يطوف على الناس ويقول: ارحمونى فإنى رجل صوفى ذهب منى رأس مالى.. فقلت له: وهل للصوفى رأس مال؟.. قال: نعم .. كان لى قلب فقدْته.

وإن الله المجيد - سبحانه - إذا أراد أن يمجدَّ عبدًا أغناه بلا مال.. وكفاه بلا احتيال.. وأعزه من غير رهْطٍ ولا عيال.. يعافيه إذا مرض من غير علاج ويحميه فى عمره من غير فاقة ولا احتياج.

وقد روى عن عمرو بن عثمان المكى أنه قال: دخلت على مريض أعوده.. وهو شاب فقير. وكان معنا جماعة من الفقراء.. فلما قعد عمرو.. قال الفتى المريض: يا أستاذ هل فيهم من يقول شعرًا؟.. فأشار عمرو إلى واحد منهم فقال:

مـالى مرضتُ فلم يَعُـدْنى عائـد   منكم.. ويـمرض عبـدُكم فـأعـودُ
وأشد من مرضى عـلىّ صدودُكم   وصـدود من أهوى عـلىّ شديـدُ

قال عمرو: فرفع الفتى رأسه إلى السماء.. وهو يردد هذين البيتين. حتى استوى قاعدا وخرج معنا.. وهذا يدل على أن فى السماع إحياءً وقتلا.. وإثباتا ومحوا.. ولكن الناس عمّاهم فيه غافلون.

ومن أعظم ما ينعم به المجيد - على عباده.. حفظه عليهم توحيدهم ودينهم حتى لا يبدلوا فيه ولايزيفوا.. إذ لولا لطفة وإحسانه لضلّوا وارتدّوا.

قلت: القرآن الكريم كثير العطاء.. فهل يجوز أن نقول عنه إنه مجيد؟.

قال: القرآن الكريم عطاؤه لا يُعدّ ولا يُحصى.. وفيوضه لا تحدّ ولا تستقصى.. بما يكفل السعادة للإنس والجن فى الدنيا والآخرة.. ولهذا سماه الله تعالى - المجيد - فى قوله تعالى فى أول سورة ﴿ق﴾: ﴿ق والقرآن المجيد﴾ كما قال أيضًا فى نهاية سورة ﴿البروج﴾: ﴿بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ﴾.

قلت: يقول تعالى فى سورة البروج: ﴿وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيدُ﴾ فهل لفظ.. المجيد - فى هذه الآية صفة للعرش؟.

قال: المجيدُ هنا بقراءة حفص . ليست صفة للعرش.. لأن لفظ العرش مجرور بالإضافة. أما لفظ المجيد فهو مرفوع بالضمة.. فيكون هنا صفة للغفور الودود.. أما إذا جاء لفظ - المجيد - مجرورا فى قراءة أخرى غير قراءة حفص.. فيكون فى هذه الحالة صفة للعرش.

واسم - المجيد - سبحانه - يبعث آمال النفوس.. ويحيى موات القلوب ولهذا كان من حكمة الحكيم.. أن يكون الاسم التالى بعد اسم - المجيد - هو اسم الباعث-.

قلت: وما آثر الذكر باسم - المجيد -؟.

قال: يصلح ذكره لمن ولاه الله - تعالى - شئون خلقه.. بأن يقول «الله ذو العرش المجيد.. فعال لما يريد» قبل طلوع الشمس كل يوم.. فيقوى سلطانه.. ويوفقه الله لصالح العباد .

وإلى الاسم التالى - الباعث - إن شاء الله تعالى.

* * *

٥٠ - الباعث

قلت: هل معنى الاسم الكريم - الباعث - هو أنه تعالى باعث الموتى يوم القيامة؟

قال: نعم.. فيقال بعث الله الموتى.. إذا أحياهم.. مثل قوله تعالى: ﴿وأن الله يبعث من فى القبور﴾[1] وقوله: ﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[2].

قلت: وهل من أجل هذا سمى يوم القيامة بيوم البعث؟

قال: نعم فإن الله تعالى يبعث الخلق ويحشرهم إليه يوم البعث والنشور.. ومن آمن بذلك علم أن بين يديه يوما هو يوم الحساب والعتاب.. والثواب والعقاب.. فأولى به أن يتصفح أحواله.. و ويفتش أعماله.. ولا يفعل ما يقاسى عليه ندما.. أو يجد بسببه ألما.. فقد قال تعالى: ﴿واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله﴾[3].

وقد حكى عن الربيع بن خيثم.. أنه قال: مررت فرأيت صبيا يبكى فقلت له: ما يبكيك؟.. قال: غدا الخميس.. وسأعرض الدرس على معلمى.. وأنا لست حافظا.. فقلت فى نفس: كيف بى إذا كان يوم البعث وأحاسب على ما أسلفت؟

وإذا علم العبد أن الله - سبحانه - قال: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾[4] وتيقن أنه سيطالبه بأفعاله وأعماله غدا.. دخله الروع والفزع شاء ذلك أو أبَى.

والبعث ليس فى يوم القيامة فقط.. بل قد يكون آية لبيان قدرة الله فى الدنيا.. مثل قوله تعالى عن عزير - عليه السلام -: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾[5] وقوله عن أهل الكهف: ﴿ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾[6] وقوله عنهم أيضًا: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾[7].

وتجليات الاسم - الباعث - غير منحصرة فى البعث الأكبر بعد الموت.. بل هى شاملة كذلك للبعث الدورى بين اليقظة والنوم.. فى الوفاة الصغرى..

كما قال تعالى: ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾[8].

قلت: وهل للبعث معنى آخر غير معنى الحياة بعد الموت.. واليقظة بعد النوم؟

قال: اسم - الباعث - بالنسبة إلى الله تعالى.. يحمل أيضًا معنى باعث الرسل..

---

(١) سورة الحج الآية ٧.
(٢) الأنعام الآية ٣٦.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨١.
(٤) سورة القيامة الآية ٣٦.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٩.
(٦) سورة الكهف الآية ١٢.
(٧) سورة الكهف الآية ١٩.
(٨) سورة الأنعام الآية ٦٠.

لقوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم﴾[٩] وقوله: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه﴾[١٠] وقوله: ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله﴾[١١] إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن الله تعالى هو باعث الرسل.

قلت: بعث الله الرسل لتذكيرنا بيوم البعث؟.

قال: وإنه ليوم شديد.. وقد حكى عن أبى الحرث الأوسى.. أنه قال كنت قاعدا فى بيتى.. فدقَّت جارية علىّ الباب.. فقلت من بالباب؟ قالت: جارية تسترشد عن الطريق.. فقلت لها: طريق الهرب أم طريق النجاة؟.. قالت: وهل إلى الهرب طريق يا هذا؟... اقرأ علىّ شيئا من القرآن.. فأجرى الله على لسانى: ﴿إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما﴾[١١] فصاحت الجارية ثم صعقت.. وهكذا إذا عرف العبد أن الآخرة هى دار القرار.. علم أن السعادة والنعيم فى الدنيا لا تنفع إذا كانت العاقبة أليمة.. وأن البلاء الشديد فى الدنيا لا يضر إذا كانت الخاتمة جميلة.

قلت: أليس من حقنا الرجاء فى جميل عفو الباعث يوم البعث؟.

قال: قد يغلب على العبد الرجاء فى بعض الأحوال.. مع إحسان العمل قدر الاستطاعة.. فيؤمِّلُ من الله جميلَ عفوه.. ويرجو حُسْنَ فضله.

قال الإمام الصوفى أبو القاسم عبد الكريم القشيرى: كان الشبلى جالسا.. فدخل عليه إنسان وقال: يا أبا بكر.. من يحاسبنا. فقال: الله.. فأخذ الرجل يرقص طربا ووجدا.. فقيل له: ماذا أفرحك؟.. فقال: الكريم إذا قدر عفا.

كما ذكر القشيرى أيضًا: أن رجلا من الصالحين رُئى فى المنام.. فقيل له: ما فعل الله بك؟.. قال: غفرلى.. فقيل له: بماذا؟ فقال: ههنا يُعاملون بالجود.. لا بالركوع والسجود.. ويعطون بالمنة.. لا بالخدمة.. ويغفرون بالفضل لا بالفعل.

وروى أبو هريرة أنه قال للحسن بن على.. رضى الله عنهم: العجب من هذا الخلق.. كيف ينجو أحدهم من كثرة زلاتهم؟.. فقال الحسن رضى الله عنه: بل العجب ممن يهلك منهم مع سعة رحمة الله؟ فقال أبو هريرة: حقا الله يعلم حيث يجعل رسالته.

قلت: أليس لاسم - الباعث - أثر فى نفس المؤمن؟.

قال: لا تنحصر تجليات الاسم - الباعث - فى بعث الموتى فحسب.. بل هو سبحانه - الباعث لجميع المشاعر النقية التى لم تتأثر خطراتها بمؤثرات ظلمانية.. فهو يبعث فيها من القوى ما يؤهلها لتنفيذ أمره بالنظر فى الملكوت الأعلى والأدنى.. نظر التامل والكشف والمشاهدة.. وهذا المقام إنما يصل إليه خواص عباد الله تعالى.

وليس هذا الكشف اطلاعا على أمر غيبى.. بل هو مشاهدة بالأمر الواقع فى السماوات والأرض.. الأمر الذى تجلَّت به قوة البديع المصور الخبير الخلاق البارىء.. من بديع تكوين.. وإتقان صنع.. كما

---

(٩) سورة يونس الآية ٧٤.
(١٠) سورة يونس الآية ٧٥.
(١١) سورة النحل الآية ٣٦.
(١٢) سورة المزمل الآيتان ١٢، ١٣.

قال تعالى: ﴿صُنْعَ الله الذى أتقن كل شىء[١٣]﴾ .

والبعث فى اللغة معناه الإثارة.. فنقول بعثت البعير إذا أثرته والانبعاث انفعال بالبعث.. ويقول العرب «فلان كسلان لا ينبعث».

وتجليات الاسم – الباعث – هى الأساس فى انطلاق القوى الإدراكية والجسمانية معا.. فإننا نراه – سبحانه قد حجز عن غير المؤمنين تجليات اسمه – الباعث – عندما قال عنهم: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾[١٤] فيكون انسحاب ظلال التجليات الباعثة عن مشاعرهم.. سببا فيما انتهى إليه أمرهم من التثبيط والتخلف عن الخروج للغزو مع رسول الله – ﷺ – ولو رآهم جديرين بقوة القبول.. لما انحصرت عنهم تجليات ذلك الاسم الفعال: ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾[١٥].

فالبعث إذن تجلٍّ مستمر يشمل سريان صفة الحياة بتجليات الاسم – الحى – فى كل كائن حَىٍّ.. ومن ثم يظهر تعاون الاسمين الكريمين الحى الباعث – ويعاونهما الاسم – القيوم – ليتم كمال النشأة وليكون – تعالى – قائما بالحى.. باعثا لصفات الحياة ومقتضياتها ماديا ومعنويا بالحق المقرر.. من رزق مقدر.

نسأله تعالى أن يبعث فينا عوامل الخير قولا وعملا.. وأن يأخذ بيدنا إلى طريق الهدى نورا وأملا.. وكفى بالله شهيدا.

فهيا إلى اسمه تعالى – الشهيد –.

قلت: قبل أن ننتقل إلى الاسم – الشهيد – لى سؤال هامٌّ.. هو: هل الموت عدم والبعث إيجاد بعد العدم؟ بمعنى أن الايجاد الثانى مثل الإيجاد الأول؟.

قال: إن مفهوم الموت بأنه عدم خطأ.. لأن القبر إما روضة من رياض الجنان.. وإما حفرة من حفر النيران.. فالموتى إما سعداء.. وأولئك ليسوا أمواتا: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[١٦].

وإما أشقياء.. وهم أيضًا أحياء.. وقد ناداهم رسولنا – ﷺ – يوم بدر.. قائلا لهم: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا.. فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا».. فقيل له: كيف تنادى قوما قد جيفوا؟.. فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم..ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» وقد دلّت البصائر على أن الإنسان خلق وأمر.. فالأمر أبدى ولا سبيل للعدم عليه – نعم قد يطرأ التلف على الخلق – وهو الجسد – أما الأمر – وهو الروح – فلا يطرأ عليه العدم والتلف: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى﴾[١٧] ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[١٨].

وأما قولك إن الايجاد الثانى مثل الايجاد الأول فغير صحيح.. فإن البعث إنشاء آخر لا يماثل

(١٣) سورة النمل الآية ٨٨.
(١٤) سورة التوبة الآية ٤٦.
(١٥) سورة الأنفال الآية ٢٣.
(١٦) سورة آل عمران الآية ١٦٩.
(١٧) سورة الإسراء الآية ٨٥.
(١٨) سورة الأعراف الآية ٥٤.

الإنشاء الأول.. وللإنسان نشآت كثيرة.. ولذلك قال تعالى: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾[١٩].

بل النطفة نشأة من التراب.. والمضغة نشأة من النطفة.. والعلقة نشأة من المضغة.. والعظام نشأة من العلقة.. ثم كانت الروح بشرفها وجلالها.. فهى أمر ربانى.. ولهذا قال بعدها: ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[٢٠].

فالنشأة الثانية ابتداء.. كما كانت النشأة الأولى ابتداء.. ولكنها نشأة جديدة لا نعلم عنها شيئا.. ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾[٢١] الأولى فقط.. أما النشأة الثانية.. فقال عنها: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾.

قلت: وهل ورد هذا الاسم بالنص فى كتاب الله؟.

قال: لم يرد بنصه وإنما ورد بمعناه ومفعوله فى مثل قوله تعالى: ﴿وأن الله يبعث من فى القبور﴾[٢٢].

قلت: وما أثره فى الذكر به؟.

قال: من ذكره عند النوم بطريق المناجاة.. بأن يقول: (يا الله يا باعث) مائة مرة واضعا يده على صدره.. ملأ الله قلبه بنور المعرفة.. وغمر نفسه بفيض اليقين.

وهيا إلى الاسم - الشهيد - إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١٩) سورة الواقعة الآية ٦١.

(٢٠) سورة المؤمنون الآية ١٤.

(٢١) سورة الواقعة الآية ٦٢.

(٢٢) سورة الحج الآية ٧.

٥١ – الشهيد

قلت: هل ذكر القرآن الكريم اسم الله تعالى – الشهيد –؟

قال: جاء هذا الاسم فى عدة مواقع من القرآن الكريم.. مثل قوله تعالى: ﴿لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾[١]: و﴿قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم﴾[٢] و: ﴿فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد﴾[٣] و: ﴿فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم﴾[٤] وغيرها كثير.. فقد ذكر اسم – الشهيد – فى القرآن الكريم تسعة عشر مرة.

قلت: وما معنى الشهيد فى اللغة؟

قال: الشهيد مبالغة من الشاهد.. وهو الحاضر والرائى.. والمقتول فى سبيل الحق شهيد.. ويقال لصلاة المغرب – صلاة الشاهد – لأنها لا تقصر.. فيصليها الغائب كما يصليها الحاضر.. والتشهد فى الصلاة معروف.

قلت: وما معنى هذا الاسم بالنسبة إلى الله تعالى؟

قال: قلنا إن الشهادة بمعنى الحضور.. وحضوره تعالى يكون بمعنى علمه ورؤيته وقدرته.. يرى أفعال خلقه.. ويعلم سرهم ونجواهم.. فلا تخفى عليه خافية.. فيكون الشهيد – كما قلنا – مبالغة من الشاهد.. فله تعالى الحجة البالغة على خلقه.

قلت: إذا كانت الشهادة بمعنى الحضور والرؤية.. فكيف نحقق الركن الأول من أركان الإسلام بالشهادتين: شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله؟

قال: شهادة المسلم مرتبطة بالعلم.. لقوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[٥] والعلم هنا فى هذا الأمر الموجه إلينا من الله تعالى فى كتابه الكريم.. إنما يراد به العلم اليقينى.. أو العلم الضرورى الذى يصل إليه الإنسان.. نتيجة استعمال الحواس الظاهرة وهى: السمع والبصر والذوق والشم واللمس.. والمدارك الباطنة وهى: الوعى والإدراك والتخيل والتصور والتوهم.. بالنظر والتأمل والتفكر.. فى جميع نواحى الوجود المترامى الأنحاء.. المتعدد الجهات.

فإذا قال الإنسان: أشهد ألا إله إلا الله.. وكانت شهادته على السماع فقط.. فالشهادة على السماع باطلة شرعا وقانونا. يقول البعض: إن شهادة المسلم تقوم على شهادة الله تعالى لذاته.. يقصدون قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة﴾[٦].

ويقولون: إنه لا ضرورة للشهادة النظرية.. والتحريات العلمية.. للوصول إلى اليقين بقوى

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٨.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٩.
(٣) سورة المائدة الآية ١١٧.
(٤) سورة يونس الآية ٢٩.
(٥) سورة محمد الآية ١٩.
(٦) سورة آل عمران الآية ١٨.

البصيرة والمدارك والحواس الظاهرة.. ليتحقق العلم.. بأنه لا إله إلا الله.. وهؤلاء فاتهم أن الله تعالى.. بعد شهادته لذاته وشهادة ملائكته له قال: ﴿وأولو العلم﴾.. فجعل ما يصل إليه أولو العلم بالنظر إلى الكون علما وتطبيقا.. وبحثا وتدقيقا.. مساويا تماما لما شهد به تعالى لذاته هو وملائكته.

فالذين اكتفوا فى شهادتهم عند حد السمع من الله فقط.. قوم رأوا أن يقفوا بالساحل.. وقد تهيبوا اللجّة.. واكتفوا بأنهم شهدوا كشهادة رؤيا العين الشرعية.. لأن الله تعالى شهد بذلك.. وليس لأنهم علموا.. مع أن الأمر بالعلم صريح فى قوله تعالى لنبيه – عليه السلام – ولمن اتبعه من المؤمنين: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾.. فإذا كان الأمر تسليما جدليا..فما هو موضوع العلم إذن؟ أم أن قوله تعالى: ﴿فاعلم﴾ صارت عندهم غير ذات موضوع؟

قلت: أليس العلم بوجود الله يعتبر علما غيبيا؟

قال: العلم معناه الإحاطة بشيء معلوم.. وهذا الشيء المعلوم إما أن يكون قائما على الظن.. كعلمنا بوجود الجن والملائكة.. وإما أن يكون قائما على اليقين.. كعلمنا بأن الواحد نصف الاثنين. فالإيمان بوجود الجن والملائكة.. لا يمكن أن يتجاوز مرتبة الظن.. وهى كافية للنجاة شرعا.. تنفيذا لقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾(٧). ولكن العلم بالله تعالى لا يكون علما بالغيب.. وإنما يجب أن يكون علما قائما على اليقين.

قلت: هل من الممكن تقريب هذا المعنى بمثل؟

قال: سأضرب لك مثلا ملموسا.. فأنت مؤمن بوجود التيار الكهربى إيمانا قائما على اليقين.. مع أن التيار ذاته غير ظاهر لك.. وإنما يقينك بوجوده قائم على آثاره الملموسة.. ونتائجه المحسوسة.. من إنارة المصابيح.. وإدارة المصانع.. وتحريك الآلات.. وانبعاث الأصوات والمرئيات من الراديو والتلفاز.. وغير ذلك من الأساليب الحضارية التى تقوم على سريان هذا التيار الغامض المجهول.

فهؤلاء الذين وقفوا بالساحل.. وتهيّبوا اللُّجَّة.. واكتفوا فى شهادتهم بشهادة الله لنفسه هو وملائكته.. هؤلاء قانعون قابعون يتجاهلون الأوامر الصريحة بإعمال الفكر والنظر فى قوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا فى السمٰوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾(٨). ولأهمية هذا الأمر قال بواو التنديد: ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السمٰوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾(٩) وقوله: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾(١٠) وقوله أيضا: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين﴾(١١) وقوله: ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾(١٢) وقوله: ﴿وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾(١٣) وقوله: ﴿وكأين من آية فى السمٰوات والأرض يمرون عليها وهم عنها

---

(٧) سورة البقرة الآية ٣.
(٨) سورة يونس الآية ١٠١.
(٩) سورة الأعراف الآية ١٨٥.
(١٠) سورة ق الآيات ٦ – ٨.
(١١) سورة الأنعام الآية ٧٥.
(١٢) سورة فصلت الآية ٥٣.
(١٣) سورة الذاريات الآيتان ٢٠، ٢١.

معرضون﴾[١٤] إلى غير ذلك من صوادق الآيات.. ودوامغ البينات.. ولوامع الحكم.. وجوامع الكلم. أليس هذا كله موضوعا للعلم من قوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إلـه إلا الله﴾؟؟؟.

أعوذ بك يا أخى - رحمنى الله وإياك - أن تكون من هؤلاء الذين قال الله عنهم: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾[١٥].

قلت: هذا أمر خطير.. فما موقف الناس أمام تحقيق الركن الأول من أركان الإسلام.. وهو الشهادتان.

قال: يتعين مما تقدم أن تختلف شهادة العامة - وهى بالتقليد فقط - عن شهادة الخاصة.. لأن شهادة الخاصة تكون بطريق المكاشفات وتجليات الملكوت لقلوبهم المستعدة.. وبصائرهم المستمدة.

١ - فإذا قال العامى: أشهد ألا إلـه إلا الله.. قالها مقلدا.. وهو فى عرف الفقه الإسلامى.. لا تقوم الشهادة على مسموع.. وهذا أمره متروك إلى الله تعالى. وقال بعضهم: تغنى عنه شهادة الأرواح فى عالم الذر.. فى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى.. ﴾إلخ[١٦].

٢ - وإذا قال الفقيه الأوسط: أشهد ألا إلـه إلا الله.. قالها معتمدا على شهادة الله تعالى لذاته.. وهو كما ترى جعل شهادته عالة على علم الله تعالى بذاته.. ولا يريد أن يتعمق ليعلم وينفذ الأمر ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾.

٣ - أما المخلص.. من المبصرين.. فإنه يشهد الشهادة الشرعية - رأى العين - بل رأى جميع الحواس.

وبذلك يتسنى له أن ينتقل إلى الخطوة الثانية من الركن الأول وهى: «وأشهد أن محمدا رسول الله» ينتقل إلى هذا القسم الثانى من الشهادة مقدرا تمام التقدير شهادته بصدق رسالته - ﷺ بعد أن غمرته الخطوة الأولى فى موكب النور المقدس.. الذى يتزعمه ويقوده محمد - ﷺ - يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾[١٧] وقوله تعالى هنا: ﴿على بصيرة﴾ برهان قطعى على صدق ما توجهنا إليه.. فى إثبات منهج الشهادة الكشفية بالنظر والتأمل.

وفى قوله: ﴿أنا ومن اتبعنى﴾ دليل على الصلة الروحية.. والعلاقة الرسالية.. بينه وبين آله من أمته.. وصحبه فى ملته.

قلت: ولماذا أطلق اسم - الشهيد - على المقتول فى سبيل الحق؟

قال: قيل: سمى المقتول فى سبيل الله - شهيدًا - لأن ملائكة الرحمة تشهده.. أى تحضره.. فيكون فعيلا بمعنى مفعول أى مشهودًا. وقيل: سمى شهيدًا مبالغة من الشاهد.. أى شهد هو رحمة الله ولطفه.. أو لأنه بمعنى مفعول.. شهد الله له باللطف والرحمة.

قلت: ولماذا نفى الله تعالى الموت عن الشهداء.. وفى نفس الوقت جعلهم فى مرتبة تلى مرتبة الصديقين؟

---

(١٤) سورة يوسف الآية ١٠٥.
(١٥) سورة محمد الآية ٢٤.
(١٦) سورة الأعراف الآية ١٧٢.
(١٧) سورة يوسف الآية ١٠٨.

قال: لعلك تقصد قوله تعالى: ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾[١٨] فجعل - سبحانه - درجة الصديقين بعد النبيين مباشرة.. قبل درجة الشهداء والصالحين. فاعلم أن الصديقين يُقتل الواحد منهم كل يوم عشرات المرات.. كلما رأوا مجترئا على الله.. أو مستكبرا على الكبير المتعال.. فأين هذا العذاب عذاب الصدِّيق - الذى يتراخى به الزمن وهو فى آلامه.. وما يثير من الحسرات فى نفس الصدِّيق.. نعم أين هذا الألم المبرِّح الطويل المدى.. من لحظة واحدة يقتل فيها أحد المجاهدين ثم يحيا على الفور فى دار الشهداء؟

قلت: إن الحسرات.. والعذاب الوجدانى.. والألم النفسى.. لا يمكن أن يساوى مصرع القتل.

قال: إنك لو تأملت قول الله لرسوله - ﷺ - مواسيا: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾[١٩] تجد أن معنى ذهاب النفس.. هو قبضها الذى يترتب عليه فقد الحياة.

وفى آية أخرى يقول له: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾[٢٠] وقوله: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾[٢١] فتجد أن لفظ ﴿باخع﴾ فى الآيتين.. يعنى قاتل.. فتقدير الآية الأولى: لعلك يا محمد قاتل نفسك أسفًا لأنهم لم يؤمنوا بهذا الحديث.. وباخع: اسم فاعل.. وأسفا: حال من الفعل أو من اسم الفاعل.. وهذا دليل على أن الأسف الشديد يصل بالآسف إلى حد القتل.

والصدِّيق يكاد يقتل نفسه أسفا وألما.. أمام كل حسرة من تلك الحسرات.. لكن المجاهد إذا قتل.. فما أسرع حادث القتل.. وما أيسره على الذين يتلقون ضربة فاصلة بالسيف أو نحوه.. تقطع الصلة بينه وبين الحياة الدنيا.. وتريح جسمه من المتاعب والآلام..

تردَّى ثياب الموت أحمر قانيا ... وأصبح بعد اللحظ فى سندس خضر

فهذا قطعا أخف عذابا من الصدِّيق.. الذى يباشر ذلك العذاب الباعث للحسرات.. كلما لمح زيفا.. أو شهد انحرافا.. وما أكثر الزيف والانحراف. ولهذا قال أستاذنا عز الدين فى هذا المعنى:

وشتان بين الموقفين لِذِى النُّهى ... فعاجل أمرٍ لا يسوَّى بآجلِ
وما مات مقتول على ملة الهدى[٢٢] ... فما رتبة الصدِّيق.. فى أى معقلِ
يعانى هوىٍ النجوى.. عذابا مؤرقا ... وقد هجع المقتول فى خَضْد منجَلِ
وبينهما بَوْنٌ - لذى الحكم - شاسع ... وكل له الحسنى بنصٍّ مفصَّلِ

قلت: جاء فى محكم الذكر من سورة [الزمر] قوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق﴾[٢٣] فلماذا لم يذكر الله تعالى فى تلك الآية الصديقين والصالحين؟

قال: إنما يراد بالشهداء هنا جميع الصديقين والشهداء.. أى الشهود من المؤمنين والصالحين جميعا.. ونستأنس فى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على

---

(١٨) سورة النساء الآية ٦٩.
(١٩) سورة فاطر الآية ٨.
(٢٠) سورة الكهف الآية ٦.
(٢١) سورة الشعراء الآية ٣.
(٢٢) أى لم يمت لأنه شهيد.
(٢٣) سورة الزمر الآية ٦٩.

الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[٢٤] وقوله أيضا: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[٢٥] وقوله كذلك: ﴿وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[٢٦] فليس المعنى فى قوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ لتكونوا قتلى فى الميادين.. بل لتكونوا شهودا.. لأنكم خير أمة أخرجت للناس.

وهذا المعنى فى كثير من آيات القرآن الكريم. فإذا قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء﴾ فلا فرق بينها وبين قوله: ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ لأن الصديقين شهداء.. والصالحين شهداء. بمعنى الشهود.

وقد ميّز الله تعالى شهداء الصدّيقين.. الذين قتلوا فى سبيل الله.. بأن جعلهم ميزان الأعراف يوم القيامة.. كما قال - جل شأنه: ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾[٢٧] إلى آخر الآيات. فأولئك هم قتلى الصدّيقين.. حصلوا أيضا على منزلة الشهداء.. وكان امتياز الصدّيقية هو الذى هيأهم ليكونوا على الأعراف.. وهى الشرفات المرتفعة.. ويمتازون بكونهم: ﴿يعرفون كلا بسيماهم﴾ وهؤلاء من المتوسمين.. الذين عناهم الله بقوله: ﴿إن فى ذلك لآيات للمتوسمين﴾[٢٨] فهل يكفى إلى هنا الحديث عن اسمه تعالى - الشهيد -؟

قلت: نعم يكفى.. ولكن ما أثر اسم - الشهيد - فى الدعاء؟

قال: ذاكر هذا الاسم يكون دائما عالما بأن الله شهيد عليه فى النيّة والعمل.. فمن داوم على ذكره.. رزقه الله تعالى صفاء القلب.. وغمره بأنوار المشاهدة.

ومن خصائص هذا الاسم الكريم أن من وقع فى تهمة باطلة.. وذكر اسم الشهيد.. بطريق المناجاة.. بأن يقول: يا الله يا شهيد.. فى جوف الليل نجاه الله.. ووقاه شر ما اتهم به.. وأظهر الحقّ له.

وقد حكى أن رجلا كان يضرب بالسياط.. وهو هادئ لا يبدو عليه ألم ولا جزع.. فقيل له: أما تجد ألما؟.. لماذا لا تصيح؟.. فقال: إنما أضرب من أجل ربى.. وهو حاضر شاهد.. عالم بأنى أضرب لأجله.. فَسَهُل ذلك علىّ.. بسبب نظره إلىّ.

ولا أكتمك أننى مررت شخصيا بتلك التجربة.. فكانت السياط تنهال على جسمى العارى.. وكأنهم يضربوننى بأعواد القمح.. والله على ما أقول شهيد.. مع أن جسمى ضعيف جدا.

قلت: وما هو الاسم التالى بعد اسم - الشهيد -.

قال: الاسم التالى.. هو اسم - الحق - فإليه إن شاء الله تعالى.

* * *

(٢٤) سورة البقرة الآية ١٤٣.
(٢٥) سورة النساء الآية ٤١.
(٢٦) سورة النحل الآية ٨٩.
(٢٧) سورة الأعراف الآية ٤٦.
(٢٨) سورة الحجر الآية ٧٥.

٥٢ - الحق

قلت: هل ورد اسم - الحق - فى القرآن الكريم.. على أنه من أسمائه تعالى؟.

قال: ورد فى كثير من الآيات.. مثل قوله تعالى: ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾[١] و: ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾[٢] و: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق﴾[٣] و: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾[٤] و: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾[٥].

قلت: وما معنى الحق؟.

قال: من مجموع الآيات المتعددة فى القرآن الكريم.. نستطيع إدراك المراتب التى يكون فيها الحق بمعنى الاسم الكريم.. وبمعنى الصدق وبمعنى الواقع وبمعنى حقيقة الشىء.

فمتى كان الله تعالى هو - الحق - كان جديرا بأن يكون الوكيل عن كل شىء لأنه ﴿على كل شىء شهيد﴾[٦] فهو بمعنى الموجود الدائم الوجود.. والشهيد المستمر الشهود.. صدقا وعولا. ولهذا شاءت حكمة الحكيم أن يكون الاسم - الحق - هو الاسم التالى بعد اسم الشهيد.. وفى تفسير الحق بأنه الصدق.. فهو - سبحانه وتعالى - يقول الصدق.. وقد بيّن - سبحانه - هذا المعنى فى قوله عن بنى إسرائيل لموسى - عليه السلام - ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾[٧].

وفى قوله: ﴿قوله الحق وله الملك﴾[٨] وعندما يشير سبحانه - إلى معنى الحق بأنه الواقع فإنه يقول ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾[٩].. هذا هو الواقع وهكذا عندما يريد الحقيقة لذاتها.. يقول عز من قائل: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾[١٠] ويقول: ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾[١١] وكذلك فى تعيين الصدق والواقع معا.. يقول: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾[١٢] أى صدقا وواقعا.

قلت: فهمت أن لفظ - الحق - قد يكون اسما لله تعالى.. وقد يكون بمعنى الصدق.. أو الواقع.. أو الحقيقة بذاتها.. فهل تحدثنى عن تجليات الاسم الكريم - الحق -؟.

قال: تجليات اسم - الحق تشكل النور من تجليات اسم - النور - وهو المعاون الأول لتجليات اسم العدل - وهو الحق والهدى.

وتتجلى هذه الشبكة الأسمائية من الحق والنور.. والهدى.. والعدل.. لتصنع الحد القائم - ماديا

(١) سورة يونس الآية ٣٢
(٢) سورة الكهف الآية ٤٤
(٣) سورة النور الآية ٢٥
(٤) سورة الحج الآية ٦٢
(٥) سورة طه الآية ١١٤
(٦) سورة المائدة الآية ١١٧
(٧) سورة البقرة الآية ٧١
(٨) سورة الأنعام الآية ٧٣
(٩) سورة الأنعام الآية ٩٣.
(١٠) سورة الروم الآية ٤٧
(١١) سورة الأعراف الآية ١٠٥
(١٢) سورة الأنفال الآية ٤

ومعنويا - بين الحق وبين الضلال.. لأن الضلال لا يكون شيئا متى ظهر الحق.. كما لا يكون الليل ليلا إذا طلعت الشمس.. والله تعالى يصور لنا هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾[١٣] لأن الباطل كان أثرا للضلال.. والضلال ظلام دامس كأنه الحجاب السّاتر: ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾[١٤] فإذا كان هناك انبعاث فى النفس.. من تجليات الاسم - الباعث - فلن يكون ذلك الانبعاث إلا أثرا مباشرا لتجليات الأسماء الكريمة: الحق.. والعدل.. والنور.. والهادى.

إذ كل ما ليس حقا فهو باطل   وكل ما ليس عدلا فهو ظلم
وكل ما ليس نورا فهو ظلام   وكل ما ليس هدى فهو ضلال

ومن هنا يتبلور معنى قوله تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾[١٥] وعلى هذا النحو نواجه تجليات الاسم - الحق - مطمئنين إليه متكيفين به مؤتسين بقوله - ﷺ - «لاتزال طائفة من أمتى قائمين على الحق. لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى وعد الله».

قلت: وما معنى أن هذه الطائفة قائمون على الحق؟

قال: معنى قيامهم على الحق.. هو أن تجليات الأسم - القيوم - تساندهم وتؤازرهم فى التوجه إلى سبيل الحق بجميع صوره: صدقا وواقعا وحقيقة.. والحق تَجَلٍّ باهر.. وجلال ظاهر.. وجمال سافر.. هو سرُّ قيامهم بين يديه تعالى.. كما قال: ﴿وقوموا لله قانتين﴾[١٦] فهؤلاء الطائفة قائمون قانتون.. فى تجليات الاسم - النور - صدقا وعدلا فيكون الواحد منهم فى صلاته: ﴿فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[١٧] فهو لا يبرح الصدق.. ولا يتجاوز عن الحق.. كما ورد عن عبدالله بن عباس.. رضى الله عنهما: «بايعنا رسول الله - ﷺ - على السمع والطاعة فى العسر واليسر.. والمنشط والمكره.. إثرة علينا.. وعلى ألا ننازع الأمر أهله - أى أهل القرآن - وعلى أن نقول الحق حيثما كان لا نخشى فيه لومة لائم» فهذا سر المبايعة على الحق المبين.. القوى المتين.. لا تزلّهم عنه خطوب الحياة.. ولا صروف الأزمان.. لأنهم بأمره قائمون.. وهم على صلاتهم دائمون.

قلت: كيف يكون هؤلاء فى مقعد عند مليك مقتدر.. وهم أمامنا فى الدنيا - كما نرى - فى فقر وحاجة؟

قال: إذا كان الله تعالى يقول فى القرآن الكريم: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾[١٨] والمحيط - اسم فاعل - واسم الفاعل حقيقة فى الحال.. ومجاز فى الاستقبال.. فكما أن الكافرين تحيط بهم جهنم الآن.. فلا غرو قلنا إن هؤلاء المتقين تحيط بهم الجنة.. لأن مقعد الصدق يُلْتمس نورُه فى الدنيا وفى الآخرة.. كما ورد فى سورة الحديد: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾[١٩].

---

(١٣) سورة الإسراء الآية ٨١
(١٤) سورة النور الآية ٤٠
(١٥) سورة يونس الآية ٣٢
(١٦) سورة البقرة ٢٣٨
(١٧) سورة القمر الآية ٥٥.
(١٨) سورة العنكبوت الآية ٥٤
(١٩) سورة الحديد الآية ١٣

والصدق ينفع الصادقين فى تلقى نوره.. ولا مجال لهذا الصدق فى الحال والمآل إلاّ فى الدنيا .. لأن معنى ﴿مقعد صدق﴾ هو أن الجنة لهؤلاء الصادقين بحكم الصيرورة.. كما قال تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾[٢٠] كما ينفعهم فى المعيّة الروحية الثابتة فى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[٢١] فإذا كنت يا أخى متلبسًا بالصدق حق الصدق.. تتلو الكتاب حق تلاوته. فأنت مع الصادقين.. ومآلك مقعد الصدق.. رحمة من الله وفضلا.

قال أستاذنا عز الدين:

مقعد الصدق ليس منك بعيدا	إن جعلت الصلاة للقلب عيدا
صادق القول.. صادق الحال فيها	وبما تبتغيه كنت سعيدا
وزمان الدنيا قليل.. فأنّى	كنت كان المصير منك قعيدا
ومتاع الدنيا متاع قليل	وهواها يلقى إليك الوعيدا
همّة المؤمن المحقق أعلى	من ثراها.. إذا ابتغيت مزيدا
كيف يرضى بها حليف سهاد	بات فى غيرها مريدا شهيدا

قلت: إذن ليس المقصود بمقعد الصدق مكان القعود؟.

قال: لا يراد بالمقعد مكان القعود.. إلاّ إذا نظرنا إلى القعود من زاوية القياس البدنى.. فى مثل قوله تعالى: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾[٢٢] فالمراد بمقعد الصدق هو مقام الصدق المستقر.. والاستواء الكامل.

وأهل اللغة يرون أن الصدق معناه الحق.. وأن حق اليقين هو صدقه.. وصدق اليقين هو القائم على المشاهدة.. لا على مجرد السماع والتصديق.

فإذا قال القرآن الكريم: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾[٢٣] فالمتبادر أن قوله: ﴿صدقا﴾ يعنى يقينا وحقا.. ودرجات اليقين ثلاث: علم اليقين.. وعين اليقين.. وحق اليقين.

فعن علم اليقين.. قال تعالى: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم﴾[٢٤].

ثم أشار إلى الدرجة الثانية من درجات اليقين بالآية: ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾[٢٥].

ثم أشار إلى الدرجة الأولى فى اليقين بقوله: ﴿إن هذا لهو حق اليقين﴾[٢٦].

وهكذا ظهرت مرتبة الحق هنا بمعنى الصدق الكامل. ومن هنا أيضًا نعرف كلمة – الحقيقة – فإنها من الحق بمعنى الصدق.

---

(٢٠) سورة المائدة الآية ١١٩
(٢١) سورة التوبة الآية ١١٩
(٢٢) سورة النساء الآية ٩٥
(٢٣) سورة الأنعام الآية ١١٥
(٢٤) سورة التكاثر الآيتان ٥، ٦
(٢٥) سورة التكاثر الآية ٧
(٢٦) سورة الواقعة الآية ٩٥

وقد بينت الآية: ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾[٢٧] بمعنى التصحيح.. يوم لا ينفع التصحيح.. ثم أردف بأن هذا أيضًا يطلق على الله تعالى.. بقوله بعد هذا النص مباشرة تكملة للآية: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ وهكذا ترى من خلال الآيات المختلفة.. مراتب الحق ومعانيه.. فى الذات.. وفى الصدق.. وفى الواقع.. وفى حقائق الأشياء..

قلت: وكيف يتعرف المخلوق على الحق – جل شأنه –؟.

قال: بالعكس.. إن الحق – تبارك وتعالى – هو الذى تعرف على خلقه فقد قرأت لبعض الأئمة: أن الحق تعالى تعرّف إلى العامة بأفعاله.. فقال عز من قائل: ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾[٢٨].

وتعرّف إلى الخواص بصفاته.. فقال عز من قائل: ﴿وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾[٢٩].

وتعرّف إلى خاصة الخاصة بحقيقة حقة وذاته.. فقال – عز من قائل: ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾[٣٠].

قلت: طلب الله تعالى منا أن نعلم أنه هو الحق المبين.. فى قوله تعالى: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾[٣١]. وأعتقد أن اسم – المبين – ليس من أسمائه تعالى.. فما المقصود به؟.

قال: المبين فى وصفه تعالى.. كما قال الإمام القشيرى: هو الذى يوضح الحق ويعليه.. ويقيم البرهان ويوضحه ويظهر الحق من الباطل بالعلامات التى ينصبها.. ويبّين من مكنونات العبد ما لم يخطر ببال أحد.. من دقائق آثار الحكمة.. وعجائب متعلقات القدرة ويبّين لقلوب الموحدين – على الخصوم – من شواهد الربوبية – ما يزيل الشبهة.. ويعلى الحجة.

قلت: فهمت الآن أن الحق – سبحانه – هو الموجود الدائم الوجود.. والشاهد المستمر الشهود.

قال: وما دام هو الموجود الدائم.. والشاهد المستمر.. كان جديرًا بأن يكون هو الوكيل عن كل شىء لأنه ﴿على كل شىء شهيد﴾.. ولهذا كان الاسم التالى هو اسم – الوكيل – .

قلت: وما نصيب العبد من هذا الاسم الكريم؟.

قال: حظ العبد من هذا الاسم.. أن يرى نفسه باطلا.. ولا يرى غير الله حقا فإن كان العبد حقا.. فإنه ليس حقا بنفسه.. بل هو الحق بالله الذى أوجده وجعله حقيقة قائمة.

وقد قال رسول الله – ﷺ –: «أصدق كلمة قالها شاعر.. قول لبيد: ألا كل شىء ما خلا الله باطل».

وروى البخارى فى الصحيح .. أن النبى – ﷺ – كان يقول فى تهجده ليلا: «اللهم لك الحمد..

(٢٧) سورة النور الآية ٢٥
(٢٨) سورة الأعراف الآية ١٨٥
(٢٩) سورة يونس الآية ٦١
(٣٠) سورة الأنعام الآية ٩١
(٣١) سورة النور الآية ٢٥

أنت رب السماوات وما فيهن.. لك الحمد.. أنت قيوم السماوات والأرض وما فيهن.. أنت الحق.. وقولك الحق.. ووعدك حق.. ولقاؤك حق.. والجنة حق.. والنار حق.. والساعة حق».

ومن أكثر من الذكر بقوله: «لا إله إلا الله الملك الحق المبين» أغناه الله من حيث لا يحتسب.

والنفس إذا انحرفت ثقل عليها الحق واتّباعه.. والحق من أسرع الأسماء إجابه لمن صفت بالذكر أرواحهم.. وحسنت بالطاعة أخلاقهم.. وأعلم أن الدنيا حلالها حساب.. وحرامها عقاب.. ﴿واتّقوا يوما ترجَعون فيه إلى الله﴾.

وإلى اللقاء مع الاسم الجديد - الوكيل - إن شاء الله تعالى.

* * *

٥٣ - الوكيل

قلت: ما هى الآيات التى تشير إلى أن - الوكيل - اسم من أسمائه تعالى:

قال: أشارت كثير من الآيات إلى هذا الاسم - الكريم - مثل قوله تعالى ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾(١) و: ﴿خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل﴾(٢) و: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾(٣) و: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾(٤) و: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾(٥) وغيرها كثير.

قلت: وما معنى الوكيل؟.

قال: الوكيل فى اللغة هو الولىّ.. أو النائب فى الأعمال.. وينقسم إلى قسمين: وكيل خاص.. ووكيل عام.

قلت: وما هى الوكالة الخاصة؟.

قال: الوكالة الخاصة أن يكون عندك وكيل أعمالك.. يقوم بمباشرة بعض شئونك وقضاء مصالحك الخاصة.

فأنت إذا وكلت عنك محاميا لمباشرة قضية من قضاياك.. أو إنهاء مصلحة من مصالحك.. فهو وكيلك الخاص: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾(٦) فالمؤمن ولىّ المؤمن.. ويعتبر وكيلا خالصا له.. يباشر شئونه إذا اقتضى الأمر.. ويقضى مصالحه إذا لزم الحال.

قلت: وما الوكالة العامة؟

قال: الوكالة العامة.. هى الولاية المطلقة لله تعالى.. كما ورد فى سورة الكهف: ﴿هنالِك الولاية لله الحق﴾(٧) وفى سورة الإسراء: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألّا تتخذوا من دونى وكيلا﴾(٨) فهذا بمعنى الولاية العامة. والوكالة التامة.

ولذلك حكم الله حكما قاطعا بوكالته وولايته العامة للمؤمنين. بقوله تعالى: ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾(٩).

قلت: أرى الوكالة والولاية متلازمين فى معانى تلك الآيات.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣
(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٢
(٣) سورة القصص الآية ٢٨
(٤) سورة المزمل الآية ٩
(٥) سورة الأحزاب الآية ٣
(٦) سورة التوبة الآية ٧١
(٧) سورة الكهف الآية ٤٤
(٨) سورة الإسراء الآية ٢
(٩) سورة البقرة الآية ٢٥٧

قال: الاسمان الكريمان: الولى والوكيل.. اسمان متعاونان.. يقتضى كل منها الآخر.

وإنما أردنا بحصر الوكالة التامة والولاية العامة.. فى ذات الله - سبحانه وتعالى - شاهد الآية: ﴿ألّا تتخذوا من دونى وكيلا﴾[١٠] والآية ﴿إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾[١١] وقول يوسف - عليه السلام: ﴿أنت وليّى فى الدنيا والآخرة﴾[١٢].

قلت: المعروف عند الناس فى الشئون القضائية.. أن وكيل الدعوى - المحامى - يتولى الدفاع عن صاحب المصلحة فى هذه الدعوى.. فهل يتولى الله تعالى الدفاع عن عباده؟.

قال: الآية صريحة فى دفاع - الوكيل - سبحانه وتعالى.. عن الذين آمنوا فهو يقول - جل شأنه: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[١٣] فمن عرفه ووكل إليه أموره.. دافع عنه فى جميع المواقف التى تحتاج إلى دفاع.. وإن من له وكيل يتولى أشغاله.. يسأله الأجرة على أعماله.. وربما خانه فى ماله.. ثم يخطئ فى كثير من أحواله.. وقد لا ينتهى كما ينبغى لإتمام أعماله ولكن الحق سبحانه.. يأخذ الحق لمن يرضى به وكيلا.. ثم يحقق له كل آماله ويثنى عليه جميلا.. ويعطيه عطاء جزيلا.. ولا يسأله على ما يتولاه أجرا.. بل يضاعف له فضلا ونعمة.. ويلطف به فى دقائق أموره وأشغاله.. ويمنّ عليه بما لا ترتقى إليه آماله.

ومن عرف أن الله تعالى وليه ووكيله.. وصدق عليه اعتماده وتعويله.. فبالأحرى أن يشعر به فى قراره نفسه.. فيستوفى لله حقوقه.. ويؤدى أوامره وفرائضه.. ولا يغفل عن وليه ووكيله لحظة من ليل أو نهار.

قلت: أليس الله - سبحانه - وكيلا ووليا لجميع خلقه؟.

قال: هذا هو الفرق بين الوكالة والولاية.. فالوكيل - سبحانه - هو المتولى لأحوال عباده.. يصرفهم على ما يريد.. ويتولى أسبابهم على ما يختاره هو وهو وكيل قوى.. يقدر على ما يشاء.. وتلى تجليات الاسم - الوكيل - فإذا تولى أمر عبد بتجليات الاسم - الولى - كفاه كل شغل.. وأغناه عن كل ما سواه.. وهنا لا يستكثر العبد حوائجه.. لأنه يعلم أن مولاه كافيه ولهذا قيل: «من علامات التوحيد.. كثرة العيال على بساط التوكيل» ولكنك تريد جرّ الحديث إلى الاسم - الولىّ - ولم يأت دوره بعدُ.

قلت: وكيف يخشى شيئا من رضى بالله وكيلا؟.

قال: يقول جعفر بن محمد الباقر - رضى الله عنهما - عجبت لمن يخاف.. لم لا يفزع إلى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[١٤] فقد سمعت الله عقبها يقول: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾[١٥].

وعجبت لم يغتم.. لم لا يفزع إلى: ﴿لا إلـه إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾[١٦] فقد

---

(١٠) سورة الإسراء الآية ٢
(١١) سورة الأعراف الآية ١٩٦
(١٢) سورة يوسف الآية ١٠١
(١٣) سورة الحج الآية ٣٨
(١٤) سورة آل عمران الآية ١٧٣
(١٥) سورة آل عمران الآية ١٧٤
(١٦) سورة الأنبياء الآية ٨٧

سمعت الله عقبها يقول: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾[١٧].

وعجبت لمن يخاف مكر الأعداء.. لم لا يفزع إلى: ﴿وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾[١٨] فقد سمعت الله عقبها بقول: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾[١٩].

فأنت ترى من هذا أن من رضى الله كيلا.. لا يخاف ولا يغتم ولا يقع فى مكر سيء.

قلت: أما ترى معى يا أستاذى.. أن وكالة الله تعالى - عن المؤمنين.. كرم منه وفضل لهم.

قال: إنه سبحانه جعل دفاعه ووكالته حقا عليه للمؤمنين.. لقوله تعالى - كما أسلفنا - فى الحديث عن اسمه - الحق -: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾[٢٠] وكونه تعالى جعل ذلك حقا عليه.. بما كتب على نفسه الرحمة.. وإن القيام بشئون المؤمنين.. فى الدفاع والوكالة عنهم.. نصر لهم.. وهو جزاء لقيامهم هم بنصر آيات الله.. وإعلاء كلمته.. فقد أقسم بلام القسم بقوله: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[٢١] والشواهد على هذا متواترة فى القرآن الكريم.

إن تجليات الاسم - الوكيل - مقترنة بتجليات الاسم - الحق - هى التى تقوم بإلهام كل وكيل بالحق ليقوم على الصدق.

وكذلك بتجليات الاسم - العدل - لتصدر الأحكام الصادقة من تجليات اسم العدل - وهكذا: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته﴾[٢٢] ولا معقب لحكمه: ﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾[٢٣] ولهذا كان الاسم التالى هو -القوى المتين-.

قلت: وما نصيب العبد من اسم - الوكيل - ؟.

قال: من جعل الله وكيلا عنه تولاه.. ومن استغنى به أغناه.

وجدير بمن يذكر بهذا الاسم.. أن يقوم بشئون أخيه المؤمن.. وأن يرعى كل ما يوكل إليه من أمور الناس بجدّ وإخلاص يقول تعالى: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[٢٤].

كما يقول ﷺ: «والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه».

وقد قال بعضهم فى دعائه: «اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم الخلق فسخّرت الخلق لهم.. وطلبوا منك الملك فأعطيتهم.. أما أنا فأسألك اعوجاج الخلق علىّ حتى لا يكون لى ملجأ سواك.. ماذا عليهم لو طلبوك؟.. فإن من وجدك فقد وجد كل شيء» قال ذلك فرارًا من الخلق إلى الحق.

وهيا إلى - القوى المتين - سبحانه.

---

(١٧) سورة الأنبياء الآية ٨٨
(١٨) سورة غافر الآية ٤٤
(١٩) سورة غافر الآية ٤٥
(٢٠) سورة الروم الآية ٤٧
(٢١) سورة غافر الآية ٥١
(٢٢) سورة الأنعام الآية ١١٥
(٢٣) سورة القصص الآية ٨٨
(٢٤) سورة التوبة الآية ٧١

٥٤ - القـوى
٥٥ - المتـين

قلت: هل ورد هذان الاسمان الكريمان فى القرآن الكريم؟.

قال: ورد اسم - القوى - فى كثير من الآيات مقترنا بالعزّة.. فى مثل قوله تعالى: ﴿إن ربك هو القوى العزيز﴾[١] و:﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾[٢] و:﴿وليعلم الله من ينصرُه ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز﴾[٤] :و ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز﴾[٥]: ﴿وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾[٦].

قلت: ألمح من خلال تلك الآيات.. التى اقترن فيها الاسمان: القوى والعزيز أنه اقتران فى موقف النصر.

قال: نعم القوة.. بتجليات الاسم الحق - هى التى تؤدى إلى النصر.. والنصر فى تلك الحالة هو المفضى إلى العزة والمجد.

قلت: وهل اقتران الاسمان: القوى والعزيز.. فى مواقع غير مواقع النصر؟.

قال: جاء الاسمان متعانقان.. وعلى رأسهما تاج كريم من اسم - اللطيف - فى موقف الرزق.. فى قوله تعالى: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز﴾[٧] فتيسير الرزق هو أيضا عن عوامل العزة للمؤمنين.

قلت: وهل ورد اسم - القوى - فى مواقف غير مواقف العزة بالنصر وتيسير أمور الرزق؟.

قال: ورد اسم - القوى - أيضا فى مواقف البطش والجبروت.

فى قوله تعالى: ﴿إن الله قوى شديد العقاب﴾[٨] و: ﴿فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب﴾[٩] فشدة العقاب تقتضى القوة

قلت: وهل يوصف غير الله - تعالى - بصفة القوة؟.

قال: القوة تؤدى معنى الحزم والعزم وعلو الهمة والأمانة المعنوية.. كما فى قوله تعالى: ﴿خذوا

---

(١) سورة هود الآية ٦٦.
(٢) سورة الحج الآية ٤٠.
(٣) سورة الحج الآية ٧٤.
(٤) سورة الحديد الآية ٢٥.
(٥) سورة المجادلة الآية ٢١.
(٦) سورة الأحزاب الآية ٢٥.
(٧) سورة الشورى الآية ١٩.
(٨) سورة الأنفال الآية ٥٢.
(٩) سورة غافر الآية ٢٢.

ما آتيناكم بقوة﴾[١٠] و: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾[١١] و: ﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾[١٢] وغير ذلك من الآيات.

ولهذا وصف الله تعالى - بعض عباده بالقوة مصحوبة بالأمانه.. فى مثل قوله على لسان عفريت سليمان - عليه السلام - فى نقل عرش بلقيس: ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين﴾[١٣] وقوله على لسان ابنة شعيب تصف موسى - عليه السلام: ﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾[١٤].

قلت: هذا ما ورد فى القرآن الكريم عن الاسم - القوى - فماذا ورد فيه عن الاسم - المتين؟.

قال: لم يرد الاسم الكريم - المتين - غير مرة واحدة.. جاء مقترنا باسم الله القوى - فى ظلال الاسم - الرزاق - فى قوله تعالى: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[١٥].

قلت: وما معنى الاسم - المتين -؟.

قال: المتين بمعنى القوى.. واشتقاقه لغة من المتانة.. وهى الصلابة فنقول: هو متين القوى.. ويقال: رجل طويل المتن.. ورجال طوال المتون.. والمتن هو الظهر.. لأن استمساك أكثر الحيوانات وصلابتها يكون بظهورها.. كما نقول: فى متون الكتب.. وكما يقول جرير:

تُجرِى السواك على أَغَرَّ كأنه بَـرَدٌ تحدَّر من مُتون سحاب

ولا يصح فى وصفه تعالى المتانة ولا الصلابة.. ولكنه يكون بمعنى القوة فالله تعالى لا يوصف بالجلادة والشجاعة. ويوصف بالقوة والقدرة.. وهو - سبحانه - يسمَّى المتين - ولا يسمى بالمتانة ولا الصلابة.

فهو على ما يشاء قوى قدير.. لا يخرج عن قدرته مقدور ولا ينفكُّ عن حكمته مفطور.. ولا يتقوى بجند ولا مدد.. ولا يستعين بجيش ولا عدد.. إذا أراد إهلاك أحد.. أهلكه بيده فيسلطه على نفسه فيتلفها حرقا أو غرقا أو يتناول سموم.

قلت: أكاد ألمح شيئا خفيا خلف إقتران الأسمين: القوى والمتين. فى ظلال الاسم - الرزاق - فى آية الذاريات.. التى ذكرتها.

قال: وهذا إحساس فطرى منك.. ألهمك به القوى المتين.. فإن الله تعالى خلقنا.. وخلق أعمالنا وأرزاقنا.. حيث يقول: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[١٦] أى خلق ما تعملون.. فكل ما عملته أيدينا.. إنما هو من صنع الله وهو الذى ألهمنا صنعه.. ويسَّر لنا سبيل إنتاجه.. والمؤمن مكلَّف بالنظر فى كل شىء.. فى السماء والأرض.. وفيما فى السماء والأرض.. وفيما بين السماء والأرض.

المؤمن مكلف بالنظر فى نفسه وما فيها من أجهزة ومدراك وغير ذلك من أبصار وأسماع.. وفى طعامه وما أعد الله تعالى فيه من مواد وطعوم وإبداع.. وفيما عملته أيدينا لأن الله هو الصَّناع.. كل هذا يوصل البصيرة إلى قوة الرزاق المتين.

---

(١٠) سورة البقرة الآية ٦٣.
(١١) سورة مريم الآية ١٢.
(١٢) سورة الأعراف الآية ١٤٥.
(١٣) سورة النمل الآية ٣٩.
(١٤) سورة القصص الآية ٢٦.
(١٥) سورة الذاريات الآية ٥٨.
(١٦) سورة الصافات الآية ٩٦.

قلت: مازلتُ فى حاجة إلى مثل يقرب إلى هذا المعنى.

قال: أضرب لك المثل بشىء صنعه بنو البشر فمثلا القاطرة.. التى تجر خلفها عددا غير قليل من العربات المليئة بالمسافرين.. وتقطع بهم عشرات الكيلو مترات فى دقائق معدودات.. تلك القاطرة لو كانت قوية فقط.. لانفجرت من شدة اندفاعها.. ولكنها يجب أن تكون متينة إلى جانب قوتها.. لتتحمل ذلك الإندفاع الرهيب.

وبتلك النظرة الواعية الفاحصة المدققة.. يجد المؤمن نفسه منفعلا من أعماقه.. فتنطق مشاعره وأحاسيسه..قبل أن ينطق لسانه.. أمام هذه القاطرة المصنوعة.

«سبحانك يا قوى يا متين»

إن من يعلم أن مولاه قدير على ما يريد.. قطع رجاءه عن الأغيار.. وجعل اعتماده على الرزاق القوى المتين.. كما أخبر سبحانه عن إبراهيم – عليه السلام – أنه قال: ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم﴾ أى سهلت طريقهم إليك.. وقطعت رجاءهم عمن سواك.. ثم قال: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أى شغلتهم بعبادتك وخدمتك.. فأنت أولى بهم منى ومنهم.. ثم قال ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات﴾[17] أى إذا احتاجوا إلى شىء.. فذلل عبادك لهم.. وأوصل رعايتك إليهم.. فإنك على كل شىء قدير.

أما ترى فى كل هذا قوة التدبير.. ومتانة التقدير؟.

واعلم أن من لزم عتباته.. أوصل إليه مشتهياته.. وكفاه مسبباته وذلّل له كل صعب.. وأورده كل منهل عذاب.. من غير تعب ولا نصب ومن كان الله مولاه.. وصار وليًا لله.. فكيف يحتاج إلى سواه؟.

قلت: وما حظ العباد من هذين الاسمين الكريمين؟.

قال: على المؤمن أن يكون قوى الإيمان متين الثقة بالله.. مستشعرا أن قوة الخالق فوق كل قوة.. باذلا كل ما وهبه الله من قوى جسميه وروحية لخدمة الناس ونفعهم.. فإنه بذلك يخدم نفسه ومجتمعه.. ويرضى ضميره وربه.

وعلى من يعتريه ضعف فى جسده.. أو فتور فى عبادته.. أو تقصير فى عمله.. أن يكثر فى الصباح من ذكر – القوى المتين – فيرزقه الله قوة الجسد.. وإخلاص العبادة.. ونشاط العمل.. والأصل فى كل شىء سلامة النية وحسن الاعتقاد.

وإلى الاسم – الولى – إن شاء الله تعالى.

---

(١٧) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

٥٦ - الـولى

قلت: نعود إلى السؤال التقليدى الأول.. فى كل أحاديثنا عن الأسماء تقريبا.. فى أى الآيات ورد اسم الله - الولى.؟

قال: جاء اسم - الولى - فى كثير من آيات الكتاب.. مثل قوله تعالى: ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[1]. و: ﴿والله ولى المؤمنين﴾[2] و: ﴿وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾[3] و: ﴿وينشر رحمته وهو الولى الحميد﴾[4].

قلت: أليس معنى - الولى - فى اللغة هو الوكيل؟

قال: الولاية تؤدى معنى الوكالة.. إذا قلنا: هذا ولى اليتيم أو الصغير.. والأصل فى معنى - وَلِيَ - فى اللغة: أى قرب ودنا.. فنقول: كُلْ مما يليك.. أى ما قرب منك.. وأولياء فلان: يعنى أنصاره.. فأولياء الله تعالى: هم أنصار دينه.. وأشياع طاعته.. والمتقربون إليه.

كما تقول اللغة: فلان وَلِيَ الأمر وتولاه: أى صار مسئولا عنه.. فنقول: هو والى البلد.. وهم ولاته.. ورحم الله تعالى ولاة العدل.

قلت: الله - تعالى - يقول: ﴿والله ولى المؤمنين﴾[2] ويقول: ﴿وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾[3] وقال يوسف - عليه السلام: ﴿أنت وليى فى الدنيا والآخرة﴾[5] فالله - تعالى - ولينا ومولانا وسيدنا.. وهو الذى يتولانا.. يدبر أمورنا.. ويقدّر أرزاقنا.. ويصّرف شئوننا وأحوالنا.. فكيف نقول: نحن أولياء الله.. أو أقول: أنا ولى الله.. مع أن الله هو وليى؟

قال: الولى تطلق على السيد وعلى العبد.. والعبد مولى سيده.. ولهذا أطلق على العبيد: الموالى.. ومن هنا جاز أن تقول: أنا ولى الله.. وتقول: الله وليى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[6] والولاية هنا بمعنى الحب والتأييد والتآزر.

ويقول بعض أهل الإشارات: لما علم الله تعالى تقاصر ألسنة المذنبين.. وعلم أن فى هذه الأمة من يرتكب الذنب.. وليس له جسارة على طلب العفو.. بدأهم بجميل فضله.. فقال - عز من قائل: ﴿نحن أولياؤكم﴾[7] فشتان بين عبد يقول: ﴿أنت وليى﴾.. وبين عبد يقول الله له: ﴿نحن أولياؤكم﴾ ولو لم تكن فى القرآن كله آية فى هذا الباب غير قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[8] لكفى بذلك شرفا للمؤمنين وذخرا.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧.
(٢) سورة آل عمران الآية ٦٨.
(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٢.
(٤) سورة الشورى الآية ٢٨.
(٥) سورة يوسف الآية ١٠١.
(٦) سورة التوبة الآية ٧١.
(٧) سورة فصلت الآية ٣١.
(٨) سورة محمد الآية ١١.

قلت: أرى فى بعض الآيات أن للشيطان أولياء.. فهل هناك ولاية غير الولاية لله؟

قال: كل إنسان ولى.. ولكن الولاية قسمان.. والناس حيالها حزبان: حزب الله وهم أولياء الله.. وحزب الشيطان وهم أولياء الشيطان يقول تعالى: ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾(٩) هؤلاء هم أولياء الله. ويقول: ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾(١٠) وهؤلاء هم أولياء الشيطان. وقد ذكر الله أولياء الشيطان بنص الولاية فى كثير من الآيات.. مثل قوله تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾(١١) و: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾(١٢) و: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾(١٣) و: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾(١٤).

وكما جعل الله - تعالى - المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.. كذلك جعل الظالمين والمنافقين والكافرين بعضهم أولياء بعض.. فقال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾(١٥) وقال: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾(١٦) وقال: ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين﴾(١٧) وغيرها كثير وكثير.

قلت: وكيف أكون وليا لله تعالى؟

قال: حدد الله تعالى لنا صفات أوليائه فى كثير من الآيات.. ولكنها كلها تدور حول محور الإيمان والاستقامة.. فقال - عزّ من قائل - فى سورة يونس: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون *الذين آمنوا وكانوا يتقون *لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾(١٨) وقال بنفس المعنى - مفصّلا - فى سورة فُصِّلت -: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم﴾(١٩) ففى الآية الأولى - آية سورة يونس - جعل العلامة المميزة لأوليائه: الإيمان والتقوى.. ومعنى التقوى هنا هو الاستقامة على طريق الله المستقيم.. فى كل أمر من أمور الحياة.

وفى الآية الثانية - آية سورة فصلت - زاد الأمر توضيحا وتفصيلا.. فحكم لمن توفر فيه الشرطان: الإيمان والاستقامة.. حكم له بثلاثة أمور.. كل أمر من شقّين:

الأمر الأول: عدم الخوف والحزن فى الدنيا.. والخوف يكون من المستقبل.. أما الحزن فيكون على الماضى.. هذا هو الشق الأول من الأمر الأول فى قوله تعالى: ﴿ألّا تخافوا ولا تحزنوا﴾ فى الدنيا.

أما الشق الثانى: فهو البشرى فى الآخرة بالجنة الأبدية والنعيم الخالد بقوله: ﴿وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾ فى الآخرة.

---

(٩) سورة المجادلة الآية ٢٢.
(١٠) سورة المجادلة الآية ١٩.
(١١) سورة النساء الآية ٧٦.
(١٢) سورة الأعراف الآية ٢٧.
(١٣) سورة الأعراف الآية ٣٠.
(١٤) سورة الأنعام الآية ١٢١.
(١٥) سورة المائدة الآية ٥١.
(١٦) سورة الأنفال الآية ٧٣.
(١٧) سورة الجاثية الآية ١٩.
(١٨) سورة يونس الآيات ٦٢-٦٤.
(١٩) سورة فصلت الآيات ٣٠-٣٢.

والأمر الثانى: هو ولاية الله له فى الدنيا.. هذا هو الشق الأول من الأمر الثانى بقوله: ﴿نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا﴾.

أما الشق الثانى: فهو ولاية الله له فى الآخرة.. بقوله تعالى: ﴿وفى الآخرة﴾.

والأمر الثالث: هو تحقيق مطالب نفسه وحاجياته.. وتصريف أموره الدنيوية من جميع الآمال والأعمال.. والشئون والأحوال.. فيجعلها حسب مشيئته.. ورهن إشارته.. وقد قرأت لبعضهم: تركنا له ما نريد لما يريد.. فترك لنا ما يريد لما نريد.. وهذا واضح فى قوله تعالى عن الشق الأول من الأمر الثالث: ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم﴾.. وهو خاص بالدنيا.

أما الشق الثانى من هذا الأمر الثالث.. فهو أن له فى الآخرة أيضا ما يشاء: بقوله: ﴿ولكم فيها ما تدَّعون * نزلا من غفور رحيم﴾ والنزل أخروى بحت.

وهذان الشرطان.. حددهما لنا أيضا.. المعصوم – صلوات الله وسلامه عليه – وقد آتاه الله – تعالى – جوامع الكلم.. فقال فى حديثه المحكم: «قل الله.. ثم استقم»: ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾(٢٠).

قلت: كل هذا الفضل الواسع العريض فى الدنيا والآخرة معا.. لمن وفر فى نفسه هذين الشرطين فقط؟

قال: نعم.. وإنهما لشرطان خطيران.

أولهما: ألا يكون لك ربٌّ ولا سندٌ غير الله – تعالى – وتعلم أنه أقرب إليك من حبل الوريد.. فيكون لك دائما – جل شأنه – هو الملجأ والملاذ.. والمستعان والمعاذ.. والممد والمسئول.. والمطلوب والمأمول.. فلا يكون بينك وبينه حجاب.. من هوى أو أحباب.. أيا كانوا هؤلاء الأحباب. مالاً أو أولادًا.. أو وسطاء أو أندادا.. فيكون تحقيق هذا الشرط الأول.. وسيلة لتحقيق الشرط الثانى.. فمن تعلق قلبه بالله.. فى كل أموره وأحواله.. وكان الله غايته ومنتهى آماله.. يغار على قلبه أن يتعلق بمخلوق.. فى دفع أذى أو جلب نفع.. فيمده الله – تعالى – بنور من عنده.. يهتدى به فى ظلمات الحياة وأكدارها.. وأحوالها وأوحالها.. ومطامعها ومطاعمها.. وشئونها وشجونها.. فيكون على هدى من أمره.. وبصيرة فى قعوده وسيره.. وبهذا يكون سائرا على الصراط المستقيم – صراط الله العزيز الحكيم – فلا يميل عن الصراط.. لأنه يرى عين الله ترقبه.. ولا يرتكب فحشا فى قول أو عمل.. لأنه يعلم أن الله يراه.. ولهذا يقول – عليه الصلاة والسلام: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن.. الحديث».

قلت: حقا إن ولاية الله لعبده تضمن له السعادة فى الدارين.

قال: إذا كان الله وحده هو القائم فى قلب عبده المؤمن الموحِّد.. كان هو – سبحانه – له فى كل نفس يتردد فيه.. وفى كل حركة يتحركها.. فيحقق آماله عند إشارته.. ويعجل له مآربه عند خطراته.. ولهذا يقول فى الحديث القدسى المعروف: «من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب.. وما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه.. ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه.. فإذا أحببته كنت

(٢٠) سورة البقرة الآية ٢٠١.

أذنه التى يسمع بها.. وعينه التى يبصر بها.. ويده التى يبطش بها.. ورجله التى يمشى بها.. ولئن سألنى لأعطينه.. ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض عبدى المؤمن.. هو يكره الموت وأنا أكره مساءته».

فأين أولياء الله من أولياء الشيطان.. الذين استزلهم.. وزين لهم عبادة غير الله.. واتخذوا لهم أندادا يحبونهم كحب الله.. فصارت قلوبهم مقسّمة.. وعبادتهم موزعة.. ومشاعرهم مشتته.. وأفئدتهم هواء. اقرأ قوله تعالى فى سورة الكهف: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا﴾[٢١]. ثم أراد الله تعالى أن يخبر أولياءه – بعد تلك الآية مباشرة – عن الذين خسروا عبادتهم وأعمالهم فقال – عز من قائل: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا﴾[٢٢] إنهم: ﴿الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[٢٣] وقال أستاذنا – عز الدين – رضى الله عنه وأرضاه – فى هذا المعنى:

فيم الطواف بأحجار مزخرفة ... والله أقرب للشاكى من الشاكى؟
ألا تذكّرتَ ذكرَ الله فى سحر ... وسجدةَ الخاضع المسترحم الباكى؟
وما يفيض من النور المبين بها ... على المنيبين فى أثواب نُسّاكِ
عظّمْ شعائرَه.. واقرأ بصائره ... واشهدْ بدائعه فى عين إدراك
يا نفحة الطيب من رضوان بارئها ... جودى على العبد إحسانا بريّاك
ثم ارحمى زفرات منه والهة ... فلم يزل عابدا بالحال إيّاك
حاقت به حسرات الصدّ فانفطرت ... منه الحشاشة ماذا عنه أغناك
عودى إليه بنور الذكريات هدى ... لولاك ما ناله الإحسان لولاكِ
وأدركيه فقد ضاقت مذاهبه ... وبات مرقدُه من فوق أشواك
مازال يؤمن بالتوحيد معتقدا ... ولا يميل إلى إثم وإشراك

حقا إن نعمة التوحيد مَنَعة[٢٤].. ونظرة التوحيد لمعة صادرة من جانب الرفيق الأعلى.. الذى هو بكل موحد أحق وأولى. أما أنت أيها الحائر المسكين.. فالطريق أمامك مستقيم.. والمنهاج واضح قويم.. ولابدّ لك من رعاية عهده.. وذواق ورده.. والصبر على صابه[٢٥] وشهده.. لأن هذا هو مهر الحور العين.. فى فراديس التكريم: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾[٢٦].

قلت: هل توجد أمارات وعلامات.. أعلم بها ولاية الله – تعالى – لى؟

قال: من أمارات ولاية الله تعالى لعبده.. أن يديم توفيقه.. حتى لو أراد سوءا.. أو قصد محظورا.. عصمه عن ارتكابه.. أو لو جنح[٢٧] إلى تقصير فى طاعته.. أبى الله إلا توفيقا له وتأييدا.. وقد يثاب المرء رغم أنفه. ومن أمارات ولاية الله – سبحانه – لعبده – أيضا – أن يرزقه مودة وحبا فى قلوب

---

(٢١) سورة الكهف الآية ١٠٢.
(٢٢) سورة الكهف الآية ١٠٣.
(٢٣) سورة الكهف الآية ١٠٤.
(٢٤) حماية.
(٢٥) الصاب: النبات المرّ.
(٢٦) سورة الشعراء الآيتان ٨٨، ٨٩.
(٢٧) جنح: مال.

أوليائه.. وإن الله - تعالى - إذا أحب عبدا.. أحبته ملائكة الله فى السماء.. وأحبه المؤمنون فى الأرض.. ويكون دائم الحمد والثناء على الله.

ألم تر أن لله عبادا.. إذا رُءوا ذُكر الله تعالى.. لأنهم دائما يذَكِّرون بالله فى أقوالهم وأفعالهم.

قلت: هؤلاء هم أولياء الله حقا.

قال: إن الله تعالى ينشر رحمته لأنه هو الولى الحميد.. اقرأ قوله تعالى: ﴿وينشر رحمته وهو الولى الحميد﴾[28]. وبهذا انتقلنا إلى اسمه تعالى - الحميد -.

* * *

(٢٨) سورة الشورى الآية ٢٨.

٥٧ - الحميد

قلت: فى أى الآيات ورد اسم الله تعالى - الحميد -؟.

قال: ورد اسم - الحميد - فى القرآن الكريم.. سبع عشرة مرة مثل .

قوله تعالى: ﴿فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا﴾[١] وقوله: ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾[٢] وقوله: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد﴾[٣].

قلت: وما معنى الحمد فى اللغة؟.

قال: الحمد ضد الذم.. والحمد أعم من الشكر.. والمحمَّد بالتشديد هو الذى كثرت خصاله المحمودة.. وقولهم - العوْد أحمد - أى أكثر حمدًا.

فالحمد يتصرف فى اللغة على وجوه.. فيكون بمعنى المدح والثناء.. ويكون بمعنى الشكر.. والفرق بينهما: أن الشكر فى مقابلة إحسان.. أما الحمد فيكون أيضا فى مقابلة إحسان كما يكون بمعنى المدح بذكر صفات العلو والرفعة.. ولهذا قلنا: الحمد أعم من الشكر.

وقد يكون الحمد فى اللغة بمعنى الرضا.. فأقول: بلوته فحمدته.. أى اختبرته فارتضيته.

فإذا قلت: الحمد لله.. يكون بمعنى المدح والشكر والرضا لله جل جلاله.

قلت: إذن فما معنى اسم - الحميد - بالنسبة إلى الله تعالى؟.

قال: هذا الاسم بالنسبة إلى الله تعالى.. هو فعيل بمعنى مفعول.. أى محمود بحمده لنفسه وحمد خلقه له.. ويكون فعيلا بمعنى فاعل.. أى حامد لنفسه وحامد لعباده المؤمنين بثنائه عليهم.

ونحن نقول: نحمد الله تعالى بجميع محامده.

يقول النابغة:

وألْفَيْتُ فى العبْسىِّ فضلًا ونعمةً ... ومَحْمدةً من باقيات المحامدِ

قلت: تقول يا أستاذ: أنه تعالى حميد بحمده لنفسه.. فكيف يحمد الله تعالى نفسه؟.

قال: إن الحمد والشكر يكون فى مقابل إحسان.. وعلى درجة إحاطة الحامد بالإحسان تكون درجة حمده وشكره.. والله تعالى يعلم أن العباد لن يستطيعوا الإحاطة بإحسانه وفضله ونعمه.. فإذا أحاطوا بظواهرها.. فلن يحيطوا ببواطنها: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[٤] ولهذا فلن يكون حمدهم إلا على درجة علمهم بالنعمة.. فهو حمد ناقص ولن يكون الحمد كاملا إلا إذا كان صادرا ممن هو بكل

---

(١) سورة النساء الآية ١٣١.
(٢) سورة فاطر الآية ١٥.
(٣) سورة لقمان الآية ١٢.
(٤) سورة القمان الآية ٢٠.

شيء محيط.. والمقربون يقولون: الحمد لله الذى بدئَ منه الحمد.. وإليه يعود كل شيء كذلك كما كان عليه ﷺ يقول فى دعائه: «سبحانك اللهم لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»

كما قيل: إن داود – عليه السلام – قال فى مناجاته: «إلهى كيف أشكرك .. وشكرى لك نعمة منك علىّ» فأوحى الله إليه: «الآن قد شكرتنى».

ومن أجل هذا بدأ الله تعالى السبع المثانى – فاتحة الكتاب – بقوله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

قلت: لقد ذكرتنى أمر تردد فى نفسى أكثر مرة للسؤال عنه.. فما معنى السبع المثانى فى فاتحة الكتاب؟.

قال: إن فاتحة الكتاب وهى سبع آيات.. وكونها سبعا لتنتهى بالوتر بعد التسديس الكامل.. فنجدها كلها مثانى.. كما قال تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم﴾(٥).

كما قال تعالى عن القرآن العظيم بصفة عامة: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى﴾(٦) ومعنى كون الآيات مثانى: أنها تقتضى بنصها متجليا ومجلى.

فإذا رجعنا إلى فاتحة الكتاب لرأينا فيها أن آياتها السبع كلها مثانى؛ ﴿الحمد﴾ يشير إلى حامد ومحمود.. ولام التعلق باسم الجلالة.. تتلوها مباشرة: .. ﴿لله رب العالمين﴾ فالعبد الحامد يتوجه بالحمد إلى المحمود.. فهنا مثنى: حامد ومحمود و﴿رب﴾ تقتضى ربوبية ومربوبيا.. وهو رب العالمين ﴿الرحمن الرحيم﴾ واسم الرحمن – كما قلنا فى الحديث عنه – هو الاسم المتعلق بالعرش.. وهو يقتضى الحكم.. والحكم يقتضى: الحاكم.. والمحكوم.. والمحكوم به.. والمحكوم فيه. فالمثنى هنا: هو الحاكم والمحكوم.. كذلك الرحيم.. فإنها تقتضى بذاتها ونصها: راحما ومرحوما.. ﴿مالك يوم الدين﴾ فمالك تقتضى مملوكا.. ويوم الدين: يقتضى دينونة وديّانا.. والدينونة على المدين.. والديّان هو المالك.

ومعنى هذا أن الحكم ومطلق الأمر يوم القيامة غير مشترك كما هو الحال فى الدنيا.. إذْ أسند الأمر فى الدنيا إلى من سواهم – أولى الأمر – فقال: ﴿وأولى الأمر منكم﴾(٧) وهو يعنى الأمر فى الدنيا: القرآن وتعاليمه وأحكامه أما يوم القيامة.. فينفرد – سبحانه – بالأمر.. كما قال تعالى: ﴿والأمر يومئذ لله﴾(٨) وكما قال ﴿فالحكم لله العلى الكبير﴾(٩) فالعلى الكبير وحده هو مالك يوم الدين وذلك لكى تطمئن القلوب.. لأن الحكم العدل هو الرءوف الرحيم.. اللطيف العلى العظيم.. بلا مشاركة.

ثم هنا يبدأ نص أم القرآن – فاتحة الكتاب – يتوجه من العبد إلى المعبود.

ليبين المثْنى التالى: ﴿إياك نعبد﴾ فهى تقتضى عابدا ومعبودا.. وقدم ﴿إياك﴾ على الفعل ﴿نعبد﴾ ليحصر العبادة فى ذات الله وحده ومعنى العبادة: نهاية الذل والخضوع.. مع الحب والولاء والإخلاص.. فهذا موجز معنى ﴿نعبد﴾.

ثم انتقل إلى المثْنى التالى.. عندما قال: ﴿وإياك نستعين﴾ فهى تقتضى بذاتها مستعينا ومستعانا والعبد هو المستعين والله المستعان.. والمثْنى هنا ملاحظ بوضوح.

---

(٥) سورة الحجر الآية ٨٧.
(٦) سورة الزمر الآية ٢٣.
(٧) سورة النساء الآية ٥٩.
(٨) سورة الانفطار الآية ١٩.
(٩) سورة غافرالآية ١٢.

ثم انتقل إلى المثنى التالى.. فقال: ﴿اهدنا﴾ وتقتضى مستهديا هو العبد وهاديا هو الله الرحمن الرحيم والمهدى إليه هو: ﴿الصراط المستقيم﴾ وهو الحق والدين.. لا كما زعموا أنه قنطرة على شفير جهنم.. وصفوها ورسموها.. وكأن الله تعالى لم يقل لهم: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾[١٠]. كما نسوا أن الله تعالى قال لنا فى آخر وصاياه العشر فى سورة الأنعام: ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه﴾[١١] وذلك فى الدنيا قبل الآخرة.. فالصراط .. نحن سائرون عليه الآن فى الدنيا ولا شك أنه أرق من الشعرة..وأحد من السيف.

ثم انتقل إلى المثنى التالى فى الآية السابعة.. التى قلنا إنها الوتر بعد التسديد الكامل.. فيقول: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

والإنعام يقتضى بذاته منعما ومنعما عليه.. والنعمة بكسر النون – هى الرضا والهدى.. والرضا يقتضى مرضيًّا عنهم وراضيا.. وهؤلاء.. ﴿غير المغضوب عليهم﴾ لأن الغضب ضد الرضا.. ﴿ولا الضالين﴾ أى الحائرين.. الذين يطلبون طريق الرضا فلا يهتدون إليه وهذا من أروع معانى الإعجاز البيانى فى – أم الكتاب – وهى البذرة التى ضمت فى حناياها شجرة القرآن مجملة.. ثم فصلت فى غيرها من السور.. فالشجرة تورق وتزهر وتثمر.. بعد أن تمد أغصانها فى كل اتجاه فتروق الناظر.. وتشوق الخاطر.. وتلطف الجو.. وتعطر الهواء بما تحمل من زهر وثمر.. وخضرة وظلال – ولكن سرّها الذى باح وعطرها الذى فاح. وحسنها الذى لاح.. كان كله فى الحبّة التى انشقت عنها.. والبذرة التى أنطلقت منها.. فما تراه فى الجذوع والفروع والأوراق والأزهار والثمار.. تجده فى العناصر التى تكونت منها البذرة قبل أن تكون شجرة سامقة باسقة.. ترفّ بالخضرة والظلال.. والنضرة والجمال. إن الفاتحة بمثانيها المتعددة فى الآيات السبع المثانى.. بمنزلة البذرة من الشجرة.. إنها الأصل.. لأنها الأم والقرآن العظيم فصول وفنون تبوح بأسرار هذا الأصل ومن ثم كان واجبا على كل مسلم أن يحفظها.. ويقرأها كل يوم بعدد ركعات كل صلاة.. ولهذا بدأها الله تعالى بالحمد.

قلت: حقا.. الحمد لله الذى هدانا لهذا.. وهو صاحب الحمد على الحمد وهل من الحمد اشتق اسم –محمد – ﷺ –؟.

قال: نعم وقد زاد الله محمدا شرفا ودرجة رفيعة فنزلت ألف الجلالة لتكون تاجا على رأس محمد. فحلّت محل الميم فصار – أحمد – وقد رأيناه ﷺ – يتلألأ فى الأناجيل الرسمية باسم (بار قليط) وهو تقريب عبارة (بيريكلتوس) اليونانية.. ومعناها: الذى له حمد كثير – فهى أفعل تفضيل من – حمد – أى (أحمد) ومن هنا نستطيع أن نفهم قول الله تعالى.. على لسان المسيح عليه السلام: ﴿مبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾[١٢].

قلت: فى الآيات الثلاث التى ذكرتها فى أول حديثنا عن اسم الحميد وجدنا هذا الاسم مقترنا فيها مع اسم – الغنى – فكلها تنتهى بقوله ﴿الغنى الحميد﴾ ومعنى هذا ان عطاء الغنى سبحانه يستلزم الحمد.. فهل اقترن اسم الحميد مع أسماء أخرى غير اسم الغنى؟.

---

(١٠) سورة الواقعة الآية ٦١.
(١١) سورة الأنعام الآية ١٥٣.
(١٢) سورة الصف الآية ٦.

قال: اقترن اسم – الحميد – مع الاسم – العزيز – فى ثلاثة مواقع كلها تتعلق بالهدى إلى طريق النور والإيمان.. فلا عزة إلا لمن سلك هذا الطريق.. اقرأ قوله تعالى: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾(١٣) ثم اقرأ: ﴿ويهدى إلى صراط العزيز الحميد﴾(١٤) واقرأ: ﴿وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾(١٥).

كما اقترن اسمه تعالى – الحميد – باسمه – المجيد – فى ذكر المجد والرحمة والبركات على أهل بيت إبراهيم.. ومن اتبع ملة إبراهيم عليه السلام ﴿قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيمًا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾(١٦).. فقال تعالى: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾(١٧).

ثم فى النهاية.. اقترن اسم – الحميد – بالحكمة المطلقة.. التى تستلزم الحمد المطلق.. على التفضل بإنزال هذا الكتاب الحكيم ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾(١٨).

قلت: لقد ذكرت أن الحمد قد يكون بمعنى المدح والثناء وذكر الله تعالى بصفات العلو والرفعة والجلال والجمال.. وقد يكون بمعنى الشكر فى مقابلة إحسان ونعمة.. فعلى أى الوجهين يكون حمدنا لله تعالى ؟.

قال: يقول الإمام أبو القاسم القشيرى: إن حمد العبيد لله – سبحانه – إذا كان بمعنى المدح والثناء.. فيكون بتوفيق منه تعالى.. ولا يكون ذلك إلا إذا كان عن تحقيق.. والتحقيق هو معرفة القلب بما يثنى به على ربه.. لأن الله تعالى يأبى أن يقوم العبد فى وصفه تعالى عن غير علم محقق.. وإن كان صادقا فيه.. يقول تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾(١٩).

وأما حمده.. الذى هو شكره.. فينبغى أن يكون على شهود المنعم.. لأن حقيقة الشكر هى الغَيْبة بشهود المنعم.. عن شهود النعمة.

وكم من عبد يتوهم أنه فى نعمة يجب عليه شكرها.. وهو فى الحقيقة فى محنة يجب عليه الصبر عنها.. مثل قوله تعالى عن الكافرين: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾(٢٠) إن حقيقة النعمة هو ما يوصلك إلى المنعم لا ما يشغلك عنه فإن وجد التوفيق للشكر العملى.. كما قال تعالى لآل داود: ﴿اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور﴾(٢١) أقول: إن وجد التوفيق للشكر كانت نعمة ومنحة تستحق الحمد.. وإلا انقلبت النعمة نقمة ومحنة.. ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾(٢٢).

ويقال إن الله تعالى أوحى إلى موسى – عليه السلام – ارحم الخلق: المبتلى منهم والمعافَى فقال يارب هذا المبتلى.. فما بال المعافى؟ قال: لقلة شكره.

---

(١٣) سورة إبراهيم الآية ١.
(١٤) سورة سبأ الآية ٦.
(١٥) سورة البروج الآية ٨.
(١٦) سورة الأنعام الآية ١٦١.
(١٧) سورة هود الآية ٧٣.
(١٨) سورة فصلت الآية ٤٢.
(١٩) سورة البقرة الآية ١٦٩.
(٢٠) سورة المؤمنون الآيتان ٥٥، ٥٦.
(٢١) سورة سبأ الآية ١٣.
(٢٢) سورة الأنبياء الآية ٣٥.

فأنت إذا لم تشغلك النعم عن المنعم.. رأيت الله فى كل لمحة أو خطرة.. كما قال بعضهم:

يا عزّ ما طلَعَتْ شمس ولا غربت ... إلا وأنت مُنَى قلبى وإيناسى
وما جلست إلى قوم أحدثهم ... إلا وأنت حديثى بين جلّاسى
وما هممت بشرب الماء من ظماء ... إلا رأيت خيالا منك فى الكاس

واعلم أن الله تعالى يحصى على العبد كل خلجات قلبه.. ولذلك ننتقل إلى الاسم - المُحصِى -.

٥٨ - المُحْصِى

قلت: يخيل إلى أن اسم - المحصى - لم يرد بهذا النص فى القرآن الكريم؟

قال : نعم.. لم يرد بهذا النص.. وإنما ورد به الخبر.. فى حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - ويقول تعالى: ﴿وأحصى كل شيء عددا﴾[١] *.. وقال: ﴿لقد أحصاهم وعدّهم عدّا﴾[٢].. وقال: ﴿وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين﴾[٣].. وقال: ﴿وكل شيء أحصيناه كتابا﴾[٤]. كما قال عن كتاب الحساب يوم الدين: ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾[٥] فهو سبحانه المحصى.

قلت: معنى هذا أن المقصود من اسم - المحصى - هو الإحصاء العددى؟

قال : نعم.. فالنص يقول إنه - سبحانه - أحصى كل شيء عددا.. أحصى ما فى السماوات وما فى الأرض.. وما بين السماوات والأرض.. وما فوق السماوات وتحت الأرض. أحصى الحسنات والسيئات.. واللمحات واللحظات.. أحصى الخفقات والأنفاس.. وبواطن النفوس وظواهر الحواس.

ومن علم أن الله - تعالى يحصى أنفاسه.. عليه أن يحفظ معه أنفاسه.. ويرعى له خائنات حواسه.. لأنه أحاط بكل شيء علما.

قلت: ولماذا حدد الله تعالى السماوات بسبع سماوات.. والأرضين بسبع أرضين؟.

قال : إن الله - تعالى - خلّاق.. لا حصْر لملكه.. ولا عدّ لخلقه.. فإذا فهمنا أن عدد السماوات والأرضين سبعا.. بالمعنى العددى.. الذى نتعامل به حسابيا.. كان هذا تحديدًا لملك الله الذى لا يُحدّ.. وحصرًا لمخلوقاته التى لا تُعَدّ.

قلت: ولكن الله تعالى - هو الذى حدّد لنا هذا العدد فى السماوات والأرض.

قال : إن لفظ - سبعة - لم يكن عددا محدودا عند العرب.. ولكنه كان عندهم يشير إلى أكبر العدد ونهايته بحيث تعتبر الثمانية بداية عدٍّ جديد.. ولهذا يقول تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾[٦] يشير بهذا إلى كثرة البركة فى الإنبات.. فهذا مثل للصدقات والإنفاق فى سبيل الله، ويقول جل شأنه: ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[٧] إشارة إلى أن أى عدد يتخيله العقل من البحار لو كانت مدادا.. فهى لا تكفى لحصر كلمات الله.. أى خلقه.. ففيها معنى الاستحالة. كما قال - سبحانه: ﴿خذوه فَغلّوه * ثم الجحيم صَلّوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾[٨] يشير إلى طول السلسلة وضخامتها.. والسبعون سبع

---

(١) سورة الجن الآية ٢٨.
(٢) سورة مريم الآية ٩٤.
(٣) سورة يس الآية ١٢.
(٤) سورة النبأ الآية ٢٩.
(٥) سورة الكهف الآية ٤٩.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٦١.
(٧) سورة لقمان الآية ٢٧.
(٨) سورة الحاقة الآيات ٣٠ - ٣٢.

عشرات. وقال أيضا: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾[٩]. أى استغفر لهم ما شئت من الأعداد فلن يغفر الله لهم.

ولما كان العدد ينتهى عند السبعة.. فإذا زاد - سبحانه - عليها أضاف حرف الواو فى مثل قوله تعالى فى سورة التحريم: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن: - ١ - مسلمات - ٢ - مؤمنات - ٣ - قانتات - ٤ - تائبات - ٥ - عابدات - ٦ - سائحات - ٧ - ثيبات﴾ ثم أضاف الواو فقال: - ﴿وأبكارا﴾[١٠]. وقوله - عز من قائل - فى سورة التوبة.. الآية - ١١٢: ١ - التائبون ٢ - العابدون ٣ - الحامدون ٤ - السائحون ٥ - الراكعون ٦ - الساجدون ٧ - الآمرون بالمعروف﴾ ثم أضاف الواو.. فقال ﴿٨ - والناهون عن المنكر ٩ - والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[١١].

وهنا تتكرر - الواو - بعد السبعة.. فى الصفة الثامنة وفى التاسعة.. وكذلك فى قوله تعالى: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾[١٢] فلم يضف الواو إلا بعد السبعة.

ونقرأ أيضًا - لتكون على علم بما جاء فى القرآن الكريم عن رقم السبعة.. فى مثل تلك الحالات أقول: نقرأ قوله تعالى عن أهل جهنم.. ولجهنم سبعة أبواب: ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾[١٣] ولم يذكر - الواو - قبل لفظ ﴿فتحت﴾.. أما فى أهل الجنة فقال - سبحانه -: ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾[١٤] هنا أضاف - الواو - قبل لفظ ﴿فتحت﴾ لأن للجنة ثمانية أبواب. فسماوات الله تعالى وأراضيه وخلقه لا يحدها حد.. ولا يحصرها عد.

قلت: وهل يستطيع العقل بما أوتى من علم فى العصر الحديث أن يحصى شيئًا من خلق الله؟

قال: إن العقل البشرى مهما آتاه الله - تعالى - من وسائل وآلات.. وأجهزة ومكتشفات.. فلن يعلم إلا ما يشاء الله له من ظواهر هذه الحياة الدنيا: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾[١٥] وقد قالها صريحة فى قوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[١٦] بل وأتى على هذا القليل أيضا عندما قال: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[١٧].. وذلك ليقف العقل عند حده.

وسأضرب لك مثلا مما اكتشفه العلم.. لترى عجز هذا العقل البشرى أمام مُلْك لم يكشف الله تعالى لنا منه إلّا أقل مما يأخذ العصفور من ماء المحيط. فقد ثبت أن المجموعة الشمسية كلها لا تزيد على ذرة بالنسبة إلى هذا الكون اللانهائي الرهيب.

والمجموعة الشمسية عبارة عن الشمس وما يرتبط بها من كواكب ونجوم.. كالأرض والقمر،

---

(٩) سورة التوبة الآية ٨٠.
(١٠) سورة التحريم الآية ٥.
(١١) سورة التوبة الآية ١١٢.
(١٢) سورة الكهف الآية ٢٢.
(١٣) سورة الزمر الآية ٧١.
(١٤) سورة الزمر الآية ٧٣.
(١٥) سورة الروم الآية ٧.
(١٦) سورة الإسراء الآية ٨٥.
(١٧) سورة البقرة الآية ٢١٦.

وعطارد، والزهرة، والمريخ، والمشترى، وزحل، وبلوتو، ونبتون. وإليك بعض الحقائق الفلكية المشهودة: بعد الأرض عن القمر ربع مليون ميل.. وبعدها عن الشمس ٩٣ مليون ميل. بعد الكوكب - بلوتو - عن الشمس ٣٦٧٥ مليون ميل. بعد السدائم[١٨] عن الأرض ١٤٠ مليون سنة ضوئية - ولتقريب معنى السنين الضوئية إلى الذهن يجب أن نعلم أن بين الأرض والقمر ثانيتان ضوئيتان.. وبينها وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية. ولو سار قطار بسرعة ٦٠كم فى الساعة.. فإنه يدور حول الأرض فى ٢٨ يوما.. ويقطع المسافة إلى القمر فى ٩ شهور.. ويقطع المسافة إلى الشمس فى ٢٨٠ سنة ويقطع المسافة إلى أقرب جار لأسرة الشمس واسمه [الأقرب القنطورى] فى ٨٠ مليون سنة.

واكتشفت الأرصاد أخيرا أن النجم [ألف الجبار] قدر حجم الشمس ٤٠ مليون مرة فسبحان من أحصى كل شىء عددًا.

* * *

ثم تعال معى لننظر فى أجسامنا.. نظرة خفيفة.. بدلا من التحليق فى هذا الخضم الرهيب.. فنرى أن جسم الإنسان به ما يقرب من خمسة لترات من الدم.. أى خمسة آلاف سنتيمتر مكعب.. أى خمسة ملايين مليمتر مكعب. وكل مليمتر مكعب من الدم السائل يحتوى على: من ٤,٥ ملايين إلى ٦ ملايين كرة دم حمراء ومن ست آلاف إلى تسع آلاف كرة دم بيضاء. و ٣٥٠ ألف صفيحة دموية - والصفيحة الدموية هى التى تسبب تجلط الدم - وبرغم احتواء الدم على هذا العدد الضخم من الكرات والصفائح الدموية - وهى مواد صلبة - فإنه يحتفظ بسيولته. فسبحان من أحصى كل شىء عددًا.

* * *

ثم تعال ننحنى معا لنرى ذرة من ذرات هذا الكون الغامض. فلو كنت عطشانا.. وشربت لترا من الماء.. فإن ما شربته يحتوى على عدد من الذرات.. تساوى حبيبات الرمل التى تغطى سطح الكرة الأرضية كلها.. بما فى ذلك المحيطات والبحار.. وبسمك يصل إلى ٣٠ سنتيمتر[١٩]. فهل تخيلت معى ضآلة حجم الذرة؟ ومع هذا فتلك الذرة تعتبر كونا قائما بذاته.

ولندخل لحظة - بخيالنا فقط - إلى الذرة فنراها تتكون من أجزاء كثيرة.. أهمها نواة يدور حولها اليكترونات.. وتوجد مسافة كبيرة - نسبيا - بين النواة - الأم - وبين الأليكترونات التى تدور حولها.. وهذه المسافة فراغ.. ولكى تعرف نسبة الفراغ الموجود داخل الذرة بين النواة والألكترونات تجده بالنسبة إلى حجم النواة ذاتها - واحدا إلى ألف ألف مليون[٢٠] - ولو أمكن ضغط تلك الفراغات فى الذرات المكونة لجسم الجمل.. لصار حجمه لا يزيد على قطعة من الخيط بطول سنتيمترين مع احتفاظها بوزن الجمل.

وقد بنيت الذرة على نفس الأساس الذى بنيت عليه السماوات.. فالشمس هى الأم فى المجموعة

---

(١٨) السديم فى السماء.. كالماء فى الأرض.. ومعناه الكلية الطبيعية القابلة لجميع الصور.
(١٩) من كتاب [دورات الحياة] للدكتور عبد المحسن صالح.
(٢٠) نفس المصدر.

الشمسية.. وهى المركز الذى تدور حوله كواكبها بما فيها الأرض.. والذرة أيضا لها نواة بمثابة شمس دقيقة وتدور حولها الأليكترونات كما تدور الكواكب فى مجموعتنا. أما تقول معى: سبحان من أحصى كل شىء عددًا؟

قلت: إنه لأمر رهيب حقا.

قال: فإذا علمت أن الله تعالى هو المحصى لذرات جسمك.. وخفقات قلبك.. وخلجات نفسك.. وخائنات عينك.. استحييت منه أن تقول زورا.. أو تغشى فجورا.. أو تكون به مغرورا.

قلت: هل يجوز لى أن أحصى نعم الله علىّ؟

قال: من آداب من علم أن الله هو المحصى.. أن يحاول عدّ نعمه عليه وإن علم أنه لا يحصيها.. فقد قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾(٢١) وعليه أن يرعى وقته بذكر إنعامه.. وشكر إحسانه.. فيستحق المزيد من عوائد أفضاله حسبما وعد فى قوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾(٢٢).

وقد رئى بعض الصالحين يعدّ تسبيحاته.. فقيل له: هل تعدُّ على الله؟ قال: لا.. إنما أعد لله.

فعلى المرء أن يحصى أيامه.. ويعد آثامه.. فيشكر الله على جميل ما يوليه.. ويعتذر عن قبيح ما يأتيه.

قلت: فى الآية التى ذكرتها عن كتاب الحساب: ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾(٢٣) هل يحصى الله على العبد فى هذا الكتاب كل شىء حتى لحظات الغفلة؟

قال: إن الله تعالى يحصى على عبده أوقات غفلته.. حتى إنه لو قصر فى العبادة.. أو مال إلى الكسل والخيالة.. عاتبه بشىء خفيف من البلاء.. فإذا لم يسرع إلى العودة.. أدار على رأسه رحى المحنة.. فإن الأحباب يسامحون فى كل شىء إلّا الغَيْبة والإعراض.

ومن علم أن الله سبحانه رقيب عليه.. لم يخاطب أحدا إلّا وقلبه مع الله تعالى.. فأوقاته كلها جد.. وأحواله كلها صدق.

ولعل من حقنا الآن أن ننتقل إلى الاسمين: المبدىء المعيد.

* * *

---

(٢١) سورة إبراهيم الآية ٣٤.
(٢٢) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٢٣) سورة الكهف الآية ٤٩.

٥٩ - المبدئ
٦٠ - المعيد

قلت: هل توجد علاقة بين اسم الإحصاء: المحصى - وبين اسمى البدء والإعادة: المبدئ والمعيد؟.

قال: نعم العلاقة واضحة والرابطة وثيقة.. إذ لو لم تكن هناك مخلوقات بدأها الله سبحانه وأنشأها.. ثم يعيدها بعد فنائها.. لما كان هناك معنى للإحصاء والعدّ.

قلت: ولماذا اقترن الاسمان: المبدئ والمعيد؟

قال: الاسمان مقترنان اقترانا ذاتيًا.. كما اقترن: الأول بالآخر.. والظاهر بالباطن.

قلت: إذا كانت الأولية تستلزم الآخرية.. والظهور يستلزم البطون.. فالمفروض أن البداية تستلزم النهاية.. فلماذا اقترنت هنا البداية بالإعادة؟.

قال: النهاية فى الأسماء الحسنى لا معنى لها.. ولا حقيقة لوجودها.. إنما البداية تستلزم النهاية بالنسبة إلى المخلوقات.. أما بالنسبة إلى الخالق.. جل شأنه فالبدء يتبعه الإعادة. لأنه خلاق دائم الخلق والصنع والإنشاء والإبداع.. ولهذا جاء مفعول الاسمين مقترنا فى عدد كبير من آيات القرآن الكريم.. مثل ﴿كما بدأكم تعودون﴾[١].. وقوله: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾[٢].. وقوله: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾[٣].. قوله:﴿إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد﴾[٤].. وقوله ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾[٥].. وقوله:﴿وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾[٦].. وقوله:﴿أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾[٧] وغيرها كثير.

قلت: فى الآية الثانية من الآيات التى ذكرت.. وهى آية سورة طه: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة﴾[٨] أليس قوله تعالى: ﴿وفيها نعيدكم﴾ بمعنى الموت والدفن فى الأرض؟.

قال: لقد فهم الكثير من الناس قوله تعالى:﴿منها خلقناكم﴾ أى من هذه الأرض خلقناكم.. للأجر والثواب - كما يقولون.. وهذا صحيح ﴿وفيها نعيدكم﴾ أى إلى الأرض نعيدكم بعد الموت والدفن.. للدود والتراب وهذا غير صحيح، فالإعادة لن تكون أبدا بمعنى الموت والفناء.. لأن الله سبحانه وتعالى - لم يقل وإليها نعيدكم.. بل قال:﴿وفيها نعيدكم﴾ فيها بالظرفية.. وقد لمسنا فى جميع الآيات التى ذكرناها.. أن الإعادة بمعنى البعث والإنشاء وأصدق تأويل لألفاظ القرآن.. هو ما جاء به القرآن.. ولم نجد فى القرآن الكريم آية واحدة جاء فيها لفظ الإعادة بمعنى الموت والفناء.. وإنما كلها

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٩.
(٢) سورة طه الآية ٥٥.
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٤.
(٤) سورة البروج الآيتان ١٢، ١٣.
(٥) سورة يونس الآية ٣٤.
(٦) سورة الروم الآية ٢٧.
(٧) سورة النمل الآية ٦٤.
(٨) سورة طه الآية ٥٥.

تؤدى معنى البعث والإنشاء.. فهو فى الواقع معنى محكم.. وليس معنى متشابها أبدا حتى فى اللغة نقول: أعاد فلان بناء داره.. وكذلك تقول: أعاد فلان حديثة إذا تكلم بمثل كلامه الأول.

ويقول الثقات من أهل العلم: إن الله يبدأ الخلق أى يخلفهم فى الدنيا ثم يعيدهم أى يحشرهم فى القيامة.. اقرأ: ﴿وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾[9] فلما كان الله تعالى قادرا على الخلق ابتداء.. وجب أن يكون قادرا على إعادته بعد فنائه.. والإعادة ابتداء ثان.

ويتضح هذا المعنى فى قوله تعالى حكاية عن موقف الكفار مع رسول الله - ﷺ - يحا جّونه بقولهم: ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة﴾[10] أى من الذى يستطيع إعادة خلقنا يوم البعث الذى تتحدث عنه يا محمد فقل لهم: يعيدكم الذى خلقكم فى هذا الخلق الأول.

أليس المعنى واضحا هنا فى أن الإعادة خلق وإنشاء.. وليست موتا وفناء؟ وإن الله - جل شأنه - يقول على لسان الكافرين.. الذين لا يؤمنون بالبعث: ﴿يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة﴾؟ هل تُرَدُّ أجسامنا وتعود فى تلك القبور بعد أن تكون غطاما بالية.. ورفاتا رميما: ﴿أئذاكنا عظاما نخرة﴾[11].. والمعنى هنا واضح لا يحتاج إلى تأوُّل.

إن معنى: ﴿وفيها نعيدكم﴾ ليس بالموت والدفن.. كما يغهم كثير من الناس.. بل بالبعث والإنشاء الجديد.. فى نفس القبور الأرضية.. التى سماها الله تعالى - الحافرة - لأنها محفورة فيها.

قلت: إذا كان معنى ﴿منها خلقناكم﴾ أى من الأرض.. ﴿وفيها نعيدكم﴾ أى نبعثكم وننشئكم من جديد يوم البعث.. فما معنى: ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وقد كنا نفهم أن معناها هو البعث للعرض والحساب؟.

قال: إن الإعادة الجديدة فى القبور ستكون بأجسام جديدة.. لا نعلم الآن نوعيتها ولا تكوينها لأن الله تعالى قال لنا فى كتابة الكريم: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾[12] النشـأة الأولى فقط.. فلا علم لكم بالنشأة الآخرة ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾[13] ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾[14] ويلمع أمام بصيرتنا الآن نجم قرآنى آخر.. لينير لنا الطريق.. حيث يقول تعالى ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾[15] وأقرب مثل ملموس للبعث بأجسام جديدة غير الأجسام الأولى.. هو دودة الحرير.. عندما تنتهى دورتها.. تصنع قبرها حول جسدها من خيوط الحرير (الشرنقة) وتظل داخل هذا القبر فترة من الزمن.. لتخرج بعدها فى جسم يخالف تمام المخالفة جسمها الأول.. فبعد أن كانت دودة تقزز النفس من بشاعتها خرجت فراشة تسر النظر وتبعث فى النفس البهجة.. وبعد أن كانت سوداء تدب على الأرض فى بطء السلحفاة.. خرجت زهرة جميلة ناضرة تطير فى الجو بجناحين رقيقين.

فالأجسام الجديدة من نوعية آخرى غير عناصر الطين.. تنوء بثقلها كوكب الطين.. فتضطرب الأرض وترجف.. ويختل توازنها. وتلقى بما عليها: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾[16]

---

(9) سورة الروم الآية ٢٧.
(١٠) سورة الإسراء الآية ٥١.
(١١) سورة النازعات الآية ١١.
(١٢) سورة الواقعة الآية ٦٢.
(١٣) سورة النجم الآية ٤٧.
(١٤) سورة العنكبوت الآية ٢٠.
(١٥) سورة الواقعة الآية ٦١.
(١٦) سورة إبراهيم الآية ٤٨.

ولكى نفهم معنى الخروج من الأرض إخراجا.. كما يقول سبحانه - نقرأ قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة﴾[17] والرادفة أمر عظيم يعقب الراجفة.. سماها الله تعالى ﴿زجرة﴾ يخرج بها الناس من تلك الأرض إخراجا جبريا.. حيث تدفع الناس إلى الأرض الجديدة واسمها (الساهرة) وهى أرض لم يُعصَ اللهُ عليها قط.. يقول تعالى: ﴿فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾[18] ونفس المعنى فى قوله تعالى:﴿وإذا الأرض مُدَّت * وألقت ما فيها وتخلَّت﴾[19] ويكون معنى الآية التى نحن بصدد استعراضها: ﴿منها خلقناكم﴾ أى من الأرض ﴿وفيها نعيدكم﴾ أى ننشئكم النشأة الأخرى .. ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ بالرادفة التى تعقب الراجفة.. أوبالزجرة الواحدة إلى الأرض الجديدة للعقاب أو الحساب.. تمهيدا للنعيم أو العذاب هل فهمت؟.

قلت: نعم فهمت.. ولكن أليست أجسامنا هذه هى التى تنعَّم إذا كان صاحبها تقيا مؤمنا.. أو تعذَّب إذا كان صاحبها فاجرا كافرا.. فالعين هى التى خانت.. واليد هى التى سرقت.. واللسان هو الذى كذب ووشى.. فهى التى يقع عليها العذاب؟.

قال: أن الجسم بأعضائه كلها أمانة. وهبه الله لك تفضلا منه وكرما.. وأوصاك بحسن استعمال هذه الأعضاء.. وذلك نظير درجة رفيعة غبطتك عليها ملائكة الرحمن النورانيون: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[20] وأنت امتداد لآدم.

فإذا أسأت استعمال تلك الأعضاء.. فأنت بحقيقتك الإنسانية وهى الروح.. المسئول عن تلك الإساءة.. أما هى فإنها مأمورة بطاعتك... مسخرة لك.. ملتزمة بتوجيهاتك.. وفى النهاية تعتبر شهود الملك عليك:﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيْديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾[21].

قلت: هذا المعنى فى حاجة إلى مثل يقربه.

قال: الدولة سلمت الجندى مدفعا لاستعماله ضد الأعداء.. فاستعمله فى قتل الأبرياء فهل تحاكم الدولة المدفع أم حامل المدفع؟.

جسمك أمانة معك.. لاستعماله فى المدة الاختبارية.. وهى مدة الحياة الدنيا فأنت بحقيقتك الإنسانية شىء.. وجسمك شىء آخر.. ورسول الله - ﷺ - عندما قال للصحابى الجليل ابن عباس - رضى الله عنه: «إن لبدنك عليك حقا» أليس معنى هذا أن البدن شىء.. وصاحبه شىء آخر.. لأن بدن مضاف والكاف مضاف إليه.. والمضاف غير المضاف إليه؟ فهل فهمت هذه أيضًا؟.

قلت: نعم فهمت.. ولكن فى بعض الكتب قرأت أن الله يعيد الأجسام يوم القيامة من أطراف أذناب بنى آدم وأن أطراف الأذناب لا تبلى بالصاعقة بعد النفخة الأولى فى الصور.. فما حقيقة هذا الرأى؟.

قال: إن هذا رأى كاذب آفك مأفون[22]... لأن الله تعالى غنى.. لا يحتاج إلى أذناب لينشئ الخلق

(١٧) سورةالنازعات الآيتان ٦، ٧.
(١٨) سورة النازعات الآيتان ١٢، ١٣.
(١٩) سورة الانشقاق الآيتان ٣، ٤.
(٢٠) سورة الأعراف الآية ١١.
(٢١) سورة النور الآية ٢٤.
(٢٢) فلان مأفون.. أى منزوف العقل.. فلا عقل له من أفِنَتْ الناقة إذا استنزف الحالب لبنها.

من جديد.. لقوله سبحانه: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾(٢٣).. فهل بدأ الناس من أعجاب أذناب؟ لقد افترى الضالون على رسول الله - ﷺ - بوضع حديث نصه: «كل ابن آدم يغنى إلا عجب الذنب» وقد بحثت كما بحث غيرى من علمائنا الأفاضل عن مصدر هذا الحديث.. فلم يجدوا له مصدرا ولا رواة.

فهذه الآراء الضاله تنحط بالإنسان دائما إلى الدرك الأسفل من الثرى.. وتهبط به عن المستوى التكريمى الذى منحه الله إياه.. وفضّله على كثير من خلقه تفضيلا.. غافلين عن أن الحقيقة الإنسانية.. إنما تتعلق بالسر الأعلى.. الذى هم بشأنه لا يعلمون شيئا.

ولو أمعنوا النظر فى سورة ﴿يس﴾ وهى قلب القرآن.. التى يرددونها على قبور الموتى ترديدا ببغاويا.. لا روح فيه ولا حياة.. ولا عبرة ولا عظة.. وجعلوها خاصة بالأموات.. مع أن الله تعالى يقول فيها: ﴿لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين﴾(٢٤) أقول لو تدبروا آية الخلق فى سورة ﴿يس﴾.. وهى: ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾(٢٥) لوجدوا فيها ثلاثة أمور قامت عليها الحياة: ﴿مما تنبت الأرض﴾ من نبات يأكله الحيوان والإنسان.. فيربى فيه دمًا ولحما وعظاما.. هذا هو الأمر الأول.. والأمر الثانى: ﴿ومن أنفسهم﴾ وهو النطفة أو البذرة التى سينبثق منها هذا المخلوق. ﴿ومما لا يعلمون﴾ وهو الأمر الثالث والأخير.. وهو السر الأعلى.. الذى تقوم به الحقيقة الإنسانية الخالدة.. التى تتبدل حولها الأجسام.. وهى ثابته لا تتغير ولا تتبدل.. والحكم القاطع فى هذه المسألة.. الذى لا يقبل نقاشا ولا مراء.. ولا جدلا ولا مكابرة.

فى قوله تعالى: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾(٢٦) فهؤلاء الضالون لم يفطنوا إلى معنى - هالك - ولو فطنوا إليه لما قالوا إن أعجاب الأذناب لا تغنى.. فقوله تعالى: ﴿هالك﴾ شامل للحال والاستقبال معا لأن فقة اللغة يدل على أن اسم الفاعل - حقيقة فى الحال.. مجاز فى الاستقبال كقولنا.. محمد قائم.

فالإنسان فى نظر الموحدين مستهلك - من حيث ذاته فى القوة.. التى هى قوة الله إذ ﴿لا قوة إلا بالله﴾.

فلم يبق من الإنسان إلا النية والكسب.. وأنه لا يخلق أفعال نفسه لأن كل فعل محتاج إلى قوة.. والفرض أنه ﴿لا قوة إلا بالله﴾.

وكما جاء فى سورة البقرة: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب * إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾(٢٧).. إلخ الآيات.

والصعق يوم القيامة للملائكة والجن والإنس معا. لقوله جل شأنه ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله﴾(٢٨) فلم يستثن أحدا ممن فى السموات ومن فى الأرض..

---

(٢٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٤.
(٢٤) سورة يس الآية ٧٠.
(٢٥) سورة يس الآية ٣٦.
(٢٦) سورة القصص الآية ٨٨.
(٢٧) سورة البقرة الآيتان ١٦٥، ١٦٦.
(٢٨) سورة الزمر الآية ٦٨.

إلا من شاء هو سبحانه وتعالى أو استأثر بعلمه لعدم إمكان الإحاطة من السامعين للقرآن الكريم بجميع ما لله تعالى من كائنات وأكوان لا نهاية لها فى علمنا.

ويكن أن نفهم أن الصعق - للملائكة - وهم من نور بمعنى أنطفاء ذلك النور وأن الصعق للجن - وهم من نار - بمعنى انطفاء تلك النار.

وأن الصعق لبنى آدم - وهم من طين قائم بسر مجهول - بمعنى انسحاب هذا السر المجهول وهو سر الحياة.. الذى أشارت إليه الآية السابق ذكرها بقوله ﴿ومما لا يعلمون﴾ فلم يبق على الأرض إلا ما يعلمون.. أما المجهول لهم فهو سر.. والسر لا يمكن شرحه.. لا فى الإنسان.. ولا فى الجن.. ولا فى الملائكة فسبحان من لا يعلم أسراره سواه.

أرأيت ما يعانيه الموحدون لمحاولة إقناع هؤلاء الذين ركزوا حواسهم ومداركهم وعقائدهم فيما حوت القبور من عظام ورفات ورميم.. ولم يُرد الله لهم الارتفاع إلى الدرجات العليا.. والحقائق الإنسانية السامية الخالدة التى لا تفنى.. ولكن الأمر كما قال الشاعر:

ومن المصائب عزل من لا يرعوى عن غيه وخطاب من لا يفهم

قلت: إن الحديث عن هذين الاسمين واسع شامل.

قال: إن الحديث عن الاسمين الكريمين: المبدئ والمعيد.. لم يخرج بنا إلى الأن عن الماديات فى الخلق والإعادة.. ولكن هذين الاسمين لهما علاقات بحياتنا المعنوية فى دنيانا هذه.

ففى نورهما نرى الله تعالى يعيد على العبد أفضاله ونعمه وإحسانه.. وقد أجرى الله تعالى سنته.. بأن ينعم على عبده عَوْدًا على بدء وإن الكريم من بدأ بصنائعه.. ثم يعود ويعود.. وفى هذا المعنى قال الشاعر:

بدأتَ بإحسان.. وثنَّيت بالرضا وثَلَّثتَ بالنُّعْمَى.. وربَّعت بالفضلِ

ومما قرأت أن رجلا دخل على بعض الكرام.. فقال له الكريم لماذا حضرت قبل ميعادك فى كل مرة؟ قال: لقول الشاعر فيك:

فأعطى.. ثم أعطى.. ثم عُدْنا فأعطى. ثم عُدْتُ له فعادا
مرارا.. ما أعود إليه إلا تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

فضاعف له فى العطاء وأكرمه.

فإذا كان هذا يوجد فى صفة المخلوق.. ففى حق الملك سبحانه أولَى أن يؤمِّل أضعافُ هذا.

إن المخلوق يحبك إذا أعفيته عن السؤال.. ولكن الله تعالى إذا ازددت منه سؤالا.. ازداد لك حبا ونوالا:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبَنِىّ آدم حين يسأل يغضب
فعلى المرء أن يقوى صلته بالله .. ويكون منكسر القلب بين يدى مولاه

فهو - عز من قائل - يقول ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا﴾[٢٩].

وقد قرأت أن موسى - عليه السلام - قال: إلهى.. أين أجدك؟.

فقال تعالى: عند المنكسرة قلوبهم من أجلى.

فهو وحده الذى يحيى القلوب ويميتها فى هذه الحياة الدنيا.

وهاقد أشرفنا على ملكوت الاسمين الكريمين: المحيى - المميت.

---

(٢٩) سورة الجن الآية ١٣.

٦١ - المحيى
٦٢ - المميت

قلت: الاقتران ظاهر بين الاسمين الكريمين: المحيى - والمميت. ولكن أليس الاسم - المحيى - هو نفس الاسم - الحى -؟

قال: اسم - الحى - من الحياة.. وهى صفة قديمة قائمة لذات الحى.. ومن شأن هذا الاسم الكريم الإمداد بالقوة.. وسريانها فى كل متحرك - كما ذكرنا فى صفة - الحياة - فى بحث الصفات.. فى مدخل هذا الكتاب.

أما اسم - المحيى - فهو من الإحياء بعد الموت. فالعالم قد يكون عالما فى ذاته.. ولكنه غير معلم لغيره.. والفرق بين المعنيين واضح.

قلت: هل جاء هذان الاسمان الكريمان مقترنين فى القرآن الكريم؟

قال: اقترن الاسمان: المحيى والمميت بأفعالهما.. فى عشرات من آيات الكتاب.. فى مثل قوله تعالى: ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾[١]. وقوله: ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾[٢]. وقوله: ﴿وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون﴾[٣].. وقوله: ﴿والذى يميتنى ثم يحيين﴾[٤] وغيرها كثير.

قلت: هل معنى الموت والحياة قاصر على الإنسان والحيوان فقط؟

قال: معنى الحياة والموت يتعلق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد.. حتى بالمعنويات.. فالحياة سرٌّ سارٍ فى كل متحركٍ نامٍ.. وهى مؤثرة بالحركة.

قلت: إن معنى الحركة فى الإنسان والحيوان والنبات ظاهر.. فما معنى الحركة والحياة فى الجماد؟

قال: إن الأرض جماد.. وهى متحركة عند وجود أسباب الحركة.. فبسرِّ الحياة تتحرك وتزداد وتتجدد.. وبانقطاع أسباب هذا السر تسكن وتموت.. فالسكون والوقوف عن الحركة هو معنى الموت بالنسبة لجميع المخلوقات: حيوانية أو نباتية أو جمادية.. اقرأ قوله تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها﴾[٥] وقبل هذه الآية من نفس سورة الروم.. اقرأ: ﴿وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها﴾[٦].

قلت: هل معنى هذا أن الماء هو السبب فى حياة الأرض؟

قال: هذا صحيح.. لأن الله تعالى قال: ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾[٧] ولكن الحياة

---

(١) سورة النجم الآية ٤٤.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨.
(٣) سورة الحجر الآية ٢٣.
(٤) سورة الشعراء الآية ٨١.
(٥) سورة الروم الآية ٥٠.
(٦) سورة الروم الآية ٢٤.
(٧) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

الوحدانية المطلقة لله تعالى وحده.. وقد جعل - سبحانه - أساس كل شيء حيّ من زوجين.. فالأرض أنثى ذكرها الماء.. فإذا التقى الذكر بالأنثى كانت الحياة وكان الإنتاج.. اقرأ قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾[8] فالأرض كانت هامدة - أي ميتة.. فلما أنزل الله تعالى عليها الماء.. اهتزت: أي تحركت.. وربت: أي زادت.. وأنبتت أزواجا شتى من النبات. تلك هي الحياة تسرى فى الجماد.. فيتحرك ويزداد.. وإذا انقطعت عنه سكن ووقفت حركته ونقص وفنى.

ثم انظر معى إلى الليل والنهار.. وهما مخلوقان فوق الحيوانية والنباتية والجمادية.. تجد الليل أنثى.. والنهار ذكرا.. فتقول: هذه ليلة.. وهذا نهار.. ويقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾[9] ومحو آية الليل معناه الموت والعدم و ﴿يُغشى الليل النهار﴾[10].. كما يغشى الرجل زوجته.. فتحدث الحياة.. ويتم الإعداد لإنتاج أحداث يوم جديد.. ولهذا قال الشاعر:

والليـالى من الـزمـان حبـالى   مثقـلات تـلدن كـل عجيـبـة

وانظر معى أيضا إلى الكهرباء.. وفيها زوجان: سالب وموجب أحدهما حياة والثانى موت.. أحدهما ذكر والثانى أنثى.. فإذا اتصل الموجب بالسالب.. تحرك منهما التيار الكهربى.. وأنتج ما يحرك الآلات ويصنع المعجزات. حتى لقاء العالم بالجاهل.. العلم حياة والجهل موت.. فاللقاء بينهما ينتج حياة.. حيث يستفيد الجاهل من العالم.. فتدب فيه حياة العلم بعد موت الجهالة.

قلت: أراك فى الأمثلة التى ذكرتها: فى الأرض والماء.. والليل والنهار.. والسالب والموجب.. والعالم والجاهل.. تكاد تطلق على الذكورة حياة.. وعلى الأنوثة موت.. فما معنى هذا؟

قال: هى فى الواقع تعبيرات اعتبارية تشبيهية.. لأن الأنثى قبل حملها.. تكون فى حالة موت بالنسبة إلى الإخصاب والإنجاب.. فإذا حصل التقاء الذكر بها.. تحيا فيها أعضاء الإخصاب ويتم الإنجاب. فالأرض الهامدة الميتة تهتز وتربو إذا نزل عليها الماء.. وكذلك الأنثى تكون مثل تلك الأرض الميتة.. لا تحيا عوامل الإنجاب فيها إلا بالتقائها بالذكر. وهذا التشبيه جاء بالنص فى قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾[11] والحرث يعنى الأرض.

قلت: إذن لابدّ لإيجاد حياة.. من التقاء حى بميت؟

قال: لا أقصد هذا.. فالحياة بالنسْبة إلى الله تعالى مطلقة.. لا تتقيد بسبب.. ولا تنعدم لا نعدام السبب.. لأنه تعالى.. هو سبب الأسباب.. ورب الأرباب.. وقد أوجد حياة من التقاء ميّت بميّت.

قلت: وكيف كان هذا؟

قال: (عاميل) قتيل بنى إسرائيل.. قتله ابنا عمه.. طمعا فى ماله الكثير.. ولا وارث له غيرهما.. واتهما بعض أعدائهما بقتله.. ولجأ إلى موسى - عليه السلام - يطالبان المتهم البرىء بدية ابن عمهما القتيل.

---

(٨) سورة الحج الآية ٥.

(٩) سورة الإسراء الآية ١٢.

(١٠) سورة الأعراف الآية ٥٤.

(١١) سورة البقرة الآية ٢٢٣.

وطلب الله تعالى من موسى – عليه السلام – أن يأمر بنى إسرائيل بذبح بقرة.. ويضربوا القتيل بلسانها فيحيا ويخبر عن قاتله.. وقد تم هذا.. وقام القتيل حيا يشخب دمه.. وقال: قتلنى ابنا عمى فلان وفلان.. ثم عاد ميتا.

اقرأ قوله تعالى فى سورة البقرة.. بعد أن قال موسى – عليه السلام – لهم: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾[12] ثم قال تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم[13] فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون *فقلنا اضربوه ببعضها[14] كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾[15] فانظر كيف خلق الله الحياة من ضرب ميت بميت.

قلت: يقول تعالى فى سورة غافر: ﴿قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾[16] فإذا كانت الحياة مرتين: الحياة الدنيا والحياة الآخرة.. فكيف يكون الموت مرتين.. والمعروف أنها موتة واحدة لا موت بعدها؟

قال: الله تعالى تولى الرد على هذا السؤال.. فقال عَزَّ من قائل: ﴿وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[17] فكلمة ﴿أحياكم﴾ تدل على أن العدم السابق قبل خلقنا كان موتا.. ثم أحيانا الله فى الدنيا.. ثم يميتنا.. ثم يحيينا يوم البعث.

والنص بهذا المعنى صريح.. وأشدّ وضوحا فى قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[18].

قلت: يقول تعالى عن الإنسان فى سورة ﴿عبس﴾: ﴿ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره﴾[19] ومعنى الآية الأولى أن كل من يموت يقبر.. ونحن نرى بعض البشر يحرقون أجساد موتاهم.. ويذرّون ترابها فى الهواء.. ونرى الغرقى.. الذين رست أجسادهم فى قاع المحيط.. تكون طعاما لمئات من الأسماك وعوالم البحار.. فأين قبور هؤلاء؟

قال: لقد فهمنا معنى القبر على غير وجهه الصحيح.. مع أن رسولنا – ﷺ قال لنا بصريح النص: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار». والجنة والنار ليستا على سطح الأرض.. وإنما هما برزخيان.. لقوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[20]. فالقبر برزخ للإنسان من لحظة الموت إلى لحظة البعث والبرزخ لا هو فى الدنيا.. ولا هو فى الآخرة.. وإنما هو مرحلة بين الدنيا والآخرة. ونحن نقول جغرافيًّا عن الممر المائى بين يابسين إنه برزخ.. مثل برزخ (بنما) بأمريكا أو برزخ (قناة السويس) بمصر مثلا.

فأمامنا ثلاث مراحل: دنيا.. ثم برزخ.. ثم آخرة. وقد فصّلها – سبحانه وتعالى – فى سورة الواقعة.. فقال – جل شأنه –:

---

(١٢) سورة البقرة الآيات ٦٧ – ٧١.
(١٣) اختلفتم.
(١٤) أى بعض البقرة.. وأصح الآراء أنه لسانها.. لأنه عضو الكلام.. والمطلوب كلام القتيل.
(١٥) سورة البقرة الآية ٧٢، ٧٣.
(١٦) سورة غافر الآية ١١.
(١٧) سورة الحج الآية ٦٦.
(١٨) سورة البقرة الآية ٢٨.
(١٩) سورة عبس الآية ٢١، ٢٢.
(٢٠) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.

﴿فأما إن كان من المقربين﴾[٢١] في الدنيا
﴿فروْح وريحان﴾ في البرزخ.
﴿وجنة نعيم﴾ في الآخرة.

وبعد أن تحدث – سبحانه – عن أصحاب اليمين.. وهم المنزلة الوسط بين المقربين وبين المكذبين الضالين.. تحدث عنهم إجمالا فقال: ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ ثم قال:

﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾ في الدنيا.
﴿فنزُلٌ من حميم﴾ في البرزخ.
﴿وتصلية جحيم﴾[٢١] في الآخرة.

وغير هذه من الأدلة كثير.. أما تؤمن أن قبور الشهداء.. في دار الشهداء.. لقوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[٢٢] ودار الشهداء ليست في الأرض.. وإنما هي في البرزخ؟

وألم تسمع قول رسول الله – ﷺ – في الحديث المشهور: «أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر ترد أنهار الجنة» إلى آخر الحديث؟ وألم تعلم أيضا أن كل إنسان مع كتابه.. لقوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾[٢٣]. وطائره يعني كتابه.. ثم قال تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي علّيين﴾[٢٤]. وبما أن كل إنسان مع كتابه في قبره.. تكون قبور الأبرار في عليين وليست في كوكب الطين.

تلك هي قبور بني آدم في البرازخ.. إما في الجنة وإما في النار. أما ما نسميه نحن قبرا.. فتلك تسمية جائزة اعتباريا.. ولكن الحقيقة أن اسمه: لحد.. أو مدفن.. أو رمس. ولهذا تقول العرب عن المتكبر: رفع قِبِرَّاه.. وجاء رافعا قِبِرَّاه.. وهو الأنف العظيم.. ونقول: واكبراه إذا رفع قِبِرَّاه[٢٥]. فإذا قلنا عن اللحد قبرا فهذا جائز في اللغة.. ولكن المعنى المقصود في كتاب الله.. هو المقام البرزخي.. وليس المقام الأرضي الدنيوي.

قلت: هل للإنسان أجلان.. حيث يقول تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده﴾[٢٦] فما هو الأجل.. وما هو الأجل المسمى؟

قال: يقول البعض: إن للإنسان أجلين.. أجل محدود.. وأجل معلق بدعاء أو بعمل من أعمال الخير.. إذا عمله الإنسان كان سببا في امتداد أجله.. وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾[٢٧] ونحن لانرتاح إلى هذا الرأي.. لقوله تعالى وهو قول قاطع: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[٢٨] فالأجل عند الله محدود.. لايقبل زيادة ولا نقصا.

أما الأجل المسمى.. فهو مدة اليقظة.. التي يقوم عليها الحساب.. لأن النوم موتة صغرى.. تتعاقب

---

(٢١) سورة الواقعة الآيات ٨٨ – ٩٤.
(٢٢) سورة آل عمران الآية ١٦٩.
(٢٣) سورة الإسراء الآية ١٣.
(٢٤) سورة المطففين الآية ١٨.
(٢٥) أساس البلاغة للزمخشري في قَبَرَ.
(٢٦) سورة الأنعام الآية ٢.
(٢٧) سورة الرعد الآية ٣٩.
(٢٨) سورة الأعراف الآية ٣٤.

بين الليل والنهار على امتداد الأجل المحدود الثابت: ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾[٢٩] والنائم مرفوع عنه التكليف.. وزمن النوم مرفوع من تسجيل الحساب. فإذا كان الأجل المحدود لإنسان ما سبعين عاما.. منها عشرون عاما مدة نومه فيها.. فيكون أجله المسمى هو خمسين عاما فقط.. ولهذا يقول تعالى فى نجم آخر: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت﴾ فلا تعود إلى الأرض: ﴿ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾[٣٠] والأخرى يعنى التى توفاها فى منامها.. وهذا هو الأجل المسمى.

قلت: وما هو الأجل المحدود والأجل المسمى فى الذين ماتوا فى الدنيا.. ثم أحياهم الله فيها؟

قال: لعلك تقصد أمثال عزير – عليه السلام – حيث أماته الله مائة عام ثم بعثه.. وأهل الكهف الذين ماتوا ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا ثم بعثهم الله تعالى؟

قلت: نعم أقصد هؤلاء وأمثالهم.

قال: هذا الزمن الذى مات فيه عزير وأهل الكهف.. يعتبر نقصا غير محسوب من الأجل المحدود.. والنقص فى العمر لا يكون فى طرف من أطرافه.. وإنما يكون من وسطه.

فمثلاً: إذا كان الأجل المحدود لعزير – عليه السلام – هو ثمانين عاما. ومات عند القرية الملعونة. التى قال عنها: ﴿أنّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾[٣١] وكانت سنّه وقتها خمسين عاما.. فيكون الباقى من عمره بعد المدة التى مات فيها – وهى الزمن المنقوص من العمر – يكون الباقى له ثلاثين عاما.. ليكمل أجله ثمانين سنة.. أى بعثه الله وهو ما زال فى سن الخمسين.. ولهذا روى عن علىّ – رضى الله عنه وكرم وجهه – أن عزيرا خرج من أهله.. وخلف امرأته حاملا.. وله خمسون سنة.. فأماته الله مائة عام.. ثم بعثه.. فرجع إلى أهله.. وهو ابن خمسين سنة.. وله ولد ابن مائة سنة.. فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة[٣٢].

وكذلك أهل الكهف بعثهم الله تعالى بعد مئات السنين.. وكل منهم فى سنّه التى مات عليها.. ولهذا لم يشعر أحد منهم بفارق السن عند بعثه.. اقرأ قوله تعالى عن عزير – عليه السلام: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾[٣٣] واقرأ قوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾[٣٤] فآجالهم المحدودة ثابتة.. وآجالهم المسماة.. هى مدة يقظتهم التى يُسجل عليهم فيها الحساب.

قلت: هل يجوز أن أسمى الإيمان حياة.. وأسمى الكفر موتا؟

قال: نعم فالمؤمن حىّ.. والكافر ميت.. ولا يستوى الإيمان مع الكفر.. كما لا يستوى النور مع

---

(٢٩) سورة الأنعام الآية ٦٠.
(٣٠) سورة الزمر الآية ٤٢.
(٣١) سورة البقرة الآية ٢٥٩.
(٣٢) النسفى والكشاف وغيرهما سورة البقرة الآية ٢٥٩.
(٣٣) سورة البقرة الآية ٢٥٩.
(٣٤) سورة الكهف الآية ١٩.

الظلام.. ولا يستوى الأحياء ولا الأموات.. ولهذا قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾(٣٥) فالإيمان حياة والكفر موت.. والعلم حياة والجهل موت.. والهدى حياة والضلال موت.. والنور حياة والظلام موت.. يقول تعالى: ﴿أو من كان ميْتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾(٣٦).

قلت: هذه الآية تقول: [نورا يمشى به فى الناس] فهل المشى بين الناس.. أم فى الناس؟

قال: المؤمن يمشى فى صدور الناس.. فيحس بما فى قلوبهم إحساسا بمقياس قلبه هو.. فيشعر بحب هذا.. ويدرك عداوة ذاك.. فقلب المؤمن - ترمومتر - يقيس به قلوب الآخرين.. ولهذا يقول - عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» دخل أحد الصحابة ولعله عبد الرحمن بن عوف على الخليفة - عثمان بن عفان - رضى الله عنهما - فنظر إليه الخليفة.. وقال له: أتدخل علىّ وفى عينيك أثر الزنى؟ فقال له الصحابى الجليل: أَوَحْىٌ بعد رسول الله يا بن عفان؟.. نعم لقد رأيت إحدى جواريك عند دخولى.. فأعجبتنى. فقال له: عثمان رضى الله عنه: «إنما هى فراسة المؤمن.. يرى بنور الله» ثم وهبه الجارية، أسأل الله لى ولك بصيرة حية وحياة قائمة على بصيرة من كل أمر.. إنه هو الحى القيوم.

فإلى الاسمين الكريمين: الحى - القيوم.

* * *

---

(٣٥) سورة الأنفال الآية ٢٤.

(٣٦) سورة الأنعام الآية ١٢٢.

٦٣ - الحى
٦٤ - القيوم

قلت: ما هو وجه الاقتران بين الاسمين الكريمين: الحى القيوم؟.

قال: الله سبحانه - وهو واجب الوجود.. وهو الحى بذاته.. وصفة الحياة صفة قديمة قائمة لذات الحى - جل شأنه - ومن شأن هذه الصفة الإمداد بالقوة وسريانها فى كل حى سواه.. فهو مانح الحياة لمن شاء بما شاء.

وذلك الإمداد بالقوة هو معنى القيومية.. فلا قائم بذاته غير الله - جل شأنه - وكل مظهر من مظاهر الحياة.. فى الإنسان والحيوان والنبات بل وفى الجماد أيضًا هو سبحانه مصدره.

فبسريان تلك القوة من الحى القيوم فى أى كائن.. يتحرك ويزداد ويتجدد.. وبانقطاعها يسكن وينقص ويتلاشى.. فهو تعالى سر الجمال فى كل قائم مشهود.. ومن أجل هذا اقترن الاسمان - الحى والقيوم - اقترانا ذاتيًا.

قلت: وهل ورد هذا هذان الأسمان مقترنين فى القرآن الكريم؟.

قال: نعم.. فى قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾[1].

وفى قوله: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزّل عليك الكتاب بالحق﴾[2].

وفى قوله: ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلمًا﴾[3].

قلت: وهل ورد اسم - الحى - فى القرآن الكريم غير مقترن باسم - القيوم -؟.

قال: نعم.. ورد مفردا فى قوله تعالى: ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده﴾[4].

وفى قوله: ﴿هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين﴾[5].

قلت: ألمح فى الآيتين الكريمتين تخصيص التوكل والحمد والدعاء.. خالصًا للحى - جل شأنه فهل أطمع فى توضيح منك لهذا الأمر؟.

قال: لقد فتحت بسؤالك هذا بابًا لأمر خطير.. وقع فيه الكثير من الناس.. وقد يكون ذلك منهم بحسن نية.. ولكنه أوقعهم فى باب من أبواب الشرك.. وقد أتاهم الشيطان عن أيمانهم.. عندماأوحى إليهم أن أصحاب الأضرحة أحياء فى أضرحتهم ودفعهم إلى التوكل عليهم.. وتوجيه الدعاء والحمد

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٢) سورة آل عمران الآيتان ٢، ٣٣.
(٣) سورة طه الآية ١١١.
(٤) سورة الفرقان الآية ٥٨.
(٥) سورة غافر الآية ٦٥.

لهم.. فيقولون: يا شيخ العرب أو يا دسوقى أو يا أم هاشم، أو يا ابن بنت رسول الله، ويا فلان يا فلان.. إلى آخر أصحاب الأضرحة التى تملأ المدن والقرى والعزب والكفور..

ونسوا قوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾[٦] وقوله: ﴿قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾[٧] وقوله: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم﴾[٨] وقوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا﴾[٩] وقوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾[١٠] وقوله: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾[١١] وقوله: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون* وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[١٢].

وأستطيع أن أورد لك أكثر من مائة آية حول هذا الباب.. ولكننى تعمدت أن أورد لك الآيات التى ذُكر فيها المدعُّو بلفظ - الذين - حتى لا يقول لك الشيطان إن المقصود بتلك الآيات هى الأصنام التى كانت تُعبد فى الجاهلية. فلفظ الذين لا يقصد به إلا العاقل.. ولا يُعبِّر به عن الأصنام.. ولهذا حدّد الله تعالى لنا التوكيل والحمد والدعاء له وحده فى الآيتين اللتين انفرد فيهما اسم - الحى - فهو وحده الحى الذى لا يموت.. وهو وحده الحى مطلق الحياة.. وواجب الحياة.. أما الحياة بالنسبة للإنسان - أيًّا كان هذا الإنسان - وللأشياء.. فهى جائزة لا واجبة.. لأن ما يمكن تصور حياته وموته على السواء لا يكون واجب الحياة أصلا.

فالله وحده هو الذى يجب التوكل عليه.. وهو وحده الذى يجب التسبيح بحمده وهو وحده الذى يجب أن يتوجه إليه العبد بالدعاء مع إخلاص الدين له: ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾[١٣].

ويكفى هنا أن أذكرك بقول الله تعالى عن الإنسان: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[١٤] فإذا كان الله - جل شأنه - أقرب إليك من حبل الوريد.. فهل من الأدب أن تنادى سواه أيًّا كان هذا السّوى؟ وجميل هنا قوله تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[١٥].

قلت: هل معنى هذا أن كثيرا من الناس يعيشون فى الشرك بحسن نية منهم وهم لا يشعرون؟.

قال: نعم: قال الله تعالى هذا صريحا فى قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[١٦] فقرر - سبحانه - لهم الإيمان مع الأكثرية موصوما بالشرك. ثم عرض علينا موقفهم

---

(٦) سورة الأعراف الآية ١٩٤.
(٧) سورة الأنعام الآية ٥٦.
(٨) سورة الأعراف الآية ١٩٧.
(٩) سورة الحج الآية ٧٣.
(١٠) سورة فاطر الآية ١٣.
(١١) سورة فاطر الآية ١٤.
(١٢) سورة الأحقاف الآيتان ٥، ٦.
(١٣) سورة الزمر الآية ٣.
(١٤) سورة ق الآية ١٦.
(١٥) سورة الزمر الآية ٣٦.
(١٦) سورة يوسف الآية ١٠٦.

يوم الحساب – وهم ينكرون أنهم مشركون. ويقسمون له على هذا فى قوله عنهم: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون * ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾[17] ولهذا حكم – جل شأنه – بالأمن المطلق لمن لم يلبس إيمانه بالشرك فى مثل قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[18] والظلم هنا هو الشرك لقول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[19].

قلت: حقا.. إن هذا الأمر خطير.. وأعتقد الآن أن شركنا بالله هو سبب تخلفنا.. ولابد لنا أن نعود إلى رياض التوحيد.. ليصلح الله أمرنا.. ويقوّم اعوجاجنا.. ويأخذ بيدنا إلى الهدى والنور.

قال: إن الله تعالى وعدنا.. ووعده الحق. فى قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾.. ولكنه سبحانه اشترط شرطا جزائيا واحدا لتحقيق الاستخلاف فى الأرض بعد الضياع والهوان.. وتمكين الدين الحق بعد الزيغ والضلال.. وتثبيت الأمن فى القلوب بعد الضعف والخوف والوَهْن.. وهذا الشرط الجزائى هو ﴿يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾[20] فيوم أن نعبد الله وحده..ونلتزم بما جاء على لسان قائدنا وإمامنا وزعيمنا محمد خاتم الأنبياء وإمام المرسلين: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾[21] يحقق الله لنا هذا الخير الكثير فهل فهمت الآن معنى قوله تعالى: ﴿هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين﴾[22].

قلت: نعم ونسأل الله الحى القيوم أن يجلو بصائرنا.. ويكشف الغشاوة عن أعيننا ويزيل الحجب التى غلفت قلوبنا.. حتى نرى الحق حقا فنتبعه.. ونرى الباطل باطلا فنجتنبه.. أليس هو القائم على نفوسنا ؟.

قال: نعم.. كل ما سواه قائم به.. مفتقر إليه.. معتمد عليه فى ذاته ووجوده: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء﴾[23] وهو سبحانه قيوم قائم بذاته.. لا يستند إلى شىء.. ولا يعتمد على شىء سواه.

قلت: أليس قيامه تعالى على كل نفس بالحق والعدل.. أى بما تستحق؟.

قال: هذا ما شهد به تعالى لذاته.. وشهدت به الملائكة وحققه أولو العلم.

اقرأ قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾[24] والقسط هو العدل.

قلت: بمناسبة القيومية والقيام.. وقدا شتق منها المقام.. فما هو معنى الآيات البينات فى مقام إبراهيم – عليه السلام؟.

---

(١٧) سورة الأنعام الآيتان ٢٢، ٢٣.
(١٨) سورة الأنعام الآية ٨٢.
(١٩) سورة لقمان الآية ١٣.
(٢٠) سورة النور الآية ٥٥.
(٢١) سورة الكهف الآية ١١٠.
(٢٢) سورة غافر الآية ٦٥.
(٢٣) سورة الرعد الآية ٣٣.
(٢٤) سورة آل عمران الآية ١٨.

قال: لعلك تقصد قوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾[٢٥].

قلت: نعم.

قال: ليس المقام هو البناء.. كما يفهم الناس.. لأن المبانى هى القسم الأدنى أما المعانى فهى القسم الأعلى.. ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد﴾[٢٦] وقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[٢٧] فالمقام هو الدرجة والمنزلة.. والمنهج وخط الالتزام.

فالآيات البينات فى منهج إبراهيم - عليه السلام - تتضح فى ست بينات.. تتمثل فى ستة مطالب.. حدَّدَها وهو يقيم القواعد من البيت.. ومعه ابنه إسماعيل:

المطلب الأول: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾[٢٨] هذا هو المطلب الأول. أى تقبل نيّتنا فى إقامة بيتك المحَّرم.. فليس للإنسان من عمله إلا النية.. لأن العمل ذاته جاء نتيجة القوة.. والقوة من الله تعالى لأن ﴿القوة لله جميعا﴾.. و ﴿ولا قوة إلا بالله﴾ فليس لك من عملك إلا نيتك.. تلك هى البيِّنة الأولى.. فى المطلب الأول.

والبينة الثانية.. تتمثل فى المطلب الثانى: ﴿ربنا واجعلنا مسلميْن لك﴾ وهنا وقفة أمام الإسلام.. الإسلام لله.. والإذعان لقضائه وقدره ومشيئته: ﴿فقل أسلَمت وجهى لله ومن اتبعن﴾[٢٩] وليس الوجه هنا من الناحية المادية أو الشكلية أو الصورية.. وإنما المطلوب أن نتجه بأنفسنا وأذهاننا وإدراكنا إلى الناحية المعنوية ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ حُلْ بيننا وبين ما يزيغ قلوبنا عن الثقة بك والاستمساك بعروة الأدب بين يديك.. فاجعلنا بالهامك وهدايتك مسلمْين لك.. والتثنية هنا لإبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام.

والبيِّنة الثالثة.. تتمثل فى المطلب الثالث: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾[٣٠] أى اجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك.. وتتضح فى تلك البيِّنة الثالثة.. عظمة إبراهيم وإسماعيل.. فلم يحصرا الدعاء فى نفسهما.. بل تجاوزا بمظهر البصيرة.. الذى تغلغل إلى نهاية أحقاب الإنسانية.. وطلبا من ربهما أن يجعلهما أصلا لأمة مسلمة لله: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾[٣١] كما تقول الآية بصراحة: ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا﴾[٣٢] أى فى هذا القرآن.. فى هذا الموحَى به كآخر رسالة تفضل بها عظمة العرش الأعلى على البشرية والجنية معًا.. وعلى الملائكة قبل ذلك وبعد ذلك وبين ذلك وتكون البيِّنة الرابعة.. متمثلة فى المطلب الرابع: ﴿وأرنا مناسكنا﴾[٣٣] فنحن نحبك يا ربنا.. ولكن لاندرى كيف نعبدك - نحن نبدئ لك خضوعنا.. ونسكب بين يديك دموعنا.. لنجعلها غسولا طيبا لذنوبنا.. فأرنا مناسكنا.. أى علِّمنا كيف نعبدك لأن المنسك هو منهج العبادة.. ومحل التقدير: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم﴾[٣٤] وهذا كله - كما ترى -

---

(٢٥) سورة آل عمران الآية ٩٧.
(٢٦) سورة إبراهيم الآية ١٤.
(٢٧) سورة الرحمن الآية ٤٦.
(٢٨) سورة البقرة الآية ١٢٨.
(٢٩) سورة آل عمران الآية ٢٠.
(٣٠) سورة البقرة الآية ١٢٨.
(٣١) سورة النحل الآية ١٢٣.
(٣٢) سورة الحج الآية ٨٧.
(٣٣) سورة البقرة الآية ١٢٨.
(٣٤) سورة الحج الآية ٣٤.

مرتبط بالقسم الأعلى.. قسم المعنويات الروحانية.. وليس رمز المبانى والأحجار والرمال.. حتى الهَدْى الذى نقدمه عند البيت.. ما هو إلا رمز معنوى: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ هذا هو القسم المادى الادنى ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾[٣٥] وهذا هوالقسم المعنوى الأعلى وتأتى البيِّنة الخامسة.. وتتمثل فى المطلب الخامس: ﴿وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾[٣٦] وإن التوبة إذا لم تأت من الله فلا توبه ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾[٣٧] والهدى إن لم يكن منه فلا هدى: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾[٣٨] تب علينا من أن نظن أن الأعمال التى نأتيها هى صادرة منا.. فالمؤمن الموحّد يعلم أن الحركة التى يتحركها إنما هى باستخدام القوة التى هى من الله.. فإن أحسن استعمال الحركة فله.. وإن أساء استخدامها فعليه والتوبة ذخيرة تدل على أن العبد يعلم أنه مجبول على الخطأ.. وأنه إذا كان يخشى الله فى العجز والخطأ.. فإن عروة صلته بمولاه لا تنفصم أبدا.. لأن الله سميع عليم.. غفور رحيم.

هذه مشاعر المؤمن.. وهى فى الواقع شعائر إلهية.. هى المقصودة فى قوله تعالى: ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾[٣٩].

وتكون البيِّنة السادسة.. فى المطلب السادس والأخير: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[٤٠] ابعث فى تلك الأمة المسلمة من ذريتنا رسولا.. ولا تدعهم بعد تولى آلاف السنين من غير قيادة حكيمة عليا.. مرسلة من عندك.. فأنت وحدك المنزه عن الهوى وعن الخطأ والضلال.. والتورط والارتجال.

ابعث فى تلك الأمة.. التى طلبناها فى المطلب الثالث.. رسولا منهم من بينهم من أنفُسهم وأنفَسهم.. قلبا كاملا تاما نزيها.. كصفحة بيضاء.. جرى فيها قلم القدرة الإلهية.. فكتب فى هذا القلب اللائق المستعد.. المستقبل المستمد.. ما شاء سبحانه - مفتتحًا باسم الله الرحمن الرحيم.. ليكون الموحَى إليه رحمة للعالمين.. يتلو عليهم آياتك.. ويعلمهم كتابك وحكمتك.. فالكتاب من غير حكمة وتدبر وتفكر.. ما هو إلا دردشة.. ويزكيهم ويطهرهم من الأدران والأوساخ.. من النفاق والرياء.. من التملق والمداهنة والكذب والخداع تلك هى ملة إبراهيم.. وتلك الآيات البينات.. وهذا هو مقام إبراهيم.. ومنهج إبراهيم.. وخط إبراهيم.. من دخل البيت على أساس هذه القواعد الست كان آمنا.. ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّمن سفه نفسه﴾[٤١].

قلت: كثير من الناس يقولون إن اسم الله الأعظم هو - الحى القيوم - فهل هذا صحيح ؟.

قال: قرأت فى كتاب لأبى بكر البيهقى «الأسماء والصفات»[٤٢] عن أبى أمامة الباهلى عن النبى - ﷺ - أنه قال: «اسم الله الأعظم فى سور من القرآن ثلاث.. البقرة وآل عمران وطه» والآيات هى: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾[٤٣] البقرة.

---

(٣٥) سورة الحج الآية ٣٧.
(٣٦) سورة البقرة الآية ١٢٨.
(٣٧) سورة التوبة الآية ١١٨.
(٣٨) سورة الكهف الآية ١٧.
(٣٩) سورة الحج الآية ٣٢.
(٤٠) سورة البقرة الآية ١٢٩.
(٤١) سورة البقرة الآية ١٣٠.
(٤٢) طبعة الهند ١٣١٣ هـ ص ١٤.
(٤٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

﴿الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾[٤٤] آل عمران.

و:﴿وعنت الوجوه للحى القيوم﴾[٤٥] طه.

كما روى عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال: كنت جالسا مع رسول الله – ﷺ – ورجل قائم يصلى.. وقال فى دعائه: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد.. لا إله إلا أنت المنان.. بديع السماوات والأرض ياذا الجلال والإكرام.. يا حى يا قيوم.. إنى أسألك..

فقال النبى – صلى الله عليه وسلم: «لقد دعا باسمه العظيم.. الذى إذا دعى به أجاب.. وإذا سئل به أعطى» ومن هنا يغلب على الظن أن الاسم الأعظم فى الاسمين الكريمين: الحى والقيوم.

قلت: وما أثر الذكر باسمى: الحى القيوم؟.

قال: الذكر بهما فيه حياة القلوب.. وشفاء الأبدان.. وسعادة الإنسان.. والنصر فى كل معارك الحياة.

وقد روى عن على – كرم الله وجهه – قال: لما كنت يوم بدر.. قاتلت.. ثم جئت إلى رسول الله – ﷺ – أنظرا ماذا يصنع.. فإذا هو ساجد يقول: «يا حى يا قيوم» لا يزيد عليه شيئا.. ثم رجعت إلى القتال ثم جئت وهو يقول ذلك.. فلا أزال أذهب وأرجع وأنظره.. لا يزيد على ذلك.. إلى أن فتح الله علينا بالنصر.

ومن قال: «يا حى يا قيوم» من الفجر إلى طلوع الشمس.. بعث الله فى نفسه النشاط.. وفتح له أبواب الفهم والحفظ والعلم والعمل.

ولعل فيما ذكرناه عن الاسمين الكريمين.. ما يرد جوعة النهم إلى العلم.. ويطفئ غُلَّة الصادى إلى العرفان.. ويسمح لنا بالانتقال إلى الاسمين الكريمين التاليين: الواجد والماجد.

* * *

(٤٤) سورة آل عمران الآية ٢.

(٤٥) سورة طه الآية ١١١.

٦٥ - الواجد

٦٦ - الماجد

قلت: ما معنى الواجد فى اللغة؟

قال: الوجود فى اللغة: خلاف العدم.. والوجْد: شدة الحب والهيام.. ووجَد عليه موجِدة: أى غضب عليه. كما تقول اللغة: فلان غنىٌّ واجِد.. وهو ذو جِدَة: أى واسع الغنى ومنه يقول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجِدة   مفسدةٌ للمرء أىّ مفسدة

قلت: هذا عن لفظ - الواجد - فماذا عن لفظ - الماجد -؟

قال: تقول اللغة: المجد: هو الكرم.. قال بعضهم: أتيناه زُوَّارًا فأمْجَدَنا قِرًى.. أى كرما. ونقول: مَجَدَت الغنم.. وراحت الماشية مُجْدًا ومواجِد: أى شباعا. ورأيت أرضا قد مَجَدَ شاتُها وبعيرها.. وأمْجَدَ الله فلانا: أى كرَّم فعاله.. قال شبيب بن البرصاء:

دعينى أُماجِدْ فى الحياة فإننى   إذا ما دعا داعى الوفاة مجيب

وأمجد فلانٌ أولاده: إذا تخير لهم الأمهات.. وهؤلاء قوم أمجدهم أبوهم.. قال الشاعر:

ليوثُ الغاب أمْجَدَهم أبوهم   بخيراتٍ كرائمَ عن أبيه

وجاء فى المثل: فى كل شجرٍ نار.. واستَمْجَد المَرْخُ والعَفَار - والمرخ والعفار: شجرتان سريعتا الاشتعال.. شُبِّها بمن يكثر فى العطاء.. طلبا للمجد.

وكل تلك المعانى تؤدى معنى الكرم - كما ترى -.

قلت: فأى المعانى يحمل الاسمان الكريمان - الواجد والماجد -؟

قال: الماجد هو الواجد.. مصدر كل موجود.. ومبدع كل مشهود.. الذى يسرى سره فى كل والد ومولود.

وقد عرفنا من اللغة أن المجد هو الكرم.. ومن ثَمَّ يكون - الماجد - اسم فاعل من المجد.. ويكون - الماجد - مقارنا لاسم - الكريم - ومصدرًا لجميع المكارم.

قلت: هل معنى هذا أن الاسمين الكريمين: الكريم والماجد - يؤديان معنى واحدا؟

قال: لا.. وإلا كان ذكر الاسمين معا من بين الأسماء الحسنى - تكرارا لا موضوع له.. ولا هدف منه - فاسم - الماجد - أساس.. واسم - الكريم - بناء يقوم على هذا المجد.

قلت: هذا الأمر يحتاج إلى شيء من التوضيح.

قال: الماجد الكريم يبدو أثره فى منح الوجود أولا.. وهو أثر لتجليات الاسم - الخالق - ولهذا

ارتبط الاسمان الكريمان - الواجد والماجد - ونعمة الوجود بذاتها برهان مادى على الماجد.. وكرم الكريم. فإذا قلنا إن مجرد الوجود بعد العدم - مجد وكرم - قررنا بعد ذلك ما فى الموجود ذاته - وهو المخلوق - من قوى ومدارك جعلته ليس موجودا فقط.. بل هو مجلى لصفات مَن أوجده: سميعًا.. بصيرًا.. متكلمًا.. خبيرًا.. عليمًا.. حكيمًا.. حسَّاسًا.. درَّاكا.. واعيًا.. يقظًا.

وهذه كلها نعم مستقلة بذاتها.. تضاف إلى نعمة الوجود - مجرد الوجود -.

قلت: ما زلت فى حاجة إلى توضيح أكثر.

قال: لو فرضنا أن الواجد - سبحانه - أوجد إنسانًا.. أصمًّا.. أبكمًا.. أعمَى.. مقعدًا.. فإن وجوده لا يكون نعمة عليه وتمجيدا له.. بل يكون عبئا ثقيلا.. يتبرَّم به.. ويتأذى منه.. ويتمنى زواله.

هل فهمت الآن معنى ارتباط الواجد بالماجد.. ليكون الوجود نعمة مقترنة بمجد الماجد وكرم الكريم؟.

قلت: نعم فهمت.

قال: قد عرفنا الآن ما هو الفرق بين مجرد الوجود.. وبين نعمة ما أفاض الماجد الكريم على هذا الموجود.. من صفات وقوى وحواس.. ولذلك يقول سبحانه: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[1] وهذه أمانات إلهية.. استودعها الإنسان.. ويجب على الإنسان أن يؤديها إلى أهلها.. ويضعها فى مواضعها.

وهذه الأمانات هى التى أشار إليها قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾[2] أى أنه كان ظلوما لنفسه بنسيان تلك الأمانة.. ونسيان أنه مسئول عنها. جهول بقدر نفسه التى امتازت بحمل هذه الأمانة دون السماوات والأرض والجبال.. تلك التى لا اختيار لها.. بينما هو لا إكراه عليه بوجود الجزء الاختيارى فيه.. وهذا الجزء الاختيارى هو أساس كسبه.. إذ أنه لا يخلق أفعال نفسه ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره﴾[3] فالإنسان مسئول دائما عن استخدام الأمانة.. التى هى امتيازه العقلى.. كما يقول تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السّمع والبصَر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[4] ولولا أن السمع والبصر والفؤاد أمانة حملها الإنسان.. ما سئل عنها.. ولا حوسب عليها.

وعلى هذا يكون مجرد إيجاد الإنسان باسم - الواجد - من غير تمجيده وتحميله الأمانة باسم - الماجد - غير مراد لخليفة الله فى هذا الكون.

قلت: ألم يخلق الله لجميع الحيوانات أسماعا وأبصارا مثل أسماعنا وأبصارنا فما هى ميزة الإنسان عليها؟

قال: لقد ذكرنا من قبل أن الفرق كبير بين السمع والبصر عند الحيوانات.. والسمع والبصر عند

---

(1) سورة النحل الآية ٧٨.
(2) سورة الأحزاب الآية ٧٢.
(3) سورة القيامة الآيتان ١٤، ١٥.
(4) سورة الإسراء الآية ٣٦.

الإنسان.. وإن كانت الآذان والأعين واحدة تقريبا فى جميع المخلوقات.. فى الإنسان والحيوان معا.. فالحيوانات لها آذان تسمع بها كالإنسان.. وقد تكون عند الحيوان أشدّ.. ولها أعين تنظر بها كالإنسان.. وقد تكون عند الحيوان أحد.. ولكن وظيفة السمع والبصر عند الإنسان غيرهما عند الحيوان: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾[٥] فسماع الأصوات شيء.. ووعيها شيء آخر.. ونظر المرئيات شيء.. وإبصارها شيء آخر وقد قال الله تعالى عن الكفرة: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[٦] فقرر - سبحانه - أن لهم أعينا قد تكون فى قوة عين الصقر.. ولكنه نفى عنهم الإبصار.. وقرر أن لهم آذانا قد تسمع دبيب النمل.. ولكنه نفى عنهم السماع الواعى.. ثم شبههم بالأنعام.. بل ونزل بهم إلى درجة أحط من درجة الأنعام.. فقال: ﴿بل هم أضل﴾.

ولعلك تذكر يا أخى - رحمنى الله وإياك - أننا ناقشنا هذا الموضوع بشيء من الإفاضة عند استعراضنا السريع للاسمين الكريمين: السميع والبصير - فارجع إليهما إذا شئت.

قلت: إذن لماذا خلق الله الحيوانات؟

قال: من نعمة - الماجد - سبحانه - خَلْق الأشياء والحيوانات غير العاقلة.. وتذليلها لخدمة الإنسان حامل الأمانة.. وهو مسئول عما يحدث من أنعامه ودوابه من ضرر للغير.. لقوله - ﷺ -: «جُرحُ العَجْمَاء جُبَار» والعجماء: يعنى الدواب والأنعام.. سميت عجماء لأنها لا تعقل.. وجُبار: أى يلزم التعويض على صاحبها شرعا إذا تسببت فى إيجاد أى ضرر بالغير لأن صاحبها هو عاقلها.. فكأنه هو عقلها المسئول عنها.

قلت: ألمح هنا أمرا يحتاج إلى توضيح.. فقد خلق الله تعالى للإنسان ما فى السماوات وما فى الأرض.. وفى نفس الوقت يسجد له - سبحانه - من فى السماوات ومن فى الأرض.. أليس كل شيء خلقه الله لعبادته هو؟

قال: نعم.. خلق الواجد - سبحانه - كل شيء لعبادته طوعا وكرها.. ولقد أثرت بسؤالك هذا مسألة فى غاية الدقة.. فيجب أن نميز الفرق بين الخالق الواجد.. وبين الاسم - الماجد -.

فإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما فى السمٰوات وما فى الأرض جميعا منه﴾[٧] وتلك الآية تشير إلى الشطر الأول من سؤالك.. أما الشطر الثانى منه فيشير إليه قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها﴾[٨] وقوله: ﴿ولله يسجد ما فى السمٰوات وما فى الأرض من دابة والملائكة﴾[٩] وقوله: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السمٰوات ومن فى الأرض﴾[١٠] نجد أننا فى حاجة إلى التمييز بين الحالتين. لأن الساجدين العقلاء فى السماوات والأرض.. هم الذين خلق لهم الخالق الواجد كل ما فى السماوات والأرض.. وهذا كله عن الخلق والتكوين

---

(٥) سورة الحج الآية ٤٦.
(٦) سورة الأعراف الآية ١٧٩.
(٧) سورة الجاثية الآية ١٣.
(٨) سورة الرعد الآية ١٥.
(٩) سورة النحل الآية ٤٩.
(١٠) سورة الحج الآية ١٨.

والإيجاد. أما ما هو فوق الخلق والإيجاد والتكوين.. فقد أشار إليه سبحانه بعد قوله: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض﴾ حيث قال: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[١١] وهذه الفقرة الأخيرة من الآية تشير إلى مجليات الاسم - الماجد -. وهنا يتضح الفرق بين الخلق والإيجاد.. المتعلق بالسماوات والأرض المخلوقة من أجل العقلاء.. وبين العقل ذاته وما يتعلق به من الحواس المتعاونة معه.. والتى هى أشبه بالنوافذ التى يشرف العقل بواسطتها على مجموع ما فى السماوات وما فى الأرض.. وهذا ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[١٢] وقوله فى الأمر الصادر إلينا: ﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[١٣] وتنديده بالتخلف عن تنفيذ هذا الأمر بواو التنديد فى قوله تعالى: ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون﴾[١٤] ومن هنا نعلم أن كشف ملكوت السماوات والأرض.. فى مجليات الاسم - الماجد - لإبراهيم - عليه السلام - ليس منحصرًا فيه وحده لرسالته ونبوته ومكانته فى قوله تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾[١٥] ليس ذلك لإبراهيم - عليه السلام - وحده.. وإنما جعله الله - تعالى - فيضًا شاملا لكل مؤمن.. بالمجاهدة.. وصدق المراقبة.. وإنعام النظر.. وتدريب البصيرة على الانطلاق فى المشاهدة الملكونية.. بالقوة المفاضة عليه من جانب الواحد الماجد الكريم.

قلت: نسمع بعض الناس يرددون كلمة الوجد فى السماع وفى العبادات.. فما معنى هذا؟

قال: قالوا عن الوجد - ومعناه فى اللغة: شدة الحب والهيام - كما ذكرنا - قالوا عنه فى حب الذات والفناء فى العبادات: الوجد: مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب. كما قيل: الوجد وجود نسيم الحبيب.. لقوله تعالى حكاية عن يعقوب - عليه السلام - ﴿إنى لأجد ريح يوسف﴾[١٦].
وقالوا: الوجد انقطاع الأوصاف عند الشهود. يقول الشاعر:

نَطَقَتْ ضمائرُه بكامن سره ... عن وجده بالوهم من خطراته
وشكى الضمير إلى الهوى ألم الهوى ... وشكى الذى يلقاه من زفراته

والوجْد فى الحقيقة فقْدٌ.. ولهذا كان بعض الأئمة يقول فى دعائه: «اللهم لا تُبْلِنى بفقْد ولا بوجْدٍ.. وأحينى حياة لا توصف ولا تُحدّ» فالوجد ما لا أركان للعلم عليه.. ولهذا قال بعضهم: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم.. وإنما يضر فضل الوجد مع نقصان العلم.. وأنشدوا:

وسكر الوجد فى معناه صحو ... وصحو الوجد فى سكر الوصال

وحَسْبُ الواجد إفراد الواحد.

وهذه كلها قوى أحدية.. صادرة من الواحد.

وهنا يبدو المدخل إلى الاسمين الكريمين: الواحد الصمد.

---

(١١) سورة لقمان الآية ٢٠.
(١٢) سورة فصلت الآية ٥٣.
(١٣) سورة يونس الآية ١٠١.
(١٤) سورة الأعراف الآية ١٨٥.
(١٥) سورة الأنعام الآية ٧٥.
(١٦) سورة يوسف الآية ٩٤.

٦٧ - الواحد
٦٨ - الصمد

قلت: لماذا اقترن الاسمان الكريمان: الواحد والصمد.

قال: إن معنى اسم - الواحد - هو عدم وجود ندٍّ أو كفء أو شبيه أو مثيل للواحد الأحد.. الفرد الصمد.. فلم ينشأ هو - سبحانه - عن سبب أو مثيل سابق عليه.. ولم ينشأ عنه سبب أو مثيل لا حق به. وهذا المعنى يتجلى واضحا فى سورة ﴿الصمد﴾. وتسمى سورة [الإخلاص].. فهى سورة التوحيد الخالص.. وصورة التفريد المطلق: ﴿هو الله أحد *الله الصمد﴾. والصمد: هو السيد.. لأنه يُصْمَد إليه فى الحوائج.. أي يُقْصَد.. وعن الحسن - رضى الله عنه - فى معنى ﴿الله الصمد﴾ قال: أُصْمِدَت إليه الأمور.. فلا يَقْضِى فيها غيره.. ولا يُقْضَىَ دونه[1]؛ فهو - سبحانه - المرجع فى جميع المقاصد. ﴿لم يلد﴾ أى لم ينشأ عنه سواه شبيه أو مثيل لا حقٌ به. ﴿ولم يولد﴾ أى لم ينشأ هو تعالى عن سواه شبيه أو مثيل سابق عليه. ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ أى لا يمكن أن يكون له نِدٌّ مكافىء.. أو شبيه مماثل.. مهما قال القائلون: ﴿سبحان ربك رب العزة عَما يصفون﴾.

قلت: وهل من أجل هذا سميت سورة الإخلاص؟

قال: نعم.. وقد ورد عن رسولنا - ﷺ - أن تلك السورة.. الصغيرة فى مبناها.. عظيمة فى معناها.. فهى تعدل ثلث القرآن الكريم فى ثواب قراءتها.

وذلك لأنها زبدة التوحيد.. وركيزة التفريد.. ألم تر أنها بدأت بقوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾.

قلت: وهل يوجد فرق بين الواحد والأحد؟

قال: بعض العلماء لا فرق بينهما.. ونحن نرى أن الواحد غير الأحد.. لأن الواحد أول العدد.. فنقول واحد واثنان وثلاثة.. أما الأحد فإنه ينفى ما يذكر معه من العدد. فالأحد يذكر فى وصفه تعالى على التخصيص.. فنقول هو الله الأحد.. ولا نقول رجل أحد.

قلت: وهل لاسم الواحد فى حقه تعالى معان أخرى؟

قال: يقول بعض العلماء: الواحد فى وصفه تعالى له ثلاثة معان:

أحدها: أنه تعالى غير منقسم ولا متبعِّض ولا متجزِّئ.

والثانى: أنه لا شبيه له.. فالعرب تقول: فلان واحد عصره.. أى لا شبيه له.. قال الشاعر:

يا واحد العرب الذى ... ما فى الأنام له نظيرُ
لو كان مثلك آخَرٌ ... ما كان فى الدنيا فقيرُ

(١) لسان العرب فى - صَمَد -.

والمعنى الثالث: أنه لا شريك له فى أفعاله.. لأن العرب تقول: فلان متوحّدٌ بهذا الأمر.. أى ليس يشركه فيه أحد.. ولا يعاونه أحد..

وهذه المعانى الثلاثة تليق بالله تعالى.. ولكن علم التوحيد يقول بحقيقة المعنى الأول.. وهو نفى القسمة والتجزئة.. وأما المعنيان الثانى. والثالث فهما مجازيّان.

قلت: وهل ورد الاسمان الكريمان - الواحد والصمد - فى القرآن الكريم؟

قال: لم يرد اسم - الصمد - إلاّ فى سورة الإخلاص: ﴿قل هو الله أحد *الله الصمد﴾. أما اسم - الواحد - فقد ورد فى عشرات الآيات منها: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾(٢) وفى قوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد﴾(٣) وقوله: ﴿قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون﴾(٤) وقوله: ﴿هذا بلاغ للناس ولينذَروا به وليعلموا أنما هو إله واحد﴾(٥) وقوله: ﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾(٦) وقوله: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد﴾(٧) وقوله: ﴿قل إنما يوحَى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون﴾(٨) وقوله: ﴿إن إلهكم لواحد * رب السموات والأرض وما بينهما﴾(٩) وغيرها كثير.

قلت: هل اقترن اسم - الواحد - مع أسماء أخرى فى القرآن الكريم؟

قال: نعم.. اقترن اسم - الواحد - مع الاسم - القهار - فى كثير من آيات الكتاب. وذلك لأن اسم - القهار - يدور فى فلك اسم - الملك - فالملك هو القهار باعتباره صاحب الملك الأوحد.. ولذلك يلتزم القهار بصفة الوحدانية: اقرأ: ﴿قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار﴾(١٠) واقرأ: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾(١١) واقرأ: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾(١٢) ثم اقرأ: ﴿قل إنما أنا منذر وما من إله إلاّ الله الواحد القهار﴾(١٣) واستمع يوم ينادى المنادى: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ويأتى الرد من الذات على الذات ﴿لله الواحد القهار﴾(١٤).

قلت: قرأت فى كتاب الله تعالى: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾(١٥) فهل قال أحد من البشر إن للكون إلهين اثنين؟

قال: نعم يوجه الله تعالى هذا النهى إلى المجوس.. حيث يتوهمون ويزعمون أن الحقيقة الكلية فى الوجود.. قد انقسمت.. بذاتها إلى قسمين:

النار: وهو إله عندهم.. يطلقون عليه اسم - أَهْرِمَنْ.

---

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٣.
(٣) سورة المائدة الآية ٧٣.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٩.
(٥) سورة إبراهيم الآية ٥٢.
(٦) سورة النحل الآية ٢٢.
(٧) سورة الكهف الآية ١١٠.
(٨) سورة الأنبياء الآية ١٠٨.
(٩) سورة الصافات الآية ٤، ٥.
(١٠) سورة الرعد الآية ١٦.
(١١) سورة إبراهيم الآية ٤٨.
(١٢) سورة يوسف الآية ٣٩.
(١٣) سورة ص الآية ٦٥.
(١٤) سورة غافر الآية ١٦.
(١٥) سورة النحل الآية ٥١.

والماء: وهو إله مستقل بالعبادة كزميله ويطلقون عليه اسم - يَزْدِمَن - فالإله - أهرمن - إله النار عندهم.. هو مصدر الحرارة والقوة والدفء والإنتاج. والإله - يزدمن - إله الماء عندهم.. هو مصدر الحياة والروح.. وهو قاهر فوق النار.. وله عليها السلطان.. إلا إذا حيل بينه بينها بحجاب.. فإن الإله - يزدمن - إله الماء - فى هذه الحالة يثور ويفور.. ثم يأخذ طريقه إلى الانطلاق الهوائى.. حيث يكون - يزدمن - وهو إله الماء.. فى حال غليانه وثورته بخارا يبحث عن باب ينطلق منه.. ويعلو على سلطة - أهرمن - إله النار.. ويكون يزدمن جبارا يفجر كل قيد.. ويحطم كل حصار. فتجد من المجوس من يعبد - أهرمن - إله النار - ومنهم من يعبد - يزدمن - إله الماء.

قلت: تلك أوهام مجوسية غريبة حقا.. ويبدو أن المجوسية قد تفرعت منها عدة عقائد فاسدة.

قال: إن أمثال هذه الأوهام تنتهى بنا إلى ما أشار إليه العلامة - كارليل الغربى.. عندما تكلم عن عبادة ظواهر الطبيعة.. قال: ومن الطوائف المتفشية فى بلاد الفرس.. من يعبد الفرج.. ويعتبره بابا لتنزلُ الروح الأعلى.

ومنهم من يرى نفى الملكية بتاتا.. وهو ماردك.. الفارسى الشيوعى الفاشل.. الذى ما كاد أمره يبتدئ حتى انتهى.

ومن بينهم - مانى - زعيم طائفة المانوية - وديصان - وهو زعيم طائفة تنهج نهجا آخر.. وهكذا.

يقول كارليل: ولم نجد بينهم من يستحق الاهتمام سوى - زرادشت - فإنه ترك كتابا عجيبا.. وطرق بذلك أبواب مباحث كبرى.. وكان رجلا فليسوفا عبقريا.. دخل بالعقل البشرى إلى آفاق لا يستطيع إدراك مداها.. واتهمه بعض أعدائه بأنه شخص غامض فى ذاته.. غموضه فى عباراته.

وللفرس قدم سبّاقة إلى الفلسفات الكونية.. ولعلك تجد فى كتاب «الشاهنامة» ما تلمس منه آثارا مما ورد بالغرب فى «إلياذة هوميروس» وهذا يدل على مواقع اللقاء الاضطرارى بين الباحثين والفلاسفة فى الشرق والغرب معا.

وإذا نحن عرجنا على الهند.. اتسع أمامنا نطاق البحث فى مذاهب السيخ والبراهمة والبوذيين وعبّاد البقر.

ومع هذا نجد أفرادا من كبار فلاسفة الهند.. ومن معتنقى مبادئ البراهمة.. واليوجيين أتباع - الراجايوجا - نجد بينهم من استطاع بالشعر أن يرتفع عن المستوى الذى يحيط به.. من أمثال - المهاتما غاندى - الزاهد.. الذى حلقّ فى سماء الحقائق الكلية.. فآمن بأن الدين هو المحبة.. والرفق بكل حى.. والإعراض التام عن زخارف الدنيا وفاخر الثياب.. والقناعة فى الزاد.. مع الشجاعة التامة وسعة الأفق فى الدراسات.. لأن المهاتما غاندى خريج جامعة أكسفورد.. وكان يلبس ملابس طلبتها.. حتى إذا هدته العناية الإلهية إلى الكفاح من أجل الهند وتحريرها.. تحرر من زينة الدنيا.. واكتفى من الثياب بما يشبه ملابس الإحرام.. مع أنه كان من أصحاب الملايين الحاصلين على درجات امتياز وأنواط شرف من كبريات الدول.

وظهر فى الهند رجل آخر.. هو طاغور.. كان موسرا.. واسع الاطلاع.. سائحا يقص آثار العصور والأجيال على رسومها وبين طلولها.. ليقتنص العبرة.. حتى هداه الله إلى ما اهتدى إليه من قبله بآلاف

السنين: أفلاطون.. وأرسطوطاليس فى علم الحكمة.. وعرف أن هذا الوجود خير محض.. وأن هذا الخير إنما هو خير نسبى وليس مطلقا.. وهذا هو ما يقوله أفلاطون بالذات: ليس فى العالم شىء هو خير بذاته أوشرٌ بذاته.. بل بالوضع.

وهكذا ترى أن الذين كانوا صرعى الشك فى الله الواحد الأحد.. الفرد الصمد.. أوصلهم هذا الشك إلى درجة اليقين.

وهنا نجد القرآن الكريم يعلنها صريحة فى قوله تعالى: ﴿أفى الله شك. فاطر السموات والأرض﴾[١٦] وهذا الاستفهام – المشبّع بروح الإنكار – فيه من التحدى ما ينفى الشك نفيا علميا.. فكأنه يقول لهم: ألم يكفك أيها الشاك.. وأنت سميع بصير.. ما تشهده من آيات ظهوره تعالى.. ودلائل قدرته.. وتجليات نوره بين السماوات والأرض.. تطالعك قبل أن تطالعها.. وتزفّ إليك متقناتها وبدائعها.. ويدور أمام ناظريك غواربها وطوالعها.. على نسق مستقر فى مواقعها؟

وقد أشار الواحد المحيط بجميع العلوم فى قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[١٧] أجل أما يكفيك كل هذا لدفع الشك فى وجود الواحد الأحد.. الفرد الصمد.. بينما آياته قواطع للشكوك.. مذهبات للريب.

تجلَّى بها فى كل شىء ولم يزل ... عليّا كبيرا فضلُه يتجدَّدُ
وأرسل آيات من النور للهدى ... ونادى بها بين البرايا محمدُ
أيَجْحَدُها بالشك من ضلّ سعيُه ... وعيناه آيات السماوات تشهدُ
وفى نفسه برهانُها وهو قاطعٌ ... وفى كل قلب للعليَّات معبدُ
وهل ينكر الأعمى ضيا الشمس جهرة ... ومن حرها أنفاسه تترددُ
وأين العمى – بوركتَ من ذى بصيرة ... إذا عنَّ حمدٌ فهو لله أحمدُ

نعم إن سريان الشك فى النفس ليس إلاّ برهانا على انعدام استقرارها.. وفقدان استبصارها.. ومن أجل ذلك نرى فى مطلع القرآن الكريم مباشرة.. قطْعَ دابر الشك والريب فى صدق هذا الكتاب السامى بمبانيه ومعانيه: ﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾.

قلت: وما نصيب العباد من هذين الاسمين الكريمين؟

قال: من وَقَر فى قلبه أن الله – تعالى – واحد أحد.. فرد صمد.. علَّم آدم الأسماء بلا واسطة.. وفهَّم سليمان لغة الطير ومنطقه.. لم يعتمد فى أى أمر على سواه.. ولم يقصد فى كل شئونه إلا إياه.. فيجعله الله – تعالى مقصد عباده فى مهمات دينهم ودنياهم.. وأجرى على لسانه ويده حوائج خلقه.. وهذا يكون قد أنعم الله عليه بحظ وافر من معنى هذا الوصف.. ويعطيه شبعا بلا خبز.. وشفاء من غير دواء. وفى الحديث الشريف: «أحب الناس إلى الله أنفعهم لعباده» وفيه أيضا: «من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها.. أمَّنه الله يوم الفزع الأكبر». وفيه كذلك: «من احتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة».

(١٦) سورة إبراهيم الآية ١٠.
(١٧) سورة الواقعة الآية ٧٥، ٧٦.

واسم - الصمد - له خاصية لمن أراد دفع الخصال الذميمة.. والتوبة من المعاصى.. فذاكره يوفقه الله - تعالى - إلى التوبة الصادقة والعمل الصالح ويبدل سيئاته حسنات.

وإلى لقاء آخر كريم.. مع اسم أخر كريم.. إن شاء الله تعالى.

* * *

٦٩ - القـادر
٧٠ - المقتدر

قلت: ما هو الاسم التالى للاسمين الكريمين: الواحد والصمد؟

قال: الاسم التالى هو اسم - القادر - ومعه اسم - المقتدر -.

قلت: هل ورد هذان الاسمان فى القرآن الكريم؟

قال: ورد اسم - القادر - بالنص فى قوله تعالى: ﴿قل إن الله قادر على أن ينزّل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[1] وقوله: ﴿أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾[2] وقوله: ﴿أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعْىَ بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى﴾[3] وقوله: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾[4] وفى آيات كثيرة أخرى غير ما ذكرنا.

قلت: هذا عن اسم - القادر - فماذا عن اسم - المقتدر؟

قال: ورد اسم - المتقدر بالنص أيضا فى قوله تعالى: ﴿كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾[5] وقوله: ﴿إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[6] وقوله: ﴿وكان الله على كل شىء مقتدرا﴾[7] وقوله: ﴿أو نرينّك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾[8].

قلت: أليس معنى.. القادر - أنه قادر على الخلق والتكوين والإبداع؟

قال: اسم - القادر - من تجلى صفة القدرة.. وهى صفة قديمة قائمة بالحق - سبحانه - يبرزها فى الزمان والمكان على ما تعلقت به صفة العلم الأزلى.. فبالقدرة أنشأ - القادر - سبحانه - الكون كله بحسب ما تعلقت به صفة العلم الأزلى.. على النحو الذى نراه ونلمسه.. كما ذكرنا من قبل فى حديثنا حول صفة. القدرة. وهى سابع الصفات العشرين التى تجب لله تعالى.. ويستحيل بالنسبة له أضدادها.. وضد القدرة: العجز. فهو - جل شأنه - القادر الذى لا يعجزه شىء.. إيجادا أو إعداما أو تغييرا أو إعادة ولا يتقيد بالأسباب.. لأنه سبب الأسباب ورب الأرباب: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾[9].

قلت: وهل ارتبط اسم - القادر - بأسماء أخرى فى القرآن الكريم؟

قال: لم يرتبط هذا الاسم فى القرآن الكريم ارتباطا مباشرا إلاّ مع اسم - العليم - لأنه كما قلنا

(١) سورة الأنعام الآية ٣٧.
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٩.
(٣) سورة الأحقاف الآية ٣٣.
(٤) سورة الطارق الآية ٨.
(٥) سورة القمر الآية ٤٢.
(٦) سورة القمر الآيتان ٥٤، ٥٥.
(٧) سورة الكهف الآية ٤٥.
(٨) سورة الزخرف ٤٢.
(٩) سورة يس الآية ٨٢.

إن إبراز القدرة فى الزمان والمكان على ما تعلقت به صفة العلم الأزلى.. كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا إن الله عليم قدير﴾(١٠) وقوله: ﴿يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾(١١) وقوله: ﴿ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير﴾(١٢) وقوله: ﴿وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا﴾(١٣) والقدير: فعيل من القادر - جل شأنه.

ولما كان على قمة المثل العليا - العفو عند المقدرة - اقترن اسم - القدير - بالأسماء: العفو والغفور والرحيم.. فى مثل قوله تعالى: ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عَفوا قديرا﴾(١٤) وقوله: ﴿والله قدير والله غفور رحيم﴾(١٥).

قلت: إن الله تعالى قد تجلى على الإنسان بصفة - القدرة - فجعله قادرا.. فهل قدرة الله مثل القدرة التى نعلمها عند البشر؟

قال: إن الله تعالى قد تجلى على بنى البشر بصفاته الكونية السبع.. وهى كونه تعالى: قادرًا.. مريدًا.. عالمًا.. حيًّا.. سميعًا.. بصيرًا. متكلمًا. فالإنسان يتصف بتلك الصفات السبع.. فهو: قادر - مريد.. عالم.. حىّ.. سميع.. بصير.. متكلم بتجليات تلك الصفات. ولكن تلك الصفات عند الخالق - جل شأنه - غيرها عند المخلوق.. فقدرة الحق - سبحانه - تصلح للخلق والتكوين والإبداع والتصوير والإيجاد والإعدام والتغيير والإعادة.. ولكن قدرة الخلق لا تصلح إلا للكسب فقط.

فالمخلوق لا يوصف بأنه قادر على الإيجاد.. والحق لا يوصف بالقدرة على الكسب.

ولله قدرة واحدة.. يقدر بها على جميع المقدورات.. لا يخرج مخلوق عن قدرته.. ولا نهاية لمقدوراته.. والمخلوق ذاته يكون مقدورا.

قلت: إن الله تعالى قادر على هداية الناس جميعا.. فلماذا يتركهم للضلال والكفران؟

قال: حقا إن الله قادر على هداية الناس.. فهو - سبحانه - يقول: ﴿أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾(١٦) ولكن الهدى فى تلك الحالة يكون هدى جبريا.. وهو يريد للناس أن يهتدوا باختيارهم.. فالأجر عظيم.. فمن اهتدى باختياره زاده هدى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾(١٧). وإن الله تعالى بجميل صنعه يؤوى عبده إلى جناب رحمته - فيعينه على ما يحتاج إليه بقدرته.. فيرشده إلى ما فيه نجاته.. فإن استجاب يوفقه لما فيه درجاته.. ثم يؤهله لما يتحقق به قربه ومناجاته.

وقد هدى الله أقواما.. فلم يستجيبوا لهداه.. لكنهم استحبوا العمى كفرا وعنادا.. اقرأ قوله تعالى عن قوم ثمود: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾(١٨) مع أنه تعالى قال عنهم فى

---

(١٠) سورة النحل الآية ٧٠.
(١١) سورة الروم الآية ٥٤.
(١٢) سورة الشورى الآية ٥٠.
(١٣) سورة فاطر الآية ٤٤.
(١٤) سورة النساء الآية ١٤٩.
(١٥) سورة الممتحنة الآية ٧.
(١٦) سورة الرعد الآية ٣١.
(١٧) سورة مريم الآية ٧٦.
(١٨) سورة فصلت الآية ١٧.

موقع آخر: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾[١٩] أى وهبهم الله - تعالى - مدارك وبصائر.. ولكنهم أهملوها واتبعوا الشيطان والهوى.

قلت: قرأت آية أوقعتنى فى حيرة شديدة.. وهى قوله تعالى حكاية عن نبى الله يونس - عليه السلام: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه﴾[٢٠] فكيف يظن نبى مثل يونس - عليه السلام - أن الله لا يقدر عليه؟

قال: لستَ أوّل من أوقعته تلك الآية فى الحيرة، فقد روى ابن عباس - رضى الله عنه - أنه دخل يوما على أمير المؤمنين معاوية.. فقال معاوية: يا ابن عباس.. لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها.. فلم أجد لنفسى خلاصًا إلاّ بك. قال: وما هى يا أمير المؤمنين؟

فقرأ عليه الآية: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أنْ لن نقدر عليه﴾ ثم قال: أو يظن نبىٌّ الله أن الله لا يقدر عليه؟

فقال له ابن عباس: هذا من القَدْر.. لا من القدرة[٢١].

قلت: وما معنى أن هذا من القَدْر وليس من القدرة؟

قال: قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن يونس - عليه السلام - ظن أن الله تعالى غير قادر عليه.. وتلك جريمة خطيرة.. لا تقبل من ضعيف الإيمان.. فكيف نقبلها من نبى كريم.. مثل يونس - عليه السلام.. الذى قال عنه رسولنا - ﷺ -: «لا تفضلونى على يونس بن متى». وإنما قوله هذا ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ من القدْر.. بمعنى التقتير والتضييق.. وليست من القدرة.. ومنه قوله تعالى: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾[٢٢] يبسط ويَقْدر.. أى يوسع ويضيّق.. ومنه أيضا: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن﴾[٢٣] فقدر عليه رزقه: أى ضيّق عليه فى الرزق.

ويتضح هذا المعنى فى القراءة التى تقرأ الآية: ﴿فظن أن لن نقدِّر عليه﴾ بتشديد الدال وكسرها. فيونس - عليه السلام - يعتقد أن الله تعالى لن يضيّق عليه بعد خطئه وعدم صبره على أداء رسالته مع قومه.. فقد ظل يدعوهم إلى الله ثلاثة وثلاثين عاما.. فلم يؤمنوا.. فحدد لهم ثلاثة أيام.. إن لم يؤمنوا بعدها فسوف يعذبهم الله تعالى بنار تنزل عليهم من السماء فتهلكهم وتأكل الأخضر واليابس. ولم يكن الله تعالى قد أمره بذلك.

يقول ابن إسحاق: قال - ﷺ: «كان يونس بن متى فيه خفّة وعَجَلة.. فلما حمل أعباء النبوة تفسّخ تحتها تفسُّخ الرُّبع[٢٤] تحت الحمل الثقيل».

ولم يحقق الله وعيده لقومه.. فخرج من المدينة مغاضبًا مع نفسه وعرف أنه أخطأ فى حق الله.. ولكنه

---

(١٩) سورة العنكبوت الآية ٣٨.
(٢٠) سورة الأنبياء الآية ٨٧.
(٢١) تفسير النسفى والكشاف ٨٧/الأنبياء.
(٢٢) سورة الرعد الآية ٢٦.
(٢٣) سورة الفجر الآيتان ١٥، ١٦.
(٢٤) الرّبع: هو الجمل الصغير.

لم ييئس من رحمته.. وأيقن أن الله سيوجد من ضيقه فرجا.. ومن همّه مخرجا ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ والظن فى القرآن يقين.

وهكذا حال المؤمن دائما.. إذا أحاطت به الهموم.. واحتوشته الظنون.. وحاصرته الأوهام.. هبّت عليه نسمة من الإيمان.. فتذكر الله وعفوه.. وتكون له هذه الذكرى بارقة الأمل.. وحبل النجاة.. وبصيص النور. هذا ما حصل ليونس - عليه السلام - لما خرج مغاضبًا مع نفسه.. ثائرًا مع ضميره.. نفحته رياح الرحمة.. فاعتقد أن الله سيوجد له من ضيقه فرجا.. ويهيئ له من ضنكه مخرجا.. لأن الله بأصفيائه وأحبابه رءوف رحيم.

فإذا علم العبد أن الله وحده هو المقتدر القادر على كل شيء.. استحى أن يلجأ لسواه.. لأن الله تعالى أقرب إليه من حبل الوريد.

وإلى اسم جديد آخر إن شاء الله تعالى..

قلت: قبل أن ننتقل إلى الاسم الجديد.. أريد أن أسأل: لماذا سميت ليلة القدر بهذا الاسم؟

قال: يقول بعضهم: هى ليلة القدْر والشرف العظيم.. كما فسّروا القدر بالتقدير.. وقال مجاهد[٢٥] فى قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ قال: ليلة الحكم.. والمعنى: ليلة التقدير.. سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمر.. إلى مثلها من السنة المقبلة.. من أمور الرزق والأجل وغير ذلك.

وقد ذكر البخارى فى صحيحه: لما نزلت: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾[٢٦] قال رسول الله - ﷺ -: «أعوذ بوجهك».

قلت: وما أثر هذين الاسمين على العباد؟

قال: إن من يذكر الله تعالى بهذين الاسمين.. يستشعر قدرة الله وتقديره.. وحكمته وتدبيره.. فتطمئن نفسه.. ويسكن فؤاده.. ويجد له من كل هم مخرجا.. ومن كل ضيق فرجا.. فإن كان حائرا فى أى أمر من الأمور.. دبّر الله له ما يريد.. وشاهد أنوار الحقيقة فى بساتين المعانى.. واستشفّ الرحمة من فيوضات الأسماء وتجليات الصفات.

وإلى الاسم الجديد إن شاء الله تعالى.

* * *

(٢٥) تفسير القرطبى.

(٢٦) سورة الأنعام الآية ٦٥.

٧١ - المقـدم

٧٢ - المؤخـر

قلت: ما هو الاسم التالى بعد - القادر المقتدر - ؟

قال: الاسمين الكريمين التاليين هما - المقدم والمؤخر -.

قلت: وما معنى اللفظين فى اللغة؟

قال: تقدّم واستقدم بمعنى السبق الزمانى والمكانى.. يقول تعالى: ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[١] ومنه قوله تعالى لنبيّه - ﷺ - فى أول سورة الفتح: ﴿إنا فتحنالك فتحا مبينا ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ هذا من حيث الزمان.. ومن حيث المكان يقول تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾[٢] أى يكون أمامهم فى الطريق إلى جهنم.. ومنه نقول: قُدّام بمعنى أمام. والجماعة المتقدمة فى الجيش يقال عنها مقدمة الجيش.

والإقدام: فى الحرب.. يقول عنترة العبس:

ولقـد شفى نفـسى وأبـرأ سـقمهـا ... قيـل الفـوارس ويـك عنتـر أقْـدِمِ

ويقال: هو جرىء المَقْدِم والمقدَّم.. قال كعب بن مالك:

جـرىء المقـدَّم شـاكى السـلاح ... كـريم النشـا طيب المكسِـرِ

ومن المجاز أن نقول: اجعل ذلك تحت قدميك: أى اعف عنه. وجعل دماءهم تحت قدميه: أى أهدرها.

وجاء فى الحديث: «يلقى فى النار أهلُها.. وتقول: هل من مزيد.. حتى يأتيهَا ربُّنا فيضع قدمه عليها فتنزوى وتقول: قَطْ قَطْ» أى فيُسكِنُها ويكسرُ سَوْرتها.. كما يضع الرجل قدمه على الشىء المضطرب فيسكنهُ. كما نقول: لفلان قدمٌ فى هذا الأمر.. وله قدمُ صدق.. قال ذو الرُّمّة:

لكم قَدَمٌ لا ينكر النـاس أنها ... مع الحَسَب العادىّ طَمَّتْ على الفخر

والتقدُّمية عكس القهقرى.. يقول ابن عباس - رضى الله عنه: «إن ابن العاص مشى التقدمية. وإن ابن الزبير مشى القهقرى». ومنه قول عبد الله بن الزبير:

مشى ابن الزبير القهقرى وتقدمت ... أميّـةُ حتى أحـرزوا القصبـات[٣]

قلت: هذا من حيث اللغة.. فما معنى - المقدم المؤخر - بالنسبة إلى الذات الإلهية.. وأنا لم أجد هذين الاسمين فى كتاب الله؟

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٢) سورة هود الآية ٩٨.

(٣) من أساس البلاغة للزمخشرى فى - قدم -.

قال: لم يرد هذان الاسمان فى كتاب الله.. ولكنهما من أسماء الله تعالى.. وقد ورد بهما الخبر.. ومعناهما: تقديمه تعالى بعض الأفعال على بعض.. وتأخير بعض الأفعال عن بعض.. إما فى الزمن.. وإما فى الدرجة والمرتبة. فهو – سبحانه – الذى قدّم المتقدم وأخر المتأخر.. لحكمة يعلمها.. وإرادة ينفذها.. والاسمان يعملان فى مجالى الاسم – العليم – بسلطان – الاسم – الحكيم – سواء كان ذلك فى الأفعال.. أو الأجيال.. أو الشرائع والمناسك.

قلت: هل من الممكن ضرب مثل يقرب هذا المعنى إلى الأذهان؟

قال: سأضرب لك المثل الأعلى فى هذا المعنى: فالدين واحد من لدن – آدم – إلى الرسول الخاتم – عليهما الصلاة والسلام – ولكن الله تعالى قدّم أبسط المناسك فى المنهج العبادى.. وأخّر أكملها حسب تتابع عصور البشرية.. فبدأ بالاستغفار من لدن نوح إلى هود وصالح – عليهم الصلاة والسلام – فيقول نوح لقومه: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا ❋ يرسل السماء عليكم مدرارا ❋ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾(٤).

وهذا هود يقول لقومه: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾(٥).

وهذا صالح يقول لقومه: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾(٦).

ثم تدرج الله مع البشرية من إبراهيم إلى موسى وعيسى – عليهم الصلاة والسلام.. فكانت للدين فى عصورهم أركان من عبادات كالصلاة والصيام والتحليل والتحريم.. ولكنها على غير درجة الكمال.

ثم أخّر أكمل العبادات.. لتكون فى خاتم الرسالات على يد – محمد – عليه الصلاة والسلام. وكان من حقه أن يقول للبشرية كلها: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(٧).

ولفظ ﴿أكملت﴾ فى الآية.. يدل على أن الدين كان موجودا.. ولكنه لم يكن قد بلغ مرتبة الكمال.

قلت: إذن لا معنى لكلمة – الأديان – التى يتداولها العامة والخاصة – ما دام الدين واحدا.

قال: فى الحقيقة لست أدرى من أين أتى الناس بكلمة الأديان وقد أشبعت القرآن الكريم بحثا عن هذا اللفظ – فالقرآن هو المصدر الأول للغتنا العربية – فلم أجد لفظا واحدا بهذا النص.. ولم أجد غير لفظ الدين.. حتى فى المواقع التى كانت تحتمل هذا اللفظ.. مثل قوله تعالى: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾(٨) فلو كان لفظ – الأديان – واردا فى اللغة.. لقال: ليظهره على الأديان كلها.

إن الدين واحد.. لأنه من مصدر واحد.. ولكن الله تعالى.. وهو المقدّم والمؤخّر.. قدّم الأبسط وأخّر

---

(٤) سورة نوح الآيات ١٠ – ١٢.
(٥) سورة هود الآية ٥٢.
(٦) سورة هود الآية ٦١.
(٧) سورة المائدة الآية ٣.
(٨) سورة التوبة الآية ٣٣.

الأكمل.. ليكون الكمال مع آخر رسالات السماء.. ولتكون أكمل الرسالات.. لأنها إلى الناس كافة. ومن هنا يتضح معنى الحديث.. الذى ضرب فيه رسول الله - ﷺ - مثله ومثل النبيين من قبله.. كجدار متين جميل محكم.. ولكن يوجد فيه موضع لبنة.. ثم قال - عليه الصلاة السلام: «فأنا هذه اللبنة».

قلت: وهل للاسمين الكريمين - المقدم والمؤخر - تجليات على البشر بصفة عامة؟

قال: أشرنا من قبل إلى أن التقديم والتأخير يتعلق بالدرجة والمرتبة.. فالاسمان يعملان أحيانا فى فلك الاسمين: الخافض والرافع - فيرفع أقواما ويخفض آخرين.. فطائفة من الناس قدمهم لطاعته وعبادته.. فهؤلاء رفعهم.. وطائفة أخرى أخّرهم لماضى إرادته ونافذ مشيئته.. وهؤلاء خفضهم.. وقال تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾[9] وإن أولياء الله منهم من يتقدم بجهده وعبادته.. ويحاول ألاّ يتخلف عن مراقبة الله ومرافقته فى غالب أوقاته.

وقد قيل لبعض العبّاد: نراك تجتهد أكثر من المطلوب فى عبادتك.

فقال: ومن أولى منى بالجهد.. وأنا محتاج أن ألحق بالأبرار والكبار من السلف.. وقد قال الله تعالى: ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾[10]. وفى هذا المعنى قال الشاعر:

السباقَ السباقَ قولا وفعلا ... حذِّر النفس حسرةَ المسبوق

والمؤمن دائما يعتقد أنه متأخر مقصّر فى عبادة مولاه. وقد قال بعض الأئمة - العارف شريف الطلب. قالوا: وما شرف طلبه؟ قال: لا يجاوز بهمّته واجتهاده طلب المغفرة.. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾[11].

وقد خرج بعض المقربين يوما على أصحابه. فقال لهم: لقد تجاسرت البارحة على الله.. فسألته الجنة. وفى هذا المعنى قال الشاعر:

ومـا رمت الـدخـول عليه حتى ... حـلَلْتُ محلّة العبـد الـذليـل
وأغضيتُ الجفـون على قـذاهـا ... وصُنتُ النفس عن قـال وقيـل

قلت: فما بالنا نطلب من الله مُلحّين فى الطلب أن يعطينا من مفاتن الدنيا وزخارفها وزينيتها؟

قال: إن الكريم لا يرضى منك أن تطلب منه شيئا حقيرا.. فإنك إن طلبت الدنيا كلها بمفاتنها الستّ المعروفة: النساء.. والبنين.. والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة.. والخيل المسومة.. والأنعام.. والحرث.. وحقق لك كل ما طلبت.. فإنك فى الواقع لم تطلب منه إلا شيئا حقيرا.. أخبرنا رسولنا - ﷺ - بأنه أقل من جناح بعوضة.. عندما قال: «لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء». إن الله تعالى يريد أن تطلب منه شيئا ذا قيمة.. كالعفو والعافية.. وصلاح البال وحسن المآل.. أما الرزق.. فقد تكفل هو به من غير حاجة إلى سؤالك.. فقال جل شأنه: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا﴾[12] فرزْقك فى الحياة الدنيا مقسوم ومحدود

---

(٩) سورة الحجر الآية ٢٤.
(١٠) سورة المطففين الآية ٢٦.
(١١) سورة آل عمران الآية ١٤٧.
(١٢) سورة الزخرف الآية ٣٢.

ومقدور.. من قبل أن تأتى إليها حين أن كنت روحًا مجردا. وما عليك إلّا أن تعمل لتصل إلى ما قدره الله لك من الرزق.. فقد أقام الدنيا على الأسباب.

قلت: ما دمنا مع الاسم - المقدم - فهل لفظ قدام يفيد معنى الأمامية.. ووراء يفيد معنى الخلفية؟

قال: هذا ما يعتقده الكثير من الناس.. وهو مفهوم خاطئ.. لأن قدام ووراء تؤديان معنى الأمامية.

فلو نظرنا إلى قوله تعالى حكاية عن صاحب موسى - عليهما السلام -: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾(١٣) وإلى قوله: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾(١٤) وإلى قوله: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا﴾(١٥) وإلى قوله: ﴿من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئًا﴾(١٦) وإلى قوله على لسان زكريا - عليه السلام: ﴿وإنى خفت الموالى من ورائى﴾(١٧) وغير هذه الآيات كثير.. وفيها كلها لفظ - وراء - يفيد معنى الأمامية.. وليس الخلفية وحتى فى التعبيرات العادية أقول: ورائى عمل كثير.. بمعنى أمامى. ونجد أن الله تعالى عندما يريد أن يؤدى لفظ - وراء - معنى الخلفية يذكره بعد إضافة لفظ آخر إليه فى مثل قوله تعالى: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾(١٨) وقوله: ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾(١٩) وقوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحيا أو من وراء حجاب﴾(٢٠) وقوله: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾(٢١) وقوله: ﴿لا يقاتلونكم جميعا إلّا فى قُرًى محصنة أو من وراء جدر﴾(٢٢) فنجد أن كلمة - وراء - فى جميع هذه الآيات أيضا يؤدى معنى الأمامية: أمام ظهورهم.. وأمام الحجاب.. وأمام الحجرات.. وأمام الجدر. وكانت كلمة - وراء - محل نقد فى بيت من الشعر.. قاله أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته الميمية - نهج البردة.. هو:

صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفُز بحبيب الله يأتمم

فإذا كانت وراء تفيد معنى الأمامية.. فقد هُدم البيت.. فكيف يكون بناؤه؟.. قالوا: بناؤه: «وقام خلفك منهم كل ذى خطر..» وفى هذه الحالة يؤدى اللفظ معنى إقام الصلاة.. وهذا أبلغ كما جاء فى تلك القصيدة - نهج البردة - بيت آخر فيه خطأ علمى.. وهو.

جُبْتَ السماوات أو ما فوقهن بهم ... على منوّرة درية اللجم

يقصد بالمنورة - درّية اللجم - البراق.. وهذا خطأ علمى.. لأن البراق كان على سطح الأرض فقط فى مرحلة الإسراء بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى. أما المعراج فلم يكن فيه براق. ونحن نلتمس العذر لأمير الشعراء.. لأنه شاعر وليس بعالم دينى. ولعلنا بهذا نكتفى بالتعليق على الاسمين الكريمين: المقدم والمؤخر.

قلت: أليس الإنسان يتقدم أو يتأخر بعلمه وعمله؟

---

(١٣) سورة الكهف الآية ٧٩.
(١٤) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.
(١٥) سورة الإنسان الآية ٢٧.
(١٦) سورة الجاثية الآية ١٠.
(١٧) سورة مريم الآية ٥.
(١٨) سورة آل عمران الآية ١٨٧.
(١٩) سورة الأنعام الآية ٩٤.
(٢٠) سورة الشورى الآية ٥١.
(٢١) سورة الحجرات الآية ٤.
(٢٢) سورة الحشر الآية ١٤.

قال: الإنسان لا يتقدم ولا يتأخر بعلمه وعمله.. بل يتقدم بتقديم الله إياه.. وكذلك المتأخر.. وقد صرح الله – تعالى – بذلك فى قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾(٢٣) هذا عن المتقدمين.

وقال عن المتأخرين: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم﴾(٢٤). وهنا على العبد أن يلوذ باسم – الرحيم – ليتعامل مع المقدم المؤخر فى مجالى الرحمة.. وقد قال – عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله».. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟.. قال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمدنى الله برحمته».

وإن من سبق عليه الحكم والقضاء.. لم ينفعه الجهد والعناء.. فنسأل الله تعالى حسن العاقبة.

قلت: وما حظ العباد من اسمى: المقدم والمؤخر؟

قال: الذاكر باسم – المقدم – تتفاعل روحه مع الاسم.. فيقدم الأهمّ فالمهم من شئون الدنيا.. ولا يؤخر شيئاً من أمور الآخرة.. واعلم أن الروح بفطرتها تميل للطاعات.. لأن مصدرها من عالم الأمر. عالم السماء.. عالم النور.. أما النفس البشرية فهى تميل للشهوات.. لأنها خلقت من الطين.. والدنيا جيفة.. فمن أرادها صبر على مزاحمة الكلاب.. والأسود لا تقع على الجيف أبدا. وإلى الاسم التالى إن شاء الله تعالى.

* * *

(٢٣) سورة الأنبياء الآية ١٠١.

(٢٤) سورة السجدة الآية ١٣.

٧٣ - الأول
٧٤ - الآخـر
٧٥ - الظاهر
٧٦ - الباطن

قلت: وما هو الاسم التالى بعد الاسمين الكريمين: المقدم والمؤخر؟

قال: بعد المقدم والمؤخر تأتى كوكبة من الأسماء الكريمة.. تلاحمت فكونت تاجًا كريما على مفرق الكون كله.. يرمز إلى الأولية والآخرية.. والأزلية والأبدية.. والظهور والبطون. فهو: ﴿الأول والآخر والظاهر والباطن﴾.

قلت: وما علاقة هذه الأسماء ببعضها؟

قال: هذه الأسماء الأربعة.. تابعة لسلطان اسم - الرحمن - هذا الاسم الذى يقوم عليه العرش والمعروشون.. والخلق والمخلوقون.. والتدبير والمدبَّرات - بصيغة اسم المفعول -. فتجليات الاسم - الظاهر - صادرة من مقدَّرات ومدبَّرات الاسم - الباطن - ويكون المقابل لاسم - الباطن - هو اسم - الأول - لأن البطونَ أولٌ قبل الظهور.. ويكون المقابل لاسم - الظاهر - هو اسم - الآخر - لأن الظهورَ آخرٌ بعد البطون.

والله تعالى من حيث ذاته: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾[(١)].

قلت: ما زال مفهوم البطون والظهور فى حاجة إلى توضيح.

قال: جميع المخلوقات فى الكون كانت موجودة أزلا فى عالم البطون فى مجْليات الاسم - الباطن - ثم دُبِّرت وقُدِّرت فخرجت إلى عالم الظهور فى مجليات الاسم - الظاهر - هذا الاسم الذى يعمل معه اسم - الخالق - وإليك المثل من نفسك أيها الإنسان.. فاقرأ قوله تعالى عن الإنسان.. فى سورة الإنسان: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾[(٢)] أى أنه كان موجودا فى عالمْ البطون.. فى مجليات الاسم - الباطن - ولكنه لم يكن شيئًا مذكورا فى عالم الظهور: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا﴾[(٣)].

ويظهر فى تلك الآية عمل الأسماء - الخالق - والسميع - والبصير.. لإظهار الإنسان من عالم البطون إلى عالم الخلق والظهور بتجليات الاسم - الظاهر.. فكان إنسانا مخلوقا ظاهرا سميعًا بصيرًا معدًّا للابتلاء والاختبار فى تلك الفترة المؤقتة.. فترة الحياة الدنيا: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾[(٤)]. فبالسمع والبصر والفؤاد يستطيع أن يهتدى إلى طريق الشكر.. الذى يؤدى به إلى حياة

---

(١) سورة الحديد الآية ٣.
(٢) سورة الإنسان الآية ١.
(٣) سورة الإنسان الآية ٢.
(٤) سورة الإنسان الآية ٣.

السعادة الأبدية.. بعد تلك الحياة المؤقتة. فإن عمى بصرُه.. وصمّت أذنُه.. وران على قلبه حجاب الظلمات الكثيف بسبب الخطايا والأوزار.. أدى به ذلك إلى حياة الشقاوة الأبدية: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[5] أرأيت كيف، كان الإنسان إنسانا فى عالم البطون.. فى مجالى اسم - الباطن - ثم خلقه الخلاق القادر البديع المصور السميع البصير.. ليكون كائنا فى عالم الظهور.. فى مجالى الاسم - الظاهر -؟

وهكذا جميع المخلوقات كانت باطنة بالاسم - الباطن - ثم دُبِّرت وقُدِّرت وخُلقت.. فدخلت فى مجالى اسم - الظاهر -.

قلت: معنى هذا أن كل المخلوقات فى السماوات والأرض.. كانت فى عالم البطون.. ثم خلقت وظهرت فى عالم الظهور؟

قال: نعم.. ألم تر كيف خلق الله تعالى - آدم - عليه السلام - وعلمه الأسماء كلها.. وعندما يقول الله تعالى: ﴿الأسماء كلها﴾ فمعنى هذا أن الله عرض على آدم جميع المخلوقات والمصنوعات أيضًا.. لأن كل اسم إنما يدل على مخلوق أو مصنوع.. هذا لمن شاء أن يفهم أن المخلوق هو ما خلقه الله.. وأن المصنوع هو ما صنعه الإنسان.. وإن كانت الحقيقة أن المصنوعات كلها من خلق الله أيضًا.. اقرأ قوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[6].. أى خلقكم وخلق أعمالكم. واقرأ أيضًا: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾[7] ينفى - سبحانه - أن أيديهم هى التى صنعت تلك الثمرات.. وإنما كله من صنع الله.

ثم اقرأ قوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[8] لم يقل - سبحانه - أفرأيتم ما تزرعون.. وإنما قال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ فالفلاح يحرث الأرض فقط.. وإنما الزارع هو الله - جل شأنه -. ونعود إلى آدم - عليه السلام - وقد علمه الله تعالى اسم كل شىء.. كل مخلوق ومصنوع.. من لدن آدم إلى يوم القيامة.. فعلمه حتى المكتشفات التى ظهرت إلى الآن.. والتى لم تظهر بعد.. رآها آدم - عليه السلام - وعرفها بأسمائها.

وعجزت الملائكة عن معرفة شىء منها.. لأنها أمور وأشياء غيبية بالنسبة إلى الملائكة.. اقرأ قوله تعالى بعد أن قال: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[9] قال: ﴿ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾[10] أى عرض كل المخلوقات والمصنوعات على الملائكة وسألهم عن أسماء هذه المخلوقات.. فماذا قالت الملائكة؟: ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾[10] وكانت تلك المخلوقات فى عالم البطون - فى مجالى الاسم الباطن - ثم أخذت إرادة الله القادر الخلاق فى تخصيص وتنفيذ إظهارها فى مجالى الاسم - الظاهر - وما زال فى عالم البطون أشياء كثيرة سوف تظهر بتجليات الاسم - الظاهر - إلى يوم القيامة.. بل وفى الآخرة أيضًا.. لأن الاسمين

---

(5) سورة الإسراء الآية ٣٦.
(6) سورة الصافات الآية ٩٦.
(7) سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٥.
(8) سورة الواقعة الآيتان ٦٣، ٦٤.
(9) سورة البقرة الآية ٣١.
(10) سورة البقرة الآية ٣٢.

- الباطن والظاهر - اسمان متعلقان بالذات.. وأسماء الله تعالى وصفاته أزلية أبدية.. لا أوّل لها ولا آخر.. وإن العلماء الذين اكتشفوا المصباح الكهربى.. أو القاطرة البخارية.. أو المذياع والتلفاز.. أو غيرها من المكتشفات الحديثة.. كانت كل هذه الأشياء كامنة فى نفوسهم فى مجليات - الباطن - ثم أظهرها الله تعالى على أيديهم فى مجليات اسم - الظاهر.

وما زالت هناك مكتشفات كامنة فى نفوس بعض البشر.. وباطنة بها باسم - الباطن - حتى تخصص الإرادة الإلهية إبرازها إلى الوجود باسم - الظاهر - فى حينها المعلوم المقدور.. وكل هذه الأمور تجرى فى فلك الاسم العليم - الم تر أن الله يقول: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[١١] فهو سبحانه عليم بالبواطن قبل إظهارها - وبالظواهر بعد إبرازها.

قلت: تحدثتنا عن الاسمين - الظاهر والباطن - وما زال الحديث قاصرًا عن مناقشة الاسمين: الأول والآخر.. فما معنى الأولية والآخرية.. أو الأزلية والأبدية.. كما ذكرت من قريب؟

قال: الأزلية والأبدية تساوى الأولية والآخرية.. وكلتاهما نسبتان منتزعتان من قياس الإنسان الأمور بمقياس نفسه.. وإن المعنى المراد بالأزلية.. هو قيام الوجود الذاتى الإلهى.. وهو سبق وجود الله تعالى على وجود الأكوان.

والسبق عند الحكماء اقتضاء ذاتى.. بمعنى أن الصانع سابق على وجود المصنوع لاستحالة وجودهما معا فى وقت واحد وقد نشأت هذه القضية عن قياسنا نحن على أنفسنا.. لأن لنا أولا وآخرا.. فأردنا تنزيه الله تعالى عن مشابهتنا.. فقلنا إنه قديم أزلى.. يعنى لا أول له.. لأن الذى لا أول له.. ولا شيء قبله.. يكون هو - الأول - اقتضاء ذاتيا.

والذى لا أول له.. لا يكون له آخر.. لأن نفى البداية يقتضى نفى النهاية؛ فهو إذن - الآخر.

ومتى كان هو الأول والآخر.. تعيّن التزاما أن يكون هو الظاهر والباطن وإن كلا من الظهور والبطون نسبىّ ناشيء عن الفطرة التى طُبع عليها الإنسان بجبلته وميله إلى القياس والحد والرسم والصور فى جميع القضايا المنطقية.. والمقدمات القياسية.. من درجة إلى ما يليها من درجات القياس.. لاستنتاج النتيجة من مقدمات صحيحة. فالإنسان بذاته مجموعة نسب قائمة على لطائف عقلية تحدد ماهية كل شيء..

أما من ناحية الله - جل شأنه وتعالى عن النواحى - فما ظهر لغيره.. ولا بطن عن نفسه.. ولكنه يخاطب بهذا عباده الذين يحيون بتجليات الأسماء.. فى الصباح والمساء: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾[١٢] فإذا استعرضنا مثلا صفة الليل لتحديد ماهية البطون.. والبطون خفاء.. كان منشأ قياسنا على الظواهر غير ذات اللون.. التى نسميها ظلاما: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾[١٣] ولكن الله تعالى فوق الزمان والمكان.. والنور والظلام.. من حيث الذات المطلق - حتى عن قيد الإطلاق نفسه - ويستحيل أن يكون فى بطونه خفيا.. أو يكون فى ظهوره مُسْفِرًا مشرقا.. وإنما هذا كله فى دوائر القياس الفطرى.. والنظر العقلى.. والعقل من شأنه اعتقال الحقائق وتعريفها

(١١) سورة الحديد الآية ٣.
(١٢) سورة الروم الآية ١٧.
(١٣) سورة يس الآية ٣٧.

بالماهية الذاتية: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[١٤]. ولن يستطيع العقل أن يصل إلى وصفه تعالى.. لأن الوصف يكون صادرا ممن لم يؤت من العلم إلا قليلا.. ولا يستطيع العقل البشرى أن يدعى أى دعوى صادقة.. إلّا إذا أقام عليها دليلا.. وتلك كلها قيود تكبح جماح العقل.. فكيف للمقيدّ أن يحتوى المطلق أو يحيط بذاته؟

ومن الباطل بداهة إمكان إحاطة شيء بمن هو بكل شيء محيط.. هذا فساد فى القياس.. يلزم منه استحالة الوصول إلى تعريف صادق.. أو دعوى صحيحة عن ذات الله سبحانه.. وهو الذى يقول: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[١٥]. وقال عزالدين شعرا فى هذا المعنى:

فكيف يحيط العقل وهو صنيعه ... وكان وفيه العقل بعْدُ جهولا
يبادى وشمس الحق تبهر عينَه ... ويطلب عن ذات الضياء دليلا
ألا إن ربى ظاهر باطن معا ... وهذان إن شئتنا إليه سبيلا
وهل يطلب العبد الجهول إحاطة ... وما نال من سر الحياة فتيلا
وعجزى عن الإدراك.. إدراك موقفى ... كما عجزت جند السماء قبيلا

قلت: وما رأى علماء الغرب والشرق - من غير المسلمين - فى مثل تلك المفاهيم؟

قال: يكفى أن أذكر لك عبارات صدرت من أحد أساطين علماء الغرب.. حيث قال سديو: اللهم ما أكبرك.. فمن ذا الذى تجاسر وسماك لأول مرة؟.. إن محاولة إدراك أسرارك بمسابير - بمجسّ - العقل الاعتبارى القاصر.. هذه المحاولة جريمة لا تغتفر.. فأنت أنت علىٌّ.. تعلم ذاتك.

ومن أمثال هذا كثير مما كتبه الباحثون.. والمقام لا يسمح بذكر كل ما قالوا.. فقد كتبوا عن عجز البحث.. إذا هو حاول أن يكون موضوعه ذات البارى - جل وعلا - لأن الباحث نفسه يجب أن يبحث بين خفايا نفسه.. كيف أنه يبحث؟.. ثم كيف يسمع ويرى؟. فمتى أدركه العجز عن فهم ماهيته هو بذاته.. فمن الإنصاف أن يعلم أن البحث فى أسرار الذات العلية ضرب من الجنون.. أو هى طرقات محمومة على أبواب الأسرار العليا.. التى كان بها الباحث باحثا.. والمدرك مدركا.. والبصير بصيرا. فلولا تلك الأسرار العليا ما كان الباحث السميع البصير المدرك الخبير.

لقد مرت المدارس اليونانية ابتداء من مدرستى أنكس مينس وأنكس ماندر.. إلى مدارس فيثاغورس وسقراط وأرسطوطاليس وأفلاطون وما تلاها بنفس هذه القضية - قضية الوجود - وماهيات الحقائق ومثلها العليا.

وتخللت تلك الفترات المتتابعة حيرات داجية.. هل الوجود هو الماء؟.. أم هو العدد؟ أم هو الذرات؟ أم هو الهواء؟.

فماذا أنتجت بحوث المدارس اليونانية.. وفلسفات الإغريق؟.. إنها كلها ما زالت تتيه فى الحيرة.. حتى ظهر أخيرًا أفلوطين الإسكندرى.. فرأى أن آراء المدارس الإغريقية متفقة فى وحدة الوجود.. ولكن مجموع هذه الوحدة إنما هو الإله الواحد المهيمن على ظواهر الأمور وبواطنها.

* * *

(١٤) سورة الصافات الآية ١٨٠.

(١٥) سورة البقرة الآية ٢١٦.

هذا عن بحوث الغرب.. أما فى الشرق فالأمر المشهور أنّ تطُوّح العقائد كان فى الشرق أوسع نطاقا وأبعد مدى.. وقد أشار الفيلسوف الإنجليزى - توماس كارليل - فى المحاضرة الأولى من كتابه - الأبطال - إلى ما كان فى الشرق من عبادة الإنسان.. متى أمتاز على الآخرين فى القوة والبدن والجمال.. وكيف كانت تعبد الطواطم وظواهر الطبيعة.. كالعواصف والرعود والأعاصير والنار والحيوان.. وكيف كان يمثّل ذلك كله بالتماثيل وتنصب فى الميادين.. وتقام بين يديها النصب لتنحر عليها القرابين.

* * *

وجاء الإسلام الحنيف الذى أكمله الله - تعالى - دينًا قيما لمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - ليقول للحائرين فى مشارق الأرض ومغاربها حول البحث فى ذات الله - جل وعلا: ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾[16] ثم نفى الإدراك الشهودى نفيا قاطعا خالصا من الجدل والثرثرة: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[17] ثم أشار - سبحانه - إلى اختلاف بنى البشر.. فى قوله لرسوله - ﷺ: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾ والغيب: هو الباطن.. والشهادة: هى الظاهر.. ثم قال: ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾[18].

وهكذا أرسلت آيات الكتاب الحكيم أشعتها النفاذة على فلسفات الجن والإنس.. فى المشرق والمغرب.. وندَّدت بما اندفع إليه تطفل العقل البشرى من محاولة استكناه الأسرار الكبرى المختبئة خلف مظاهر الكون.. علوية وسفلية.. وقرعت أقفية الزنادقة بصفعات عريضة عندما قال - جل شأنه: ﴿والسماء ذات الحبُك * إنكم لفى قول مختلف * يؤفَك عنه مَن أُفك * قُتل الخراصون * الذين هم فى غمرة ساهون * يسألون أيان يوم الدين * يوم هم على النار يُفتنون﴾[19]. إن وراء ظواهر الأشياء بواطن تحمل أسرارا دقيقة.. وحكما خفية عميقة لا يدرك كنهها العقل البشرى.. ولا يصل إليها الفكر الإنسانى.. وما هذه الأجسام الظاهرة إلّا مظاهر للقوة العليا.. تتستر خلفها الروح أو النفس التى هى السر الإلهى فى الإنسان والكون.. ومحاولة الكشف عن الأسرار لا يمكن تحقيقها.. لأننا جزء من هذه القوة العليا.. وقد منحنا الله - تعالى - عقولا هى فى الحقيقة نفحة من ضنائن[20] أسراره.. وقلوبا هى قبس من فيوض أنواره.. والله إنها لهمهمة ترتجف عندها القلوب.. وقدرة تحتار أمام عظمتها البصائر والعقول.

يقول تعالى: ﴿ما خلْقكم ولا بعْثكم إلا كنفس واحدة﴾[21]. فإن هذا العالم - من أعلى الفلك المحيط الأعلى.. إلى منتهى مركز الأرض السفلى - وحدة واحدة متكاملة.. لها جسم واحد.. تسرى فيه نفس واحدة وجوهر واحد.. فالله - تعالى - هو الباطن المحتجب عن عيون خلقه لشدة ظهوره.. باطن بكنه ذاته عن إدراك العقول والأفهام.. فهو القوة القدسية الباطنة من وراء هذا الكون الرهيب العجيب.

---

(١٦) سورة الشورى الآية ١١.
(١٧) سورة الأنعام الآية ١٠٣.
(١٨) سورة الزمر الآية ٤٦.
(١٩) سورة الذاريات الآيات ٧ - ١٣.
(٢٠) نفائس.
(٢١) سورة لقمان الآية ٢٨.

سبحانه.. هو أول .. هو آخر.. هو ظاهر هو باطن.

قلت: وما نصيب العبد من تلك الأسماء؟

قال: يرى بعض الشيوخ الذكر بها كلها مجتمعة.. بأن تقول؛ (يا أول.. يا آخر.. يا ظاهر.. يا باطن).. ولها تأثير فى النفس عجيب. فقد كتب الفخر الرازى: سمعت والدى رحمه الله يقول: لما نزلت آية ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾ أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا.

وإلى اللقاء مع الاسم التالى إن شاء الله تعالى.

* * *

٧٧ - الـوالى
٧٨ - المتعالى

قلت: وما هو الاسم التالى بعد تاج الأكوان المركب من:. الأول والآخر والظاهر والباطن؟

قال: يلى تلك الكوكبة الأسمائية الاسمان: الوالى والمتعال.

قلت: وهل ورد هذان الاسمان فى القرآن الكريم؟

قال: هذان الاسمان بالنص لم يردا فى القرآن الكريم.. إلا مرة واحدة لكل منهما.. وفى سورة واحدة.. هى سورة الرعد.. يقول تعالى عن اسم - الوالى -: ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال﴾[1]. وقبل تلك الآية فى نفس السورة قال عن اسم - المتعال: ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[2].

قلت: وهل توجد علاقة بين الاسمين الكريمين: الوالى والمتعال؟

قال: العلاقة ظاهرة بين الاسمين الكريمين.. فالوالى لغة هو الحاكم.. فنقول هذا والى البلد.. وهم ولاة الأمر.. ورحم الله ولاة العدل. والحاكم لابدّ أن يكون متعاليا عن الهوى والغرض.

وبما أن الله تعالى واحد فى ولايته المطلقة.. لا شريك له فيها.. ألم تر أنه يقول: ﴿وما لهم من دونه من وال﴾.. كان جديرا بأن يكون متعاليا فى ذاته.. متساميا فى صفاته.. عظيما فى كبريائه وسلطانه.

ومن أجل هذا اقترن الاسمان: الوالى والمتعالى اقترانا ذاتيا.

قلت: أليس اسم - الوالى - هو نفسه اسم - الولى -؟

قال: لا.. إن لكل اسم من أسمائه تعالى هدفا خاصا.. ومجلى قائما.. وإلّا كان تكرارا عابثا لا معنى له.

فالولى: معناه الوكيل.. والولاية تؤدى معنى الوكالة.. فنقول هذا ولى اليتيم أو الصغير.. وهذا ولى الأمر.

أما معنى الوالى: فهو الحاكم المطلق.. صاحب السلطان الأعلى.. والهيمنة الكاملة على كل شىء. وجميع المخلوقات خاضعة خضوعا تاما إجباريا لسلطان - الوالى المتعالى - فالإنسان مثلا.. يعيش بين أمرين مجهولين.. بتدبيرٍ وتقديرٍ من الوالى المتعالى - جل شأنه - هما أمرُ البدء وأمر النهاية.

فهو لا يدرى قطعا كيف ولا متى ولد وجاء إلى الوجود.. لأنه لا يعلم ميلاده إلا بعد اطلاعه على تاريخ ميلاده.. لكنه لا يذكر مطلقا كيف كان ميلاده.. وهل كانت ولادته ولادة طبيعية أو نتيجة لعملية قيصرية.. ولا يدرى أنه كان يبكى.. وهل كان بكاؤه لحزن اعتراه.. أو نكبة أصابته؟

نعم هو يجهل تماما الكيفية التى نزل بها من عالم الأرحام.. إلى أرض الدنيا.. ولم تكن فيه قوة إدراك

(١) سورة الرعد الآية ١١. (٢) سورة الرعد الآية ٩.

تمكنه. من معرفة الحالة التى كان فيها فى بطن أمه.. ولا اللحظة التى استنشق فيها أول نسمة من نسمات الحياة.. مع أن أهم أيامه فى حياته الدنيا.. هو يوم نزوله إليها.. وخروجه من ظلمة الرحم. هذا أمر مجهول عنده تمامًا.. وهو الآن بعد أن صار إنسانا مدركا يعلم أنه كان لا يعلم شيئًا.. ويؤكد أنه كان لا يرى ولا يحس.. ولا يتناول طعاما ولا شرابا.. ولا يتنفس هواء ولا يستعمل أى جارحة من جوارحه التى أعدها له الوالى المتعالى.. أعدها له فى غيب عنه.. ومن غير طلب منه.. فلم يكن يعلم أن له عينين للبصر.. وأذنين للسمع.. ويدين للعمل.. ورجلين للمشى.. ولكن الوالى بحكمته.. المتعالى بجلاله وعظمته.. هو الذى قدر له الأقدار التى سيمارسها.. وخلق له كل تلك الجوارح الظاهرة والحواس الباطنة مسبقا.. لأن الوالى – جل شأنه – حكيم عليم خبير.. فالإنسان يجهل كيف بدأ.. وهذا هو المجهول الأول. أما المجهول الثانى.. فهو لا يعلم كيف يكون أمر نهايته.. ولا متى ينتهى وإلى أين طريق المسير.. وكيف يكون المصير.

وحيث أن الإنسان لم يفعل شيئًا من أجل نفسه.. ولكنه انفعل انفعالا منبعثا من لدن الوالى المتعالى بفيض القوة الممنوحة له.. ومن أهمها – العقل – وهو بمثابة جهاز خاص يهيمن على سلطة القيادة والتوجيه لأنه أداة التمييز بين الضار والنافع.. وبين الخبيث والطيب.. وبين الحرام والحلال.. وبين التأخر والتقدم.. إلى غير ذلك من خواص القوى الإدراكية الممنوحة له.. وبهذا العقل استطاع الإنسان أن يعلم أنه أصبح يعلم ما لم يكن يعلم.

فله فى مثل هذا المقام.. وبقوة العقل نفسه.. أن يبحث عن جواب لذلك السؤال الهادىء الوديع الذى يطرح نفسه:

من أين جاءك العلم.. ولم تكن تعلم شيئًا؟.. لولا أن الوالى المتعالى قد آتاك من لدنه هذا الطلب.. ووجه فى ذاتك هذا السؤال الهام؟

إنك لا تستطيع أن تدعى أنك كنت تعلم.. كما لا تستطيع أن تنكر أنك بعد التمييز صرت تعلم.. فكيف كان هذا التطور فى ذاتك من ذاتك؟ إنك مضطر إلى الاعتراف بأن فيض العلم إنما ينصب عليك من الوالى العليم.. وأن هذا الخلق لا يمكن أن يتم إلا من المتعالى الخلاق البارئ الحكيم وأن ما فيك من قوى مختلفة وحواس فى الظاهر والباطن.. إنما هى من صنع عظيم.. على كل شيء قدير.

فإذا وصلت إلى هذا المستوى.. وبلغت هذا المقام.. لزم أن تكون قد سلمت بوجود الوالى المتعالى الخالق الحكيم العليم الخبير القدير.. وهذا هو زبدة التوحيد.. لأنك تكون قد وصلت إلى معرفة البر الكريم.

قلت: وما أثر الذكر بهذين الاسمين الكريمين؟

قال: هذان الاسمان يصلحان للذكر للولاة والمستخلفين فى شئون العباد.. فمن ذكر منهم بالاسمين.. كان عند الله مقربا مجابا.. وعند الناس مطاعا مهابًا.. كما يصلح الذكر باسم – المتعالى – للمستضعفين. فيرتفع ذكرهم.. ويعلو شأنهم.. ومن أراد السطوح فلابد من السلّم. والذكر بهذين الاسمين.. يوجد فى النفس التواضع لله.. وشدة الخوف منه.. وقد قال رسول الله – ﷺ: «بئس عبدٌ تخيَّل واختال.. ونسىَ الكبيرَ المتعال» وإلى اسم – البَرّ – إن شاء الله تعالى.

* * *

٧٩ - البَرّ

قلت: هل اسم - البَرّ - من أسمائه تعالى؟

قال: نعم.. جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البَرّ الرحيم﴾(١).

قلت: وما معنى البَر فى اللغة؟

قال: البِرّ ضد العقوق.. والأصل فيه الإحسان.. ونقول: الولد بار بوالديه.. والأم برّة بولدها.. وبرّ فى يمينه: أى صدق.. وتبارُّوا: أى تفاعلوا من البر.. وفى المثل: - لا يعرف هِرًّا من بِرٍ - أى لا يعرف من يكرهه ممن يبره.. والبَرّ: ضد البحر.. والبريّة: الصحراء وجمعها برارى.. البُر: أى القمح.. ولها معان أخرى لا تهمنا فى هذا المقام.

قلت: وما معنى البر بالنسبة إلى الله تعالى؟

قال: البَرّ: هو الذى كثر خيره بغير حدود.. ولا ينفكّ عطاؤه بغير قيود.. ولا ينقطع لطفه بأهل معرفته وطاعته. ومن آداب من عرف أن الله هو البَر.. أن يكون بارًّا بكل أحد.. وعلى الخصوص بأبويه.. فقد ورد الخبر عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «رضا الرب فى رضا الوالدين.. وسخط الرب فى سخط الوالدين». وقال أيضا: «برّوا آباءكم تبركم أبناؤكم» وروى أن موسى - عليه السلام - رأى رجلا فى منزلة عالية عند الله تعالى.. فقال: يارب بم بلغ هذا العبد تلك المنزلة؟.. فقال له: كان لا يحسد عبدًا من عبادى على ما آتيته.. وكان بارًّا بوالديه.

كما ضرب لنا الحسن بن على - رضى الله عنه.. المثل الأعلى فى البر بأمه فاطمة - رضى الله عنها - فكان لا يأكل معها.. فقالت له: لم لا تأكل معى؟ قال: أخشى أن يقع بصرك على شىء.. فأسبقك بأخذه ولا أشعر فأكون عاقًا لك.. فقالت: كل معى يا بنى وأنت منى فى حل.

وبر التليمذ بأستاذه يجب ألا يقل عن بر الابن بوالديه.. فالأب يحمى ولده من آفات الدنيا.. والأستاذ يحمى تلميذه من آفات الدنيا والآخرة.. والأب يربى ولده بماله.. والأستاذ يربى تلميذه بهمته وجلاله.

قلت: حدثتنى عن البر بالنسبة إلى الحياة والمجتمع.. وعلاقة الإنسان بغيره.. فما هو برّ الله بعباده؟

قال: إن برّ الله تعالى بخلقه.. لا يمكن حصره واستقصاؤه.. فنعم الله لا تعد ولا تحصى.. ولا تحدّ ولا تستقصى.

ونحن إذا استطعنا التحدث عن بره بخلقه بالنعم الظاهرة.. فلن نستطيع أن نتحدث عن برّه بهم

---

(١) سورة الطور الآية ٢٨.

بالنعم الباطنة: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[٢] كما قال: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾[٣].

ولكن لو علمنا أن حياة الدواب بجميع أجناسها - وهى مسخرة للإنسان - تسير بنسبة ثابتة من الناموس الكونى.. فإنها تنتج وتأكل وتشرب مما يأكل الناس والأنعام.. وهذه النسبة ثابتة فى أن الحياة تقوم على الغذاء والماء.. وأن الضمور والهزال يرتبط بالجوع والعطش. وهذا يدل على أن الله - البر - كان بارًّا أيضا بهذه الدواب العجماوات وبالطير فى جو السماء.. وبالمخلوقات المائية فى قاع البحار والمحيطات.. وغيرها من الأمم التى تعمر هذا الكوكب.. فى سهوله وجباله.. وأجوائه وأعماق بحاره.. فهى تجرى فى حياتها على نفس السنّة التى تعيش أنت عليها.. وهى مسخرة لك: ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾[٤] أما برّه تعالى بك أيها الإنسان.. فلمن تكون اللحوم الطرية فى البحار؟ ولمن يكمن فى أعماق تلك البحار من اللؤلؤ والمرجان؟ ولمن تكون تلك الطير الرحالة بين القارات من أكلة الحبوب والنبات والسمك؟ ولمن تكون هذه الأنعام ثمانية أزواج مختلفة فى طعومها وحجمها وأماكنها؟ ولمن تكون طبيعة الأرض فى معادنها وعناصرها وفلذّات جبالها الشامخة؟ ولمن تنبت عليها وتتخلل جبالها الغاباتُ والمزارعُ والحدائقُ والبساتين؟ نعم.. لمن كل هذا إذا لم يكن للإنسان؟ وذلك بعد أن منحه جسمًا كامل الأجزاء.. متناسق الأعضاء.. مستوفٍ لجميع الحواس الجسمية والروحية.. فجعل له السمع والبصر والفؤاد.. ليسمع ويرى. ويفكر ويعقل.. وتلك كلها نعم ظاهرة .. أما النعم الباطنة فهو وحده الذى يعلمها.

أما يكون صاحب هذا الفضل العظيم بَرًّا رحيما؟

ولو أن الإنسان سما ببصره وبصيرته إلى أعالى الآفاق لاستمع لتسبيح الطير فى جو السماء: ﴿كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه﴾[٥].. متمتعا بحريته فى غدوه ورواحه.. يحصل على نصيبه من الرزق نباتًا أو ديدانا فى غير جلبة ولا تناحر.. بعكس ما يحصل بين دول بنى البشر.

ولو توكل الإنسان على - البرّ الكريم - توكل الطير.. لرزقه ولأنزل عليه بركات من السماء والأرض.

أما نكون أبرارًا بطاعة البرّ الرحيم؟

قلت: وما معنى الأبرار.. لكى أحاول أن أكون بارا بربّى؟

قال: يقول البعض إن الإبرار هم الأطفال.. وهذا معنى خاطئ.. فالملائكة أبرار.. لقوله تعالى: ﴿بأيدى سَفَرة * كرام بررة﴾[٦] فالبار هو القائم بأعمال الخير والبرّ. وقد حدد الله تعالى لنا صفة الأبرار.. فى عشر صفات.. ذكرها فى قوله تعالى: ﴿ليس البرَّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ:

١ - من آمن بالله.

---

(٢) سورة لقمان الآية ٢٠.
(٣) سورة النحل الآية ١٨.
(٤) سورة الأنعام الآية ٣٨.
(٥) سورة النور الآية ٤١.
(٦) سورة عبس الآيات ١٥، ١٦.

٢ – واليوم الآخر.
٣ – والملائكة.
٤ – والكتاب.
٥ – والنبيين.
٦ – وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب.
٧ – وأقام الصلاة.
٨ – وآتى الزكاة.
٩ – والموفون بعهدهم إذا عاهدوا.
١٠ – والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس.

أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾(٧). تلك صفات الأبرار.. الذين يكون كتابهم معهم فى علّيين: ﴿كلّا إن كتاب الأبرار لفى علّيين * وما أدراك ما علّيون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفى نعيم﴾(٨).

قلت: يبدو مما ذكرت أن منزلة الأبرار منزلة عالية.

قال: نعم – ألم تر أن خير الدعاء: ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾(٩) ويقول تعالى: ﴿نُزُلًا من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾(١٠). ويقول أيضا: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾(١١) وغيرها من الآيات.

قلت: ألم يقترن اسم – البر – بأسماء أخرى؟

قال: البر رحمة من الله تعالى بخلقه.. ولهذا لم يقترن هذا الاسم إلّا باسم – الرحيم – فى قوله تعالى: ﴿إنا كنّا من قبل ندعوه إنه هو البرّ الرحيم﴾(١٢).

ومن دلائل رحمته – تعالى – أنه بجانب برّه بخلقه توّاب رحيم.

قلت: وما أثر الذكر بهذا الاسم؟

قال: على الذاكر بهذا الاسم.. أن يكثر من أعمال البر.. وأن يبرّ نفسه بكسر شهواتها.. ويبر خلق الله وأصحاب الحقوق عليه بالإحسان إليهم.. فالبخل والجبن غريزة واحدة سببها سوء الظن بالله.. وكان – ﷺ – يقول: «البرُّ لا يَبْلى.. والذنب لا ينسى.. والديّان لا ينام.. وكما تدين تدان» فالإسلام برّ ورحمة ومروءة وعطف وحنان. والذكر بهذا الاسم يوجد القبول والعز وعلو المرتبة والمنزلة. وإلى الاسم التالى – التواب – إن شاء الله تعالى.

* * *

(٧) سورة البقرة الآية ١٧٧.
(٨) سورة المطففين الآيات ١٨ – ٢٢.
(٩) سورة آل عمران الآية ١٩٣.
(١٠) سورة آل عمران الآية ١٩٨.
(١١) سورة الإنسان الآية ٥.
(١٢) سورة الطور الآية ٢٨.

٨٠ - التــواب

قلت: أعتقد أن اسم - التواب - ورد كثيرا فى كتاب الله.

قال: نعم.. ورد هذا الاسم الكريم بالنص فى كثير من المواقع القرآنية مقترنا باسم - الرحيم - وورد مرة واحدة مقترنا باسم - الحكيم - وورد مفردا فى آية واحدة.

فاقترانه بالرحمة فى مثل قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[1] وقوله: ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾[2] وقوله: ﴿وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾[3] وقوله: ﴿إلّا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾[4] وقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾[5] وقوله: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾[6] وقوله: ﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾[7] وغيرها من الآيات كثير. هذا عن اقتران اسم - التواب - بالرحمة.

أما عن اقترانه بالحكمة.. ففى قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾[8] وجاء مفردا فى قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كاَنَ توابا﴾[9].

قلت: وما معنى التواب فى اللغة؟

قال: التوبة فى اللغة: الرجوع عن الذنب. وتاب الله عليه: أى وفّقه لها. وتقول العرب: أدرك فلان زمن التوبة.. أى زمن الإسلام.. لأنه يتاب فيه من الشرك.. قال الشاعر:

دارُحَيٍّ كانت لهم زمن التو بـة لا عُـزَّلٌ ولا أَكْـفَـالُ

وكذلك ثاب بالثاء.. فيقال: ثاب اللبن فى الضرع إذا رجع إليه.

قلت: وما الحكمة فى اقتران التوبة بالرحمة فى كثير من الآيات؟

قال: اقترن اسم - التواب - بالرحمة فى المواقف التى يخطئ فيها العبد.. والإنسان بطبيعته مجبول على الخطأ.. فإذا أخطأ ثم تاب ورجع إلى الله.. سبقت رحمة الرحيم فقبل توبته وتاب عليه.. بتجليات الاسم - التواب - فى ظلال الاسم - الرحيم -.

فاقرأ مثلا فى آية الحجرات من أول قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٧.
(٢) سورة البقرة الآية ٥٤.
(٣) سورة البقرة الآية ١٢٨.
(٤) سورة البقرة الآية ١٦٠.
(٥) سورة التوبة الآية ١٠٤.
(٦) سورة التوبة الآية ١١٨.
(٧) سورة الحجرات الآية ١٢.
(٨) سورة النور الآية ١٠.
(٩) سورة النصر الآية ٣.

أن يكونوا خيرا منهم﴾[10] إلى آخر الآيات.. تجد أن الله تعالى بعد أن نهى عن الاستهزاء بالناس.. وعن اللمز والغمز والعيب والتنابز بالألقاب وسوء الظن بالناس والتجسس والغيبة.. قال: ﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾[11] واقرأ أيضا فى سورة النساء: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بارتكاب المعاصي والذنوب ﴿جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾[12] والآيات كثيرة حول هذا المعنى.

ومن أجل هذا نادى بها إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام. وجعلاها هى المطلب الخامس من المطالب الستة فى رفع القواعد الروحية للبيت:

١ - ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.
٢ - ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾.
٣ - ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾.
٤ - ﴿وأرنا مناسكنا﴾. أى أرنا منهج عبادتك.
٥ - ﴿وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾.
٦ - ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾.. إلخ الآيات[13] فكانت القاعدة الخامسة من تلك القواعد الروحية.. هى طلب التوبة من التواب الرحيم.

قلت: فى أول الآيات التى عرضتها فى أول هذا الاسم - قول الله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[14] فما معنى فتلقى آدم من ربه كلمات؟

قال: أخطأ آدم - عليه السلام - ومعه حواء.. وأكلا من الشجرة المحرمة.. التى نهاهما الله تعالى عن الأكل منها.. حيث قال لآدم: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾[15]. وأغراهما إبليس ليخرجهما من الجنة بقوله تعالى: ﴿قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾[16]. وأقسم لهما أنه لهما من الناصحين.. لقوله تعالى: ﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾[17] فصدقاه وأكلا منها.. يقول تعالى: ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾[18] ليسترا عوراتهما.

وأحس آدم - عليه السلام - بخطئه.. وندم فى قرارة نفسه.. والله أعلم بالسرائر.. ولكن آدم استحيى من ربه.. بعد مخالفة أمره فألهمه الله تعالى أن يقولا: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[19]. تلك هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه.. تلقيا إلهاميا.. فتاب عليهما.. إنه هو التواب الرحيم. وقد ورد أن آدم - عليه السلام - بعد ذلك قال فى مناجاته: (إلهى لم عاتبتنى.. وقد علمت أنى إنما أكلت من الشجرة طمعا فى الخلود.. لأبقى بجوارك)؟ فأوحى الله إليه: (لأنك رأيت الخلود من الشجرة.. فأشركت فى سرك وأنت لا تشعر).

---

(١٠) سورة الحجرات الآية ١١.
(١١) سورة الحجرات الآية ١٢.
(١٢) سورة النساء الآية ٦٤.
(١٣) سورة البقرة الآية ١٢٧ - ١٢٩.
(١٤) سورة البقرة الآية ٣٧.
(١٥) سورة البقرة الآية ٣٥.
(١٦) سورة طه الآية ١٢٠.
(١٧) سورة الأعراف الآية ٢١.
(١٨) سورة طه الآية ١٢١.
(١٩) سورة الأعراف الآية ٢٣.

قلت: وما معنى أن الله يأخذ الصدقات فى قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾(٢٠) وما علاقة التوبة بالصدقات؟

قال: إن الله تعالى يؤاخذ عباده وأحبابه بالبلاء الخفيف.. كلما زَلَّ أحدهم زلَّة.. أو هفا هفوة.. اقرأ قوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾(٢١) فأنا إن عثرت قدمى فى الطريق.. وشج إصبعى وسال منه الدم.. فلماذا ابتلانى الله بتلك العثرة.. وهى نوع من العذاب؟. إن الله تعالى لم يصبنى بها إلاّ لذنب ارتكبته - وقد أكون لا أدريه - فأراد - سبحانه - أن يجعل تلك العثرة تذكيرا لى بذنبى لأتوب.. وفى نفس الوقت تكون تكفيرا لهذا الذنب: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾(٢٢). ومثل قوله تعالى: ﴿كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾(٢٣) والصرُّ: هو الآفات التى تهلك الزرع.. أرسلها الله تعالى عليهم.. فأهلكت حرثهم.. لأنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصى والآثام.. ليتوبوا ويتذكروا.. وفى مثل قوله أيضا: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكرون﴾(٢٤). واقرأ كذلك إن شئت: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير﴾(٢٥) وغيرها فى هذا المعنى كثير. فالبلاء فى الدنيا يكون سببًا من أسباب التوبة من العبد ليتوب الله عليه. ولعلك تقول فى نفسك الآن.. إننى لم أتعرض لمحور سؤالك عن الصدقات وعلاقتها بالتوبة. فأقول لك: إن هناك بابا هاما.. يفضى بمن يدخله إلى محراب التوبة.. إذا صدقت نيته.. وصحَّت عزيمته.. وهو باب الصدقات على قدر الطاقة.. ولو بشق تمرة.. كما قال رسولنا - ﷺ - «اتقوا النار ولو بشق تمرة». فتقديم الصدقة عند التوبة والرجوع إلى الله - كلما زلَّ الإنسان أو هفا - تفتح باب القبول.. فالصدقات حسنات و: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾(٢٦) ويقول تعالى: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات﴾(٢٧). وقد ذكرها الله - تعالى - صريحة فى قوله - جل وعلا -: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم * خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾(٢٨).

قلت: هذا صحيح.. وقد بقى لى سؤال هام.. فقد ذكرت آية فى أول هذا البحث تقول: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾(٢٩). وكان المفروض أن يقول: ثم تابوا ليتوب عليهم!! فما معنى هذا؟

قال: إن لم تكن التوبة من الله فلا توبة.. وإذا لم يكن الهدى منه فلا هدى.. فتوبة العبد لا يمكن أن تكون إلاّ إذا تاب الله عليه أولا.. فتكون منه الهداية له ليتوب. وكذلك الحُب الذى يحصل به العبد على مقام المحبة. فمقام المحبة له شعبتان: عليا ودنيا. فالعليا: هى محبة الله لعبده - كأساس - والدنيا: هى محبة العبد لربه - كبناء -.

وعلى هذا تكون المحبة الإلهية للعبد سببًا لتوجه محبة العبد لربه.. كما يقول تعالى: ﴿فسوف يأتى

---

(٢٠) سورة التوبة الآية ١٠٤.
(٢١) سورة النساء الآية ٧٩.
(٢٢) سورة النساء الآية ١٤٧.
(٢٣) سورة آل عمران الآية ١١٧.
(٢٤) سورة التوبة الآية ١٢٦.
(٢٥) سورة آل عمران الآية ١٦٥.
(٢٦) سورة هود الآية ١١٤.
(٢٧) سورة المجادلة الآية ١٣.
(٢٨) سورة التوبة الآيات ١٠٢، ١٠٣.
(٢٩) سورة التوبة الآية ١١٨.

الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾[٣٠] فهو تعالى مصدر الحب.. يحبهم أولا.. فيحبونه ثانيا..

ويكون هذا هو مفهوم قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾[٣١] وعلى أساس من هذا المعنى يكون من كرم النفس أن تتوب على من أذنب نحوك.. بمعنى أن تعفو عمن أساء إليك.. كما تاب الله عليك وغفر لك ما ارتكبت من ذنوب وآثام. ولهذا يقول الشاعر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكمو وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

أفهمت معنى قوله تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾؟

قلت: نعم فهمت.. ولعل هذه الآية نزلت فى حق قوم من أصحاب رسول الله - ﷺ - فهل نطمع فى ذكر موجز حول قصتها؟

قال: سأوجز لك هذه القصة فى سطور: لقد نزلت تلك الآية فى حق بعض الصحابة.. الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله - ﷺ - فى غزوة - تبوك - وكانوا - رضى الله عنهم - خمسة: كعب بن مالك.. ومرارة بن الربيع.. وهلال بن أمية.. وأبو خيثمة السلمى.. وأبو ذر الغفارى.

فأما أبو خيثمة.. فإنه رجع إلى أهله فى يوم شديد الحرارة.. وذلك بعد أيام من رحيل جيش المسلمين.. وكان له زوجتان - فوجدهما وقد رشت كل منهما عريشها.. وبرّدت له ماء.. وهيأت طعاما. فلما رأى هذا قام على باب العريش وقال: أظِلٌّ وماء.. ورسول الله فى الصحراء؟! ما هذا بعدل.. ثم قال: والله لا أدخل حتى ألحق برسول الله.. فأخذ زاده وراحلته فارتحل.. ولحق بجيش المسلمين.

وأما أبو ذر.. فلم يكن تخلفه عن الجيش إلا لبطء بعيره.. فلما أبطأ عليه.. أخذ متاعه فحمله على ظهره.. ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشيا.

ونزل رسول الله فى بعض منازله فى الطريق.. فنظر بعض الناس فى الصحراء.. ثم قال: أرى رجلا يمشى على الطريق وحده فقال - عليه الصلاة والسلام -: «كن أبا ذر» فلما قرب قال المسلمون: يا رسول الله إنه أبو ذر.. فقال: «يرحم الله أبا ذر.. يمشى وحده.. ويموت وحده.. ويبعث يوم القيامة وحده». وقد تحقق ذلك فى موته.. حيث مات وحيدا - رضى الله عنه - فى سنة ٣٢ هجرية.. فى قرية اسمها - الرَّبَذَة - بين مكة والعراق.. فقد مرّ بها عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - ومعه ناس من العراق يطلبون العمرة.. فوجدوه ميتا على الطريق - كادت الإبل أن تطأه.. فدفنه ابن مسعود وهو يبكى ويقول: صدق رسول الله.. تمشى وحدك.. وتموت وحدك.. وتبعث يوم القيامة وحدك.

وبقى فى المدينة كعب بن مالك.. ومرارة بن الربيع.. وهلال بن أمية - رضى الله عنهم - فاتتهم فرصة الخروج مع رسول الله - ﷺ - وهم من فضلاء الصحابة صادقى الإيمان. وعاد الجيش منتصرا.. ودخل رسول الله - ﷺ - مسجده وصلى به ركعتين.. ثم جلس للناس.

وجاءه الرجال الذين تخلفوا عن الخروج معه.. يعتذرون إليه ويحلفون له.. وكانوا بضعة وثمانين رجلا.. فقبل منهم رسول الله علانيتهم.. وترك سرائرهم إلى الله تعالى. أما كعب بن مالك - رضى الله عنه - فيقول:

---

(٣٠) سورة المائدة الآية ٥٤. (٣١) سورة مريم الآية ٩٦.

جئت أمشى حتى أتيت رسول الله - ﷺ - وجلست بين يديه.. فقال لى: ما خلّفك عن الخروج يا كعب؟.. فقلت: إنْ حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علىّ.. يوشك الله أن يسخط علىّ.. ولئن حدثتُك حديثَ صدق تَجِدُ علىّ فيه - أى تغضب - إنى لأرجو عفو الله عنى.. والله يا رسول الله ما كان لى من عذر.. والله مَا كنت قطّ أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك.

فقال - ﷺ -: «أما هذا فقد صدق.. فقم يا كعب حتى يقضى الله فيك» وقدم مرارة بن الربيع.. وهلال بن أمية - فقالا كما قال كعب.. وقال لهما رسول الله - ﷺ - كما قال لكعب.

ونهى رسول الله - ﷺ - المسلمين عن كلامهم هم الثلاثة.. فاجتنبهم الناس.. وعانوا من ذلك عناء نفسيا شديدًا قاسيًا.. وعلى الخصوص كعب بن مالك.. حتى تنكرت لهم الأرض.. وضاقت عليهم.

يقول كعب: حتى إذا مضت أربعون ليلة.. أتانى رسول من عند رسول الله - ﷺ - يأمرنى أن أعتزل امرأتى.. فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا.. ولكن اعتزلها ولا تقربها.. وأرسل إلى صاحبىّ مثل ذلك.. فقلت لامرأتى الحقى بأهلك حتى يقضى الله فى هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله - ﷺ - وقالت: إن زوجى شيخ ضائع.. ليس له خادم.. فهل تكره يا رسول الله أن أخدمه؟

قال: «لا ولكن لا يقربك» قالت: إنه والله ما به حركة.. والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.. وظلوا كذلك حتى كملت خمسون ليلة.

يقول كعب: استدعانى رسول الله - ﷺ - فلما سلّمت عليه قال: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أهو من عندك يا رسول الله.. أم من عند الله؟ قال: «لا.. بل من عند الله». وكان - ﷺ - إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر.. وكنا نعرف منه ذلك.. فلما جلست بين يديه.. قلت: إن من توبتى أن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله ورسوله.. قال: «أمسك بعض مالك فهو خير لك».

وأسرع المسلمون لتهنئة المخلَّفين الصادقين الثلاثة.. فقد أنزل الله تعالى فى حقهم: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[٣٢] ولهذا يصلح الذكر باسم - التواب - بقول الإنسان: (أستغفر الله العظيم - التواب الرحيم) ثم هيا إلى الاسم الجديد - المنتقم -.

* * *

(٣٢) سورة التوبة الآيتان ١١٨، ١١٩.

٨١ - المنتقم

قلت: تقول إن الاسم التالى هو اسم - المنتقم - ويخيل إلى أن هذا الاسم لم يأت بالنص فى القرآن الكريم.

قال: المنتقم - اسم من أسماء الله تعالى.. ورد به الخبر.. وهو حقيقة لم يأت بالنص فى القرآن الكريم.. وإنما ورد مفعوله ومجلاه فى مثل قوله تعالى: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾(١) وقوله: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾(٢) وقوله: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾(٣) وقوله: ﴿ومن يهد الله فما له من مضلّ أليس الله بعزيز ذى انتقام﴾(٤).

قلت: وما معنى الانتقام فى اللغة؟

قال: اللغة تقول: نقم عليه فهو ناقم.. أى كارهٌ له.. ومنه قوله تعالى عن موقف الكفار والمنافقين حيال المؤمنين: ﴿وما نقموا إلّا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾(٥). وقوله عن أصحاب الأخدود.. والأخدود شق فى الأرض أشعلوا فيه النيران يحرقون بها المؤمنين ليفتنوهم فى دينهم: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾(٦). ومثله قول سحرة فرعون لفرعون لما آمنوا بموسى.. وهددهم بالقتل: ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنّا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾(٧) ومثل قوله تعالى لرسوله: ﴿قُل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلّا أن آمنا بالله﴾(٨) فتجد أن معناها فى كل تلك الآيات يؤدى معنى الكراهية. والنقمة: ضد النعمة.

قلت: وهل ينطبق معنى الكراهية على الاسم الكريم - المنتقم - وكيف يكره الله تعالى؟

قال: انتقام الله تعالى عقوبة للعصاة والمجرمين.. على ما كره منهم.. كما قال تعالى: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾(٩) وكما قال: ﴿فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون﴾(١٠). وقد ورد نص الكُرْه من الله تعالى فى قوله عن المنافقين: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾(١١).

وليست كراهيته تعالى مثل كراهية الخلق.. فالكراهية عند بنى البشر انفعال نفسى.. والله تعالى منزّه عن الانفعال.. من نفور النفس.. أو لحوق المشقة.. وإنما معناه عند المنتقم - جل جلاله - ذَمُّه لما كره من أفعال خلقه من الآثام والشرور.. وذم فاعلها.. والحكم بعقوبته.

---

(١) سورة المائدة الآية ٩٥.
(٢) سورة آل عمران الآية ٤.
(٣) سورة إبراهيم الآية ٤٧.
(٤) سورة الزمر الآية ٣٧.
(٥) سورة التوبة الآية ٧٤.
(٦) سورة البروج الآية ٨.
(٧) سورة الأعراف الآية ١٢٦.
(٨) سورة المائدة الآية ٥٩.
(١٩) سورة السجدة الآية ٢٢.
(١٠) سورة الزخرف الآية ٤١.
(١١) سورة التوبة الآية ٤٦.

والله - سبحانه - لا يعجل بالعقوبة والانتقام.. إلا بعد طول الإعذار والإنذار.. والفتنة والابتلاء.. لأن المنتقم ذاته هو الرحيم الحليم.. فإذا أبى العبد إلّا إصرارًا وعتوًّا وإعراضا.. انتقم منه بعد ذلك.

وقد عرض الله تعالى علينا عموم صور الانتقام فى سورة الأنعام.. حيث قال: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾.. أمم عاصية كافرة. ﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾.. أى أخذهم بالبلاء ليتذكروا ويتضرعوا.. ويكفروا عن شرورهم وآثامهم. ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾.

وهنا حق عليهم العقاب.. ووقعوا فى مجليات الاسم - المنتقم - ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ فلا بأساء ولا ضراء.. ولا آلام والا أسقام.. وبورك لهم فى كل شيء.. ولكن فى ظلال الاسم - المنتقم - فكأن ما هم فيه من خير ما هو إلا طُعْم فى حبال الصائد ليوقع فريسته - ولله المثل الأعلى - ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾(١٢).

وقد يوفق الله المذنبين للتوبة بعد أن يقعوا فى مجال الاسم - المنتقم - فيستجيبون لربهم بالندم.. ويتضرعون إليه معتذرين قبل حلول النقمة.. فيكشف عنهم الضرّ والبأس.. ويعفو عنهم.. كما حصل لقوم يونس - عليه السلام - لما غشيهم العذاب بعد خروج نبّيهم من بينهم مغاضبا.. فبحثوا عن يونس - عليه السلام - ليعلنوا له إيمانهم فلم يجدوه.. فرجعوا إلى الله - عز وجل - بقلوب صادقة.. وصدور مؤمنة.. فقبل منهم معذرتهم.. وكشف عنهم الضرّ.. يقول تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾(١٣).

قلت: هل انتقام الله من الظالمين فى الدنيا أم فى الآخرة؟

قال: انتقام الله تعالى من الظالمين على قسمين: معجّل ومؤجّل. المعجل فى الدنيا.. والمؤجل للآخرة.

ففى الدنيا ينتقم من الظالم بالظالم.. فيسلط بعضهم على بعض. وقد اجتمع ناس عند أحد أنبياء بنى إسرائيل فسألوه: ما علامة رضا الله عن الخلق؟. فأوحى الله تعالى إليه: (قل لهم: إن علامة رضائى عنهم أن أُوَلِّى أمورهم خيارهم.. وعلامة غضبى أن أولى أمورهم شرارهم).

وما استحقوا هذا من الله إلا بسبب فساد نفوسهم.. وانحلال أخلاقهم.. وبعدهم عن صراط الله المستقيم: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(١٤). وهذا كله من الانتقام المعجل.

ومن هذا القسم أيضا.. قوله عن قوم فرعون مع موسى - عليه السلام -: ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذ هم ينكثون﴾ فاستحقوا الوقوع فى

---

(١٢) سورة الأنعام الآيتان ٤٤، ٤٥.

(١٣) سورة يونس الآية ٩٨.

(١٤) سورة الرعد الآية ١١.

مجالى اسم – المنتقم – ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليمّ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾[١٥].

ويذكر الله تعالى قوم فرعون فى دائرة الانتقام فى موقع آخر.. فيقول: ﴿فلما آسَفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾[١٦]. ولفظ ﴿آسفونا﴾ من الأسف وهو شدة الغضب.. فهم أفرطوا فى المعاصى فاستوجبوا أن يعجل الله لهم عذابه وانتقامه.

ومن هذا الانتقام المعجل أيضا ما أصاب قوم نوح.. وقوم هود.. وقوم صالح.. وقوم لوط.. وأهل مدين.. وأصحاب الأيكة وهؤلاء قال الله عنهم: ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم﴾[١٧].

كل هؤلاء الأقوام أخذهم الله تعالى بذنوبهم باسم – المنتقم – فيقول عنهم إجمالا: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[١٨].

قلت: هذا عن الانتقام المعجل.. فماذا عن الانتقام المؤجل؟

قال: إنه انتقام يوم الدين.. يوم الحشر.. يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت.. يوم ترى الناس سكارى وما هم بسكارى: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾[١٩].

هناك الانتقام المؤجل: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾[٢٠] ﴿ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا﴾[٢١] نسأل الله لنا ولك النجاة فى هذا اليوم الرهيب.. إنه بالمؤمنين رءوف رحيم.

قلت: ذكرت فى أول هذا البحث حول اسم – المنتقم – آيات اقترن فيها اسم – المنتقم – باسم – العزيز.. فخواتيم كل تلك الآيات: ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أو ﴿أليس الله بعزيز ذى انتقام﴾ فما العلاقة بين العزة والانتقام؟

قال: إن مجلى هذا الاسم – المنتقم – ظاهر فى ميادين الحرب.. ومواقف النزال.. بين المؤمنين والكافرين.

فهو – سبحانه – قد يغضب فى حق خلقه وعباده بما لا يغضب فى حق نفسه.. وينتقم لهم ما لا ينتقم لنفسه فى خالص حقه.

فانتقامه تعالى من هؤلاء الأقوام الذين ذكرناهم.. إنما هو فى نفس الوقت عزة ونصر للمؤمنين.. لأن انتقامه العاجل إنما يكون لاعزاز رسله ومن اتبعهم وسلك سبيلهم.

وتلك حقيقة واضحة وضوح الشمس فى جميع الأجيال والعصور.. فكم رأينا يد الجبار المنتقم تبطش بمن غرّتهم مناصبهم.. فأذلّوا العباد.. وأكثروا فى الأرض الفساد.. وكان فى هذا الانتقام إعزاز لهؤلاء المستضعفين المستذلين.. اقرأ قوله تعالى: ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر

---

(١٥) سورة الأعراف الآيات ١٣٤ – ١٣٦.
(١٦) سورة الزخرف الآية ٥٥.
(١٧) سورة الحجر الآيتان ٧٨ – ٧٩.
(١٨) سورة العنكبوت الآية ٤٠.
(١٩) سورة الدخان الآية ١٦.
(٢٠) سورة الفرقان الآية ٢٧.
(٢١) سورة النبأ الآية ٤٠.

المؤمنين﴾[٢٢] واقرأ أيضا فى سورة التوبة: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء﴾[٢٣] نعم يتوب على من يشاء.. لأن المنتقم هو نفسه العفوّ..

فإلى الاسم - العفوّ -.

* * *

---

(٢٢) سورة الروم الآية ٤٧.

(٢٣) سورة التوبة الآيتان ١٤ - ١٥.

٨٢ - العفـوّ

قلت: قبل أن تحدثنى عن الاسم الكريم - العفوّ - أرجو أن أعلَم معنى هذا اللفظ فى اللغة.. فيخيل إلى أنه لفظ واسع المعنى.

قال: نعم.. إنه لفظ كثير المعانى: فالعفْو من المال: حلاله وطيّبه.. واللغة تقول: وخذ ما عفا وصفا. قال الأخطل:

المانعين الماء حتى يشربوا عَفَوَاتِه ويقسّمون سجالا

والسجال: هو الدلو الكبير.

والعفْو من المال أيضا: ما فضل من قوتك وقوت عيالك.. ومنه قوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾(١).

وتقول: أطعمونا من عوافيكم.. دامت لكم عوافيكم، والعوافى من الطعام: جمع عَافِى القِدر - وهو بقية المرق فيها.. قال الكميت:

لا تسألينى واسألى عن خليقتى إذا ردَّ عَافِى القِدر من يستعيرها

وتقول: كلأ عافٍ.. وعشب وافٍ.. يعنى الكثير من الكلأ والعشب. ومنه قول رسول الله - ﷺ - «حفّوا الشوارب وأعفوا اللحى» أى دعوها تكبر وتكثر.

ومنه أيضا قول الله - تبارك وتعالى عن أقوام يستدرجهم بالحسنات بعد ابتلائهم بالسيئات.. فلم يتذكروا.. قال: ﴿وما أرسلنا فى قرية من نبىّ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرّعون * ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفَوْا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾(٢) أى كثرت عندهم الخيرات.. ولم يتذكروا أن هذا استدراج من الله لهم من حيث لا يعلمون.

والعفاء بالفتح والمد: أى التراب.. قال صفوان بن مُحْرِز: إذا دخلتُ بيتى.. فأكلتُ رغيفا.. وشربت ماء.. فعلى الدنيا العفاء. والعافية: هى دفاع الله عن العبد.. وتوضع موضع المصدر فيقال: [عافاه] الله عافية.. ولهذا نسأل الله العفو والعافية. والله عفوٌّ عن عباده.. يقال: عفا عن ذنبه أى تركه ولم يعاقبه. ولها معان أخرى كثيرة ليس هنا مقام سردها.

قلت: وما هو المعنى المقصود من اسم - العفوّ - من بين هذه المعانى؟.

قال: قلنا إن العفو فى اللغة يفيد معنى ما فضل من المال.. ويفيد معنى الكثرة والزيادة.. فالعفوّ على هذا الاشتقاق: أى الذى يعطى الكثير ويهب الجزيل.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩.

(٢) سورة الأعراف الآيتان ٩٤، ٩٥.

واسم – العفوّ – له معنى آخر فى اللغة غير هذا المعنى.. فلفظ العفْو فى اللغة يفيد أيضا معنى المحو والإزالة.. فيقال: عفَت الرياح الآثار إذا أزالتها.. وكذلك قولك عفَت الديار.. فعلى هذا الاشتقاق يكون – العفوّ – فى وصفه تعالى بمعنى إزالة الذنوب ومحوها.. فالله – سبحانه – يعفو عن العباد ذنوبهم وآثامهم.. فلا يعاقبهم عليها.

قلت: وهل ورد هذا الاسم فى كتاب الله تعالى؟

قال: نعم.. ورد هذا الاسم فى مثل قوله تعالى: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لَينصرنّه الله إن الله لعفوّ غفور﴾[3] وقوله: ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّا غفورا﴾[4] وفى قوله: ﴿فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا﴾[5] وقوله: ﴿وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفوّ غفور﴾[6] وفى غيرها من الآيات.

قلت: أرى أن اسم – العفوّ – مقترن باسم – الغفور – فى جميع هذه الآيات.. فهل لهذا الاقتران من سبب؟

قال: نعم سبب الاقتران واضح بين الاسمين الكريمين: العفو والغفور. فالمغفرة سبب مباشر لدخول المذنبين فى مجالى اسم – العفوّ – لأننا قلنا إن العفْو معناه ترك الذنوب ومحوها وعدم العقاب عليها.. ولن يكون ذلك إلاّ فى ظلال الاسم – الغفور – فالله تعالى عند المغفرة يتجاوز عن السيئات.. اقرأ: ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة﴾[7] وقوله: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[8].

وروى عن بعض كبار العلماء قال: قلت فى نهاية مجلس يوما: اللهم اغفر لأقسانا قلبا – وأجرئنا عينا.. وأقربنا بالمعاصى عهدا.. قال: وكان فى بلدنا رجل فاسق معروف وقف على حلقة درسى.. فقال: أعد هذا الدعاء ثانيا.. فأنا أقساكم قلبا.. وأجرؤكم عينا.. وأقربكم بالمعاصى عهدا.. فادع الله لى حتى يعفو عنى.. قال: فرأيت الليلة الثانية فى المنام من يقول لى: إن الله تعالى يقول: سرَّنى أن أوقعتَ الصلح بينى وبين عبدى وقد غفرت لك وله ولأهل مجلسك.

كما روى كعب بن عجْرة.. أن رسول الله – ﷺ – خرج على أصحابه يوما فقال: ما تقولون فى رجل قُتل فى سبيل الله؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم.. قال: ذلك فى الجنة.. ثم قال: ما تقولون فى رجل مات فقام رجلان ذوا عدل فقالا: لا نعلم عنه إلا خيرا.. فقالوا: الله ورسوله أعلم.. قال: ذلك فى الجنة.. ثم قال: ما تقولون فى رجل مات فقام رجلان ذوا عدل فقالا: لا نعلم فيه خيرا.. فقالوا: ذلك فى النار.. قال: بئس ما قلتم.. عبد مذنب ورب غفور.

قلت: حقا إن الله واسع العفو.. فما معنى قوله لرسوله – ﷺ –: ﴿خذ العفو﴾[9]؟

---

(3) سورة الحج الآية ٦٠.
(4) سورة النساء الآية ٩٩.
(5) سورة النساء الآية ٤٣.
(6) سورة المجادلة الآية ٢.
(7) سورة الأحقاف الآية ١٦.
(8) سورة الشورى الآية ٣٠.
(9) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

قال: قلنا إن اللغة تقول: إن العفو من المال حلاله وطيبه.. وضربنا المثل بقولهم: خذ ما عفا وصفا.. فيكون معنى ﴿خذ العفو﴾ أى خذ ما صفا من الإخلاص.

أو معنى آخر ﴿خذ العفو﴾ من الزيادة.. أى خذ العفو والفضل والمحاسن من الأخلاق: فاعف عمن ظلمك.. وصل من قطعك.. وأعط من حرمك.. وأحسن إلى من أساء إليك.. وهذا هو العفو من محاسن الأخلاق.. وتلك هى المثل العليا.

وقد قرأت فيما قرأت: أن إماما من آل بيت رسول الله - ﷺ - ولعله الإمام على زين العابدين - رضى الله عنه - وقفت جارية له تصب عليه الماء ليتوضأ.. فسقط الإبريق من يدها على رأسه فشجّه.. فاضطربت وقالت له: ﴿والكاظمين الغيظ﴾.

قال: كظمت غيظى.. فقالت: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: عفوت عنك.. فقالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال: اذهبى فأنت حرة.

تلك هى المثل الإسلامية الأصيلة.. فمن أيقن أن الله - سبحانه - عفوّ تجاوز عن أخطاء خلقه.. لأن الله أدّبهم ولذلك ندبهم.. فنالوا سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة.. فمن دخل نور اليقين قلبه.. أمن سره من اضطراب الشك.. وأمنت روحه من زحمة النفس.. وأمن عقله من هموم التدبير.. وأمنت نفسه من نفاذ الشهوة الخفية.. ولهذا قال لهم: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾[(١٠)].

قلت: ما معنى هذه الآية؟.. ومن هم الذين قال الله لهم: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾؟

قال: نزلت هذه الآية بعد حديث الإفك: ففى غزوة بنى المصطلق.. تفجر حديث الإفك.. الذى اتهم فيه المنافقون الصدِّيقة بنت الصدِّيق.. أم المؤمنين عائشة.. بنت أبى بكر.. وزوج رسول الله - ﷺ - التى قال عنها: «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء».. ويقول عنها عروة - رضى الله عنه - ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة.. ولو لم يكن لها من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلا وعلو مجد.. فإنها نزل فيها قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

خاض فى حقها المنافقون.. الذين خرجوا مع رسول الله - ﷺ - لأول مرة.. فى تلك الغزوة.. وكان زعيم المنافقين - عبد الله بن أبىّ بن سلول - هو زعيم عصبة الإفك.. حيث قال عندما رأى أم المؤمنين عائشة قادمة على بعير صفوان بن المعطِّل السُّلَمىّ قال: فَجَرَ بها ورب الكعبة.

وكانت قد تخلفت عن الجيش تبحث عن عقد لها.. سقط منها فى الصحراء.. وتحرك الجيش وهم يعتقدون أنها فى هودجها.

فمرَّ بها صفوان.. وكان بعد المؤخرة.. فحملها على بعيره وألحقها بالجيش.

وتناقل المنافقون كلمة زعيمهم ابن أبىّ بن سلول، وزُلزل المؤمنون فى هذا الحادث زلزالا شديدا.. وتحرّز المخلصون منهم فقالوا: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾، سبّحوا لله.. وقطعوا قطعًا لا يشكون فيه أن هذه فرية ظاهرة وبهتان عظيم. وألحقها رسول الله - ﷺ - بأهلها.. حتى يقضى الله فى هذا الأمر الخطير.. وهى لا تدرى شيئا عما يقول المنافقون فى حقها. تقول أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها:

(١٠) سورة النور الآية ٢٢.

فخرجت ذات ليلة لبعض حاجتى.. ومعى أم مسطح بنت أبى رُهْم بن عبد مناف.. وكانت بنت خالة والدى أبى بكر.. فو الله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مِرْطِها - أى كسائها - فقالت: تَعِسَ مِسْطح - تقصد ابنها - وكان مسطح ممن روجوا حديث الإفك - قلت: بئس لعمر الله ما قلت عن رجل من المهاجرين شهد بدرا مع رسول الله.. قالت: أو ما بلغكِ الخبر يا بنت أبى بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك.

ومرضت السيدة عائشة رضى الله عنها.. ولزمت دار أبيها.. حتى أنزل الله تعالى براءتها قرآنا يتلى ويتعبَّد به إلى يوم القيامة: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ إلى آخر الآيات من سورة النور[١١] وكان أبو بكر - رضى الله عنه - ينفق على مسطح لقرابته منه.. فلما نزلت البراءة.. قال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا.. ولا أنفعه بنفع أبدا.. بعد الذى قاله عن عائشة.

وهنا تظهر سماحة الإسلام.. وعظمة الإسلام.. ودفعُه دائما الإنسانية إلى المثل العليا فى العفو والصفح والخير.. حيث أنزل الله تعالى قوله: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾[١٢] فقال أبو بكر: بلى والله.. إنى أحب أن يغفر الله لى. فأرجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفقها عليه.. وقال: والله لا أنزعها منه أبدا.

قلت: ألم يقترن اسم - العفو - مع اسم آخر غير اسم - الغفور -؟

قال: اقترن مرة واحدة فى القرآن الكريم مع اسم - القدير - فى قوله تعالى: ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا﴾[١٣] فقرن - سبحانه - العفو مع القدرة فى تلك الآية.. لقوله فيها: ﴿أو تعفوا عن سوء﴾.. لأن المثل العليا تتركز فى العفو عند المقدرة.. لأن العفو مع الضعف استسلام وهوان.. فلزم اقتران الاسمين هنا: - العفوّ والقدير -.

قلت: هل تسمح لى بسؤال آخر وأخير.. لأننى لم أفهم آية سورة المجادلة.. التى ذكرتها فى أول البحث حول هذا الاسم - العفو - وهى: ﴿وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفوّ غفور﴾[١٤] ومن هم الذين كانوا يقولون منكرا من القول وزورا.. وعفا الله عنهم وغفر لهم؟

قال: لهذه الآية قصة أوجزها لك: ذهبت خولة بنت ثعلبة - امرأة أوس بن الصامت.. أخى عبادة بن الصامت - رآها زوجها أوس وهى تصلى.. وكانت حسنة الجسم.. فلما سلمت راودها فامتنعت.. وغضب وقال لها: أنت علىّ كظهر أمى[١٥]

وكان الرجل فى الجاهلية إذا ظاهر امرأته وقال لها أنت علىّ كظهر أمى.. تحرم عليه إلى الأبد. فأتت رسول الله - ﷺ - فقالت: إن أوسًا تزوجنى وأنا شابة.. مرغوب فىَّ.. فلما خلا سنّى - أى كبر سنى - ونثرت بطنى - أى كثر ولدى.. جعلنى عليه كأمه.. فقال لها - عليه الصلاة والسلام - «قد حَرُمْتِ عليه». فقالت: إن لى منه صبية صغارا.. إن ضممتهم إليه ضاعوا.. وإن ضممتهم إلىّ جاعوا..

---

(١١) سورة النور الآيات ١١ - ٢١.
(١٢) سورة النور الآية ٢٢.
(١٣) سورة النساء الآية ١٤٩.
(١٤) سورة المجادلة الآية ٢.
(١٥) تفسير النسفى أول المجادلة.

فقال لها: «قد حرمت عليه». قالت: يا رسول الله.. ما ذكر طلاقا.. وأنا لست أمّه.. إنما هو أبو ولدى.. وأحبّ الناس إلىّ.. فقال لها: ما عندى فى أمرك شىء.. فقالت: إنما أشكو فاقتى ووجدى إلى الله.. فأنزل الله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلّا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفوّ غفور﴾[١٦] عفوّ غفور لما سلف منهم.. وحرم عليهم الظهار.. ووجبت على قائله بعد هذا الكفارة الكبرى.

قلت: وما هى الكفارة الكبرى.. التى تجب على من يقول لامرأته هذا القول؟

قال: قد بين الله تعالى لنا الكفارة فى تكملة الآيات السابقة من سورة المجادلة.. فقال بعدها مباشرة: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير﴾[١٧]. هذا هو الحكم الأول فى كفارة – الظهار – عتق رقبة، ثم قال تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾ وهذا هو الحكم الثانى.. صيام شهرين كاملين متتابعين.. بمعنى أنه إذا صام شهرا كاملا.. وصام من الشهر الثانى تسعة وعشرين يوما..ثم أفطر فى اليوم الثلاثين المكمل للشهر.. كان عليه أن يعيد صيام الشهرين مرة أخرى بحيث يكملها.

ثم قال بعدها أيضا: ﴿فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾[١٧] وهذا هو الحكم الثالث والأخير.. وهو إطعام ستين مسكينا.. لكل مسكين مُدّ.. ومقداره رطل وثلث رطل.

ومن حقنا الآن أن ننتقل إلى الاسم – الرءوف –.

قلت: ومتى يذكر الإنسان باسم – العفوّ –؟

قال: من كان كثير الخطايا والذنوب.. فعليه أن يكثر من الذكر باسم – العفوّ – حتى يرزقه الله الهدى والاستقامة.

* * *

(١٦) سورة المجادلة الآيتان ١، ٢.

(١٧) سورة المجادلة الآيتان ٣، ٤.

٨٣ - الرءوف

- **قلت:** ما الفرق بين الاسمين الكريمين: الرحيم والرءوف ؟.

قال: سبق أن ذكرنا أن الاسم - الرحيم - اسم خاص بالمؤمنين .. لقوله تعالى: ﴿ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[1] بينما اسم - الرحمن - يعم المؤمن والكافر معًا فى الدنيا.. ولهذا قلنا: (يا رحمن الدنيا.. ورحيم الآخرة)..

أما اسم الرءوف.. فهو اسم شامل.. وأقصى ما يستطيع الفهم أن يصل إليه حول اسم - الرءوف - أنه ذو الرحمة الواسعة.. والرأفة الجامعة.. فالرأفة بالنسبة إلى المخلوق.. هى رقة تمسّ شغاف القلب.. فيمتد هذا الاحساس بالرأفة والحنان إلى كل شىء.. فيكون معنى الرأفة أنها أشد حالات الرحمة والحنان.

وقد قرأت أن الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - بلغه أن رجلا يروى أحاديث ثلاثية.. أى عن ثلاثة رواة فقط.. فذهب إليه فوجده يطعم كلبا.. فسلم عليه الإمام أحمد فرد عليه السلام.. وظل الرجل مشغولا بإطعام الكلب.. ولم يلتفت إليه.. فلما انتهى من إطعام الكلب.. نظر إلى الإمام.. وقال له: لعلك غضبت فى نفسك.. إذ أقبلت على الكلب، ولم أقبل عليك؟.. قال: نعم. فقال الرجل: حدثنى أبو الزناد.. عن الأعرج.. عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - قال: «من قطع رجاء من ارتجاه.. قطع الله رجاءه يوم القيامة.. فلن يلج الجنة». ثم قال: أرضنا هذه ليست بها كلاب.. وقد قصدنى هذا الكلب.. فخفت أن أقطع رجاءه. فقال الإمام أحمد: يكفينى هذا الحديث.. ثم رجع.

قلت: وهل ورد اسم الرءوف - فى القرآن الكريم؟

قال: نعم ورد فى كثير من الآيات مقترنا بالرحمة.. وجاء مفردا فى قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾[2]. وقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾[3].. هذا عن حالة انفراده.. أما فى حالة اقترانه بالرحمة. ففى مثل قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾[4]. وقوله: ﴿ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾[5]. وقوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾[6]. وقوله: ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم﴾[7]. وقوله: ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾[8].

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٧.
(٣) سورة آل عمران الآية ٣٠.
(٤) سورة البقرة الآية ١٤٣.
(٥) سورة التوبة الآية ١١٧.
(٦) سورة النور الآية ٢٠.
(٧) سورة الحديد الآية ٩.
(٨) سورة الحج الآية ٦٥.

كما جاء على لسان الأنصار فى دعائهم: ﴿ولا تجعل فى قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾[9].

قلت: وهل أطلق هذا الاسم على غير الله فى القرآن الكريم؟

قال: لم يطلق هذا الاسم على غير الله.. إلا على نبينا محمد.. عليه الصلاة والسلام - فى قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[10]. ولكن وردت صفة الرأفة مقترنة بالرحمة والرهبانية فى أتباع عيسى - عليه السلام - فى قوله تعالى: ﴿وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾[11].

قلت: أرى فى تلك الآية الأخيرة بعض التناقضات التى تحتاج إلى إدراك .. فقد قرر تعالى أن الرهبانية مبتدعة منهم.. فقال: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾.. ثم قال: ﴿ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ فكيف تكون الرهبانية مبتدعة من عندهم.. وفى نفس الوقت مكتوبة عليهم..؟

قال: لا شك أنه سؤال وجيه.. يدل على وعى أخاذ.. وصفاء نفاذ.. ولكنى أقول لك إنه لا يوجد أى تناقض فى هذه الآية.. فالاستثناء هنا ليس استثناء من الكتابة.. ولكنه استثناء من الابتداع.. بمعنى أنها رهبانية ابتدعوها من عندهم.. وما ابتدعوها إلّا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها.. وتكون عبارة ﴿ما كتبناها عليهم﴾ جملة عارضة لتقرير الحقيقة ونفى الكتابة عليهم.

قلت: فهمت.. ولى سؤال آخر.. فقد يرى الإنسان أشياء تستحق الرحمة والعطف.. والرأفة واللطف.. ولكنها فى الواقع تكون قائمة على الخداع والمكر.. فما موقف المؤمن حيال أمثال تلك الحالات؟

قال: عليك أن تعوّد قلبك على الرأفة والرحمة.. استجابة لاسمى - الرءوف والرحيم - ولكن بنظرة المؤمن الذى يرى بنور الله.. فمثلا نهانا الله تعالى عن الرأفة فى مثل قوله تعالى عن الزانى والزانية.. فقال.. عز من قائل: ﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾[12]. لأن الرأفة هنا تقع فى مجلى الاسم - الجبار - وهو خطأ واضح.

وللعقل أن يعلن عجزه عن إدراك الحكمة فى وقوع الجبروت من نفس الرءوف الرحيم - ولكن نقول لذلك العقل: ماذا تشعر به لو انتُهكت الحرمات.. وارتكبت الموبقات.. وفسد المجتمع.. واعتدى القوى على الضعيف.

أيها العقل ماذا تشعر به الآن.. وما هى سبيلك التى ترى أن تسلكها لشفاء نفسك.. وذهاب غيظك من هؤلاء المفسدين؟ ألا ترى أنه لا تتم طمأنينة النفس.. وتحل عقدة الضمير إلا بالقصاص العدل من

---

(9) سورة الحشر الآية ١٠.

(10) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(11) سورة الحديد الآية ٢٧.

(12) سورة النور الآية ٢.

هؤلاء وإقامة الحدود عليهم.. والتنكيل بهم فى مجليات الاسم - الجبار -؟ ﴿والله أشد بأسا وأشد تنكيلا﴾[١٣].

وهذا كله أيضا من مجليات الاسمين: الرءوف والرحيم.. لأن حكمته تعالى تجعل تجليات الأسماء صدقا وعدلا.. فى مواقعها المختلفة.. حيث لا يظلم أحدا.. فإنما هى أعمالكم تُردّ عليكم.. وهو سبحانه: ﴿على صراط مستقيم﴾[١٤].. وهو - سبحانه - أيضا يحب لعباده الحياة: ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾[١٥].

لأن الردع عن الظلم والتمادى فى الإضرار والإساءة.. يحتاج إلى قوة وبطش وجبروت.. ويكون الباعث الأساسى لتجليات الاسم - الجبار - هو اسمَىْ - الرءوف والرحيم -: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾[١٦].

قلت: وما دلائل رأفته بعباده؟

قال: سبحانه - رءوف رحيم - شديد الرحمة والحنان واللطف.. فقد كلّف الأغنياء بما لم يكلف به الفقراء.. وحاسب المقيم بما لم يحاسب به المسافر.. وخفّف الفرائض فى وقت الضعف وعدم القدرة.. ويحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.. أليست كل هذه من مظاهر رحمته ودلائل رأفته؟

لقد قرأت فى بعض الروايات.. أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان فى بعض الأسفار.. فمرّ بامرأة تخبز.. ومعها صبى لها.. فقالوا لها: إن رسول الله ﷺ يمر.. فأسرعت إليه.. وقالت له: يا رسول الله.. بلغنى أنك قلت: إن الله - سبحانه - أرحم بعباده من الأم الشفيقة بولدها.. أفهو كما قيل لى؟.. فقال لها: «نعم». فقالت: إن الأم لا تلقى بولدها هذا فى هذا التنور.. - وهى تشير إلى ولدها-. فبكى - ﷺ.. وقال: «إن الله لا يعذب إلا من أنِفَ[١٧] أن يقولَ لا إله إلا الله».

قلت: وهل أستطيع أن أزن فى نفس مقدار رأفة الله بى؟

قال: لن تستطيع ذلك مطلقا.. لأن من رأفة الله بعباده.. أن يصونهم عن موجبات عقوبته.. فإن عصمته تعالى لك عن الزلّة.. أعظم فى باب الرأفة والرحمة من غفران المعصية. وربما تكون المشقّة والشدة فى الظاهر.. هى فى الحقيقة نعمة ورحمة ورأفة. وقد روى فى بعض الأخبار: أن العبد يدعو الله تعالى.. فيقول الله - تعالى: يا جبريل قد قضيت حاجة عبدى.. وقد أجبت دعاءه.. أحبسُ عنه حاجته لأنى أحب أن أسمع صوته يدعونى.

وكم من عبد يرحمه الناس لما به من الضر والحاجة وسوء الحال.. وهو فى الحقيقة فى رحمة تغبطه عليها ملائكة السماء.

وقد قرأت فى بعض الأخبار.. أن بعض الصالحين.. وكان اسمه أيوب.. قال: كان فى جيرانى إنسان شرير.. فمات.. فتنحيت عن طريق جنازته حتى لا أضطر إلى الصلاة عليه.. فرأيته فى المنام على حالة

---

(١٣) سورة النساء الآية ٨٤.
(١٤) سورة هود الآية ٥٦.
(١٥) سورة البقرة الآية ١٧٩.
(١٦) سورة الحج الآية ٤٠.
(١٧) أنِف من الشىء: أى استنكف واستكبر.

حسنة.. فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى.. وقال لى: قل لأيوب: ﴿لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق﴾[١٨].

قلت: إذن لا يجوز أن نلجأ لغير الرءوف الرحيم فى كل أمورنا؟

قال: وهذا أيضا من رأفته ورحمته بك.. فهو الذى يصونك من رفع الحوائج لسواه.. والاستغناء به فى جميع الأحوال.

وقد قيل لبعضهم: سل حاجتك.. فقال: من وضع قدمه على بساط المعرفة.. لا يقبل أن يكون لغير الله عليه منة.

وسئل بعض العارفين: ألك حاجة؟.. فقال: لا حاجة لى إلى من لا يعلم حاجتى. وإن الله - تعالى - ربما يترك عبده حتى يقرب من المحنة.. ثم يمنّ عليه بعد يأسه بفتح باب الرحمة.. يقول تعالى: ﴿وهو الذى ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته﴾[١٩] وهذا من شدة رأفته ورحمته بعبده.. لأن الفرج بعد اليأس.. أشد فرحا وسرورا فى النفس. وقال بعض الصالحين: رأيت فى المنام بعض من مات من أحبابى.. فقلت له: ما فعل الله بك؟. فقال: وزنت حسناتى وسيئاتى.. فرجحت سيئاتى على حسناتى.. فجاءت صُرَّة من السماء وسقطت فى كفة الحسنات فرجحت.. فحللت الصرّة فإذا فيها كفٌّ من تراب ألقيتها فى قبر مسلم.

وهكذا تحيط بالعبد جهات البلاء.. ثم تكشف عنه بأدنى حسنة وأقل طاعة.. رأفة منه تعالى ورحمة.

قلت: وما أثر هذا الاسم - الرءوف - فى الإنسان؟

قال: أثر هذا الاسم فيك.. أن ترأف بالغافلين من عباد الله.. بتذكيرهم به بالنصح بطريق اللطف دون العنف.. وأن تنظر إلى العُصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء.. وأن ترى كل معصية تجرى من أى إنسان.. وكأنها قد حصلت منك.. فتحاول قدر طاقتك أن تزيلها برحمة ورأفة وعظة بالحسنى.. لتنقذ فاعلها من غضب الله وسخطه.. وأن تأخذ نفسك بألا تدع فاقة لمحتاج إلا وتسدها بقدر طاقتك.. ولا تترك فقيرا فى جوارك أو فى بلدك إلا وتقومُ بتعهده ودفع فقره.. إما بمالك أو جاهك.. فإن عجزت عن كل ذلك.. فأعنه بالدعاء له.. والحزن من أجله عطفا ورحمة.. وشفقة ورأفة.

قلت: وهل يصلح هذا الاسم كدواء لبعض الأدواء؟

قال: هذا الاسم يصلح لسريع الغضب فى عمله.. أو بيته.. أو بين أصحابه.. يذكره قبل شروق الشمس.

وأعلم أن ذكر الله مفتاح الفلاح.. ومصباح الأرواح.

وهيا بنا إلى الاسم الكريم - مالك الملك.

* * *

---

(١٨) سورة الإسراء الآية ١٠٠.

(١٩) سورة الشورى الآية ٢٨.

٨٤ - مالك الملك

قلت: هل ورد اسم - مالك الملك - فى القرآن الكريم؟

قال: لم يرد هذا الاسم بذلك النص فى القرآن الكريم إلّا مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾(١).

قلت: وما معنى مالك الملك؟

قال: المُلك: يعنى المملكة.. والمالك: هو القادر .. التام القدرة.. الذى له التصرف المطلق فى ملكه فى الدنيا ويوم الدين.. ولهذا لم يأت اسم - مالك - بهذا النص إلا فى مقام واحد غير المقام الذى ذكرناه فى - مالك الملك - وهو: ﴿مالك يوم الدين﴾(٢).

فهو وحده القادر على تنفيذ مشيئته كيف يشاء.. يؤتى ملكه من يشاء.. وينزعه ممن يشاء.. ويعز من يشاء.. ويذل من يشاء.. ولهذا نسأله من زاوية الخير.. فهو وحده بيده الخير.. وهو على كل شىء قدير.

قلت: وهل ورد هذا الاسم مقترنا بأسماء أخرى فى كتاب الله؟

قال: لم يرد اسم - مالك الملك - مقترنا بأى اسم آخر. لوحدانيته المطلقة فى التصرف بحسب مشيئته. ولكن ورد اسم - الملك - مقترنا باسم - الحق - مرة.. فى قوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾(٣).

كما جاء اسم - الملك - أيضا مقترنا باسم - القدوس .. فى مقامين: ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس﴾(٤). و: ﴿يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس﴾(٥). كما ورد اسم - مليك - مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾(٦).

قلت: ولماذا لم يقترن اسم - الملك - إلا بالاسمين: الحق والقدوس؟

قال: إن هذا الملك قائم على الحق.. وإن لم يقم المُلك على الحق كان ملكا باطلا: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك﴾(٧). ولعلك تذكر ما أفاض الله علينا به حول اسمه - القدوس - من أنه يشير إلى مقتضيات: الملك .. العلى.. العظيم.. الجليل.. العظيم.. المنعم.. الغنى.. الكريم.. وقلنا إذا شئنا أن نجد من الأسماء اسما يجمع معانى كل هذه الأسماء.. فإنه الاسم -القدوس . ولهذا كان هو الاسم الائق وحده لإسناد اسم - الملك - إليه.

قلت: ألم يسند اسم - الملك - إلى أى اسم آخر؟

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦.
(٢) سورة الفاتحة الآية ٤.
(٣) سورة طه الآية ١١٤.
(٤) سورة الحشر الآية ٢٣.
(٥) سورة الجمعة الآية ١.
(٦) سورة القمر الآية ٥٥.
(٧) سورة آل عمران الآية ١٩١.

قال: لم يسند اسم - الملك - إلى أى اسم غير اسمى: الحق والقدوس .. وإنما أضيف إليه الناس.. فى سورة الناس فى قوله تعالى. ﴿ملك الناس﴾. وذلك لأن سورة الناس نزلت لتحصين المؤمنين ضد الشر من جميع الزوايا الثلاث: الجسم.. والعقيدة.. والروح. فالاستعاذة بـ ﴿رب الناس﴾ تحصين للجسم.. فالجسم محط الربوبية.. ورئيس أجسام الأسرة نقول عنه: رب الأسرة. أو رب العائلة.

و﴿ملك الناس﴾ تحصين للعقائد والشرائع والسنن.. فهى من اختصاص الملك.

و﴿إله الناس﴾ تحصين للأرواح. ﴿من شر الوسواس الخناس * الذى يوسوس فى صدور الناس * من الجنة والناس﴾.

قلت: حقا يا سيدى إنها لمملكة كبيرة يتصرف فيها - مالك الملك - جل شأنه.. فهل نستطيع أن نَسْبَح سبحة خفيفة فى هذا الملكوت؟

قال: سبحانك يا مالك الملك.. منتهى سير الإدراكات دون سياج عزّتك.. نشأ كل شىء وفق مرادك.. مستمرا بإمدادك. أنت تفضّلْت فنزّلت الملائكة بالروح من أمرك على من تشاء من عبادك.. وجلوت عن البصائر من بدائع آياتك.. ولوامع بيّناتك.. ما أسفر عن أسمى معانى تصويرك وإبداعك.. وآتيت الإنسان من لطائف نورك ما فتح له أبواب النظر.. وفسح له أبواب الفكر.. بين العين والأثر:

ودلّت عليك الكائنات بذاتها فما هى إلا عن تجليك تشهدُ

فانظر هدانا الله وإياك بعين بصيرتك.. ثم تعمق وأنعم النظر.. فى كل صغير أو كبير ظهر: ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾[8] تجد أن كل شىء مرتبط برباط وثيق مع كل هذه المملكة الواسعة الشاسعة.. التى يحبو العقل أمام قطرة ماء فيها.. فانظر مثلا إلى التفاحة الجنيّة.. فَعَيْنَا رأسك تشاهد فيها منظرا حسنا ونجيا جميلا.. وأنفك يشم منها عبيرا عطرا.. ولسانك يذوق طعما لذيذا شهيا.. وبصيرتك تعطيك معنى هذا كله.. وبهذا كانت التفاحة اليانعة النضيرة نعيا فى مظهرها ومخبرها ومداها.. وهذا كله لم يكن ليتم على هذا المنوال المحكم البديع.. لولا وجود ارتباط بين شجرة التفاح وبين وحدانية الحركة الكبرى.. الصادرة عن الناموس الكونى.. الذى لا يتناقض قانونها بوجه من الوجوه.

ومن هذا المنطلق وحده تستطيع أن ترى أن تفاحتك منحة جميلة.. قدّمتها لك يد - مالك الملك - التى من حقها أن تدبّر وتصوّر وتقدّر.. وتخلق ما تشاء وتختار.. أما تراها تودُّدًا من الملك المنعم إليك؟.. وتنزُّلا من الفضل الأعلى هابطًا بين يديك؟

قلت: إن مسألة ارتباط شجرة التفاح بوحدانية الكون مازالت فى حاجة إلى إيضاح أكثر.

قال: ليس الأمر مرتبطا بشجرة التفاح فقط.. بل بما خلق للإنسان فى هذا الكون كله فى سمائه وأرضه.. بطوله وعرضه إنه من أجل الإنسان.. حامل الأمانة الكبرى.. فنسبة الإنسان مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص. فالعالم كله شخص وقلبه الإنسان.. إن ظاهر العالم وباطنه معمور بظاهر الإنسان وباطنه.. وهذا هو سر الخلافة المخصوصة بالإنسان. فالعرض عام على المخلوقات كلها: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال: فأبين أن يحملنها﴾[9] ولكن محل الفيض الأعلى

---

(8) سورة القمر الآية ٥٣.

(9) سورة الأحزاب الآية ٧٢.

خاص بالإنسان لأنه قلب العالم.. ولهذا قال الله تعالى عن الإنسان: ﴿إنه كان ظلوما جهولا﴾[١٠] فالظالم هو الذى يظلم غيره.. والظلوم هو الذى يظلم نفسه.. والجاهل هو الذى يجهل غيره.. والجهول هو الذى يجهل نفسه.. والإنسان ظلوم جهول. ولهذا قيل: (من عرف نفسه فقد عرف ربه) فالموجودات كلها مملكة واحدة.. وبدن الإنسان مملكته الخاصة.. فإذا نفذت مشيئته فى صفات قلبه وجوارحه.. فهو مالك مملكة نفسه بقدر ما أعطى من القدرة عليها.

قلت: لعلك تقصد يا سيدى أن أتحكم فى نفسى لكى أكون مَلِكا لها؟

قال: نعم.. فإذا تحكمت هى فيك.. بتنفيذ شهواتها ورغباتها.. كانت هى الملكة وأنت عبد لها: ﴿ومن أضل ممن اتبع هوَاه بغير هدى من الله﴾[١١]. وهذا هو الضلال البعيد.. والشقاء المديد.

فإذا أنت ملكت نفسك.. وجعلتها متطابقة مع النظام الكونى كله.. فى التزام الحدود.. والتسليم المطلق لمالك الملك.. كنت جديرا بحمل الأمانة.. فالأمانة هى الفناء فى الله.. والبقاء بالله.. وهى قبول الفيض الإلهى بلا واسطة.. كما استمعت خطاب ﴿ألست بربكم﴾ بلا واسطة.

قلت: لعلك تقصد حديث العهد فى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾[١٢].

قال: نعم أقصد هذا فقد تلقينا الخطاب من الله تعالى.. فى هذا العهد. تلقِّيًا فيضيًّا مباشرا.. وأقرت الحقائق الروحية لجميع بنى آدم بقولها: ﴿بلى﴾ ولو قالوا نعم.. لكفروا.. لأن نعم لتقرير ما سبق من النفى.. وبلى لإثبات ما بعد النفى.

قلت: لقد استطرد بنا الحديث عن الإنسان.. قلب العالم.. عن موضوع السؤال.. وهو ارتباط شجرة التفاح بوحدانية الكون.

قال: نعم. لقد ذكَّرْتنى.. فالحديث ذو شجون.. وإن كان الموضوع واحدا.. ونحن لم نبعد عن محور السؤال كثيرا.

فكل ما فى الكون يسير على نمط واحد.. يخدم بعضه بعضا.. والكل يخدم الإنسان.. فأنت إن شكوت الإمساك.. وهو أمر يدخل علاجه فى أثر الناموس الكونى.. فى عالم النبات.. فإنك ترى أنك لو جلست تحت ظلال الكروم.. وفى متناول يدك قطوف دانية من العنب.. فتناول منه عنقودا.. ثم أبشر بزوال الإمساك بحصولك على كمية كبيرة من الجلوكوز.. فى مقابل ثمن زهيد.

فاسأل نفسك بعد أن تتخلص مما يضرك من الفضلات.. نعم اسأل نفسك.. هل تنكر شعورك بوحدانية - مالك الملك - الذى دبّر وصنع لك من لدنه كروم الأعناب؟ فهكذا يا أخى وعلى هذا النحو تستطيع أن تدرك العلاقة الوثيقة بين وحدانية التدبير الجامع الشامل.. عن طريق النواميس الكونية وقوانينها التى لا تنحرف مثقال ذرة.. ولا أصغر من الذرّة ﴿سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾[١٣]. نعم: ﴿لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس

---

(١٠) سورة القصص الآية ٥٠.
(١١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.
(١٢) سورة الإسراء الآية ٧٧.
(١٣) سورة الروم الآية ٣٠.

لا يعلمون﴾[١٤]. لأن الإسلام هو دين الفطرة: ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾[١٥] فالكون متماسك الأطراف.. متحد القوى.. متناسق الحركة.. متناسب الوضع.. متلائم الطبع. تتعاون فيه القوى المختلفة بين السماوات والأرض على إعداد جزئياته وكلياته.. فلا تشذ قوة من تلك القوى العلوية والسفلية.. عن نظام الوحدانية الكونية. التى يسميها فلاسفة اليونان - وحدة الوجود.. ويسميها فلاسفة الإسلام.. الكل الطبيعى - وهو عندهم غير الكل الوجودى.. لأن الطبيعة فى اللغة. على وزن - فعلية - بمعنى مفعولة.. أى أنها مطبوعة. وطابعها - سبحانه - إنما أنشأها بقوة الكل الوجودى السابق على الكل الطبيعى فالمعقول أن المؤثر سابق قبل الأثر.

قلت: هل من الممكن ضرب مثل يقرب معنى تلك العبارة الأخيرة «المؤثر سابق على الأثر».

قال: أضرب لك المثل بوجود بَعْر جمال فى مكان ما.. هذا البعر يدل على وجود المؤثر. وهى الجمال قبل وجود هذا الأثر.. الذى هو البعر.. ولو لم توجد الجمال فى هذا المكان لما وجدنا فيه بعرا.

وأضرب لك مثلا آخر بوجود آثار أقدام على رمال الصحراء.. فلو لم توجد أولا أقدام مشت فوق هذه الرمال.. والأقدام هى المؤثر - لما وجدت آثار تلك الأقدام.. وهكذا.

ويبدو فى هذا الشوط الذى خطونا به بين أنحاء مختلفة من نواحى مملكة - مالك الملك - لاحظنا حكمة التدبير.. ودقة التقدير.. تتجلى فى ميزان النواميس الكونية.

وقد أشار تعالى فى سورة الرحمن: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾[١٦].. وظاهر هذا النص يدل على أنه يعنى ميزان النواميس الكونية. وحركات السيارات الفلكية.

ولهذا كان جديرا أن يلفت نظر الإنسان لكيلا يحيد ذرة عن هذا الناموس الكونى.. وألا يطغى بظلم نفسه بالخروج على نظام هذا الميزان الكلى.. فقال تعالى بعدها مباشرة: ﴿ألّا تطغوا فى الميزان﴾[١٧]. بالانحراف عن الأسس التى قامت عليها السماوات والأرض.. فالمقصود بالطغيان هنا فى الميزان.. هو الميزان العقلى.. للالتزام الإدراكى بعدم الشطط والانحراف الفكرى عن الميزان الكونى.

أما فى ميزان التعامل الشخصى بيعا وشراء.. فقال: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾[١٨] وهذا كله واضح من ظاهر النص.

قلت: إذن لهذا الاسم - مالك الملك - علاقة قوية بأمر الرزق؟

قال: نعم.. ولهذا قيل: من ذكر بهذا الاسم.. بأن يقول: يا ألله يا مالك الملك ويجعلها وردا يوميا مائة مرة.. ثم يقول: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ إلى ﴿بغير حساب﴾[١٩].. أغناه الله تعالى عن سؤال الناس.. ورزقه من حيث لا يحتسب.

أما ترى معى أنه تعالى بحق.. هو ذو الجلال والإكرام؟

قلت: يبدو أننا انتقلنا إلى اسم جديد.

قال: نعم فإلى صاحب الجلال.. ومصدر الإكرام.

---

(١٤) سورة الرحمن الآية ٧.
(١٥) سورة الرحمن الآية ٧.
(١٦) سورة الرحمن الآية ٨.
(١٧) سورة الرحمن الآية ٩.
(١٨) سورة آل عمران الآيتان ٢٦، ٢٧.

٨٥ - ذو الجلال والإكرام

قلت: هل ورد اسم - ذو الجلال والإكرام - بهذا النص فى القرآن الكريم؟

قال: نعم.. ورد فى موقعين من سورة - الرحمن - هما: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[١] و: ﴿تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام﴾[٢].

قلت: وما معنى هذا الاسم؟

قال: الجلال له.. والإكرام منه، فلذاته صفات الجلال والكبرياء والعظمة والمجد والتنزيه.. ولخلقه منه إفاضة الجود والكرم والرأفة والحنان.. لا شرف ولا جلال ولا مجد ولا كمال.. إلّا هو له.. ولا كرامة ولا إكرام.. إلّا هو منه.

وقد اختلف العلماء فى تصوّر تلك المعانى. فقال البعض: الجلال: هو الوصف الحقيقى لذاته. والإكرام: هو الوصف الإضافى إليه. وقال آخرون: الجلال صفة ذاته.. والإكرام صفة فعله. وهذا الاسم فى الحقيقة.. اسم جامع لجميع الصفات.. سواء أكانت صفات ذاتية.. أم صفات إمدادية.

قلت: وما معنى الصفات الذاتية.. والصفات الإمدادية؟

قال: مثلا من صفاته الذاتية: الأحد الصمد - ومنه تستمد الخلائق الوجود.. فهو خالق - بارىء - مصور - مبدئ - معيد - محيى - مميت - باعث - شهيد - مقتدر - مالك الملك - فهذه كلها إمدادية.

ومن صفاته الذاتية: الرحمن - ومنه تستمد الخلائق الرحمة. فهو رحيم - رءوف - سلام - مقيت - رازق - وهاب - كريم - فتاح - باسط - مجيب - ودود - رافع - معزّ - مُغْنٍ - نافع - حليم - صبور - نور - هادٍ - وهذه صفات إمدادية.

ومن صفاته الذاتية: الماجد - فياض بالمجد على خلقه. فهو مجيد - حميد - حسيب - جليل - ولى - وكيل.

ومن صفاته الذاتية: المؤمن - والمهيمن - والعزيز - والجبار - والمتكبر - والحكيم - والحكم العدل - والعظيم - والعلى - والكبير - والقوى - والمتين.

ولهذا تخشى الخلائق عقابه.. ويرهب أهل المعرفة جلاله.. لأنه - سبحانه - للكفرة والفجرة قهار - مذلّ - قابض - مؤخر - خافض - مانع - ضار - منتقم.

ألم تر معى أنه تعالى - ذو الجلال والإكرام؟

قلت: ما دام هذا الاسم كذلك.. أما يكون هو الاسم الأعظم؟

---

(١) سورة الرحمن الآية ٢٧.

(٢) سورة الرحمن الآية ٧٨.

قال : جاء فى بعض الروايات.. أنه اسم الله الأعظم.. فقد قيل : إن رسول الله - ﷺ - كان مارا فى الطريق فسمع أعرابيا يقول : «اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم.. العظيم.. الحنّان.. المنّان.. مالك الملك.. ذى الجلال والإكرام». فقال - ﷺ : «إنه دعا باسم الله الذى إذا دعى به أجاب.. وإذا سئل به أعطى» كما جاء فى الحديث : «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام». أى الزموا الدعاء بهذا الاسم.

والله تعالى أعلم بحقائق أسراره.

قلت : جاء فى الآية الأولى التى عرضتها فى أول بحثنا فى هذا الاسم.. قوله تعالى : ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. فما معنى ﴿وجه ربك﴾ ؟

قال : تقول الآية : ﴿كل من عليها فان *ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فظاهر النص يفيد أن كل من على الأرض من مخلوقات يفنى وينعدم.. ولا يبقى غير وجه الله تعالى : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾(٣).

ولكن أصحاب المعانى.. اتجهوا إلى معنى آخر للفظ - وجه - فى الآية الأولى : ﴿ويبقى وجه ربك﴾ فنزّهوه - تعالى - عن الوجه والجهة.. وربطوا هذه الآية بقوله تعالى : ﴿كل شىء هالك إلّا وجهه﴾(٤) وقالوا إن الضمير فى اللغة يعود إلى أقرب مذكور.. فالضمير فى - وجهه - يعود - على أساس تلك القاعدة اللغوية - إلى أقرب مذكور.. وهو - الشىء - فيكون المعنى : كل شىء هالك إلا وجه الشىء ذاته.

قلت : وما معنى وجه الشىء ؟

قال : لكل شىء صورة.. ولكل شىء حقيقة.. فحقيقة الشىء هى وجهه.. وبمعنى أقرب.. كل شىء له جسم وله روح.. فالجسم هو الصورة.. والروح هى الحقيقة.. والحقيقة هى وجه الشىء.. فالشىء يفنى بصورته التى هى على الأرض.. أما حقيقته ووجهه فلا يسرى عليها حكم الفناء.. لأن الله - تعالى - قال : ﴿كل من عليها فانٍ﴾.. ومن عليها هو الجسم أو الصورة.. أمّا الروح أو الحقيقة.. فهى من روح الله.. فلا يسرى عليها حكم الفناء. وهنا يتضح لنا معنى ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فالمقصود بالبقاء.. هو وجه الله فى نفس الشىء.. يعنى روحه وحقيقته.

قلت : وكيف نوفق بين مفهوم الآيتين : ﴿كل شىء هالك﴾ و : ﴿كل من عليها فان﴾.. وبين مفهوم الحديث الشريف الذى يقول : «كل ابن آدم يفنى إلا عجب الذنب».. أليس هذا استثناء من الصورة الجسدية.. التى يسرى عليها الفناء.. من غير استثناء ؟

قال : لقد وضعت يدك على حقيقة خطيرة.. يجب تصحيحها فى مفاهيم الكثير من الناس.

فقد زعم الضالون أن الله تعالى إذا شاء بعث الخلق يوم القيامة.. وإعادتهم للثواب أو العقاب.. أعادهم من أعجاب أذنابهم.. وقالوا إن أعجاب الأذناب لا تبلى مع عظام الموتى.. وعجَب الذَّنَب يعنى الطرف السفلى للعمود الفقرى.. وهذا رأى كاذب مأفون.. لأن الله تعالى غنى عن مثل هذا.. فهو القائل : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾(٥).. فهل بدأ الخلق من أعجاب أذناب ؟

---

(٣) سورة البقرة الآية ١١٥.

(٤) سورة القصص الآية ٨٨.

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٠٤.

ولقد افترى المفترون الضالون المضلون على رسول الله - ﷺ - فوضعوا حديثا لا رواة له يقول: «كل ابن آدم يفنى إلا عجب الذنب».. وهذا قول باطل.. لا يقوله من لا ينطق عن الهوى.. لأن الله - تعالى - قال: ﴿كل شيء هالك﴾.. ولفظ ﴿هالك﴾ شامل للحال والاستقبال معا.. لأن فقه اللغة يدل على أن اسم الفاعل حقيقة فى الحال.. مجاز فى الاستقبال.. كما تقول: - محمد قائم -.

فالبدن كله جسم حيوانى.. لا يتعلق به شيء من الشئون العلوية التى تظهر واضحة فى قوله تعالى من سورة يس: ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾.. أى مما نأكل من نباتات الأرض ومنتجاتها.. مما يكوّن الخلايا والدم والعظام.. هذه واحدة ﴿ومن أنفسهم﴾ أى من المادة المنوية المستخلصة من نفس الزوجين - لتكون نواة لخلق جديد.. وهذه واحدة ثانية. ﴿ومما لا يعلمون﴾(٦).. وهذا الذى لا يعلمه أحد.. هو السر العلوى الخالد.. الذى لا يفنى.. وهو وجه الله فى الإنسان والأشياء.. تتبدل حوله الأجسام وهو ثابت ثبوتا ذاتيًا.. وثباتا جذريًا.. له البقاء.. ولا يسرى عليه الفناء. وعلى أساس من هذا الفهم نعلم من قوله تعالى: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض﴾(٧) فلم يستثن أحدًا ممن فى السموات.. وممن فى الأرض.. من ملائكة وجن وإنس.. إلا من شاء هو - سبحانه - واستأثر بعلمه.. لعدم إمكان الإحاطة من السامعين بجميع ما لله - تعالى - من كائنات وأكوان لا نهاية لها فى علمنا. أقول: نفهم أن الصعق للملائكة - وهم من نور - بمعنى انطفاء ذلك النور. وللجن - وهم من نار - بمعنى همود تلك النار.. وللآدميين بمعنى انسحاب سر الحياة المجهول.. الذى أشارت إليه الآية السابق ذكرها بقوله: ﴿ومما لا يعلمون﴾.. فلم يبق على الأرض إلا ما يعلمون.. وهو ﴿مما تنبت الأرض ومن أنفسهم﴾ وهذا هو القسم الهالك الفانى.. أما القسم المجهول المستثنى من الفناء.. الذى هو وجه الله.. فهو سرٌ.. والسرّ لا يمكن شرحه.. لا فى الإنسان.. ولا فى الجن.. ولا فى الملائكة. فسبحان من لا يعلم أسراره سواه.

أما ترى معى أن الله - سبحانه - هو ذو الجلال والإكرام؟

قلت: هل أستطيع أن أقول: إن لهذا الاسم - ذى الجلال والإكرام - أثرا فى تكريم بنى آدم.. وتفضيلهم على كثير من الخلق؟

قال: هو نفس المعنى المقصود فى قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾(٨) فهذا التكريم.. من تجليات الاسم الكريم - ذى الجلال والإكرام.

قلت: أليس الإكرام هو معنى الإنعام؟ .

قال: الإكرام قريب من معنى الإنعام.. إلا أنه أخص من الإنعام.. فقد ينعم الله على عبد.. ولكن لا نقول أكرمه.. أما إذا أكرم عبدا.. فيصح أن نقول: أنعم الله عليه.

وإكرام الله تعالى للعبد.. يكون فى الدنيا معجلا.. وفى الآخرة مؤجلا.. فقد يربى الله عبدا برحمته.. ويتولى جميع أمره بفضله وجوده.. من يوم مولده إلى يوم مماته.

---

(٦) سورة يس الآية ٣٦.
(٧) سورة الزمر الآية ٦٨.
(٨) سورة الإسراء الآية ٧٠.

وأقرب مثل حول هذا المعنى.. إكرامه لموسى – عليه السلام – ألقته أمه فى اليم فى الفجر متوكلة على الله.. فردّه إليها قبل الظهر.

وقد رأينا أن الله – تعالى – ربّاه فى حجر عدوه.. وصرف عنه كيده وأذاه.

وقد جاء فى بعض الروايات: أن فرعون قتل فى تلك الأيام آلاف الصبية ليصل إلى قتل موسى.. وموسى فى بيته يربيه. أما ترى أنه تعالى – ذو الجلال والإكرام –؟ وانظر إلى أم مريم – عليها السلام – لما قالت: ﴿رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم﴾(٩) وبعد أن وضعتها وجدتها أنثى.. فخجلت من ربها.. لأنها تعلم أن الأنثى لا تصلح لخدمة المسجد.. ولكن ذا الجلال والإكرام.. كرّمها.. وتقبلها منها بقبول حسن.. وأنبتها نباتا حسنا.. وبلّغها المقام السامى.. والدرجة العالية..

أما ترى أنه – ذو الجلال والإكرام –؟

قلت: وما أثر هذا الاسم الكريم فى حياة الإنسان؟

قال: لقد رأيتَ أن من سلّم إليه ولده.. رباه فى حجر عدوه.. وصرف عنه كيده.. فمن سلّم إلى الله قلبه حفظه ورعاه.

وقد جاء فى الخبر: أن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن. أى بين نعمتين من نعمه.. فهل يضيعه ولا يحفظه؟.. حاش لله.

كما رأينا أن ذا الجلال والإكرام.. لم يردّ مريم عن خدمة بيته لأنوثتها.. فهل ترى أنك لو سلمت قلبك لمصاحبة الجليل الكريم.. يردّه بسبب عيب فيك بزلّة من زلات البشر؟.. كلا إنه تعالى لن يردّه أبدا.

وقد روى أن العبد إذا همّ بمعصية.. يقول الله – تعالى – له: ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾(١٠).. فإذا عمل المعصية.. قال الله تعالى له: ﴿وتوبوا إلى الله﴾(١١).. فإذا أصرّ العبد على عصيانه.. قال له: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾(١٢).

نعم.. بئس البدل من الله تعالى.. فإن الله عزيز وغيره ذليل وإذا كان الله تعالى ينعم على العبد.. والعبد يشكر غيره.. ويرزقه والعبد يخدم غيره.. ويعطيه والعبد يسأل غيره.. فقد أخطأ طريق الهدى.. وسلك سبيل الردى.. ولهذا قيل: إذا ذكرت اسم الله تعالى «ياذا الجلال والإكرام» مائة مرة.. لمدة سبعة أيام – فرج الله كربك.. وطهر قلبك من الأغيار.. وملأ جوارحك بالأنوار.. وقطع عنك الوسواس.. وأبعد عنك الخناس.. وهيا إلى الاسم التالى – المقسط – إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(٩) سورة آل عمران الآية ٣٥.

(١٠) سورة الزمر الآية ٥٤.

(١١) سورة النور الآية ٣١.

(١٢) سورة الكهف الآية ٥٠.

٨٦ - المقسط

قلت: ما هو الاسم التالى؟

قال: الاسم التالى هو اسمه تعالى - المقسط -.

قلت: وما معنى القِسط فى اللغة؟

قال: القسط - بكسر القاف - يعنى العدل.. والقُسوط - بضم القاف - يعنى الظلم والجور والعدول عن الحق.. ولهذا نقول: الله يقبض ويبسط.. ويُقسِط ولا يَقْسُط - بضم الياء وكسر السين فى الأولى.. وفتح الياء وضم السين فى الثانية.

ومن أجل هذا كان المقسط من أقسط: يعنى العادل.. ومنه قوله تعالى: ﴿إن الله يحب المقسطين﴾[1].

أما القاسط من قَسَط - بفتح السين - فهو الظالم.. ومنه قوله تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾[2].

والقسطاس: هو الميزان.. فيقول تعالى: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾[3]. وتقول: فلان يقيس الأمر بمقياسه.. ويزنه بقسطاسه. والقسط أيضا: الحصّة والنصيب.

قلت: وهل معنى الاسم الكريم - المقسط - يؤدى معنى العادل.. كما هو ظاهرٌ فى اللغة؟

قال: إن هذا الاسم يؤدى معنى العادل.. فهو - سبحانه - القائم بالقسط.. المقيم للعدل.. ينتصف للمظلوم من الظالم.. ولكن عدله - تعالى - يختلف عن عدل قضاة البشر.. فكما له - تعالى - فى أن يضيف إلى إرضاء المظلوم إرضاء الظالم.. وذلك غاية العدل والإنصاف.. ولا يقدر عليه إلا الله تعالى.

قلت: وكيف ينتصف للمظلوم من الظالم.. مع إرضاء الظالم؟

قال: يرد على سؤالك هذا.. المعصومُ - ﷺ -. فقد روى الحاكم وغيره عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ بينما هو جالس.. إذ ضحك حتى بدت ثناياه.. فقال عمر - رضى الله عنه - بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. ما الذى أضحكك؟ قال: «رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة.. فقال أحدهما: يارب خذ لى مظلمتى من هذا.. فقال الله - عز وجل - ردّ على أخيك مظلمته.. فقال: يارب لم يبق من حسناتى شىء.. فقال عز وجل للطالب: كيف تصنع بأخيك.. لم يبق من حسناته شىء.. فقال: يارب فليحمل عنى من أوزارى».

ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالدمع.. وقال: «إن ذلك ليوم عظيم.. يوم يحتاج الناس إلى أن يُحمل

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩.

(٢) سورة الجن الآية ١٥.

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٥.

عنهم من أوزارهم.. قال: فيقول الله - عز وجل - للمتظلم: ارفع بصرك فانظر فى الجنان.. فقال: يارب أرى مدائن من فضة.. وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ.. لأى صدّيق أو لأى شهيد هذا؟... قال الله - عز وجل - لمن أعطى الثمن.. فقال: يارب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه.. قال: بماذا يارب؟.. فقال: بعفوك عن أخيك.. قال: يارب قد عفوت عنه.. قال الله - عز وجل -: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة».

قال - ﷺ -: «اتقوا الله.. وأصلحوا ذات بينكم.. فإن الله - تعالى - يصلح بين المؤمنين يوم القيامة».

فهذا سبيل الانتصاف والإنصاف.. ولا يقدر عليه إلا الله - تعالى -.

قلت: إذن لاداعى لأن أنتصف لنفسى مادام الله تعالى سوف ينتصف لى.

قال: أوفر الناس حظا.. وأوفاهم فى الآخرة نصيبا.. من ينتصف أولا من نفسه.. ثم ينتصف لغيره من غيره.. ولا ينتصف لنفسه من غيره.

قلت: إن مما يؤلم النفس البشرية.. أن ترى الله - تعالى - يحلُم على الظالم.. فالله - تعالى - حليم.. ولكن لا صبر عند بنىُ آدم على هذا الحلم العظيم.

قال: روى أن أحد الصالحين مرّ برجل صلبه الحجاج.. فقال: يارب إن حلمك على الظالمين أضرّ بالمظلومين.. فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت.. وأنه دخل الجنة.. فرأى المصلوب المظلوم فى أعلى عليين.. وسمع هاتفا يقول: (حلمى على الظالمين.. جعل المظلومين فى أعلى عليين). وهذا سرّ من أسرار العدل الإلهى.

قلت: نحن نرى أن الظلم يزهو ويزدهر.. وأن العدل يخبو ويندثر.. فهل هذه حقيقة.. أم هو مرض فى بصائرنا.. فأصبحنا لا نميز الحقَّ من الباطل.. والثمين من الغث.. والهدى من الضلال.. والنورَ من الظلام.. والحُسْنَ من القبح.. والعدل من الظلم؟

قال: أراك منفعلا فى سؤالك هذا.. ولك العذر فى ذلك الانفعال.. ففى فترات الضلال.. التى تمر بالمجتمعات كالضيف الثقيل.. وليل الأسى الطويل.. يكون فى قلوب المؤمنين غيظ مكتوم.. وهموم وغموم.. أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم﴾(٤).

ولكن لو نظرنا بنور الله.. فى حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: «إن الله لا ينام.. ولا ينبغى له أن ينام.. يخفض القسط ويرفعه.. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار.. وعمل النهار قبل عمل الليل.. حجابه النور.. لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

أقول لو نظرنا فى هذا الحديث.. لوجدنا المقسط - جل شأنه - يخفض القسط أولا.. ثم يرفعه ثانيا... فجعل الخفض سابقا قبل الرفع.. لتكون النهاية دائما لرفع القسط والعدل.. وخفض الظلم والجور.

---

(٤) سورة التوبة الآيتان ١٤، ١٥.

ولهذا يقول فى محكم كتابه: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[٥] أما ترى بشفافية حسّك.. ونقاء بصيرتك.. أن الحق يأتى دائما على صورة المقذوف.. ليزهق الباطل ويمحوه.. وليعلن القرآن الكريم.. بقوله الحكيم: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾[٦]. أخى.. يرحمنى ويرحمك الله.. يجب أن تكون واثقا تمام الثقة.. موقنا غاية اليقين.. أن الله تعالى قائم بالقسط.. وله فى خلقه شئون وشجون.. تجرى على وفق علمه وحكمته .. يقدرها ويدبرها وينفذها حسب مشيئته.

واعلم أن من دخل نورُ اليقين قلبَه.. أمن سرُّه من اضطراب الشك.. وأمن عقلُه من هموم التدبير.. وأمنت روحُه من زحمة النفس.. وأمنت نفسُه من نفاذ الشهوة الخفية.

قلت: تقول اللغة: إن القسطاس هو الميزان.. وقد ذكرت فى حديثك حول اسم الله – مالك الملك – إن معنى الميزان فى قوله تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾[٧] يعنى ميزان النواميس الكونية.. وحركات السيارات الفلكية.. فما معنى الميزان فى قوله تعالى بعد تلك الآية مباشرة: ﴿ألّا تطغوا فى الميزان﴾[٨].

قال: قلنا سابقا: إن الكون كله متماسك الأطراف.. متحد القوى.. متناسق الحركة.. متناسب الوضع.. متلائم الطبع.. تتعاون فيه القوى المختلفة بين السماوات والأرض .. فلا تشذّ قوة من تلك القوى العلوية والسفلية.. عن نظام الوحدة الكلية الملكوتية.. واستقرار النواميس الكونية.. وحركات الرسالات الفلكية.. كلها تسير على نظام ثابت.. مستقر الدعائم.. فعليك أيها الإنسان المكرم فى هذا الكون العريض.. ألا تطْغَ ولا تشذّ ولا تتمرد على هذا الناموس.. فقد حدَّد المقسط – سبحانه – لك الحدود.. وبين لك الطريق المستقيم.. والصراط القويم.. وإلّا كنت نشازًا فى «سيمفونية» الكون.. فتكون من الذين كانوا أنفسهم يظلمون.. وهذا هو معنى: ﴿ألّا تطغوا فى الميزان﴾.

قلت: بقيت يا سيدى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾[٩].

قال: هذا ميزان البيع والشراء.. يجب أن يقوم على القسط والحق حتى لا تكون من المطففين: ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾[١٠].

قلت: ومن هم الذين تتحدث عنهم تلك الآية؟

قال: إن الله – تعالى – يوجه هذا التحذير والوعيد ﴿ويل للمطففين﴾ إخبارا للناس جميعا عن مصير هؤلاء.. الذين إذا أخذوا حقوقهم من الناس بالكيل.. أخذوها وافية تامة وقد تكون زائدة: ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾. وإذا باعوا وأعطوا بالكيل أو الميزان ينقصون: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ . فهؤلاء يتوعدهم الله – تعالى – بالويل والهلاك والعذاب الأليم .. فى كل مكان وزمان.

---

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٨.
(٦) سورة الإسراء الآية ٨١.
(٧) سورة الرحمن الآية ٧.
(٨) سورة الرحمن الآية ٨.
(٩) سورة الرحمن الآية ٩.
(١٠) سورة المطففين الآيتان ٢، ٣.

قلت: أرى فى تلك الآية لفتة غريبة.. ففى حالة شرائهم من الناس قال الله عنهم: ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾.

أما فى حالة بيعهم للناس قال عنهم: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ فلماذا ذكر الوزن مع الكيل فى حالة البيع.. ولم يذكر الوزن فى الشراء.. حيث قال: ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾.؟

قال: يبدو من تعبير القرآن الكريم - وهو دائما تعبير دقيق العبارات - أقول: يبدو أن المطففين كانوا فى حالة الشراء يأخذون كل شىء بالمكيال.. ولا يقبلون شراء شىء بالموازين.. وإنما كانوا يأخذون الأشياء التى توزن بالمكاييل أيضا.. لسهولة الغش بالكيل.. ويحتالون فى ملء المكيال وتطفيفه.

أما إذا باعوا.. كانوا يبيعون بالكيل أو بالميزان لإمكانهم البخس فى الحالتين.

قلت: حقا إنهم يستحقون المقت والويل والهلاك.

قال: ألم تر كيف فعل الله - تعالى - فى قوم نبيه شعيب - عليه السلام - وهم أهل مدين بعد أن ظل يدعوهم قائلا: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾[11]. ثم كرر عليهم الأمر بالقسط فى الكيل والميزان.. فقال: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾[12].

وطال الزمن بشعيب - عليه السلام - وهو يدعوهم إلى الخوف من الله.. فى البيع والشراء.. وهم لا يزدادون إلا إصرارا على الجور والبخس فى مكاييلهم وموازينهم.. وقال لهم زعماؤهم: ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذًا لخاسرون﴾[13]. فتضيع أموالكم.. وتخسر تجارتكم. فأرسل الله - تعالى - عليهم صيحة صاعقة من السماء.. وزلزلة راجفة من الأرض.. جعلتهم جاثمين على ركبهم هلكى.. يقول - تعالى - عنهم: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * الذين كذّبوا شعيبا كأن لم يَغْنَوْا فيها الذين كذّبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾[14].

هذا عن رجفة الأرض.. أما عن صيحة السماء.. فاقرأ قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾[15].

وما حصل بين شعيب - عليه السلام - وأهل مدين.. حصل بينه وبين أصحاب الأيكة.. بعد هلاك قوم مدين.. كانوا على سنّة أهل مدين فى بخس الكيل والميزان.. فقال لهم شعيب: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾[16]. فكان ردهم عليه كسابقيهم.. عنادا وكفرا ومكابرة.. ولم يكتفوا بهذا.. بل قالوا له للتحدى: ﴿فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين﴾[17].

فأنت ترى الآن.. أيها الأخ الحبيب.. أنهم كانوا أشد عتوا وفجورا من أهل مدين.. وكان الأولى

---

(11) سورة هود الآية ٨٤.
(12) سورة هود الآية ٨٥.
(13) سورة الأعراف الآية ٩٠.
(14) سورة الأعراف الآيتان ٩١، ٩٢.
(15) سورة هود الآية ٩٤.
(16) سورة الشعراء الآيات ١٨١ - ١٨٣.
(17) سورة الشعراء الآية ١٨٧.

بهم أن يتعظوا بما حصل لأهل مدين.. فبدلا من أن يطلبوا الهداية.. طلبوا العذاب.. وقد أتاهم العذاب من السماء كما طلبوا.. وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.. يقول تعالى: ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظُّلّة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾[18].

قال ابن عباس وغيره: فتح الله عليهم أبواب جهنم.. وأرسل عليهم حرا شديدا.. فأخذ أنفاسهم.. فدخلوا فى أجواف البيوت.. فلم ينفعهم ظل ولا ماء.. فأنضجهم الحر.. فخرجوا هربا إلى البرية.. فبعث الله عليهم سحابة أظلتهم.. ووجدوا لها بردا.. وجاءت ريح طيبة.. فنادى بعضهم بعضا.. فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم نارا.. فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلاة.. فصاروا رمادا.. وقال: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾.

وروى الثعلبى.. عن ابن عباس أيضا.. قال: بلغنى أن رجلا من أهل مدين يقال له: عمرو بن جلهم.. ولعله من الناجين مع شعيب - عليه السلام - لما رأى الظلة فيها العذاب.. اقشعرّ جلده وقال:

يا قوم إن شعيبا مرسَلٌ فذروا عنكم شَمِيرًا وعمران بن شدّادِ
إنى أرى غيمة يا قوم قد طلعت تدعو بصوت على حنّانة الوادى
فإنه لن يُرى فيها ضحاءَ غدٍ إلا الرقيم سيمشى بين أنجاد

وشمير وعمران: كاهنان من كهانهم.. والرقيم كلبهم.

أما ترى معى أن الله تعالى هو - المقسط -

هذا نصيبهم من الدنيا.. بما فعلته أيديهم.. وليجمعنهم إلى يوم الجمع لا ريب فيه..

وإلى لقاء جديد.. مع اسم جديد.. هو اسم - الجامع -

* * *

(١٨) سورة الشعراء الآية ١٨٩.

٨٧ - الجامع

قلت: أرى أن أجعل أول سؤال لى حول الاسم - الجامع - أن أسأل عن معناه لغويا.. فيخيّل إلىّ أنه اسم جامع لكثير من المعانى فى اللغة.

قال: حقا إنه اسم جامع لمعانٍ كثيرة:

(فجمع) الشيء المتفرق.. (وتجمّع) القوم: اجتمعوا من هنا وهنا. وسميت المزدلفة (الجمْع) لاجتماع الناس بها. (وجُمْع) الكف - بالضم - وهو حين تقبضها.. تقول: ضربه بجُمْع كفّه.. ويوم (الجمعة) بسكون الميم وضمها: هو يوم العَروبة فى الزمان الماضى.. بفتح العين. والمسجد يقال له (الجامع). (وأجمع) الأمر.. إذا عزم عليه.

والمكان (مجمَع) بفتح الميم الثانية وكسرها.. ويقال: (أجْمِعْ) أمرك.. قال تعالى: ﴿فأجمعُوا أمركم وشركاءكم﴾[(١)]. (واستجمع) السيل: اجتمع من كل جهة. (وجِماع) الشيء: (جَمْعُهُ).. فنقول: الخمر جماع الإثم. وغيرها فى اللغة كثير وكثير.

قلت: قبل أن أسأل عن معنى اسمه تعالى - الجامع - من هذه المعانى الكثيرة.. أقول: هل ورد اسم الله تعالى - الجامع - فى القرآن الكريم؟

قال: نعم جاء هذا الاسم خاصا بالله تعالى فى نجمين من النجوم القرآنية: فى قوله تعالى: ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾[(٢)] وفى قوله: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعًا﴾[(٣)].

قلت: أراك تقول: جاء هذا الاسم خاصا بالله تعالى مرتين.. فهل ورد هذا الاسم خاصا بغير الله تعالى؟

قال: ورد مرة بهذا النص اللفظى.. مشيرًا إلى الأمر.. فى قوله تعالى: ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾[(٤)].

قلت: هذا أمر آخر.. فما معنى اسم - الجامع - بالنسبة إليه تعالى؟

قال: الله تعالى.. هو جامع الكمالات كلها.. فى الذات والصفات والأفعال.. فهو - سبحانه - ليس كذاته ذات.. ولا كصفاته صفات.. ولا كأفعاله أفعال.

وهو جامع الناس ليوم لا ريب فيه: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾[(٥)]. وهو - سبحانه -

---

(١) سورة يونس الآية ٧١.
(٢) سورة آل عمران الآية ٩.
(٣) سورة النساء الآية ١٤٠.
(٤) سورة النور الآية ٦٢.
(٥) سورة الشورى الآية ٢٩.

جامع المنافقين فى «بدرومات» جهنم.. مع الكفار الذين يكونون فى أدوارها العليا.. فهو – سبحانه: ﴿جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعًا﴾(٦).

قلت: تقول إن المنافقين فى – بدرومات – جهنم.. والكافرين فى أدوارها العليا.. فما معنى هذا التعبير؟

قال: إن الله – تعالى – هو الذى قال هذا.. فى قوله – سبحانه –: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾(٧)، وكانوا جديرين بهذا الدرك الأسفل من جهنم.. لأن المنافقين هم الجراثيم التى تفتك بالمجتمع الإنسانى كله.. فى كل زمان وكل مكان.. يلقون هذا بوجه.. وذاك بوجه آخر.. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. يبثون الفتن.. وينشرون الدسائس:

﴿إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾(٨)، هؤلاء هم الذين: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا ولهم عذاب أليم﴾(٩)، فكانوا خليقين بأن يكونوا فى الدرك الأسفل من النار.

أما هؤلاء الكفرة.. فهم أرقى من المنافقين.. لأنهم أعلنوا رأيهم المأفون.. ولهذا استحقوا أن يكونوا فى الأدوار العليا من جهنم.

هذا هو الله – الجامع.

قلت: ذكرت ثلاثة معان لهذا الاسم الكريم: فقلت إنه تعالى جامع الكمالات كلها.. وجامع الناس ليوم الجمع.. وجامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعًا. فهل يحتمل هذا الاسم غير تلك المعانى؟

قال: يجب أن تعلم أنه اسم – جامع – يجمع الكثير من المعانى..

قال الإمام أبو حامد الغزالى.. فى كتاب – المقصد الأسنى: هو المؤلف بين الأشياء المتماثلة.. والأشياء المختلفة.. والأشياء المتنافرة.. جمع بين الخلق الكثير المتماثل.. من الإنس مثلاً على الأرض.. ويحشرهم فى صعيد واحد يوم القيامة.

وأما فى المختلفات: كالجمع بين الإنس والجن والوحش والطير والنبات والمعادن والسماوات والكواكب الثابتة والسيارة.. جمعها فى الكون وألّف بينها.. وجعلها تخدم بعضها.. فى تكامل محكم بديع.. مع اختلافها وتباينها فى الأشكال والألوان والأوصاف والطعوم.. جمع فى الجسم الواحد عظامًا ولحمًا.. وعَصَبًا ودمًا وعضلًا.. ومخًا وبشرة وأخلاطًا.. وجعلها جسمًا واحدًا.

وأما المتنافرات: فقد جمع – سبحانه – بين الحرارة والبرودة.. والرطوبة واليبوسة فى أمزجة الخلق.. مع أنها متنافرات متضادات متعاديات.

وقد قال بعضهم شعرًا.. يتحدث فيه عن الرابطة بين الجسم والروح.. فقال:

وما الخلق فى التمثيل إلا كثلجةٍ ... وأنت بها الماء الذى هو نابعُ
وما الثلج فى تشبيهنا غير مائه ... وضِدّان فى حكم دعته الطبائعُ

---

(٦) سورة النساء الآية ١٤٠.
(٧) سورة النساء الآية ١٤٥.
(٨) سورة البقرة الآية ١٤.
(٩) سورة البقرة الآيتان ٩، ١٠.

فذلك رطب.. ثم ذلك يابسٌ وهذان منها جامدٌ ثم مائعُ
ولكن بذوب الثلج يُرفع حكمُه ويثبت حكم الماء والأمر واقعُ

قلت: هل يطلق هذا الاسم - الجامع - على غير الله تعالى؟

قال: يطلق اسم الجامع على العبد.. إذا جمع بين علمه وسلوكه.. فيكون ظاهره صورة من باطنه.. هذا هو العبد الجامع.. ولذلك قال حكيم: «الكامل من لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه» بضم الراء فى الأولى وفتحها فى الثانية.. بمعنى اجتماع المعرفة والورع.. أو العلم والعمل.. وهو ما نسميه العالم العامل.. وهو قليل.. فالجمع بين الصبر والبصيرة متعذر.. ولذلك نرى إنسانًا يصبر على الزهد والورع.. وهو لا بصيرة له.. كما نرى إنسانًا ذا بصيرة ولا صبر له على العبادة.

والعبد الجامع هو الذى يجمع بين الصبر والبصيرة.

وكذلك يطلق اسم - الجامع - على المسجد.. لأنه المكان الذى يجمع المسلمين للعبادة.. كما ذكرنا فى البحث اللغوى حول هذا الاسم.

قلت: سمعت الله تعالى يقول عن القرآن الكريم: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾[١٠] فما معنى هذا؟

قال: هذه الآية وردت فى سورة القيامة.. وقد ذكّرتنى تلك السورة بصورة من صور يوم الجمع.. وهى صورة تهز الوجدان.. وتثير الأشجان.. وتزلزل الكيان: ﴿فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجُمِعَ الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾[١١].

ولا تؤاخذنى إذا كنت قد خرجت عن موضوع السؤال.. فقد أفزعنى هذا المشهد الرهيب: يوم تبرق الأبصار.. وتخسف الأقمار.. وتجمع وتتلاشى الشموس والأقمار.. فهل من سبيل للفرار؟؟ ياله من يوم.. إنه يوم الجمع.

ونعود إلى السؤال.. وهو معنى قوله تعالى فى هذه السورة عن القرآن الكريم: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾.. فنقول:

كان إذا نزل الروح الأمين - جبريل عليه السلام - على القلب الأمين قلب محمد - ﷺ - ليحصل التفاعل والاستنبات.. لإبراز نجم جديد - من نجوم القرآن العظيم.. وإظهار آية من آيات الكتاب الكريم.. كان - ﷺ - يرى الآيات مشهودة فى صدره الشريف.. قبل أن تكون آية ملفوظة.. وكأنه - ﷺ - كان يخشى زوالها من صدره.. فكان يحاول إخراجها عن طريق لسانه قبل أن تزول.. فيقول الله - تعالى - له: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾[١٢].

ويقول له أيضًا: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه﴾[١٣].

بمعنى أنك يا محمد لا شأن لك بإخراج الآيات.. أو تحريك لسانك بالكلمات.. وإنما علينا نحن إخراجه.. فنحن الذين نحرك لسانك لإخراج الألفاظ والعبارات - وذلك لأنه كلام الله تعالى وليس كلام محمد - ألم تر أن جسمه الشريف كان يرتجف ويتصبب بالعرق الذى يتساقط من جبينه مثل

---

(١٠) سورة القيامة الآية ١٧.
(١١) سورة القيامة الآيات ٧ - ١٠.
(١٢) سورة طه الآية ١١٤.
(١٣) سورة القيامة الآيتان ١٦، ١٧.

حبات اللؤلؤ.. لأن الله تعالى كان يستعمل لسانه ليتكلم بكلامه الكريم؟

ولهذا قال بعد تلك الآية مباشرة: ﴿فإذا قرأناه﴾ نحن وأخرجناه ألفاظًا منطوقة.. وآيات مسموعة ﴿فاتبع قرآنه﴾ أنت ومن اتبعك من المؤمنين ﴿ثم إن علينا بيانه﴾[١٤].

فالله - سبحانه - هو جامع القرآن الكريم.. وهذا المعنى هو ظاهر النص كما ترى.

قلت: ذكرتَ فى المعانى اللغوية عن اسم - الجامع - أن يوم الجمعة هو يوم العَروبة فى الزمان الماضى - فما معنى هذا؟

قال: كانت أيام الأسبوع فى أول أزمان البشرية.. تختلف عن أسمائها الحالية.. فكان يوم الجمعة اسمه يوم العَروبة.

قلت: وهل من الممكن أن نعرف أسماء الأيام كلها فى هذا الزمن الماضى؟

قال: لا مانع أن أذكر لك أسماء الأيام السبعة فى زمن نبى الله - صالح - الذى بعثه الله تعالى إلى قوم ثمود - عاد الثانية - من قبل إبراهيم - عليه السلام - فكان:

يوم الأحـد: اسمه - الأوّل -.

ويوم الاثنين: اسمه - هُون -.

ويوم الثلاثاء: اسمه - جَبَار - بفتح الجيم والباء.

ويوم الأربعاء: اسمه - دَيَار - بفتح الدال والياء.

ويوم الخميس: اسمه - مؤنس.

ويوم الجمعة: اسمه - العَروبة - بفتح العين.

ويوم السـبت: اسمه - شَبَار - بفتح الشين والباء.

وقد جمعها شاعرهم فى بيتين من الشعر.. هما:

أؤمّـــل أن أعـيش وأن يــومى ... بــأوّلَ.. أو بهُــونٍ.. أو جَبَــارْ

أو المُرْدِى - دَيَارُ - فإن أفُته ... فمؤنسُ.. أو عَـروبةٌ.. أو شَبَـارْ

والمردى: يعنى المهلك.. فقد كان هلاك قوم ثمود فى يوم الأربعاء.. كما قيل إن عذاب الأقوام السابقة كلهم كان يوم الأربعاء.

قلت: ألم يرد الجمع فى ظلال أسماء أخرى؟

قال: جاء الجمع فى ظلال الرحمة.. فى مثل قوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعَنكم إلى يوم القيامة﴾[١٥].

قلت: إن الله تعالى - قادر على أن يجمع الناس على الهدى.. فلماذا ترك الضالين فى ضلالهم؟

قال: نعم.. هو - سبحانه - قادر على كل شىء.. وقد قال: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على

---

(١٤) سورة القيامة الآيتان ١٨، ١٩.

(١٥) سورة الأنعام الآية ١٢.

الهدى﴾[١٦] وقال: ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا﴾[١٧].

نعم لو شاء لأجبر الناس جميعًا على الهدى والإيمان.. ولكنه تعالى يريد منا أن نهتدى باختيارنا.. لنستحق هذا الأجر العظيم.. والفضل العميم.. والنعيم الخالد.. والسعادة الأبدية.. لقد وهبنا - عز وجل - العقل بجميع أعوانه.. من الحواس والمدارك.. لنرى الحق فنتبعه.. ونرى الضلال فنجتنبه.. فيكون هُدانا باختيارنا.. وضلالنا باختيارنا.. وليكون الجزاء ثوابًا أو عقابًا صدقًا وعدلاً.

قلت: وهل يجوز الذكر باسم - الجامع.

قال: نعم.. وقد قيل من يذكره ثلاثمائة مرة.. لمدة سبعة أيام.. يجوز تجديدها.. جمع الله تعالى - بينه وبين مقاصده.. فيما تصبو إليه نفسه من عوامل الخير.

وإذا ذكره من ضاعت له حاجة بقوله: «اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه.. اجمع علىّ ضالتى». ردّ الله ضالته بإذنه تعالى.. وقالوا: إنه مجرّب أكيد.

وهكذا ترى أن الله غنى.. فإلى اسمه - تعالى - الغنى المغنى.

* * *

---

(١٦) سورة الأنعام الآية ٣٥.

(١٧) سورة يونس الآية ٩٩.

٨٨ - الغنى
٨٩ - المغنى

قلت: كم مرة ورد اسم - الغنى - فى القرآن الكريم؟

قال: ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم - مفردًا - خمس مرات، منها: قوله تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم﴾[١]. وقوله: ﴿ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء﴾[٢].

قلت: وهل جاء مقترنًا بأسماء أخرى؟

قال: اقترن اسم - الغنى - بالاسم - الحليم - مرة - فى قوله تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم﴾[٣].

واقترن بالرحمة مرة.. فى قوله تعالى: ﴿وربك الغنى ذو الرحمة﴾[٤].

كما اقترن باسم - الكريم - مرة أيضًا.. فى قوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾[٥].

أما اسم - الحميد - فقد اقترن به عشر مرات.. فى مثل قوله تعالى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعًا فإن الله لغنى حميد﴾[٦]. وقوله تعالى: ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾[٧].

قلت: وما معنى اسمه تعالى - الغنى؟

قال: الاسم - الغنى - بمعنى عدم احتياجه - تعالى - إلى شىء.. ولا إلى أحد.. لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال.. مع افتقار كل ما سواه إليه. فهو - سبحانه - لا تعلق له بغيره لا فى ذاته.. ولا فى صفات ذاته.

قلت: المعنى واضح فى غناه تعالى عن كل شىء.. ولكن هل من الممكن أن نقارن بين غنى الله - تعالى - وغنى الخلق الذين نطلق عليهم اسم - أغنياء؟

قال: اسم - الغنى - بالنسبة إلى الله - تعالى - يدل على كمال غناه بذاته.. وهذا هو ما يفهم من الصفة الخامسة.. وهى - قيامه تعالى بنفسه - وقيام كل شىء وكل نفس به.. كما قال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[٨]. وقد أشرنا إلى هذا المعنى فى الاسم - القيوم.

ومتى كان غير محتاج إلى سواه.. ثبت غناه بذاته - وعدم افتقاره إلى سبب أو طبع أو علّة.. كما قال صاحب الجوهرة.

---

(١) سورة الزمر الآية ٧.
(٢) سورة محمد الآية ٣٨.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٣.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٣٣.
(٥) سورة النمل الآية ٤٠.
(٦) سورة إبراهيم الآية ٨.
(٧) سورة فاطر الآية ١٥.
(٨) سورة الرعد الآية ٣٣.

ومن يقل بالطبع أو بالعلّة   فذاك كفر عند أهل الملّة

لأن الغنىّ بذاته غير مقيد بطبع.. فهو منزه عن ذلك.. وهو أيضًا منزه عن العلل التى هى سبب الأشياء ومقدماتها.. لأنه هو سبب الأسباب.. دون أن يتقيد بوجه من الوجوه.

ومتى ثبت عدم احتياجه إلى سواه.. تبين أن - المغنى - هو الذى يفيض بكل شىء.. على من شاء بما شاء.. ولا مستكره له ولا قاهر عليه.. لأنه وَحْده: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة﴾[9]. ومن هنا ترى أنه لا تصح المقارنة بين غنى الله وغنى الناس.. فإطلاق اسم الأغنياء على بعض البشر.. إنما هو إطلاق مجازى.

ومن النكت اللفظية.. أن نقطة «النون» فى لفظ - أغنياء - لو انحدرت من علوها إلى أسفل حرفها لصارت - أغبياء.

قلت: أليس معنى الغِنى هو كثرة المال؟

قال: يردّ على سؤالك هذا المعصوم - صلوات الله وتسليماته عليه - فى قوله: «ليس الغِنى عن كثرة العرض.. ولكن الغِنى غِنى النفس» وطالب المال لا يشبع.. ولهذا قال حكيم: «منهومان لا يشبعان: طالب علم.. وطالب مال».

وإغناء الله - تعالى للخلق ينقسم إلى قسمين: فمنهم من يغنيه بتنمية أمواله.. ومنهم من يغنيه بصلاح أحواله.. وهذا هو الغنى الحقيقى.

وأعلى درجات الغِنى بالمال.. هو الاكتفاء بالموجود.. يقول تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾[10].

فغنى النفوس هو العفافُ.. فإن أَبَتْ   فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

فالله - تعالى - يغنى من يشاء غنى روحيًا أو ماديًا.. ويهدى من يشاء من ذوى الاستعداد للهدى واللياقة.. ويضل من يشاء من ذوى الاستعداد لعدم البصيرة.. كما قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾[11]. ومعنى هديناهم هنا: أى دللناهم على طريقى الخير والشر.. فاستحبوا الشر.. وأعرضوا عن الخير عامدين.. ولو علم الله فيهم خيرًا.. لهدى قلوبهم.. ولأسمعهم ما ينير بصائرهم ببصائر آياته.

قلت: كيف تكون الآيات بصائر؟

قال: قالها - سبحانه وتعالى - على لسان موسى لفرعون. فى قوله: ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلاّ رب السماوات والأرض بصائر وإنى لا أظنك يا فرعون مثبورًا﴾[12].

وهكذا تتوجه بصائر الآيات إلى بصائر المؤمنين فقط.. والبصائر فى قلوب المؤمنين أو صدورهم.. كما تشير الآية: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾[13].

---

(٩) سورة الأنعام الآية ٦١.
(١٠) سورة البقرة الآية ٢٧٣.
(١١) صورة فصلت الآية ١٧.
(١٢) سورة الإسراء الآية ١٠٢.
(١٣) سورة الحج الآية ٤٦.

فما استحب قوم ثمود العمى على الهدى.. إلّا لأنهم لا بصائر لهم.. ولا ضمائر عندهم. فأعمالهم هباء.. وأفئدتهم هواء.. فلو أغناهم - المغنى.. من غناه الروحى الواسع لاهتدوا.. ولو اهتدوا ما عموا ولا صمُّوا.. لأن الذين أوتوا البصائر: ﴿إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا﴾(١٤). فيكون الاسم - المغنى - هو المتجلِّى الذاتى لاسم - الغنى.. وحيث أن الغَنى يمنح العزة.. وينشئُ دعائم الكرامة.. بما يفيض على النفس من تجليه الواسع العميم.. فإن ما يقابل غنى النفس.. هو فقر النفس.. والإحساس بالحاجة إلى المال لذاته يجعل المال عزيزًا فى تلك النفس.. وبهذا تذلّ لشدة حاجتها إلى معبودها وهو المال والدنيا.. ولذلك يقول - ﷺ -: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». ويترتب على هذا الذل الوجدانى.. انقباض النفس عن البسط وعن الكرم والمجد.. وهذا هو الشح والبخل: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾(١٥).

قلت: وكيف اتحرز من شح النفس؟

قال: لا تبرأ النفس من شتى غرائز البخل.. إلّا إذا أدركتها العزة بالغِنَى الذاتى المفاض عليها من - الغنىّ الكريم - فتهون الدنيا.. ويسهل البذل منها.. لتحرر القلب من عبادتها.. بما غمره من حب الآخرة.. هذا الحب هو المستفاد من تجليات الاسم - المغنى - وهذا لا يكون إلّا أثرًا من آثار الإيمان القوى العميق.. الذى هو أثر العزة.. كما يقول تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾(١٦)، لأن من عبد الدنيا ذلّ.. ومن أحب الآخرة عزّ.. لأنه يكون محلًا لولاية الحق - سبحانه - وأهلًا لدفاعه وعنايته ورعايته.

تلك هى ظواهر الغنى الإيمانى.. المفضى إلى العزة الإيمانية.

قلت: إذن لا يجوز اللجوء إلى غير الله.. حتى يكون المرء عزيزًا؟

قال: تعلق الخلق بالخلق.. مثل تعلق المسجون بالمسجون.. ومن عرف الله.. ثم رجع عند حاجته إلى غير الله. ابتلاه الله - سبحانه - بالحاجة إلى الخلق.. وفى نفس الوقت ينزع من قلوبهم العطف عليه.. والرأفة به.. أما من استقرت نفسه على الافتقار إلى الله وحده.. فرجع إليه فى كل حاجاته بحسن العرفان.. أغناه من حيث لا يحتسب.. وأعطاه من حيث لا يرتقب.

قلت: كلنا يحب المال.. فما علاج هذا الحب المذموم؟

قال: إن حبك للمال شىء.. وعبادته شىء آخر.. فالمؤمن يحب المال لينفقه على أهله.. ويقضى به حاجاته. ويشترى به آخرته.. فيطعم الجائع.. ويكسو العارى.. ويعطى المحروم.. فهذا حب ممدوح لا مذموم.. أما حب المال لجمع المال.. فهذا هو الحب المذموم.

وقد قرأت فيما قرأت: أن إبليس أخذ أول دينار ضُرِب.. فوضعه على عينيه وقال: من أحبَّك فهو عبدىّ.. يقصد حب المال لذات المال.. كما روى أنه لما اخترعت النقود.. صرخ إبليس صرخة عظيمة.. وجمع أعوانه.. وقال لهم: لقد وجدت اليوم ما أستغنى به عنكم فى تضليل الناس.

(١٤) سورة الفرقان الآية ٧٣.
(١٥) سورة الحشر الآية ٩.
(١٦) سورة المنافقون الآية ٨.

ومن النكت اللفظية.. أن الدينار آخره «نار».. والدرهم آخره «هم». واعلم أن أعظم الجود.. جود الفقير على الغنى.

قلت: وكيف يجود الفقير على الغنى؟

قال: اعلم أن المؤمن الفقير إذا كان صاحب حال مع الله.. دائمًا يجود على صاحب المال.. وصاحب المال عالة على صاحب الحال.. وذلك لأن صاحب المال يشفق.. وصاحب الحال ينفق.

وقد قرأت أن رجلًا موسرًا ممسكًا.. ذهب إلى خياط - وكان الخياط رجلًا صالحًا - ومعه قطعة قماش.. وقال له: عرضت هذه القطعة على كثير من الخياطين.. فقالوا إنها لا تكفينى.. فلعلها ببركتك تصلح ثوبًا لى.. فأخذها منه.. وقدّرها فوجَدها لا تكفى فعلًا.. فذهب إلى السوق.. واشترى من ماله قطعة من نفس النوع أكمل بها ثوب الموسر الممسك.. وخاطه له.. ففرح به الرجل.

ولما سئل الخياط عن ذلك قال: إن جود الفقير مع الغنى.. أحب إلى الله من جود الغنى مع الفقير.

وألمح فى هذا المقام معنى ساميا.. يحسُّه ذوو البصائر.

قلت: ما معنى قول الله تعالى لحبيبه محمد: ﴿ووجدك عائلًا فأغنى﴾[١٧]؟

قال: سبق أن ذكرنا أن تجليات الاسم - الباسط - قد تكون معاونة للاسم - الرحيم - أو الاسم - المنتقم - فيكون البسط فى مجليات الانتقام.. إذا كان استدراجًا - للمتجلَّى عليه - إلى مزالق الفتنة.. كما قال تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض﴾[١٨] فيكون البسط هنا استدراجًا للبغى.. وهذا دفع من الاسم - المنتقم - أما إذا كان البسط من تجليات الاسم - الرحيم الودود - فهو الرزق الأبقى.. لمن كان قلبه أنقى وأتقى: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾[١٩]. فهذا الرزق الخالد الباقى.. إنما هو الفيض الروحى الذى يغنى النفس.. وهو ما أشار إليه المصطفى - ﷺ - فى الحديث الذى ذكرناه من قريب: «إن الغنى غنى النفس».

وهو أيضًا ما قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ووجدك عائلًا فأغنى﴾ فليس المقصود بهذا الغنى غنى المال.. فالمعروف أنه - ﷺ - لم يكن من أصحاب الأموال.. حتى عيره المشركون... الذين لا يبصرون.. بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾[٢٠].. وقولهم: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾[٢١]. بل لقد خرج من دنيانا مدينًا.. رهين الدرع للحصول على رزق عياله.

وبهذا نفهم معنى غناه - ﷺ - فقد أغناه ربه بنعمة العلم.. وغنى المعرفة.

قلت: فى إجابة قريبة عن سؤال لى.. قلت: «لا تبرأ النفس من شق غرائز البخل».. إلخ فهل البخل يكون بغير المال؟

قال: لو رجعت إلى الآية.. محل السؤال السابق: ﴿ووجدك عائلًا فأغنى﴾.. تجد أن كلمة - عائلًا - اسم فاعل من - العيْلة - وهى فى اللغة بمعنى الفقر. والمقصود بهذا الفقر هو فقر النفس.. مثل

---

(١٧) سورة الضحى الآية ٨.
(١٨) سورة الشورى الآية ٢٧.
(١٩) سورة طه الآية ١٣١.
(٢٠) سورة هود الآية ١٢.
(٢١) سورة الإسراء الآية ٩٣.
(٢٢) سورة النساء الآية ١١٣.

قوله تعالى لحبيبه: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾[٢٢].. ومثل قوله: ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[٢٣]. وبهذا الإيحاء العلمي.. امتلأت نفسه - ﷺ - بنعمة العلم.. وغنى المعرفة.. ولاشك أنه كان غِنِيٌّ روحيا كريمًا.. بما أغناه به - المغنى - فإنها نعمة كبرى.. أسداها الله إليه ليعطيها.. وينفق منها.. ولذلك قال له فى مقابل تلك الآية.. التى هى: ﴿ووجدك عائلًا فأغنى﴾ قال: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[٢٤].. لتكون عبدًا شكورًا.. ينفق مما رزقناه سرًّا وجهرًا

فالشح يا أخى.. كما يكون بالمال.. يكون بالعلم وبالصحة وبغيرها من النعم التى ينعم الله بها على عبده..

ولهذا ننتقل إلى الاسم التالى - المانع - إن شاء الله تعالى.

* * *

(٢٣) سورة العلق الآية ٥.

(٢٤) سورة الضحى الآية ١١.

٩٠ - المانع

قلت: وما معنى - المنع فى اللغة؟

قال: المنع: ضد العطاء.. وقد منع من باب قطع.. فهو مانع - ومنُوع ومنّاع - بضم النون أو تشديدها مع الفتح.

والمكان المنيع: يعنى الحصين.. يمنع من يريد الوصول إليه.

ونقول فلان فى عزٍّ ومنَعة - بفتح النون - والمنَعة: جْمع مانع.. يعنى فى عز وله من عشيرته من يمنعه ويقويه.

قلت: وما معنى اسم - المانع - بالنسبة إلى الله - عز وجل؟

قال: إن نظرية التقابل تفرض علينا أن نقول: إن المغنى هو المعطى.. فالمعطى يكاد يكون اسمًا مرادفًا لاسم - المغنى - وهو.. أى - المعطى - يمنح الخلود والنعيم.. كما قال تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ ومثل قوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ وقوله: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[(١)].

إلّا أن اسم - المعطى - اسم مشترك بين الخالق والمخلوق.. فيسمى العبد معطيًا.. كما قال تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسّره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسّره للعسرى﴾[(٢)].

هذا فى حق المخلوق الحادث.. أما فى حقّ القديم - سبحانه - فله حكمته فى مقام - المنع - باسم - المانع.

ولا يكون - المانع - بمعنى.. البخيل. فقد يكون المنع رحمة بالممنوع عنه وهنا يتعين عقد مربع لمقارنة مقام الأسماء الأربعة:

الباسط.. والقابض.. والمعطى.. والمانع.

فالمعطى مقترن اقترانًا ذاتيا بالباسط.. إلّا أن المعطى يتعين غالبًا بالمنح الخالدة.. والعطاء الباقى.. فلا مانع لما أعطى.. ولا راد لما قضي ولكن الاسمين: القابض والمانع.. لا يكونان من الأسماء المشتركة. فإن الإنسان لا يكون قابضا، إلا وهو مذموم.. لقوله تعالى: ﴿ويقبضون أيديهم﴾[(٣)].. وقوله: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾[(٤)] وهى صفة ذم.

---

(١) سورة ص الآية ٣٩.
(٢) سورة الليل الآيات ٥ - ١٠.
(٣) سورة التوبة الآية ٦٧.
(٤) سورة الإسراء الآية ٢٩.

وكذلك المانع.. لا يكون الإنسان مانعًا.. إلاّ وهو مذموم أيضًا لقوله تعالى: ﴿ويمنعون الماعون﴾[٥].. لأنهم المراءون.

أما القبض والمنع بالنسبة إلى الله تعالى.. فهو يقبض لرحمته.. ويمنع لحكمته.. لأنه قد يكون فى البسط شر مستطير - كما أسلفنا - فيتعين المنع والقبض والسلب.. لدفع ذلك الشر.

ولهذا قال حكيم: أشد العذاب سلب الروح.. وأكمل النعيم سلب النفس.. وألذّ العلوم معرفة الحق.. وأفضل الأعمال الأدب.. والتسليم بداية الإسلام.. والرضا بداية الإيمان.

قلت: وهل يكون المنع من داخل القلب... انبعاثًا من داخل نفس الإنسان؟

قال: ربما يكون منْعُه تعالى لبعض عباده.. بمنع قلبه عما يضره.. بألا يخلق له إرادة ذلك الشيء.. ويمنع حبه من قلبه.. رفقًا به ورحمة.. قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾[٦] وهو سبحانه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب.. ولكنه لا يمنع قلب أحد عن المخالفات إلاّ إذا كان من خواص أوليائه.

فقد يمنع التمنى والشهوات من نفوس العوام.. ولكنه يمنع الإرادات والاختيارات عن قلوب الخواص.. فيمنع الشك عن قلوبهم.. ويحول بين عقائدهم وبين البدع.. كما يمنع المخالفات فى أوقاتهم.. والزلل عن نفوسهم.

كل هذا بترسيخ اليقين فى أفئدتهم.. وقد سئل سليمان - عليه السلام - عن أكثر شيء وأقل شيء.. فقال: أكثر شيء الشك.. وأقل شيء اليقين.

كل هذا من أجل النعيم الذى يخص به أولياءه المختارين.. وعباده المقربين.

قلت: معنى هذا أن اسم - المانع - له علاقة وثيقة بحياة الناس؟

قال: هذا لاشك فيه.. فهو - سبحانه - الذى يردّ أسباب الهلاك والنقصان.. فى الأديان والأبدان.. بما يخلقه فى ظلال الاسم - الحفيظ - والحفيظ هو المانع.. يمنع السبب المهلك عن عبده.. وهذا هو مقصود المنع إذا كان المنع يراد للحفظ.. والحفظ لا يراد للمنع.. فكلّ حافظ دافع مانع.. وليس كل مانع حافظًا.. إلاّ إذا كان مانعًا مطلقًا لجميع أسباب الهلاك والنقص.. حتى يحصل الحفظ بالضرورة.

قلت: إن حكمة الله ظاهرة فى عطائه ومنعه.

قال: نعم - سبحانه وجل شأنه - فبيده وحده السعادة والشقاء.. والفقر والغنى.. والعطاء والحرمان.. والمنح والمنع.. فهو المعطى والمانع. ولهذا لا يجوز طلب العطاء إلاّ منه وحده.. لأن العطاء من الخلق حرمان.. والمنع من الله عن المؤمن فضل ومنّة وإحسان.

قلت: وهل من المطلوب منى أن أحاول منع نفسى عن بعض الأشياء؟

قال: نعم.. يجب أن يمنع الإنسان نفسه عن لذة هو قادر على إتيانها.. وتلك هى مسئولية الإرادة فيك.. فامنع نفسك عن جميع ما نهى الله - تعالى - عنه.. قولاً وعملاً.. وإيمانًا ويقينًا.

---

(٥) سورة الماعون الآية ٧.

(٦) سورة الأنفال الآية ٢٤.

قلت: نسيت أن أسأل: هل ورد اسم - المانع - فى كتاب الله تعالى؟

قال: هذا الاسم لم يرد فى القرآن الكريم.. ولكن الإجماع منعقد على أنه من أسماء الله - تعالى - فى كثير من الروايات.

وقد جاء فى صحيح البخارى.. أن النبى - ﷺ - كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. له الملك وله الحمد.. وهو على كل شىء قدير.. اللهم لا مانع لما أعطيت.. ولا معطى لما منعت. ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

فهو سبحانه: الضار النافع.

قلت: يبدو أننا أشرفنا على الاسمين الكريمين: الضار والنافع.

قال: نعم.. فإليهما نتجه إن شاء الله تعالى.

* * *

٩١ - الضــار
٩٢ - النـافع

قلت: هل ورد هذان الاسمان فى كتاب الله؟

قال: لم يردا فى القرآن الكريم بنصهما.. ولكن وردِ مفعولهما.. فى مثل قوله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلّا ما شاء الله﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾[٢]، وقوله: ﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئًا﴾[٣]، وقوله: ﴿إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضرّه﴾[٤]، وغيرها كثير.

قلت: وما معنى الاسمين بالنسبة إلى الله تعالى؟

قال: معناهما يشير إلى التوحيد المطلق المجرد من جميع الأسباب.. فهو - سبحانه - لا يحدث فى ملكه شىء إلّا بإيجاده وحكمه وقضائه وإرادته ومشيئته وتكوينه.. فهو القائل: ﴿قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا﴾[٥]. ثم قال: ﴿هو مولانا﴾[٥]؛ ليعلم السامعون أن له وحده حق التصرف فى ملكه بموجب إرادته.. فلا يلحق أحدًا ضرٌّ ولا نفع.. ولا خير ولا شر.. ولا سرور ولا حزن.. إلّا من قِبَله - جل شأنه - فإذا كانت نعمة فهو النافع الدافع.. وإن كانت نقمة كان هو الضار القامع.. الحابس المانع.

فمن استسلم لحكمه عاش فى راحة.. ومن تضجر ويئس وقع فى كل آفة.. ولهذا جاء فى الحديث القدسى.. وهو أول ما كتب القلم: «أنا الله لا إله إلا أنا.. من لم يستسلم لقضائى.. ولم يصبر على بلائى.. ولم يشكر نعمائى.. فليخرج من تحت سمائى.. وليطلب ربا سواى».

وقد قرأت أن داود - عليه السلام - ناجى ربه فقال: إلهى.. مَن شر الناس؟

فقال - عزّ من قائل : «من استخارنى فى أمر.. فإذا خِرْتُ له اتهمنى ولم يرض بحكمى».

كما قيل: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء.

وجاء فى خبر مسند: إياكم و (لو).. فإن (لو) من أقوال المنافقين.

قلت: الضرر ضد النفع.. فما هى تجليات الاسم - الضار؟

قال: إن معنى - الضار - فى تجلياته.. لا يكون إلّا جوابًا على عمل منافٍ للنفع.. يتجلى به على هؤلاء الذين يعملون على الإضرار بالناس.. فيضرهم جزاء وفاقًا.. صدقًا وعدلاً.. وقد يكون التعجيل بإيقاع الضرر بهم فى الدنيا لأحد أمرين:

---

(١) سورة يونس الآية ٤٩.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٧.
(٣) سورة يس الآية ٢٣.
(٤) سورة الزمر الآية ٣٨.
(٥) سورة التوبة الآية ٥١.

الأول: أن يكون تكفيرًا لذنوبهم.. فيما أحدثوا من أذى وضرر للناس أو لأنفسهم.. ويكون هذا التكفير فى الدنيا رحمة للذين يعملون على الإضرار بالناس.. تعجيلاً لعقوبتهم لكى ينجيهم من عذاب الآخرة.

والثانى: قد يكون التجلى بالاسم - الضار - على قوم للانتقام.. وليس للتمحيص والتخليص.. وهذا جزاء وفاقًا لهم - كما أسلفنا -.

قلت: وهل - الضار والنافع - من الأسماء المشتركة.. بين الخالق والمخلوق؟

قال: هما فى الحقيقة ليسا من الأسماء المشتركة.. لانحصار النفع والضرر فى ذات - النافع الضار - سبحانه وتعالى - ويؤنسنا فى هذا.. قوله تعالى بالنص: ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا﴾[٦].

وهذا التقرير لا ينقص من إسناد النفع إلى الإيمان فى قوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾[٧]، لأن الله - تعالى - أسند موضوع النفع إلى ذاته هو بقوله: ﴿كشفنا﴾ فهو الذى كشف الضرّ عنهم.. والمقصود بقوله: ﴿فنفعها إيمانها﴾ هو كشف هذا الخزى عنهم فى الحياة الدنيا.. والله وحده هو الكاشف لقوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة﴾[٨]، وقوله: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلّا هو﴾[٩]، وقوله: ﴿بضر﴾ يدلّ على تجلّى الاسم - الضار - للتمحيص لا للانتقام.

وإذا لاحظنا أن المخاطب بهذه العبارة هو النبى - ﷺ - ثم قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[١٠] فهؤلاء، الذين عصفت بهم البأساء.. وزلزلتهم الضراء.. ليسوا محلًا للانتقام الإلهى بتجلى الاسم - المنتقم - ولكنهم محلّ للتمحيص.. وهو التنقية من شوائب المادة.. والتصفية الروحية فى بوتقة المحن.. لتدعيمهم بمناعة الصبر.. وما أعظم الصبر وأهل الصبر.. كما نص الكتاب: ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[١١]، فما وقعوا تحت تجلى الاسم - الضار - إلا ليعطيهم فى كل محنة نفحة.. وفى كل ضر نفعًا.. ومن كل ألم رحمة.. ومن كل عذاب نعيمًا..

وهكذا يقول - ﷺ -: «أشدكم بلاء الأنبياء.. ثم الأولياء.. ثم الأمثل فالأمثل»: ﴿ومالنا ألّا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾[١٢].

قلت: ألم يكن الضر نتيجة للسبب الذى يوقع الضرر؟

قال: الله - تعالى - هو سبب الأسباب وحده.. وهو مالك الأسباب.. وقد تعجز الأسباب المعروفة لدى بنى البشر فى إحداث الضرر.

قلت: هل من الممكن ضرب مثل يقرب لى معنى عجز الأسباب عن إحداث الضرر؟

---

(٦) سورة الفرقان الآية ٣.
(٧) سورة يونس الآية ٩٨.
(٨) سورة النجم الآيتان ٥٧، ٥٨.
(٩) سورة الأنعام الآية ١٧.
(١٠) سورة البقرة الآية ٢١٤.
(١١) سورة الزمر الآية ١٠.
(١٢) سورة إبراهيم آية ١٢.

قال: هذا إبراهيم - عليه السلام - يمسك السكين بيده.. ويمر بها على عنق إسماعيل.. ومع أن السكين هى السبب المباشر للذبح.. ولكنها لا تقطع فى عنق إسماعيل - عليه السلام -. والنار سبب مباشر للحرق.. ولكنها كانت بالنسبة لإبراهيم بردًا وسلامًا. وذلك لأن الضار - سبحانه.. لم يشأ للسكين أن تذبح.. ولا للنار أن تحرق.

فلا تحسبن أن السم يقتل بنفسه.. وأن الطعام يُشبع وينفع بنفسه.. ولا أى مخلوق: ملكًا.. أو إنسانًا.. أو شيطانًا.. أو مخلوقًا فى كوكب أو فلك.. يقدر على خير أو شر.. أو نفع أو ضر بنفسه.. بل هى أسباب مسخرة.. لا يصدر عنها إلّا ما يريد - سبحانه - وكل ذلك بالإضافة إلى القدرة.. كالقلم بالإضافة إلى الكاتب.. فالعارف يعلم أن القلم ويد الكاتب مسخران لكتابة ما يريد الله أن يبرز من علمه تعالى.. فإذا عرفت أن هذا فى الإنسان المختار.. فهو فى غيره من المخلوقات أظهر.

قلت: إذن ما هو أثر - الضار النافع - فى الحياة العامة؟

قال: إن الله - تعالى - يضر وينفع فى ظلال الرحمة دائمًا بعباده. فإذا عرف العبد وحدانية الله فى الضر والنفع.. فوّض أمره إليه.. وعاش فى راحة البال.. وصلاح الحال.. وجعل الرحمة بمخلوقات الله سبيله وطريقه.. وروى عن النبى - ﷺ - أنه قال: يقول الله تعالى: «اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم.. فإنى جعلت فيهم رحمتى.. ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم.. فإن فيهم غضبى».

وقد قال الله لحبيبه - ﷺ -: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾(١٣).

كما أنه روى عن ابن أبى أوفى أنه قال: خرجت أريد رسول الله - ﷺ - فإذا أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - قاعدان.. وصبى صغير يبكى.. فقال ﷺ: «ضم إليك الصبى يا عمر».. فضم عمر الصبى إلى نفسه.. فإذا بامرأة كاشفة عن رأسها تولول.. وترفع صوتها بالبكاء.. وتقول: يا بنيّاه.. فقال - ﷺ -: «الحق المرأة فإنها أم الصبى».. فأخذت المرأة ولدها.. وضمته إلى صدرها.. والصبى يبكى فى حجرها.. فلما التفتت رأت النبى - ﷺ - فقالت: واحزناه.. إنى لأرى رسول الله - ﷺ - رآنى وأنا كاشفة عن رأسى.. فقال - ﷺ -: «أترون هذه رحيمة بولدها»؟ فقالوا: نعم يا رسول الله.. كفى بهذه رحمة.. فقال: «والذى نفسى بيده.. الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها».. ثم قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن».

ومن آثار هذين الاسمين.. ألّا نطلب الضرر لأحد من خلق الله.. حتى يرحمنا الله.

وقد قرأت أن أحد الصالحين.. جلس على شاطئ نهر دجلة.. فرأى جماعة من الشباب يشربون الخمر.. ويضربون بالأوتار.. ويملأون الجو صخبًا وعربدة.. فقال الناس للشيخ الصالح: أما ترى جرأة هؤلاء على الله - سبحانه - ادع عليهم.. لعل الله يخلص المسلمين من شرهم.. فقال: اللهم كما فرّحت هؤلاء فى الدنيا.. ففرحهم فى الآخرة.. فقال الناس: سألناك أن تدعو عليهم.. لا أن تدعو لهم.. فقال: إذا فرّحهم الله فى الآخرة.. تاب عليهم فلم يضروكم.

---

(١٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

قلت : لعل الخلاصة من هذين الاسمين : الضار والنافع.. أن يكل الإنسان أمره إلى الله.. ويرضى بقضائه على أى صورة كان.

قال : نعم.. على الإنسان أن يأخذ نفسه بالصبر على كل ما يصيبه من شر وضر.. فقد يكون تكفيرًا لسيئة اقترفها.. أو ابتلاء لرفع درجته.

قال أبو بكر الصّديق – رضى الله عنه.. لما نزل قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءا يُجْزَ به﴾[١٤].. جئت رسول الله –ﷺ– فقلت: يا رسول الله.. كيف الحال.. بعد هذه الآية؟

فقال – ﷺ –: «يغفر الله لك يا أبا بكر.. ألستَ تمرض؟.. ألستَ يصيبك الهم؟ ألستَ ينالك الأذى؟.. ألستَ تصيبك المصائب؟» قلت: بلى.. قال: «ذلك بما يُجزَى به العبد».

فالسعيد من عصمه الله.. ووفقه مولاه.. واشتغل بطاعة ربه.. ولم يعتمد على طاعته وتقواه.

واعلم أن الله – تعالى – هو الذى يصدر منه الخير والنفع.. فى الدين والدنيا معًا.. فهو مانح الصحة والغنى.. والسعادة والجاه.. والإيمان والتقوى.. والقناعة والرضى.

وقد قال إبراهيم – عليه السلام – يناجى ربه: (يارب منك الدّاء ومنك الدواء.. بما بال الطبيب؟).

فقال الله – تعالى – له: (الطبيب رجل سقت الدواء على يديه).

وقد قرأت أن موسى – عليه السلام – شكا إلى الله تعالى من ألم فى ضرسه.. فأوحى الله – تعالى إليه: (خذ من عشب كذا وضعه على ضرسك).. فأخذه ووضعه على ضرسه.. فسكن الألم فى الحال. ثم عاوده الوجع بعد مدة.. فأخذ العشب ووضعه على ضرسه فازداد الألم.. فقال: إلهى. ألستَ أمرتنى بهذا العشب ودللتنى عليه؟.. فأوحى الله إليه: (يا موسى.. أنا الشافى.. وأنا المعافى.. وأنا الضار.. وأنا النافع.. قصدتنى المرة الأولى فأزلت مرضك.. والآن قصدت العشب وما قصدتنى).

فالله – عز وجل – هو النور الذى يهدينا سبيل الرشاد.. ويوفقنا للرضى وحسن المعاد.

وهذا مدخلنا إلى اسمه تعالى: النور الهادى.

* * *

(١٤) سورة النساء الآية ١٢٣.

٩٣ - النور
٩٤ - الهادى

قلت: ما معنى اسمه تعالى - النور -؟.

قال: النور هو الفيض الكشاف لغوامض الأشياء.. كما أنه من ناحية التشبيه.. - ولله المثل الأعلى - كالقمر بين مسالك السارين بالليل بين سباسب الحياة ونواحيها المترامية الأطراف: ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾[(١)]. وقال: ﴿وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجًا﴾[(٢)].

قلت: هذا على ما أعتقد هو ظاهر النص.. فهل المقصود من اسم - النور - هو هذا المعنى.

قال: الحقيقة أن تسمية الله تعالى بالنور.. ليس معناها الضوء أو السراج.. أو التشبيه بشمس أو قمر أو نجم أو أى شىء مما يقول عنه الناس فيما يعرفون: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[(٣)].

بل هذا المعنى فى الاسم - النور - يكاد يكون من أعمال صفة الحياة.. وتجليات الاسم - الحى - فإنه لا نور إلا فى حياة.. ولا ظلام إلا فى موت.

فإذا قلنا: ﴿الله نور السموات والأرض﴾[(٤)]. فإننا لا نعنى ما يراه العوام من أنه منوِّرهما بما تدركه الأبصار.. بل النور هو سريان نور الحياة.. كما يقول بعض الحكماء: «الخلق كله ظُلْمه.. ولكن أناره ظهور الحق فيه» فبالنور.. أى بتجلى اسم - النور - يسرى فيض الحياة سريانًا خفيًا.. فيكشف ظلمات الصدور.. كما أشارت الآية: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾[(٥)]. وقوله: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾[(٦)]. فهذا كله لا يعنى الضوء بحال من الأحوال.

وإذا لاحظنا أن البصيرة فى القلب.. لقوله تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾[(٧)] يتبين لنا أن البصائر وحدها.. هى التى تشهد ذلك النور الروحى الذاتى.. المستمدّ من الاسم - الحى - لأننا قلنا إن فيض الحياة نفسه.. هو ذلك النور الذى تشهده البصائر.. ولا تقع عليه الأنظار.. وشتان بين عيون القلوب.. وعيون الرءوس.. كما يقول عن الكافرين: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾[(٨)].

---

(١) سورة يونس الآية ٥.
(٢) سورة نوح الآية ١٦.
(٣) سورة الصافات الآية ١٨٠.
(٤) سورة النور الآية ٣٥.
(٥) سورة الزمر الآية ٢٢.
(٦) سورة الأنعام الآية ١٢٢.
(٧) سورة الحج الآية ٤٦.
(٨) سورة الأعراف الآية ١٩٨.

ولو أبصروا لشهدوا النور الإلهي يغمر محمدا ﷺ فآمنوا به.. وأسلموا له: ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾[9].

قلت: إذن فما معنى قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾[10]. وما المقصود من التشبيه بالمشكاة والمصباح.. فى تلك الآية؟

قال: لما كان التعريف بمدلول اسم - النور - متعذرا على مدارك العقول البشرية.. ضرب الحكيم - سبحانه - المثل بقوله فى سورة النور: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾[11].

فكونه تعالى.. باتساع نطاق البحث.. فى مفهوم الاسم - النور - ضرب المثل وشبهه بمشكاة.. وهى طاقة مقيدة فى ذاتها.. وفى هذه الطاقة المقيدة بذاتها مصباح مشع.. لا يتقيد نوره بالطاقة وإن انبعث منها.

هذا المصباح فى زجاجة.. شفّت وصَفَت.. فتجلى فيها صفاء نور المصباح.. كأنها كوكب درى.. فى تعدد سطوحها.. وصفاء جوهرها.. فيكون المصباح الواحد المتجلى فى باطن الزجاجة الدرية.. إذا رُئى من الخارج ظهر بذاته متعددا على السطوح المصقولة على سطح الزجاجة الشفافة المستعدة لقبول النور.. مادامت صافية لا شائبة فيها.

ثم قال تعالى متدرجا عن مدد المصباح.. إنه ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ ومتى كان مصدر الاستمرار النورانى من شجرة مغروسة ثابتة على أصولها - زيتونة - ذات سريان لا ينفد.. ومدد لا ينقطع.. مطلقة عن الجهات والحدود.. فهى ﴿لا شرقية ولا غربية﴾.. لأنها محيطة بالشرق والغرب.. والشمال والجنوب ﴿يكاد زيتها يضىء﴾ لأنه الزيت السارى السرمدى.. يضىء واضحا موضحا هاديا ﴿ولو لم تمسسه نار﴾ نار العلّة الباعثة للشعلة التى يستضىء بها ذوو الألباب.. وهو فيض نورانى مطلق.. لأنه بالذات ﴿نور على نور﴾.

كما فى ليلة المعراج يبدو ... سناه بمشهد الحق المبينْ
تبارك باسمه برأ البرايا ... ودون مُرامه قطعُ الوتينْ
تعالى عن مطاولة الليالى ... وراء مدارك الروح الأمين
حجاب النور كان به منيعا ... وتلك عقيدتى حق اليقين

ولهذا قال ﷺ: «إن الله لا ينام.. ولا ينبغى له أن ينام.. يخفض القسط ويرفعه.. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار.. وعمل النهار قبل عمل الليل.. حجابه النور.. لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه كل ما امتد إليه بصره من خلقه».

قلت: إن إدراك تلك المعانى لشديد.

---

(9) سورة النور الآية ٤٠.
(10) سورة النور الآية ٣٥.
(11) سورة النور الآية ٣٥

قال: الإدراك الكلى مستحيل - كما ترى - ولكن يدور البحث حول صفة النور.. فنقول: أما أن الزيت يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار.. فإن معناه عدم افتقاره تعالى فيما يريد إلى الأسباب العادية.. التى هو فى الواقع مسببها. والمسبب لا يتقيد بالسبب.. وإن جعله تابعا للناموس الكونى.

ألا تراه كيف خلق المسيح - عليه السلام - ومثله كمثل آدم.. ولكنه من غير أب!! هنا انقطع السبب المادى للخلق والتكوين.

وبعث عُزيرًا - عليه السلام - بعد موته مائة عام.. لم يظهر عليه أثرها حين البعث فقال: ﴿لبثت يوما أو بعض يوم﴾(١٢). وكذلك أصحاب الكهف بعد عزير.. فقد ضرب على آذانهم ثلاثة قرون وتسع سنين.. فلما بعثوا قالوا: ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم﴾(١٣).

ففى هذه الأمثلة دليل واضح على عدم تقيد المريد سبحانه وتعالى - بالأسباب - فى تنفيذ مراده ومشيئته إذا شاء ذلك.. لإبراز معجزة يتحدى بها الكافرين.. أو إظهار فضل من تقع على يديه المعجزة من المرسلين.. والكرامة من الأولياء والصالحين فإن العبد.. إذا زالت عنه حُجُب الظواهر.. تلاشت أبعاد المكان والزمان والفواصل المحيطة بإرادته.. فيصبح الله فاعلا به.. أى يكون أداة لتنفيذ إرادة الله ومشيئته.. أى يصير وليا.. ويصير العمل النافذ منه كرامة.

قلت: أرجو أن تضرب لى مثلا يقرّب هذا المعنى.. فمازال عقلى قاصرا عن فهمه.

قال: إن الضوء الأبيض يدخل منشورا ثلاثيا من الزجاج.. فيخرج من الجانب الآخر.. متحللا إلى أضواء وألوان عديدة مختلفة باهرة.

وكذلك تنفذ الإرادة الإلهية.. إلى قلب الولى الشفاف.. فإذا على يديه تتحقق الخوارق.. إنه نور الله.. قد تخلّل من والاه واجتباه.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فقوله تعالى: ﴿يكاد﴾ من قبيل المقارنة.. يكاد يضىء.. وذلك النور هو فيض وراء الأسباب.

وقد أشار إلى ذلك فى قوله: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾(١٤) ولا يكون ذلك إلا بتجلى الاسم - النور - بالفيض الإلهى الأعلى.. الذى لا يتوقف على سبب عادى.. ولكن جعل الله - سبحانه - التقوى بمثابة تهيئة الاستعداد لتلقى ذلك الفيض النورانى.. لأن العلم نور.. وهذا النور هبة من الله تعالى لا يستحقها العصاة.. كما قال الإمام الشافعى:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصى

كما قرأت عن ابن عطاء الله السكندرى - رضى الله عنه -: «إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام.. جالت الروح فى ميادين الملكوت.. وتعود إلى صاحبها محملة بطرائف الحكم.. ويعلمه الله من غير معلم.. فينطق بالحكمة.. ويتكلم بالنور».

من أجل ذلك كان من المناسب بعد ضرب هذا المثل أن يقول: ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر

(١٢) سورة البقرة الآية ٢٥٩.
(١٣) سورة الكهف الآية ١٩.
(١٤) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾(١٥). وهكذا بيّن - سبحانه - فى هذا النص الأخير فضله على عباده مع انقطاع الأسباب.. فى قوله: ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾ تماما كما قالت مريم - عليها السلام - عندما سألها زكريا - عليه السلام - عن مصدر الطعام الذى كان يجده عندها كلما دخل عليها المحراب.. وهو لا يعلم له سببا عاديا.. قالت: ﴿هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾(١٦).

وهذا كله داخل فى تجليات الاسم - النور -.

قلت: وما علاقة اسم - النور - باسم - الهادى -؟

قال: لقد اختص النور بالأثر المترتب عليه.. وهو حصول الهداية لمن استضاء به.

فيلاحظ هذا الاقتران بين اسم - النور - واسم - الهادى - إذا علمنا أن اسم - النور - اسمٌ غير مشترك.. ولهذا حصرت الآية الكريمة: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾(١٧) حصرت تجلى الفيض النورانى فى الذات الإلهية وحدها.. كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾(١٨). أى هداية الإلهام والنور الإلهى.. وأضاف إلى نبيّه ﷺ الهداية إلى الطريق المستقيم.. بمعنى الإرشاد والدلالة.. بقوله: ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾(١٩). ولن يكون ذلك إلا بتجلى الاسم - الهادى - الذى يتجلى به على خواص عباده الذين هداهم.. وأمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿فبهداهم اقتده﴾(٢٠).

واسم - الهادى - ليس كاسم - النور - ممنوعا من الاشتراك.. بل الاسم - الهادى - اسم مشترك بحكم فيض التجلى.. وبحكم قوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾(٢١) متى وجد الاستعداد لقبول الاستمداد بالهداية.. فإنه عند انعدام الاستعداد.. ينقطع الإمداد.. كما قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾(٢٢).

قلت: وكيف يتم الاستعداد لقبول الإمداد؟

قال: الاستمداد دائما يكون قائما على التقوى.. كما قال تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾(٢٣). وعليه قال - جل شأنه -: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ فكانوا بذلك جديرين بأن يكونوا بتقواهم وإيمانهم - نورا - كما كان - ﷺ - هو أيضا - نورا - وقد أجمع أهل العلم والمعرفة على أنه - ﷺ - هو النور الثانى فى قوله تعالى: ﴿نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء﴾(٢٤).. وأنه هو النور فى قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور

---

(١٥) سورة النور الآيات ٣٦ - ٣٨.
(١٦) سورة آل عمران الآية ٣٧.
(١٧) سورة الأنعام الآية ٧١.
(١٨) سورة القصص الآية ٥٦.
(١٩) سورة الشورى الآية ٥٢.
(٢٠) سورة الأنعام الآية ٩٠.
(٢١) سورة الرعد الآية ٧.
(٢٢) سورة فصلت الآية ١٧.
(٢٣) سورة البقرة الآية ٢.
(٢٤) سورة النور الآية ٣٥.

وكتاب مبين﴾[٢٥] فالنور هو - محمد - والكتاب المبين هو القرآن - وفى كل هذه الأمثلة اقترن اسم - النور - باسم - الهادى - كما ترى.

قلت: لعل لأهل الإشارة رأى فى المثل الذى ضربه الله تعالى لنوره.

قال: من باب الإشارة.. ﴿مثَل نوره﴾ المقصود - المثل - وليس - النور ذاته: ﴿ولله المثل الأعلى﴾[٢٦].. وكذلك قال: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾[٢٧]. ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ فالكاف للتشبيه.. ليكون - تعالى - قد شبّه المثل.. ولم يشبّه النور.. والمعلوم من اسم - المشكاة - أنها الطاقة أو الكوّة.

فالإشارة تشعرنا بأن الطاقة هى الصدر.. أى صدر المؤمن.. وأن المصباح هو قلبه.. وأن الزجاجة الصافية هى عقله على ما فيه من تعدد الاتجاهات والزوايا.. وكأنه كوكب يلقى بأشعته الدرية على ظلمات الظنون والمشاكل والمعضلات.. مستمدا من نور الهداية الإلهية لتنكشف مبهمات الأمور.. وتنحل عقد معضلاتها.. ولذلك يقول لرسوله ﷺ: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾[٢٨]. وحيث أن القلب يستمد من الفيض الأقدس.. وهو فيض سرمدى.. قال: ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾.. وهذا القول استمرار لتشبيه المثل.. فإن هذا الاستمرار هو المعهود عند المخاطبين من العرب.. لأن زيت الزيتون.. هو أصفى مادة ضوئية.. لها سريانها.. وصفاء لونها.. وانعدام الدخان الأسود من احتراقها.. فهى من حيث سرمدية الإمداد ﴿مباركة﴾.. ومن حيث الإطلاق ﴿لا شرقية ولا غربية﴾.. لأن الشرق والغرب نسبتان.. ولا محل للنسب والإضافات فى باب الإطلاق.

قلت: هل من الممكن ضرب مثل يقرب لنا معنى لا شرقية ولا غربية؟

قال: أمامك يا أخى التيار الكهربائى.. إذا أطلقت الشرارة من المصدر.. واتصل السالب بالموجب.. ظهر الأثر.. وبدون زمن.. فى جميع الجهات.. فى الشرق والغرب.. والشمال والجنوب.. وفى أعلى وأسفل.. مهما بعُد المتأثر بآلاف الكيلومترات.. فهل فهمت؟

قلت: فهمت.

قال: وأصحاب تلك القلوب المشرقة بذلك النور.. يتمتعون بالهدى من تجليات الاسم - الهادى - المقترن دائما باسم - النور - فهم على بصيرة يمشون بها فى الناس.. ويدفعون بها الشك والالتباس.. جعلنا الله وإياك يا أخى من أهلها.. الذين هم بهذه الخاصية أحق بها: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[٢٩].

والزيادة هنا إشارة إلى سرمدية الإمداد الأعلى.. وبزيادة الهدى يزداد الإيمان عند المؤمنين.. كما يدل قوله تعالى: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾[٣٠]. والإيمان من شأنه أن يهيئ الاستعداد لتجليات الاسم -

---

(٢٥) سورة المائدة الآية ١٥.
(٢٦) سورة النحل الآية ٦٠.
(٢٧) سورة النحل الآية ٧٤.
(٢٨) سورة يوسف الآية ١٠٨.
(٢٩) سورة مريم الآية ٧٦.
(٣٠) سورة المدثر الآية ٣١.

الهادى – كما قال – سبحانه –: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾[٣١] وأنت ترى الآن كيف يكون ما جاء فى باب الإشارة.. أعمق مما جاء فى حكم العبارة.. مما يقوم عليه الدليل: ﴿والله يقول الحق وهو يهدى السبيل﴾[٣٢].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن القيد المنصب على النور المضاف إلى الله – سبحانه وتعالى – بالسماوات والأرض.. فى قوله: ﴿الله نور السموات والأرض﴾.. إنما هو قيد غير مراد.. لأن السامعين لا عهد لهم بشيء أكبر من السموات والأرض.. ولكن الله تعالى هو نور كل شيء فى الدنيا.. بما فيها السموات والأرض.. بل بالكون كله.. أعلاه وأسفله وما وراء ذلك مما لا يحيط به العارفون.. كما قال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون﴾[٣٣].

وبهذا النور يهدى من يشاء: ﴿ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا﴾[٣٤]. واسم – العباد – لا ينحصر فى سكان السماوات والأرض.. فإذا قال الله تعالى عن السماوات أنه نورها.. فإنه لا يعنى أجسام الكواكب.. ولا دوائر الأفلاك.. ولا جسم الأرض.. وإنما يريد بالنور من فى السماوات ومن فى الأرض.. ثم ما فى السماوات وما فى الأرض.

وهذا القسم الأخير.. المشار إليه – بما – إنما يريده الله لخدمة الذين أشار إليهم – بمن – فالمعروف أن – ما.. لغير العاقل.. و – من – للعاقل.

فكل ما فى السماوات وما فى الأرض.. إنما هو مسخر لمن فى السماوات ومن فى الأرض.

فآية – النور – فى الغالب آية إحاطة نورانية وحيوية وتكوينية. ومن ثم لا تنحصر فى السماوات والأرض وحدهما.. بل هى شاملة كاملة سرمدية لا نهاية لها.. حيث يستمر مفعولها العملى.. فى الدنيا والآخرة: ﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾[٣٥]. أرأيت يا أخى أنه – سبحانه.. هو نور السماوات والأرض.. بالروح والهداية.. والإمداد والكفالة.. والرعاية والعناية.. وهى صفات وقوى شتى لا انقطاع لها فى الدنيا ولا فى الآخرة.. فيكون ذلك مطابقا لواجبات التقديس والإطلاق بالنسبة لأفعاله تعالى.. فلا تُعطَّل صفة من صفاته.. ولا ينقطع مدد من إمداده.. ولا تنفصم عروة من عراه.. لأنها عروة وثقى لا انفصام لها:

وهل ينتهى إمداده وهو دائم ... ويدركه الإعياء وهو قدير؟
ويسأله من فى السماوات فضله ... ومن فى الثرى والكل وهو خبيرُ
ومن ذا الذى يحصى عطاياه بالندى ... ومَن دونه بين العباد نصير؟
وهل غيره يعطيك علما وحكمة ... وأنت سميع باسمه وبصير؟
وحولك آلاف يشودك عدّها ... ومن حولها نار تشب ونور
وهيهات للفانى وإن شب عقله ... إحاطة علم.. والحدوث قصور

قلت: إن العقل يا سيدى يريد أن يخترق حجب الغيب ليعلم.. فهل هذا من حقه؟

(٣١) سورة يونس الآية ٩.
(٣٢) سورة الأحزاب الآية ٤.
(٣٣) سورة الحاقة الآيتان ٣٨، ٣٩.
(٣٤) سورة الشورى الآية ٥٢.
(٣٥) سورة إبراهيم الآية ٤٨.

قال: هذا هو مفهوم قوله تعالى: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة﴾[٣٦]. وإن السلام يا أخى من مزالق الزلل.. ومهاوى الخطأ والخطل.. هى التى تضع أمام العقل الرياضى الحدود التى يجب أن يقف عندها بحثه.. وينتهى إليها استقراؤه ودرسه.. فإن فى ذلك الأمن من الزندقة.. والنجاة من الإلحاد فى الآيات.. والتعامى عن البينات.. لأن الذين لا يفقهون.. هم دائما فى طغيانهم يعمهون.. والطغيان هو تجاوز الحد فى جبروت وكبرياء.. ومن الكبرياء محاولة الإحاطة بسرّ النور.. فإن ذلك السرّ تحترق فيه الملائكة إذا حاولت أن تتخطاه أو تتعداه.. فما بالك بالإنسان!

قلت: لعلك تقصد قول جبريل - عليه السلام - لمحمد - ﷺ - فى ليلة الإسراء والمعراج -: أنا إن تقدمت احترقت؟

قال: نعم.. أقصد هذا.. ولكن الله تعالى.. قد اختص فردا واحدا فى العالمين لكيلا يتقيد عن الانطلاق وراء حجب النور الأقدس.. وكان بها أحق وأحْرى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[٣٧]. وقد جاء إلينا.. وأشرف علينا.. وحذرنا من التعمق فى استكناه ذات البارى - سبحانه - فيقول: عليه الصلاة والسلام -: «تفكروا فى مصنوعات الله.. ولا تتفكروا فى ذاته».

قلت: وهل رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ليلة الإسراء والمعراج - ربَّه؟

قال: نعم.. فإذا كانت الخلّة - لإبراهيم - عليه السلام - والكلام - لموسى - عليه السلام - فإن الرؤية - لمحمد.. عليه الصلاة والسلام - وقد سأل ابن عباس - رضى الله عنه - رسول الله ﷺ فقال له: هل رأيت ربك ليلة أسرى بك؟.. قال: «نعم.. نور أنّى أراه».

وكان - عليه الصلاة والسلام - يدعو بهذا الدعاء بالغدو.. فى أول النهار.. وهو صلاة الفجر: «اللهم اجعل لى نورا فى قلبى.. ونورا فى قبرى.. ونورا فى سمعى.. ونورا فى بصرى.. ونورا فى شعرى.. ونورا فى لحمى.. ونورا فى دمى.. ونورا فى عظامى.. ونورا بين يدىّ.. ونورا من خلفى.. ونورا من يمينى. ونورا عن شمالى.. ونورا من فوقى.. ونورا من تحتى. اللهم زدنى نورا.. وأعطنى نورا.. واجعل لى نورا».

وقد روى أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.. قال: سألت عائشة - رضى الله عنها - بأى شىء كان النبى ﷺ يفتتح الصلاة إذا قام من الليل؟

قالت: كان إذا قام من الليل.. افتتح صلاته بقوله: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل.. فاطر السماوات والأرض.. عالم الغيب والشهادة.. أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون.. اهدنى لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

قلت: إذن فكيف يأنس المرء بغير الله.. وهو النور الهادى فى كل أمور الحياة؟

قال: الأنس بالله نور ساطع.. والأنس بالخلق هم واقع.. فهو - سبحانه - منوِّر الآفاق بالنجوم وبدائع الآيات.. ومنور القلوب بفنون الدلائل وصنوف الحجج والملاطفات.. ومنوّر الأبدان بآثار

(٣٦) سورة القيامة الآية ٥، ٦. (٣٧) سورة النجم الآية ١٨.

العبادات.. فالطاعات زينة النفوس والأشباح.. والمعارف زينة القلوب والأرواح.. والتأييد بالموافقات نور الظواهر.. والتوحيد بالمواصلات نور السرائر.

ومن هدْى الله لأحبابه أن يهديهم إلى مكارم الأخلاق.. ومن مكارمها استصغار قدر الدنيا والجود بها على كل أحد.. فإن الله يحب كل جواد سخيّ.. وقد قيل: السخاء أن تجود على من لا يعرفك.. والسؤدد أن تنصف من لا ينصفك.. وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

بُثَّ النــوالَ ولا يمنعْـك قـلتُــه ... فكل ما سدَّ فقرا فهـو محمودُ
إن الكريم ليُخْفِى عنك عسرتَه ... حتى تــراه غنيًّـا وهــو مجهـود
وللبخيــل عــلى أمــوالــه علل ... زرق العيـون عليها أوجهٌ سود

وقد قرأت أن ابن عباس رضى الله عنه - خرج فى بعض أسفاره.. فنزل ليلا على حيّ من العرب.. ومعه غلامه.. فاستضافهما رجل كان فقيرا.. كانت له شاه فذبحها لهما.. فقالت امرأته: نموت إذن من الجوع.. فقال الأعرابى: الموت خير من اللوم.

وسمعهما ابن عباس.. فلما أصبح قال لغلامه: ماذا معك من المال؟ فقال الغلام: خمسمائة دينار.. فقال له: ضعها عند هذا الرجل.. فقال الغلام: يكفيه ضعف ثمن الشاة.. قال: إليك عنى.. فإنه إن لم يكن يعرفنى فأنا أعرف نفسى.. إن الرجل جاد علينا بجميع ماله.. ونحن جدنا عليه ببعض دُنيانا.

قلت: وهل لهذين الاسمين من خواص فى الدعاء؟

قال: من خواصهما: أن تتطهر جسدا وثوبا ومكانا.. ثم تتطيب.. ثم تدعو بهذا الدعاء فى ظلمة الليل: (تباركت يا نور الأنوار.. اهد قلبى بنور معرفتك يا الله.. يانور يا هادى يا حق يا مبين). فترى فى يومك العجب.

لقد أطلق الله تعالى للبصائر حق النظر فى تجليات أسمائه وصفاته.. والصفات شرط فى توجهات المصطفين الأخيار.. فهم صفوته من خلقه.. يريهم ما يشاء من بدائع مصنوعاته.. ومتقنات مخلوقاته. ولعل هذا هو المدخل الطبيعى لتجليات الاسم - البديع -.

* * *

٩٥ - البديع

قلت: هل ورد اسم- البديع - فى القرآن الكريم؟.

قال: نعم ورد هذا الاسم - البديع - فى موقعين من القرآن الكريم.. هما ﴿بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له لكن فيكون﴾[١] وقوله: ﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كل شىء، وهو بكل شىء عليم﴾[٢].

قلت: وما معنى البديع - فى اللغة؟.

قال: بَدَع فى اللغة أبدع أى اخترع الشىء من غير مثال سابق.. والشىء البدْع أى المبتدع.. ومنه قوله تعالى: ﴿قل ما كنت بدعًا من الرسل﴾[٣] بمعنى: أننى لست أول رسول جاء للبشرية بالتوحيد.. وأنا لست بدْعا.. كما قال تعالى عن أتباع عيسى - عليه السلام -: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾[٤].

وكل من فعل فعلا.. لم يفعله أحد من قبله.. نقول عنه أبْدع وابتدع، ولهذا سميت البدعة بدعة.

قلت: وما هى البدعة.. التى قال عنها رسولنا.. ﷺ: «كل بدعة ضلالة.. وكل ضلالة فى النار»؟.

قال: البدعة ما ليس لها أصل فى كتاب الله ولا سنة رسوله.. ولا اجماع الأمة.. قال تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[٥] كما قال: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾[٦] وقال: ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة﴾[٧].

وقال أحد العارفين: «من أمَّر السنة على نفسه قولًا وفعلا نطق بالحكمة.. ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة».

وقال - ﷺ -: «من أحبَّ سنتى فقدأ حبّنى.. ومن أحبّنى كان معى فى الجنة» وأصول السنة ثلاثة:

أولا: الاقتداء بالنبى فى الأخلاق والأفعال.

ثانيا: الأكل من الحلال.

ثالثا: إخلاص النية فى جميع الأعمال.

وجاء فى خبر مسند: عمل قليل فى سنّة.. خير من اجتهاد فى بدعة .

وقد قرأت عن الإمام أحمد بن حنبل.. أنه قال كنت يوما مع جماعة يتجردون من ملابسهم

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٧.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٠١.
(٣) سورة الأحقاف الآية ٩.
(٤) سورة الحديد الآية ٢٧.
(٥) سورة النور الآية ٦٣.
(٦) سورة النور الآية ٥٤.
(٧) سورة الأحزاب الآية ٢١.

ويدخلون الماء.. وهممت أن أعمل مثلهم فتذكرت قول رسول الله - ﷺ - «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلّا بمئزر» .. فلم أتجرّد.. فرأيت تلك الليلة فى المنام قائلا يقول لى: أبشر يا أحمد فإن الله قد غفر لك باستعمال سنّة رسوله.. فقلت من أنت؟.. قال: أنا جبريل.. وقد جعلك الله إماما يقتدى بك.

وقال ابن عباس - رضى الله عنه - ما أتى على الناس عام.. إلا أحدثوا فيه بدعة.. وأماتوا فيه سنّة.. حتى تحيا البدعة وتموت السنّة.

وقال - ﷺ -: «من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره.. فقد أعان على هدم الإسلام».

وقال سهيل بن عبد الله: من داهن مبتدعا.. سلبه الله تعالى حلاوة السنن ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله تعالى نور الإيمان من قلبه. كما قرأت أن من استهان بأدب من آداب الإسلام.. عوقب بحرمان السنّة.. ومن ترك سنّة.. عوقب بحرمان الفريضة.. ومن استهان بالفرائض.. قيض الله له مبتدعا يَذكر عنده باطلا فيوقع فى قلبه شبه.. فاعلم أن بركات السنّة.. توصل العبد إلى حقائق القربة.. وتجعله أهلا لخصائص الرأفة.

والحديث القدسى المشهور يقول: «من عادى لى وليًّا آذنته بالحرب.. وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه.. ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه.. فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها.. وأذنه التى يسمع بها.. ويده التى يبطش بها.. ورجله التى يمشى بها.. ولئن سألنى لأعطينه.. ولئن استعاذ بى لأعيذنه.. وما ترددت فى شىء أنا فاعله.. ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن.. هو يكره الموت وأنا أكره مساءته».

ولعل هذا هو المعنى المركز.. فى قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾[8].

قلت: لقد بَعُدَ بنا الحديث عن البدعة عن معنى اسمه - تعالى - البديع فما معنى هذا الاسم بالنسبة إليه تعالى؟.

قال: قلنا أول ما قلنا فى المعنى اللغوى.. أن الإبداع هو اختراع الشىء من غير مثال سبق.

ومعنى اسمه - تعالى - البديع - هو البدء والتكوين والتصوير على غير مثال مسبق.. فبدأ الكائن وأبدعه.. فى أى صورة ما شاء ركّبه.. ولايتم ذلك الإبداء والتكوين والإبداع إلا إذا كان الخلاق بديعا.. فإن مجرد التكوين لذاته خلْق.. وإن هذا الخلق وإحسانه وتناسب أعضاء المخلوق وقسماته وتمييزه عن كل ما سواه إنما يكون أثرا لتجليات الاسم - البديع - استقلالا بذاته - سبحانه -.

قلت: إذن هناك ارتباط بين الاسمين الكريمين: الخالق والبديع؟.

قال: نعم.. الخلق أساس والإبداع بناء.. وهو سبحانه - بديع فى ذاته.. ولم يسبق له مثيل يماثله.. كما أنه لا يماثله أحد فى صفاته.. ولا فى أفعاله.. فهو - البديع - المطلق.

ولكن يلزم هنا أن ترى الاقتران بين اسم - المصور - واسم البديع - فهما عاملان فى مجليات الاسم - الخالق -.

---

(٨) سورة آل عمران الآية ٣١.

قلت: هل تساعدنى على معرفة - الله البديع -.؟.

قال: لقد كان الحسن بن هانئ - أبو نواس - رحمه الله - موصوفا فى شبابه بالخلاعة والتهتك.. وكان زهرة الأدب العربى فى تاريخ العباسيين.. وفى عصر الرشيد والأمين بالذات.. وكانت الدولة فى يفاع بذخها.. وقمة حضارتها.. ومع هذه الخلاعة والتهتك التى اشتهر بها ابن هانئ.. فقد كان بصير القلب.. انطلقت مشاعره فى مشاهدة تجليات الاسم - البديع - حتى انتهى به تأمله العميق إلى حقيقة التوحيد.. فى زهرة النرجس.. حينما قال:

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى إبداع ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

ويبدو أن هذه النظرة البصيرة.. رشحت أبا نواس للعفو الإلهى.. فإن أحد الصالحين رآه بعد موته.. فى رؤيا برزخية منامية.. رآه يرفل فى سندس وإستبرق.. وفى معصميه أسورتان من ذهب مشرق منير.. فقال له: ويحك يا خليع.. بم بلغت هذا؟.. إلى آخر ما أوردناه بهذا الصدد عند ذكر العفو الإلهى.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن ذوى البصائر هم أخص عباد الله فى مشاهدة تجليات الاسم - البديع - فى الكون الذى خلقه الخالق.. وأبدعه البديع.. فهو كتاب يطالع البصائر بالبصائر.. ويرشد التائه والحائر.

فانظر يا أخى بنور بصيرتك فى نفسك أنت أولا:

ألستَ مُتْقَنا؟.. ألستَ سميعا؟.. ألستَ بصيرا؟.. ألا ترى التناسب بين حاستى الشم والذوق؟.. ألم تعلم أنك وحدك تحوى فى جسمك جميع الطعوم على اختلافها.. فدمعك ملح.. وريقك عذب.. ومخاطك مائع.. وغطاء سماخ أذنك مُر.. وخلاصة دمك حلوة وهى السكروز الخلاصى لجميع المآكل مع اختلاف طعومها؟.

ألاترى فى تكوينك جميع العناصر الموجودة فى كوكب الأرض.. ذلك الكوكب الذى تخدمه جميع المدبِّرات العليا.. والمقسمات الفلكية والدورة الشمسية بأسرها.

لقد بيّن - سبحانه - أنه هو: ﴿صُنْعَ الله الذى أتقن كل شىء﴾[٩] وأنه هو القائل: ﴿وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾[١٠] هذا كله من تجليات الاسم - البديع - فعليك متى آمنت.. أن يكون نظرك إلى آيات الله - تعالى - فى كل شىء خلقه.. نظرا يفوق تكوين الشىء ذاته.. من مادته وإبداع صورته.. على ما أشرنا إليه من التناسب والتناسق والترابط والعلائق.. لكيلا نخلط بين تجليات الأسماء التى تختلف باختلاف ظواهر وطبائع وصور الكائنات.. والعلل الوجودية لكل منها ومدى الكمال المرتقب لكل شىء خلقه تعالى وبرأه.

فأنت كما ترى خيال الأشياء فى الماء.. كذلك ترى مجالى الأسماء فى مرآة قلبك.

---

(٩) سورة النمل الآية ٨٨.
(١٠) سورة التغابن الآية ٣.

هل شممت رائحة الورد.. دون أن يكون هناك ورود وبساتين؟. فعلى قدر همة الطالب.. تُنال الآمال والمطالب.

قلت: وهل لهذا الاسم أثر فى الدعاء؟.

قال: خواص هذا الاسم كثيرة.. ولا داعى لأن ينشغل الذاكر بغير الله.. وقلبك هو الذى يدلك على المطلوب.

ومع هذا فقد قرأت عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول آلله - ﷺ - سمع رجلا يقول: اللهم انّى أسألك بأن لك الحمد.. لا إله إلا أنت المنان... بديع السماوات والأرض.. ذو الجلال والإكرام.. أسألك الجنة،، وأعوذ بك من النار.

فقال النبى - ﷺ -: «لقد كاد يدعوَ الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب.. وإذا سئل به أعطى».

ولكن يلزم ملاحظة استمرار الشىء أو المخلوق الحى إلى أجله المحدود.. وزمنه المقدر.. وهذا الاستمرار فى النماء والتقدم وانتظام التطور.. يقتضى بذاته استمرار القوة الدافعة للشىء فى طريق كماله.. وبلوغ غايته.. وهذا الاستمرار لا يكون إلاّ إذا كان الممدّ مستمر الإمداد.. فهو الباقى.. لأنه إليه المصير.

قلت: هل انتقلنا إلى اسم جديد؟.

قال: نعم.. إلى الاسم - الباقى - إن شاء الله تعالى.

* * *

٩٦ - البـاقى

قلت: ما معنى البقاء فى اللغة؟

قال: نقول: بقى الرجل أو الشيء طويلا.. أى عاش زمنا طويلا. وبقى من الشيء بقيّة.. والباقية توضع موضع المصدر.. ومنه قوله تعالى: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾[١].. أى هل ترى لهم بقاء؟. واستبقى أخاه: إذا عفا عن زلّاته لتبقى مودته.. قال النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمُّه ... على شَعَثٍ.. أى الرجال المهذَّب؟

وأقول: مالى عليه بُقْيا .وبقيّة.. قال لبيد:

فما بُقْيَا علىّ تركتماني ... ولكن خفتما صَرَد النبالِ

كما قال:

وما صَدَّ عنى خالدٌ من بقيةٍ ... ولكن أتت دونى الأسودُ الهواصرُ

قلت: وهل ورد اسم الله - الباقى - فى القرآن الكريم؟

قال: لم يرد بهذا النص.. ولكن ورد بمشتقات تحمل معناه.. مثل قوله تعالى: ﴿والله خير وأبقى﴾[٢] وقوله: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[٣]. وقوله: ﴿ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى﴾[٤].

وإن كان البقاء فى الآية الأخيرة يحتمل إسناد البقاء إلى العذاب.

كما أسند البقاء إلى الرزق الحسن.. فى مثل قوله تعالى: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾[٥]. و: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾[٦]. و: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[٧]. و: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا﴾[٨].

كما أسند البقاء أيضا إلى الآخرة.. فى مثل قوله تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾[٩].

وقال الله - تعالى - عن نوح.. - عليه السلام -: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[١٠]. فذرية نوح هم الباقون على الأرض.. بعد الطوفان.. ولذلك أطلقنا على نوح - عليه السلام - أنه - آدم الثانى - فى كتابنا (من أنباء الرسل). ﴿وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على نوح فى العالمين﴾[١١].

قلت: وما معنى اسم الله تعالى - الباقى -:

(١) سورة الحاقة الآية ٨.
(٢) سورة طه الآية ٧٣.
(٣) سورة الرحمن الآية ٢٧.
(٤) سورة طه الآية ٧١.
(٥) سورة طه الآية ١٣١.
(٦) سورة القصص الآية ٦٠.
(٧) سورة النحل الآية ٩٦.
(٨) سورة الكهف الآية ٤٦.
(٩) سورة الأعلى الآية ١٧.
(١٠) سورة الصافات الآية ٧٧.
(١١) سورة الصافات الآيتان ٧٨، ٧٩.

قال: هذا الاسم مشتق من صفة البقاء ذاتها.. وهى الصفة الثالثة من صفاته - تعالى - العشرين.. لأن الذى له صفة البقاء.. باق لا محالة.. ولولا هذا البقاء لانقطع الإمداد بالقوى.. ولترتب على هذا الانقطاع المفروض فناء العالم.. وانقطاع تيار الحياة.. وحيث أن هذا لم يحدث ولم يكن.. وقد جعل لكل شىء حدّه وقدره وزمنه: ﴿وجعل لهم أجلا لا ريب فيه﴾[12].

إذن فمدبّر الكائنات.. وخالقها ومكوّنها.. ومحسنها ومبدعها.. هو إله باق.. يتجلى باسمه - الباقى - على كل شىء.. ليبقى إلى أجله وكتابه المعلوم الأزلى.

وإن الاستدلال على اسم - الباقى - ببقاء العالم إلى الآن.. ومنذ الآماد.. التى لا يمكن تحديد ابتدائها.. استدلال ثابت لعدم زوال الكون.. وعدم فساد نظامه.. واستمرار عمليات النواميس الكونية.. وطبائع الأشياء.. دون انحلال أو توقف.

فلا محل لزعم زاعم أنه ليس باقيا.. متى ثبت قدمه.. لأن القدم والبقاء صفتان أصليتان لذاته - تعالى - فالقديم الباقى أزلا وأبدا هو الله تعالى.

وأما الممكنات فهى - كما قدمنا - موجودة بوجوده -سبحانه - فى وجودها الممكن... الذى ليس قديما.. بل حادث.

فلزم أن يكون القديم أزلا.. المنفرد بهذه الصفة وذلك الاسم.. باقيا أبدا لا يزول ولا يتحول.. ولا يطرأ عليه تغيير أو تبديل.. كما فى الحديث الشريف: «كان الله ولا شىء غيره.. ويبقى الله ولا شىء غيره» فهو - تعالى - على ما هو عليه.. وهذا من باب الأولى.. متى لاحظنا أن سُنّته نفسها لا تبديل لها.. كما قال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[13] فهذا كله داخل فى نطاق الاسم - الباقى -.

قلت: هل البقاء ضد الفناء.. أو ضد العدم؟

قال: البقاء ضد الفناء.. أما العدم فهو ضد الوجود. ولهذا قلنا فى مطلع هذا الكتاب إن الله - تعالى - هو وحده واجب الوجود بذاته.. فلا يقبل العدم.

أما اسم - الباقى - فيمكن أن نتصوره إذا رأينا الورود تذبل.. والشمس تأفل.. والمخلوقات تفنى.. والدول تزول.. والأجيال تتعاقب.

فكم من أمم عاشت حينا من الدهر ثم طواها الزمن.. فبادت بأكملها.. وكأنها لم تكن.. وكم من مدن خططت.. وعمائر شيّدت وبساتين زينت.. ثم أصبحت هى وأصحابها فى خبر كان.

ومن أجل هذا كان لزاما أن نقول: فلان صاحب هذا القصر مؤقتا.. وفلان مدير كذا مؤقتا.. وفلان رئيس الوزراء مؤقتا.. وفلان صاحب الجلالة أو الفخامة مؤقتا.. فعما قريب ستصير تلك الإضافات سابقا. ألم تر معى أن الله - تعالى - وحده هو الباقى؟

ولهذا قال: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[14].

---

(١٢) سورة الإسراء الآية ٩٩.

(١٣) سورة الفتح الآية ٢٣.

(١٤) سورة القصص الآية ٨٨.

قلت: الرسول - ﷺ - يقول عن الآخرة: «والله إنها لجنّة أبدا.. أو نار أبدا» وهذا معناه البقاء الأبدى فى الجنة أو النار.. فهل هذا البقاء شبيه ببقاء الله - تعالى -؟

قال: إن الجنة والنار مخلوقتان كائنتان.. بعد أن لم تكونا.. وبقاؤهما الابدى هذا مسبوق بعدم.. فإذا قلنا إنهما أبديتان.. أى لا نهاية لهما.. غير أنهما ليستا أزليتين.. لأنهما وجدتا بعد العدم.. فلهما أول.. والأبد بالنسبة إلى الجنة والنار.. معناه استمرار وجودهما إلى ما شاء الله - تعالى - ولهذا يجب أن نقرأ بوعى قوله تعالى عن الجنة مثلا: ﴿وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك﴾[١٥].

وقد قال مثل ذلك عن الذين شقوا فى النار.. فقال: ﴿فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها مادامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾[١٦] أما بقاء الله - تعالى - فهو بقاء أزلى أبدى.. من قبل أزل الأزل.. إلى ما بعد أبد الأبد.

ومعنى الأزلية.. هو عدم السبق بالعدم.. وهذه صفة الله وحده.. أما كل شىء.. فله أول.. ولابد أن يستولى عليه الفناء.

فسبحان الموجود الذى لا ابتداء لوجوده.. والباقى الذى لا حدود لبقائه.

قلت: هل البقاء له ارتباط بالماضى والمستقبل؟

قال: إن المتغيرات هى التى تدخل فى الماضى والمستقبل.. لأن الماضى والمستقبل تعبير عن الزمان.. ولا يدخل فى الزمان إلا التغيير والحركة. فالحركة بذاتها تنقسم إلى ماض ومستقبل.. فكل ما جل وارتفع عن التغيير والحركة.. فليس فى زمان.. لأنه ليس فيه ماض ومستقبل.. فهو - سبحانه - قديم لا ينفصل قدمه بماض ولا بمستقبل أبدا.. إنما ينطبق ذلك على المخلوقات.. تمضى عليها الاحداث.. وتتجدد أحداث أخرى فدائما يحدث أمر بعده أمر وأمور.. فانقسمت إلى زمان ماض قد انعدم وانقطع.. وإلى زمان حاضر.. وإلى زمان قادم تجدُّ فيه أمور أخرى.

فحيث لا انقضاء ولا تجدد فلا زمان.. وكيف لا.. والحق - تبارك وتعالى - قبل الزمان.. وعندما خلق الزمان لم يتغير من ذاته شىء.. وقبل الزمان لم يكن للزمان عليه جريان طبعا.. وبقى - سبحانه - بعد الزمان على ما عليه كان.

قلت: قرأت لبعض متصوفة الفرس.. أن الله - سبحانه وتعالى - بوصفه فياضا.. يحل فى الأجسام ويتحد بها.. فتقع الأفعال بناء على هذا. ومعنى هذا أن الإنسان باق ببقاء الله.. فما رأى الإسلام فى هذا الأمر العقائدى الخطير؟

قال: قلنا فى بحث الصفات.. إن الصفات الكونية سبع.. وهى: كونه تعالى: قادرا.. ومريدا.. وعالما. وحيًّا.. وسميعا.. وبصيرا.. ومتكلما.. وسميت بالصفات الكونية.. لكون المكونات كلها.. من فيض تجلياتها.. فالإنسان قادر بفيض من تجليات كونه - تعالى - قادرا - ومريدٌ بفيض من تجليات كونه تعالى مريدا.

---

(١٥) سورة هود الآية ١٠٨.

(١٦) سورة هود الآيتان ١٠٦، ١٠٧.

وسميعٌ بفيضٍ من تجليات كونه - تعالى - سميعًا.

وهكذا فى باقى الصفات الكونية السبع.. وليس من بين تلك الصفات كونه - تعالى - باقيا.. حتى نقول أن الإنسان باق ببقاء الله فيه. وإن قضية الحلول والاتحاد قضية مشهورة البطلان.. تناولتها كتب العقائد.. لأنها بدعة أشبه ما تكون بقول المسيحيين الذين قالوا: إن الكلمة القديمة - يقصدون الله جل شأنه - اتحدت بذات عيسى.. وهذا هو نفسه قول الذين قالوا بالحلول والاتحاد.. أى حلول ذات الله - سبحانه - فى المخلوقين المحدثين.. كما جوّزوا قيام الصفة القديمة بالذات المحدثة. وسأوجز لك بعض براهين بطلان تلك العقائد الفاسدة:

فأما كونه - تعالى - يحل فى الأجسام فمحال.. لأن المحلّ مكان وظرف للذى حلّ به.. ووجود الظرف إما أن يكون مساويًا فى وجوده للمظروف فى الزمان الذى وجدا فيه معا.. وإما أن يكون الظرف سابقا قبل المظروف. فإن يكن مساويا فكيف صدر؟.. ومن أين جاء؟ فيلزم التعدد حتما. ثم نقول: إن الظرف محيط بالمظروف.. فتكون الأجسام.. وهى الظرف المفروض - محيطة بما حل بها.. فكيف وهو - سبحانه - ﴿بكل شىء محيط﴾[17]؟ إن هذه الآية برهان قطعى الثبوت على نفى الظرف بتاتا.

والفرض الثانى أوهَى من سابقه.. لأن الله - تعالى - واجب الوجود.. يعنى لا أول لوجوده الأزلى.. ومتى كان واجبا لزم سبقه على جميع الممكنات.. والسبق فى ذاته برهان على عدم إحاطة المسبوق بسابقه.. الذى له الأزلية والأبدية.. يعنى: القدم والبقاء.

وبهذه الموازين الاعتبارية.. نصل إلى أن الحلول كفر صُراح. وأما الاتحاد.. فهو أن يصير الحالّ والمحلّ شيئا واحدا.. أى الله - تعالى - والمخلوق الذى حلّ فيه.. بمعنى اتحاد الظرف والمظروف وصيرورتها واحدا بالذات.. وهذه الأخرى أوضح بطلانا من الأولى.. لأنها تجعل كل محل حالًّا.. وتجعل كل موجود هو الله.. وهذه باطلة ببداهة العقل.. لأننا نرى الأشياء والأحياء فى عالم الكون والفساد.. تكون.. ثم ينفسد تكوينها.. فهل نقول: إن الله - تعالى - يموت فى الميت؟.. أم ينسحب منه كانسحاب المظروف من الظرف.. مع أن الأصل فى الفرض الذى فرضناه أن الظرف والمظروف ذات واحدة.. وأن المظروف هو عين الظرف باتحادهما المزعوم؟.

وهذا خَلْفٌ.. أى يجب إهماله.. ولا يستحق شرف النقاش. وهكذا اتضح لنا بطلان الحلول والاتحاد.. وظهور الزندقة والسفسطة والإلحاد.

ولهذه الطائفة - طائفة الحلوليين - ثرثرات هذيانية.. لهم فيها شعر منظوم.. مثل قولهم:

إنى أنا الله لمّا جاز من شجر فكيف بالكامل السامى من البشر

ومحصّل هذا البيت البهلوانى.. أن القرآن الكريم يقول عن الله تعالى: ﴿فلما أتاها نودى من شاطئ الوادِ الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين﴾[18].

ويزعم الملحدون أن قوله: ﴿فى البقعة المباركة من الشجرة﴾ تحديد للذات الإلهية.. التى هى فى

(17) سورة فصلت الآية ٥٤.

(18) سورة القصص الآية ٣٠.

نظرهم حين هذا القول لموسى - عليه السلام - قد حلت فى البقعة المباركة من الشجرة.. فتكون الشجرة عندهم مَحَل حلت فيه الذات العلية.. وقالت ما قالت.

إنهم يريدون أن يقولوا لنا.. إذا كانت الذات قد حلّت فى الشجرة.. فكيف لا يجوز أن نقول إن الذات حلّت فى الإنسان فيقول: إنى أنا الله. لقد كذبوا وأضلهم الشيطان.. وإلا فهل إذا مات شاب منهم.. أو ضعف أو مرض.. يكون معنى هذا أن قوة اتحاده - تعالى - به قد اعتراها المد والجزر.. والتقلص والالتواء.. وأخذت تتقهقر وتأخذ طريقها إلى الانفكاك والانحلال؟

هذا زعم شياطينكم ظاهر البطلان.. واضح الضلال.. باطل المِحال.. فإنكم لن تجدوا برهانا واحدا على استقلال أحدكم بالوجود والقدرة.. والإرادة والعلم والحياة.. والسمع والبصر والكلام.. بل أنتم تستمدون هذا من تجلى صفاته الكونية.. ولكنكم فى دياجير ضلالكم توحدون بين المتجلِّى والمجلَى.. فتقولون إن المجلَى هو عين المتجلِّى.. ومعنى هذا الرأى الأخرق أن القمر هو عين الشمس.. وهى المتجلِّى بالنسبة إليه.. فهل إذا قلنا إن القمر هو الشمس.. والشمس هى القمر.. أما يجوز للناس أن يقولوا عنا مجانين؟؟؟

وخلاصة القول حول تلك القضية.. ما قاله أحد المحققين: إن الحق - سبحانه وتعالى - باق ببقائه.. والعبد باق بإبقائه وإلى الاسم الجديد إن شاء الله تعالى.

* * *

٩٧ - الوارث

قلت: ما هو الاسم التالى بُعد اسمه تعالى - الباقى -؟.

قال: كان من الطبيعى أن يكون الاسم الذى يلى الاسم - الباقى - هو اسم - الوارث - الذى يرث الكون بعد فناء خلقه.

قلت: وهل معنى اسم - الوارث - بنفس المعنى المفهوم من الميراث.. وهو أيلولة التركة إلى الورثة بعد موت مورثهم؟.

قال: لا يكون الميراث بالنسبة إلى تعالى - بمعنى أيلولة ملك الغير إلى الوارث.. كما هو شأن الحوادث.. بل الميراث بالنسبة لذات الله - تعالىٰ - إنما يراد به حكم الصيرورة.. لأنه إليه المصير.. وليس شىء مما صار إليه ولا من صاروا إليه خارجًا عن ملكه.. أو عن حكمه.. إذ ﴿لامعقب لحكمه﴾(١) وهذا الاسم - الوارث - من الأسماء المصدرية.. كالصبور والمؤمن وإليه يستند كل موروث.. وهذا ما أجمعت عليه كل آيات القرآن الكريم.

قلت: أرجو توضيح هذه العبارة.. وبيان كيف يستند إليه كل موروث.

قال: خير توضيح لهذا المعنى.. هو ذكر ما قرره تعالى فى محكم كتابه - مثل: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها﴾(٢) ومثل قوله تعالى: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها﴾(٣) وقوله ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾(٤) وغيرها كثير.. مما يثبت إسناد التوريث إليه تعالى.

قلت: وهل التوريث لا يكون إلا فى الماديات.. من أموال وعقارات.. وزروع وجنات.. وقصور وعمارات؟.

قال: التوريث قد يكون بالماديات أو المعنويات أو بهما معًا.. كما يكون مصيريا ولكل معنى من تلك المعانى آياته الصادقة.. ومحكماته المدققة.. وبياناته الناطقة.

ففى الماديات.. تجدها فى تلك الآيات التى ذكرناها.. ردا على سؤالك السابق وفى المعنويات.. فى مثل قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خَلْف ورثوا الكتاب﴾(٥) وقوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾(٦) وقوله: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب﴾(٧) وغيرها كثير.. نرى فيها الميراث ينصبّ على الكتاب والحكمة.. وكلها معنويات.

---

(١) سورة الرعد الآية ٤١.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٧.
(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٧.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٢٨.
(٥) سورة الأعراف الآية ١٦٩.
(٦) سورة فاطر الآية ٣٢.
(٧) سورة غافر الآية ٥٣.

وأما فى الماديات والمعنويات معًا.. ففى مثل قوله تعالى:﴿وورث سلّيمان داود وقال يأيها الناس عُلّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾[8] ماديا ومعنويا.

﴿فهب لى من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب﴾[9] ولعله يقصد يرثني فى النبوة.. ويرث الملك من آل يعقوب وكذلك فى قوله تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾[10].. فهذه كلها جمعت بين الماديات والمعنويات.. كما جاء التوريث خاصا بالجنان.. فى مثل قوله تعالى:﴿الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[11] وقوله: ﴿تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا﴾[12] وقوله: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[13].

أما فى الكلية المصيرية.. ففى مثل قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون﴾[14].. وفى قوله الشامل المطلق: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾[15].

وحيث أن إليه المصير والمرجع والمآب.. فلا غرو أبدع ما خلق.. وأتقن ماكوّن وأحسن ما صوّر.

ومن هنا أشرف اسم – الوارث – على الاسمين الكريمين: المصور والبديع فمتى كان الوارث لطيفا خبيرا.. سميعا بصيرا.. حكيما عليما.. لزم أن يكون الموروث لائقا لهذا الوارث العظيم.. مُصوَّرا مُبدَعًا.

قلت: تقول يا أستاذى.. إن هناك ارتباطا.. بن اسم – الوارث – واسمى: المصور البديع.. فأين الإبداع..٠فى صورة الثعبان مثلا؟.

قال: هناك فرق ة واضح .. بيم مجرد التصوير.. باسم المصور – وبين الإبداع باسم البديع فقد توجد صورة رهيبة لا يرى فيها الإنسان معنى الإبداع والجمال والحسن.. كصور الوحوش والضوارى والحشرات والزواحف. فتلك ينفصل فيها المصوّر عن البديع – بينما يقترن الاسمان فى كل صورة تتصف بالحسن والجمال.. لأن الحسن والجمال.. من تجليات الاسم – البديع – إذ ليس مجرد التصوير يكون إبداعا.. متى تجرد عن التأثير الجاذب لنفس الإنسان.. ولكن هذه أحسن صورة للأسد كأسد... وأحسن صورة للكلب ككلب.. وأحسن صورة للثعبان كثعبان.. وهكذا لأن الله – تعالى – قال:﴿الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾[16].

وهذا المقام من الدقة.. بحيث لا يلمحه إلاّ من شاء الله له أن يبلغ مرتبة المتوسمين.. فالجمع بين تجليات صور الجمال والجلال مرجعه إلى المجد الأعلى.. الذى هو الجامع لجميع الشئون.

قلت: قسم الله – تعالى – الذين ورثوا الكتاب إلى ثلاثة أقسام.. فى الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾[17] فما موقف الظالم لنفسه.. وقد أدخله الله تعالى فى مصاف المصطفين الذين فازوا بالفضل الكبير؟.

---

(٨) سورة النمل الآية ١٦.
(٩) سورة مريم الآية ٥، ٦.
(١٠) سورة الزمر الآية ٧٤.
(١١) سورة المؤمنون الآية ١١.
(١٢) سورة مريم الآية ٦٣.
(١٣) سورة الأعراف الآية ٤٣.
(١٤) سورة الحجر الآية ٢٣.
(١٥) سورة مريم الآية ٤٠.
(١٦) سورة السجدة الآية ٧.
(١٧) سورة فاطر الآية ٣٢.

قال: هذا سؤال وجيه.. وللإجابة عليه.. نقول: الإنسان بطبعه ظلوم جهول.. وكل ابن آدم خطّاء.. وقلنا سابقا: إن الظالم هو الذى يظلم غيره.. والظلوم هو الذى يظلم نفسه.

والله – سبحانه وتعالى – فى حالة ظلم الإنسان لنفسه.. هو صاحب الحق المطلق.. فى المغفرة والرحمة.. لأن هذا الوارث للكتاب.. قد ظلم نفسه.. ولم يظلم غيره فإذا ظلم غيره.. كان هذا الغير هو صاحب الأمر.. فى العفو عمن ظلمه.

ولهذا قالت أم المؤمنين عائشة.. حول تلك الآية: «سابقنا مقرب.. ومقتصدنا ناج.. وظالمنا مغفور له» وليس أدل على مغفرة الله لذلك الظالم نفسه.. من بقاء كتاب الله فى صدره.. وإلا لنزعه الله من قلبه فلا يكون من وارثى الكتاب.

قلت: إذن فحقيقة الإرث والتوريث والميراث.. لا تكون إلا لله تعالى؟.

قال: ليس فى هذا شك.. فهو وحده الذى ترجع إليه الأملاك.. بعد فناء المُلّاك.. ذلك هو الله – سبحانه – إذ هو الباقى بعد فناء خلقه وإليه مرجع كل شيء ومصيره.. فهو الوارث الحق المبين.. وهو القائل سبحانه: ﴿إنا نحن نحيى ونميت ونحن الوارثون﴾[18] وقال: ﴿وكنا نحن الوارثين﴾[19].

وقال زكريا عليه السلام: ﴿رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين﴾[20] وأرجو أن تعّد نفسك لتتخيل معى يوم ينفخ فى الصور: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض﴾[21] من ملائكة وجن وإنس.. فانطفأ النور فى الملائكة.. وخمدت النار فى الجن وانسحبت الحقائق الروحية من الإنس.. وبقى الله عز وجل – وحده فيقولُ يومئذ: ﴿لمن الملك اليوم﴾ فتجيب الذات على الذات: ﴿لله الواحد القهار﴾[22].

إذ يظن الكثير من الناس.. أن لهم ملكا خاصا.. فينكشف لهم فى ذلك اليوم بعد النفخة الثانية.. يوم تزلزل الأرض زلزالها.. وتخرج أثقالها.. يوم يُبعثر ما فى القبور.. وينكشف ما فى الصدور.. يوم تبلى السرائر.. ويعلم الإنسان أنه ليس له من قوة ولا ناصر: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى الله منهم شيء﴾[23]... ينكشف لهم فى ذلك اليوم حقيقة الحال.

وهذا النداء من الذات العليه: ﴿لمن الملك اليوم﴾.. عبارة عن حقيقة ما يشاهدون فى ذلك اليوم: ﴿لله الواحد القهار﴾.

قلت: تقول يا سيدى إن هذا ما ينكشف لكثير من الناس.. فهل هناك أناس لا ينكشف لهم هذا المشهد؟.

قال: إن أصحاب البصائر دائما مشاهدون لمعنى هذا النداء ﴿لمن الملك اليوم﴾ وليس فى هذا اليوم فقط.. فهم دائما سامعون له من غير صوت ولا حرف.. موقنون بأن الملك لله الواحد القهار.. فى كل يوم وفى كل ساعة.. وفى كل لمحة.. وهذا هو مفهومهم الأزلى الأبدى.

---

(١٨) سورة الحجر الآية ٢٣.
(١٩) سورة القصص الآية ٥٨.
(٢٠) سورة الأنبياء الآية ٨٩.
(٢١) سورة الزمر الآية ٦٨.
(٢٢) سورة غافر الآية ١٦
(٢٣) سورة غافر الآية ١٦

وذلك إنما يدركه من أدرك حقيقة التوجيه فى الأفعال والأعمال.. وعلم أن المنفرد بالفعل فى الملك والملكوت واحد.

وقد أشرنا إلى ذلك فى كثير من مقامات هذا البحث.. فى كثير من الأسماء فسبحانه تسربل بالصمدية بلا فناء.. وانفرد بالأحدية بغير انتفاء.. الوارث بلا توريث أحد.. الباقى الذى ليس لملكه أمد.

قلت: يخيل إلىّ أن لهذا الاسم أثر فى الدعاء.

قال: هذا الاسم – الوارث – يجوز أن يكون وردًا يوميا ثابتا بغير عد.. لمن لم يرزقه الله الولد.. مع قوله تعالى: ﴿رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين﴾(٢٤).. فإن الله تعالى يرزقه ذرية صالحة بإذنه.

كما أن ذكره بغير عدد.. والإنسان منفرد بربه بين المغرب والعشاء يبعث فى النفس الأمن والأمان.. والسكينة والاطمئنان.. وبحسب الهمة والاستعداد.. ينال الطالب المراد.

وهيا إلى اسمه تعالى – الرشيد –.

* * *

(٢٤) سورة الأنبياء الآية ٨٩.

٩٨ - الرشيد

قلت: أليس معنى الاسم - الرشيد - يعنى الهادى؟

قال: الرشيد هو الذى تنفذ تدبيراته إلى غاياتها.. صائبة سديدة.. من غير إشارة مشير.. أو تسديد مُسَددٍ.. أو إرشاد مرشد. وهو الهادى إلى الرشاد.

قلت: وما معنى الرشاد فى اللغة؟

قال: الرشاد: ضد الغى والضلال.. وأرشده الله: أى هداه إلى طريق الصواب.. وسن الرشد: هو بلوغ مرحلة الوعى والإدراك.. ومنه قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾[١].

قلت: وهل ورد اسم - الرشيد - فى القرآن الكريم؟

قال: لم يرد نصه فى القرآن الكريم.. ولكن ورد به الخبر.. فى ذكر الأسماء.

قلت: وما هى المواقف القرآنية.. التى تدور حول مفاهيم هذا الاسم؟

قال: وردت مفاهيم هذا الاسم - الرشيد - فى مواقف عديدة فى آيات الكتاب الحكيم.

فقد قالت الجن عن القرآن الكريم ذاته.. فى سورة الجن: ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾[٢]. فهداية - الرشيد لهم.. بواسطة القرآن العجب.. أرشدت الجن إلى التوحيد المطلق.. والتفريد المجرد.. فحال بينهم وبين الاشراك بربهم أحدا. وهذا موسى - عليه السلام - يتوسل إلى العبد الصالح - عليه السلام - فيقول له: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾[٣].

وقد ورد اسم - الرشيد - فى القرآن الكريم.. بمعنى الحكمة والعقل والبصيرة.. فى قوله تعالى.. على لسان نبيه لوط - عليه السلام - وقد تجمع القوم أمام بابه يريدون ضيوفه لارتكاب الفحشاء معهم.. قال: ﴿فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رَجل رشيد﴾[٤]. يعنى أليس فيكم رجل حكيم عاقل يمنعكم عن هذا الأمر البغيض؟ وكذلك ما قاله قوم شعيب - عليه السلام - له: ﴿قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾[٥].

كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾[٦].

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥١.
(٢) سورة الجن الآيتان ١، ٢.
(٣) سورة الكهف الآية ٦٦.
(٤) سورة هود الآية ٧٨.
(٥) سورة هود الآية ٨٧.
(٦) سورة هود الآية ٩٧.

وقد سمى الله - تعالى - المؤمنين بأنهم هم الراشدون فى قوله تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾(٧).

قلت: أليس الله - تعالى - هو الذى أرشدهم وهداهم؟

قال: نعم.. ولهذا قال تكملة للآية السابقة: ﴿أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾(٨).

فالله تعالى هو الرشيد الهادى إلى الرشد: ﴿ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدا﴾(٩). فالرشيد - سبحانه - هو المرشد لعباده فى جميع الحالات.. والإرشاد على أنواع ثلاثة:

الأول: الإرشاد الأكبر.. وهو إرشاد عبده.. وهداية قلبه إلى معرفته.. وقد خص الله بذلك أولياءه من المؤمنين: ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾(١٠). ومن اهتدى إلى الصراط المستقيم.. فقد اهتدى إلى معرفة الله.. لأنه قال: ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾(١١).

الثانى: إرشادهم فى الدنيا بتوجيه قلوبهم إلى الطاعة.. ووقايتهم من المخالفة.

الثالث: إرشاده إياهم ماديا لما فيه صلاح أحوالهم.. وانتظام أسباب معايشهم.. فهول القائل: ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها﴾(١٢) هذا بمعنى الإرشاد.

قلت: أليس رجال العلم.. هم رجال الإرشاد؟

قال: نعم.. ألم تر أنه قال فى آية الحجرات التى ذكرناها من قريب: ﴿أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾(١٣). فاسم - الرشيد - متعلق بالاسمين الكريمين - العليم والحكيم - فالأنبياء والعلماء والحكماء هم الراشدون للبشرية.. والهداة للإنسانية.

ولهذا جاء فى الحديث أيضا: «إذا ظهرت البدع فى أمتى.. فعلى العالم أن يظهر علمه... وإلا فعليه لعنة الله» وجاء فى جامع الأخبار.. عن النبى ﷺ: «أفتخر يوم القيامة بعلماء أمتى.. وعلماء أمتى كسائر الأنبياء قبلى».

كما قرأت عن على بن إبراهيم.. عن أبيه عن رسول الله ﷺ: «من سلك طريقا يطلب فيه علما.. سلك الله به طريقا إلى الجنة.. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء به.. وإنه ليستغفر لطالب العلم من فى السماء ومن فى الأرض حتى الحوت فى البحر.. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على النجوم ليلة البدر.. وإن العلماء ورثة الأنبياء.. وإن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما.. ولكن ورثوا العلم.. فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر»

قلت: وكيف يشعر المرء فى نفسه بأنه مشمول بإرشاد الله وتوجيهه؟

قال: علامة من يرشده الحق لإصلاح نفسه.. أن يلهمه حسن التوكل عليه.. وتفويض أموره

---

(٧) سورة الحجرات الآية ٧.
(٨) سورة الحجرات الآية ٨.
(٩) سورة الكهف الآية ١٧.
(١٠) سورة البقرة الآية ٢١٣.
(١١) سورة هود الآية ٥٦.
(١٢) سورة الشمس الآيتان ٧، ٨.
(١٣) سورة الحجرات الآيتان٧، ٨.

بالكلّيّة إليه.. واللجوء إليه فى كل خَطْب.. واستخارته فى كل شغل.. وقد رأينا موسى - عليه السلام: ﴿ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل﴾(١٤). وهكذا ينبغى للعبد إذا أصبح أن يتوكل على ربه.. فإذا عرض له أمر يشغله فزع إلى الله.. وينظر ما يرد على قلبه من الإشارات والتوجيهات فقلب المؤمن حسّاس.. ويجب عليه ألّا يخالف هذا الإحساس من غير تردُّد.. فإن تردَّد وخالف.. عاتبه الله تعالى عتابا يعلم منه المؤمن أن سلوكه كان منه سوء أدب.. حتى يعود إلى سكونه.. وترك اختياره واحتياله.

ومن إرشاد الله تعالى للعبد تثبيته إياه على طريق الاستقامة.. حتى لا ينقص عزمه.. ولا يفتر يقينه.. ولا تنقطع صلته بالله فى جميع لحظاته وخطراته: وقد قرأت عن رابعة العدوية شعرا.. تقول فيه:

إنى جعلتـــك فى الفؤاد محـــدثى ... وأبَحْتُ جسمى من أراد جلوسى
فـــالجسم منى لـــلأنيس مجـــالس ... وحبيب قلبى فى الفـؤاد أنيـسى

فإذا صحت العبودية.. صح التوكل والإيمان.

قلت: وما صحة العبودية؟

قال: هناك علامات لصحة الإيمان.. وصحة التوكل.. وصحة العبودية. فصحة الإيمان: بالشكر على النعماء.. والصبر على البلاء.. والرضا بالقضاء.

وصحة التوكل: بهجران النفس.. ونسيان الخلق.. والتعلق بالحق.. وملازمة الذكر.. وإذا عارضك عارض يصدك عن الله فاثبت.

وصحة العبودية: بوضوح الفكرة عن حقيقة الصفات الإنسانية وحقيقتها أنها فقر بالنسبة إلى الله تعالى.. وعجز بالنسبة إلى قوّته.. وذلّ فى مقابل عزّه - سبحانه -.

فهو - سبحانه - قد أرشد نفوس الزاهدين إلى طريق طاعته. وأرشد قلوب العارفين إلى سبيل معرفته. وأرشد أرواح الواجدين إلى حقيقة صحبته. ووجه أسرار الموحدين إلى أمل رؤيته.

قلت: معنى هذا أن درجات الإرشاد من الله.. تختلف بين عبد وعبد؟

قال: إن الله - تعالى - يرشد كل عبد بقدر هدايته إلى طريق الصواب فى مقاصده فى الدين والدنيا.

ولذلك كان من دعاء النبى ﷺ: «اللهم إنى أسألك رحمة من عندك.. تهدى بها قلبى.: وتجمع بها شملى.: وتلُمَّ بها شَعَثى.. وتردّ بها الفتن عنى.. وتصلح بها دينى.. وتحفظ بها غائبى.. وترفع بها شاهدى.. وتزكى بها عملى.. وتبيض بها وجهى.. وتلهمنى بها رشدى.. وتعصمنى بها من كل سوء».. إلى أن يقول: «اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة.. وهذا الجهد وعليك التكلان.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. ذى الحبل الشديد.. والأمر الرشيد»: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾(١٥).

وإلى الاسم - الصبور - إن شاء الله تعالى؟

(١٤) سورة القصص آية ٢٢. (١٥) سورة الكهف الآية ١٠.

٩٩ - الصبور

قلت: معروف أن لفظ الصبور مبالغة من صابر وهذا يدفعنى إلى أن أسأل عن معنى - الصبر - فى اللغة أولا.

قال: الصبر: حبسُ النفس عن الجزع.. وصَبَّره: أى حَبَسه ومنه قوله تعالى لنبيه - ﷺ -: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾(١).

كما جاء فى الحديث.. عن رجل حبس رجلا.. وقتله رجل آخر.. فلما سئل - ﷺ - عن جزاء الحابس والقاتل.. قال: «اقتلوا القاتل.. واصبروا الصابر» يعنى اقتلوا الذى قتله واحبسوا الذى حبسه للموت.. حتى يموت.

وسمى شهر الصوم - شهر الصبر - أى شهر حبس النفوس عن شهواتها والتصبُّر: هو تكلف الصبر.

والصبِر: بكسر الباء.. هو الدواء المر.. ولا تسكن الباء إلا للضرورة فى الشعر مثلا.

واشترى الشىء صُبْرة: بضم الصاد وتسكين الباء.. أى اشتراه بغير وزن.. وأقول: صبرت على ما أكره.. وصبرت عما أحب.

ويقال: الصبر أمرٌ من الصبر.

وملأ الكأس إلى أصبارها.. أى حروفها.. ومنه قوله عليه السلام: «سدرة المنتهى صُبْر الجنة» بضم الصاد وتسكين الباء: أى أعلاها.

قلت: ليس فى هذه المعانى كلها.. ما يفيد نسبة الصبر إلى الله تعالى... فما معنى اسم - الصبور -؟.

قال: الصبور - سبحانه - هو ملهم الصبر لجميع خلقه فهو مصدر الصبر.. لا صبر إلاّ منه - عز وجل - ومنه قوله تعالى لنبيّه - ﷺ: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾(٢) فالإيمان مثلا - فيضٌ متدفق من عالم الغيب ينصبّ فى قلب كل مؤمن.. فإن الاسم - المؤمن - وهو المصدر الرئيسى لحصول ذلك الإيمان.. وكذلك الاسم الصبور - لا يدل على قوة احتمال المكروه بالنسبة لذات الحق المنزه عن الألم.. ومماثلة البشر فى التحمل والصبر - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - فكيف يقع ما يؤلمه حتى يتحمل ألمه ويصبر عليه.. وهو منزّه عن كل ذلك.. فلا يقع فى الكون أمر.. إلا إذا خصصته إرادته.. وأنفذته قدرته.. غير مكرَه.. وله الحجة البالغة.. بل الصبر إنما هو مدبَّر من الصبور - سبحانه - فيكون الاسم - الصبور - مصدرًا لكل صبر جميل يصبره العبد.. ويكون العبد فى هذه الحالة مجلى للاسم - الصبور - حيال محنة أو أمر مكروه.. ولذلك قال سبحانه ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم

(١) سورة الكهف الآية ٢٨

(٢) سورة النحل الآية ١٢٧.

ولا تك في ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[٣].

فقل لي بربك.. ما هي المعاني التي تتبادر إلى ذهنك الصافي الرقيق عندما تحاول أن تفهم جملة ﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾ أهي معيّة جسدية..؟.. وقد تنزه - سبحانه - عن ذلك.. فلم يبق إلّا اعتبار واحد لاشك فيه.. وهي معية الإمداد والإلهام.

كما قال تعالى عن أصحاب طالوت: ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله﴾[٤].

هذا معنى من معاني اسم - الصبور - بالنسبة إليه تعالى.

قلت: وهل هناك معنى آخر لهذا الاسم؟.

قال: يوجد معنيان آخران لهذا الاسم - الصبور - غير كونه مصدرا للصبر.

الأول: أنه - عز وجل - يصبر على ما لا يرضاه من عباده.. لا تستفزه المعاصي.. ولا يعجل بالعقوبة على من عصاه.

سبحانه إذا أعرضت عنه بالعصيان.. قابلك بالعفو والغفران.

والثاني: هو أنه تعالى لا يعجل بأمر قبل أوانه.. بل ينزل الأمور بقدر معلوم.. ويجريها على سنن محدود.. يبرز كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي.

أما يكون مَن هذا شأنه - صبورا -؟.

قلت: لعل الرأي الأخير.. يحتاج إلى مثل يقرب معناه إلى العقل.

قال: المثل من نفسك لعقلك.. فأنت تعلم أن الله - تعالى - قادر على خلق الإنسان بين الكاف والنون.. فهو القائل: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[٥].. والقائل: ﴿كلمح البصر أو هو أقرب﴾[٦].

ولكنه تعالى - أقام الدنيا على الأسباب.. فانظر إلى قوله - تعالى - عن خلق الإنسان مثلا: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[٧].

فانظر هدانا الله وإياك - إلى خلق الإنسان.. في البدء.. على ثلاث مراحل: من نطفة إلى علقة.. ثم من علقة إلى مضغة.. ثم من مضغة إلى هيكل عظمي غضروفي.. وكل مرحلة من تلك المراحل تستغرق أربعين يوما.. فيكون مجموعها أربعة أشهر.. ثم تنزل الروح من عالم الأمر إلى عالم الخلق.. في هذا المخلوق الجديد.. بعد إتمام تلك المراحل.. ليتم إنشاءه خلقا آخر.. ألم تر في هذا أن الله - تبارك وتعالى - هو بحق أحسن الخالقين؟.

---

(٣) سورة النحل الآيتان ١٢٧، ١٢٨.
(٤) سورة البقرة الآيتان ٢٤٩ - ٢٥٠.
(٥) سورة القمر الآية ٥٠.
(٦) سورة النحل الآية ٧٧.
(٧) سورة المؤمنون الآيات ١٢ - ١٤.

وفى آية الزمر.. ما يزيد هذا الأمر إيضاحا. فى قوله تعالى: ﴿يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث﴾[8] وقد سمىْ الله تعالى - هذه المراحل الثلاث: من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة.. ومن المضغة إلى العظام.. سماها - سبحانه - ظلمات.. لأن النور لم ينزل فيها بعد.. فالروح هى النور.. تلك هى ظلمات الخلق المرحلية الثلاث.

وهكذا نرى الله تعالى - صبورا - ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سَنن محدود فلا يعجل بأمر قبل أوانه.. مع قدرته تعالى على الخلق قبل ارتداد الطرف.

قلت: هذا عن معنى الاسم - الصبور - بالنسبة إلى ذاته تعالى فما معناه بالنسبة إلى العباد؟.

قال: صبر العبد.. هو ثبات داعى العقل والدين.. فى مقابلة داعى الشهوة والغضب.. فإذا جاذبه داعيان متضادان.. فمال إلى باعث الخير.. كان عبدا صبورا.

والصبر بالنسبة إلى العباد.. ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: وهو التصبر.. أى تكلّف الصبر.. ومقاساة الشدة فيه.. ومحاولة التحمل.

الثانى: الصبر. وهو سهولة تحمل ما يستثقله غيره من صروف القضاء.. وضروب البلاء.

والثالث: الاصطبار.. وهو نهاية باب الصبر بالنسبة إلى الخلق.. ويكون ذلك بأن يألف الصبر.. فلا يجد مشقة فى تحمل البلاء.. بل يجد روْحا وراحة.. يقول شاعرهم:

تعودت حسن الصبر حتى أِلفْتـه　　وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر

كما قالوا فى هذا المعنى:

صابَرَ الصبرَ.. فاستغاث به الصبرُ　　فصـاح المحبُّ: يـا صـبرُ صَـبرًا

ومحنة أيوب إنما كانت من عجز الصبر عن مقاومته.

قلت: هل من لوازم الصبر.. ألا يذكر المبتلَى بلاءَه لَفظا ونطقا؟.

قال: ليس الصبر ألّا تذكر البلاء لفظا ونطقا.. وإنما الصبر ألّا تعترض فى نفسك على قضاء الله وبلائه.. وهذا غير ذكر البلاء نفسه باللفظ والنطق.. فقد أخبر الله - تعالى - عن عبده أيوب أنه لما قال: ﴿أنى مسّنى الضر﴾[9] وقال: ﴿أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب﴾[10]. مدحه الله بقوله: ﴿إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾[11].

وقد علم الله تعالى ضعف هذه الأمة.. وأنهم لا يطيقون تحمل البلاء فجعل قصة أيوب - عليه السلام - سلوة لكل ممتحَن ومبتلى.

قلت: هل من الممكن أن نلم إلمامة خفيفة.. بقصة أيوب وصبره؟.

قال: إنها قصة كبيرة.. ولكن من الممكن إيجازها فى عجالة سريعة.. لنمحو ما صحبها من خرافات.. دسّها المغرضون.. ورددها الآفكون.. فقد وصفوا بلاء أيوب.. بأنه مرض جلدى.. تشمئز منه

---

(٨) سورة الزمر الآية ٦.
(٩) سورة الأنبياء الآية ٨٣.
(١٠) سورة ص الآية ٤١.
(١١) سورة ص الآية ٤٤.

النفوس.. فقال ابن إسحاق النيسابورى مثلا.. فى كتابه - قصص الأنبياء - إن إبليس نفخ فى منخريه نفخة أشعل منها جسده. فذهل.. وخرج به من رأسه إلى قدمه تآليل - دمامل - مثل إليات الغنم.. ووقعت فيه حكة لا يملك نفسه من حكّها فحكّها بأظفاره حتى سقطت كلها.. ثم حكها بالحجارة الخشنة.. فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه.. وتقطع وتغير وأنتن فأخرجه أهل القرية.. وبعد عنه خلق الله كلهم إلا امرأته.. من نتن ريحه وبشاعة منظره.

فهل من المعقول أن يبتلى الله عبده ونبيه أيوب - عليه السلام - بهذا المرض القذر المنتن المنفر.. الذى يؤذى الأعين. ويزكم الأنوف.. ويقزز النفوس.. وينفر الأصدقاء.. مع أن أول الصفات الواجبة للأنبياء الطهارة.. والنظافة.. والذوق الجميل.. والصورة الحسنة؟.

إن حقيقة ابتلاء أيوب - عليه السلام - أن الله تعالى - أعطاه أرض الشام كلها حتى - الثنيّة - وهى طريق العقبة سهلها وجبلها.. وما كان فيها من جميع أنواع المال.. من الإبل والبقر والغنم والحمير والخيل يتبعها خمسمائة عبد.

كما رزقه الله من الأولاد: سبعة ذكور وثلاث إناث.

وكان أيوب تقيا.. رحيما بالمساكين.. يكفل الأرامل والأيتام.. وقيل إنه لم يأكل قط إلّا مع يتيم.. يكرم الضيف.. ويبلغ ابن السبيل. وكان يشعر بنعم الله عليه.. مؤديا حقه: عبادة وإحسانا وشكرا ولم يستطع إبليس أن يصيب منه بمثل ما أصاب من أهل الغنى من الغفلة والاغترار.. والتشاغل والنسيان بما هو فيه من متعة الدنيا وزينتها وزخارفها وأموالها ومواليها.. وغاظ ذلك إبليس - لعنه الله - فقال: يا إلهى.. لقد أتممت نعمتك على أيوب.. ولم تختبره بشدة ولا بلاء.. ولئن ابتليته ليكفرنّ بك ولينسينك.

فقال الله تعالى له: انطلق.. فقد سلّطتك على ماله.

فسلّط إبليس على ماله قادة الشياطين.. حتى أفنى ماله وأنعامه.. ثم ذهب إلى أيوب فى صورة راع من الرعاة.. وقال له.. إن ربك أرسل نارا من السماء.. أحرقت كل مالك وماشيتك.. ولعلك يا أيوب تذكر قول الشاعر:

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الحساد
إن المصائب تنقضى أيامها ... وشماتة الأعداء بالمرصاد

فقال له أيوب: الحمد لله الذى أعطانى.. وحيث شاء نزع منى.. عريانا خرجت من بطن أمى.. وعريانا أعود إلى قبرى.. وعريانا أحشر إلى ربى.. فعاد إبليس مذءوما مدحورا.. خائبا ذليلا.

ثم عاد اللعين - إلى الله قائلا: إن أيوب يرى أنك طالما تمتعه بنفسه وولده.. فأنت معطيه المال.. فهل تسلطنى على ولده فإنها الفتنة المضلة. والمصيبة التى لا يقوى عليها صبر الرجال؟ فسلطه الله على ولده.

فجمع إبليس أعوانه.. وزلزل بهم قصرهم.. حتى تداعى فوقهم وأهلكهم ثم ذهب إلى أيوب فى صورة المعلم.. الذى كان يعلمهم الحكمة.. وقال له يا أيوب.. لو رأيت بنيك كيف عُذبوا.. وكيف قلب بهم القصر.. وكيف نكّسوا على رءوسهم.. تسيل دماؤهم من أنوفهم وشفاههم.. ولو رأيت كيف شقت

بطونهم.. فتناثرت أمعاؤهم.. لتقطع قلبك.. وتمزق وجدانك.. وظل يردد هذا حتى رقّ أيوب.. وكاد أن يغلبه الوجد والأسى.. ولكنه احتسبهم عند الله.. واستغفر وشكر.

وعاد إبليس ليقف بين يدى الله خاسئا ذليلا.. مذء وما مدحورا وقال: يا إلهى.. إنما هوّن على أيوب خطر المال والولد.. أنه يرى أنك طالما تمتعه بصحته.. فستعيد إليه المال والولد.. فهل أنت يارب مسلطى على صحته؟.. فلئن ابتليته فى جسده لينسينك.. وليكفرنّ بك وليجحدنّ نعمتك.

فقال الله – تعالى– له انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله.

وإن الله – تعالى – لم يسلط إبليس على أيوب وماله وأولاده وبدنه.. إلّا ليزيد له الأجر.. ويجزل له العطاء.. ويجعله إماما للصابرين.. وذكرى للعابدين.. وليكون أسوة للمبتلين فى الصبر والرجاء.. وليكون مثلا يقوى ضعف المبتلين من أمة إمام المرسلين.

وانقضّ عدو الله إلى أيوب.. فوجده ساجدا.. فأتاه من جهة الأرض.. ونفخ فى منخريه نفخة أحرق بها كبده.. فأصيب بالاستسقاء .

وقد هيأ الله – تعالى – هذه الأسباب.. بدفع إبليس لأن يطلب من الله تعالى – تسليطه على مال أيوب.. ثم بنيه.. ثم على جسمه كما قال بعض المفسرين: إن أيوب قد استغاث به مظلوم فلم يغثه.. وقال بعضهم إنه أعجب بكثرة ماله.. ووفرة عياله.. ولكننى أميل إلى رأى يقول: إن أيوب كان قد طلب من الله تعالى – امتحانا لصبره.. عندما أتم الله عليه نعمته.. فتلك طبيعة المقربين.. يتلذذون بالبلاء.. لأنه يزيد قلوبهم نقاءً.. وأفئدتهم جلاءً.. وبصيرتهم إشعاعا وضياءً.. فمن شرط الصبر.. ألّا تتنفس بخلاف الإذن تحت جريان حكمه.

وقد قال الشاعر فى مثل هذا:

إن كـنـتُ لـلسُّـقْـم أهـلا ... فـأنـت لـلشـكـر أهـلا
عـذِّبْ فـلم يـبـقَ قـلبٌ ... يـقـول لـلسـقـم مـهـلا

واشتد المرض بأيوب – عليه السلام – فهزل جسمه.. وضمر عوده.. ووهت قواه.. حتى صار هيكلا من العظم.. لا حول ولا قوة.. تقوم زوجته – رُحمة – بنت أفرائيم بن يوسف عليه السلام – بكل حوائجه.. تسعى لكسب قوته وقوتها.. وتقوم على خدمته ليلها ونهارها.. راضية بإرادة الله ومشيئته.. صابرة – مثل زوجها على قضائه وقدره وكانت مدة مرضه سبع سنين.. لم يزدد فيها إلّا قربًا من الله.. أعجزه المرض عن الصلاة لله قاعدا أو قائما.. فكان يصلى برأسه ثم بأجفان عينيه من شدة المرض.

لم يطلب من الله – تعالى – كشف البلاء عنه.. حتى يئس منه إبليس.. وعجزت كل حيلة من أن تنال من صبر أيوب شيئا.. فلم ينل منه فتيلا.. أو يشفى غليلا.. فلجأ إلى آخر حيلة معه.

أراد أن يشغله وهو يصلى بجفنى عينيه.. فإذا اتجه أيوب بعينه إلى الصلاة.. شكل إبليس أمامه أنصابا وتماثيل وصورا.. عسى أن تشغله عنها.. وهنا فقط لم يستطع أيوب على ذلك صبرا.. فقال: إلهى.. لقد صبرت على ذهاب مالى وولدى وجسمى فى سبيل رضاك... أما أن يحال بينى وبينك بأى شيء..

فهذا ما لا طاقة لى به: ﴿رب إنى مسّنى الشيطان بنصب وعذاب﴾[١٢].. أى بتماثيل تشغلنى عنك.. وتحول بينى وبينك.. وهذا يعذبنى أشد العذاب.

فأوحى الله إليه: يا أيوب نفذ فيك حكمى.. وسبقت رحمتى غضبى.. إذا كنت قد أخطأت فقد غفرت لك ورحمتك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم.. لتكون آية لمن يأتى بعدك فى قوة الصبر.. وتكون عبرة لأهل البلاء.. وعزاء للصابرين ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾[١٣] فركض برجله فى الأرض.. فانفجرت له عين.. فاغتسل منها وشرب فأذهب الله عنه ما كان فيه من المرض.. وعادت صحته فى التوّ أقوى مما كانت: ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب﴾[١٤] قال ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، وكعب: إن الله - تعالى - أحيا أبناءه بأعيانهم.. وأتاه مثلهم.. وهذا المعنى أشبه بظاهر النص فى الآية.. ويقول بعضهم أيضا: إن الله لم يحى أولاده وإنما ولدت له زوجته ضعفهم: ﴿إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾[١٥].

قلت: حقا إن الصبر صفة جليلة.. وخصلة عظيمة.

قال: إن الصبر من صفات أولى العزم.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾[١٦].

وقد جاء فى الحديث الشريف.. مامعناه: «تدرك الرغائب فى الدنيا والآخرة بثلاثة أمور: الصبر على البلاء.. والرضا بالقضاء.. والدعاء فى الرخاء».

كما روى أن حاتم الأصم.. قدم على الإمام أحمد بن حنبل.. فقال له الإمام: أخبرنى كيف يتوصل المرء إلى السلامة من الناس؟.

قال حاتم: بثلاثة أشياء.. فقال الإمام أحمد: ما هى؟.

قال: **أولا:** أن تعطيهم من مالك.. ولا تأخذ من أموالهم.

ثانيا: تقضى حقوقهم.. ولا تطالبهم بقضاء حقوقك عليهم.

ثالثا: الصبر على أذاهم.. ولا تؤذهم كما آذوك.. فقال الإمام أحمد: إنها لصعبة.. فقال حاتم: وليتك تسلم منهم بعدها.

قلت: أليس اسم - الصبور - يؤدى معنى اسم الحليم؟.

قال: الصبور غير الحليم.. فالحليم هو الذى يتجاوز عن أخطاء غيره بلا تكلف ولا مقاساة ولا مشقة.. أما الصبور.. فهو الذى يراود نفسه عن ميولها ورغباتها وشهواتها.. ثم يحتمل ما تكرهه.

وقد قال الأحنف بن قيس: أنا صبور ولست بحليم.. مع أنه كان يضرب به المثل فى الحلم.

قلت: معنى هذا أن هناك صبرا عن المعاصى.. وصبرا على الطاعة؟.

---

(١٢) سورة ص الآية ٤١.

(١٣) سورة ص الآية ٤٢.

(١٤) سورة ص الآية ٤٣.

(١٥) سورة ص الآية ٤٤.

(١٦) سورة الأحقاف الآية ٣٥.

قال: على المؤمن أن يصبر على الطاعة بالتزامها وعن المعصية باجتنابها وعلى النعمة بشكرها.. وعلى النقمة بالرضا بها.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[17].

وإن لكل عمل أجرا محددا ومقدرا.. إلّا الصبر فإن أجره بغير حدود.. يقول تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[18].

فيجب الرضا بقضائه.. والنزول على حكمه.. مع اطمئنان القلب وثقة النفس بالحكم العدل.. سواء كان مطابقا لهوى النفس أم مخالفًا.. هذا هو معنى الصبر. الذى هو فيض بتأييد من تجليات الاسم - الصبور -.

* * *

والحمد لله..

ميت عساس - غربية

ليلة الاثنين غرة المحرم ١٤٠٦ هـ

الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٨٥م

---

(١٧) سورة آل عمران الآية ٢٠٠.

(١٨) سورة الزمر الآية ١٠.

مراجع الكتاب

القرآن الكريم
صحيح البخارى : طبعة دار الشعب.
صحيح مسلم - بشرح النووى : طبعة الحلبى.
مسند عبد الله بن عمر : تخريج أبى أمية محمد الطرسوس.
مسند الإمام الشافعى : الإمام محمد بن إدريس الشافعى.
نهج البلاغة : الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه.
تفسير مدارك التنزيل : عبد الله أحمد بن محمود النسفى
تفسير البيضاوى : القاضى ناصر الشيرازى.
تفسير الكشاف : أبو القاسم الزمخشرى.
تفسير ابن كثير : الحافظ ابن كثير
تفسير القرطبى : أبو عبد الله الأنصارى القرطبى
الكتاب المقدس : بعهديه : القديم والجديد.
المقصد الأسنى : أبو حامد الغزالى.
الأنوار القدسية.. فى آداب العبودية : عبد الوهاب الشعرانى
الجواب الكافى : ابن قيم الجوزية
رياض الصالحين : الإمام النووى
نهاية البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير - تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصارى.
جمع الجوامع - الجامع الكبير : جلال الدين السيوطى. إصدار: مجمع البحوث الإسلامية.
المقصد المجرد.. فى معرفة الاسم المفرد : ابن عطاء الله السكندرى.
شرح أسماء الله الحسنى : أبو القاسم القشيرى - إصدار: مجمع البحوث الإسلامية
دورات الحياة : الدكتور/ عبد المحسن صالح.
الأسماء الحسنى : الدكتور: حسن عز الدين الجمال - طبعة دار الشعب.
الأبطال : الفيلسوف الانجليزى - توماس كارليل.
الذرة - دراسة وتحليل : ساليغ هاكت - ترجمة أسعد النجار
لسان العرب : ابن منظور - جمال الدين محمد الأنصارى
أساس البلاغة : أبو القاسم محمود بن عُمَر الزمخشرى
الترغيب والترهيب.. من الحديث الشريف: الإمام حافظ زكى الدين - مكتبة الحلبى.

فهـرس الكتـاب

رقم الإيداع	١٩٩٠/٣٩٠٦
الترقيم الدولى	977-02-2954-7 ISBN

١/٨٨/٩٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

من صالح العبد المؤمن.. أن تكون العلاقة بينه وبين خالقه علاقة قائمة على المعرفة بما يليق به سبحانه وتعالى.. من الصفات والأسماء.. وما يستحيل عليه منها..

ولكل اسم من أسماء الله تعالى.. تجلياته التى يجد فيها العبد.. فيضًا من الأحوال التى تحفظ عليه إيمانه وسعادته فى الدنيا والآخرة..

وهذا الكتاب يقدم أسماء الله الحسنى وصفاته من خلال ما يحيط بها من تجليات تنفع المؤمن فى ممارسة حياته.. وتسمو به إلى مراتب الصالحين الواصلين..

٣١٠٣٤/١٠